الشعراء السود

وخصائصهم في الشعر العربي

تأليف
الدكتور عبده بدوي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

الاخراج الفنى : سهير معطى

الغلاف • سميرة المرصفى

مقدمة

تعرضت فى هذه الدراسة للشعراء السود المجودين ، الذين عاشوا متصالحين مع الحضارة العربية أو منبوذين داخلها . فقد كانوا فى الغالب يعيشون فى مجتمعات تقول بالعصبيات ، وتؤمن بما يسمى « الأرومة الشعرية » ، ولقد كانوا عادة لايعيشون فى الحياة ، ولكن يعيشون ضيوفاً على الحياة .

فكل الذين كتبوا عن الشعر والشعراء ، قد أهملوا إلى حد كبير أو صغير « الشعراء السود » . وحينما كانوا يتكلمون عنهم كانوا يتكلمون فى غير روية ، وكأنهم « يتصدقون » على هؤلاء الوافدين على الحضارة العربية .. نعم فقد كان هم بعض من تكلم عنهم أن يتكلم كلاماً سريعاً وباتراً، قد يقصد به فى الغالب الطعن عليهم، والحفر فى جروحهم ! فإذا أخذنا مثالا على ذلك نجد أنه جاء فى كتاب فحولة الشعراء للأصمعى : سأل أبو حاتم الأصمعى عن سحيم فقال : هو فصيح وهو زنجى أسود وسأله عن أبى دلامة فقال : عبد رأيته ، مولد حبشى ، ثم سئل أفصيح كان ؟ فقال : هو صالح للفصاحة ، وسئل عن أبى عطاء السندى فقال : عبدٌ أعرب ! بل إن الأمر لم يقف عن الكُتّاب ؛ وإنما تعداهم إلى الشعراء الذين يشتركون معهم فى قول الشعر ، فهؤلاء كانوا محنة حقيقية للشعراء السود ، فما أكثر ما تهكموا عليهم ، وما أكثر ما ذادوهم عن دوحة الشعر ، وما أكثر ما كادوا لهم فى كل مكان سطعوا فيه ، ولقد كان جهدهم أن يقولوا عن الشاعر الذى يبهر الحياة من حوله : إنه أشعر أهل جلدته .

صحيح إن كتاب العربية لم يهتموا عادة بمن يسمون فى الشعر العربى « الشعراء المقلين » ، ولكن الشعراء السود فى الغالب قد تحولوا إلى مقلين لاالقحط فى نفوسهم، ولكن لأن أحداً لم يلتفت إليهم بحب.. لأن أحداً لم يحرس مسيرتهم الحزينة فى حماسة ..

ثم إن هؤلاء الشعراء السود كانوا لايحسنون الدبيب إلى القصور ، ولايتقنون التسرب إلى الطبقة العليا فى المجتمع ، ومن يصل منهم كان لايستطيع أن يسمى « الشاعر النديم » أو « الشاعر السمير » ، فهو إما أن يصبح ضيقا بقوانين القصور محطا لها كأبى دلامة ، وإما أن يطلب الاستعفاء على حد قول نصيب الأكبر لعبد الملك بن مروان . . « يا أمير المؤمنين جلدى أسود ، وخلقى مشوه ، ووجهى قبيح ، ولست فى منصب ، وإنما بلغ بى مجالستك ومواكلتك عقلى، وأنا أكره أن أدخل عليه ماينقصه ! »

ثم إن الشاعر الذى كان يحب أن يضع نفسه تماما فى دائرة الضوء، كان لابد له أن يتخصص فى المدح ، وهذا اللون من الشعر كان يحتاج لنوع من المرونة واللباقة — وأكاد أقول الخبث — يقتضيه سلوك المترددين على القصور أو الذين يعيشون فى ظلالها ، ثم إن كل مدحة — وفقاً للقوانين المرعية لهذا الفن — كانت تقتضى البدء بالغزل ، ولقد كان المجتمع لايقر الشاعر الأسود حين يقدم هذا الجانب المغامر فى الحياة العربية ، ولقد كان فى الوقت نفسه يبدو هذا الجانب متناقضا — من وجهة النظر التقليدية — مع سواد الشاعر .

ثم إنهم لم يكونوا من هؤلاء الشعراء المرقشين ، أو من الذين يطلق عليهم النقاد اسم المطرزين ، وهم الذين يجعلون من اهتمامهم مخاطبة الجنس اللطيف ، بحيث يصبحون أسمار الليل ، وفاكهة الجلسات الخاصة .. ونحن نعرف أن واحداً من هؤلاء الشعراء السود حين طلب منه أن ينشد للنساء ، طلب أن يكون انشاده من وراء ستار ، وكان مما قاله :

« .. وما يصنعن بى ؟ يرين جلدة سوداء ، وشعراً أبيض ، ولكن ليسمعن شعرى من وراء ستر »... ثم إنهم لم يهتموا بالرواية عن الآخرين لظروف خاصة بهم .

وبالإضافة إلى هذا .. كان كثير منهم .. لعيوب فى النطق .. لايحسن الإنشاد ، أويغير بعض الحروف ، أو كان يقدم من ينشد عنه كأبى العطاء السندى ، فاللفظ إذا كان شكل الكلمة الخارجى ، فإن النطق روحها الحقيقى ، وهو القادر على أن يعطينا مايمكن أن يسمى « الشعر البارز » ، وعلى كل فلقد كان الشعر فى شكله العام قائماً على الإنشاد.. قائماً على الكلمة المسموعة ، وعلى تقاليد الكلمة المسموعة ..

.. فهم بصفة عامة كانوا بعيدين عن دوائر الضوء ، ذلك لأنهم فى الغالب كانوا يعيشون عند الناس لابين الناس ، وكانوا بلا جذور فى مواجهة المجتمع ، وقد ساعدهم هذا على أن يكونوا خارجين على المجتمع ، أو غير منتمين .. فإذا انتموا فإن غالب انتمائهم يكون للأنظمة المشاقة والمكابدة للأنظمة القائمة ، ويكون انتماؤهم كذلك للكيانات التى تضع « العدل الاجتماعى » فى برامجها من قريب أوبعيد كالخوارج والشيعة وبعض الأنظمة الثورية ، ومعنى هذا أنهم كانوا على حافة الأنظمة ، أو متذبذبين بين القبول والرفض ، أو منسحبين تماماً من كل مايدور حولهم ، لأن مايدور حولهم أقوى منهم ، ولأن من يقترب منهم قد يصعق ، أو يقصم بالسيف ، أو يموت وهو منشور الذراعين !!

ومعنى هذا أنهم كانوا يعيشون بين عالمين ، فهناك عالمهم باعتبارهم مواطنين أو رعايا ، وهناك عالمهم باعتبارهم من السود . ومع أن هذين العالمين كانا يتعانقان أحياناً كما فى فترة صدر الإسلام ، أو يتقاربان أو يتباعدان .. وما أكثر ماتباعدا .. إلا أن الذى لاشك فيه أن الغالب على الشاعر الأسود أنه كان يتمزق ، وتتعطل بعض قدراته كالشاعر الخصى أبى المسك كافور .. وعلى كل فالشاعر الأسود كان يبدو فى

كثير من الأحيان مهتاجا وعاصيا كولد نوح ! وقد يبدو ممتلئاً بالسقم كإبراهيم ! ومع هذا فلانستطيع أن نقول : إن هذا الطقس كان يشبه تماماً هذا الطقس الخانق الذى يعيش تحته الإنسان الأسود الآن فى ظل الإنسان الأبيض .. وفى رائعة نهار القرن العشرين ..

* * *

ومهما يكن من شىء ..

فالملاحظ أنه لم يكن لهم « حضور ساطع » فى الكثير من فترات التاريخ العربى ، والملاحظ كذلك أن غيبتهم عن الأضواء قد ساعدت على نسيانهم ، وتواريهم ، وبقاء أجزاء معتمة منهم .

ولقد كان هذا وراء انتحال بعض شعرهم حتى فى الفترات الريانة بالضوء ، ووراء سلخ بعض شعرهم — على حد تعبير القدماء - على نحو مانعرف من اقتراب الكثيرين منهم ؛ وبخاصة الشواميخ ..

لقد كان شعر سحيم يلقى ظلاله على شعر عمر بن أبى ربيعة وكان شعر نصيب الأكبر وراء شعر مجنون ليلى ، وكان شعر أبى نخيلة وراء شعر أبى نواس وأبى تمام ؛ وكان شعر أبى عطاء السّندى وراء شعر أبى تمام والمتنبى والبحترى ، وكان شعر على بن جبلة وراء شعر أبى تمام والبحترى .. بل إن هناك قصيدة فى الشعر العربى تسمى « الدرة اليتيمة » حلف على انتحالها أربعون شاعراً ، وقد رأيناها أشبه بدرر على بن جبلة ، كما سلمنا كذلك نصيبا الأكبر تلك اللؤلؤة التى اختطفت منه ، والتى مطلع ضوئها :

كأن القلب ليلة قيل يُغْــدى بليلى العــامرية أو يراح

ومثل ذلك فعلناه مع خفاف بن ندبة .

* * *

ولقد بدأنا بظاهرة « الشعراء الأغربة » بعد أن استخلصناهم من بطون الكتب ، ومن اختلاطهم بغيرهم عند القدامى والمحدثين ، وفى ضوء هذا رددنا على الذين قالوا : إن شعر السليك بن السلكة لا يوجد فيه مايدل على العدو مع أنه من أشهر العدائين ، ورددنا على تلك المحاولة التى كان القصد منها إثبات أنهم رواد مدرسة العذريين ، مستشهدين فى هذا بعنترة وبعمرو بن شأس ، وقد رأينا أنه بصفة عامة لا يمكن وضعهم إلا فى مدرسة الأدب المكشوف .. أو الشعر المكشوف ، بل لقد أثبتنا أن الشاعر عمرو بن شأس الذى كان حجتهم ليس أسود ، فالأسود كان ابنه « عرارا » الذى أنجب من امرأة سوداء .

وبعد أن درسنا « الشعراء الأغربة » وذذنا عنهم من ليس منهم كتأبط شرا والشنفرى ، تعرضنا لهؤلاء الذين اتفق على سوادهم واتفق على شاعريتهم ، واتفق على تمثيلهم لعصورهم ، سواء أكانوا لآباء وأمهات سود أم كانوا لأمهات سود فقط .. المهم أن يكون هناك إجماع على سواد الشاعر .. وقد بدأت كذلك فذدت عن شجرتهم من ليس منهم رغم ماقيل عنهم إنهم سود ، ومن ثم كانت رحلة مع هؤلاء الشعراء تبدأ بعنترة وتنتهى عند العصر الحديث ، ومع أنه كان من السهل دراستهم فى دوائر ضيقة كالشعراء الأغربة مثلا ، وكالشعراء الذين سميتهم شعراء الغضب ، إلا أن الملامح الحقيقية للسود لن تظهر من خلالهم لقلة المعروف عنهم ، ولضياع كثير من شعرهم ، وإهماله واختلاطه بغيره ... وعلى كل فقد درست كل شاعر منهم دراسة خاصة به ، ومن هنا أرجو أن أكون قد جلوت شعراء كانوا مضيعين بين مصدر هنا ومرجع هناك ، وأكاد أقول بين جملة هنا وكلمة هناك !.

* * *

وقد وقفت على العديد من مزاياهم فى الدراسات الخاصة بكل واحد منهم ، بحيث تأكد عندى أن « عقدة اللون » كانت وراء أشياء كثيرة

فى المجتمع العربى ، فلقد كانت إلى حد ما وراء الاستجابة السريعة للإسلام ، ووراء المطالبة المبكرة بالعدل الاجتماعى ، ووراء تدعيم جانب من جوانب الشعوبية . ووراء ظاهرة الغضب المبكر فى الشعر العربى . ووراء التحول من ضمير الجمع القبلى إلى ضمير المفرد الإنسانى ووراء اقتراب الشاعر من ذاته بعد أن كانت القبيلة ذاته ، ووراء التوتر فى الايقاعات المتألقة للقصيدة ، واختيار الأوزان القصيرة ، ونظام المقطوعة ، والجمل الحسية المنتزعة من لحم الحياة الفائر .. بالإضافة إلى أنها كانت وراء إسقاط عدد من تقاليد القصيدة العربية المتوارثة وبصفة عامة لقد كانوا قريبين من « روح الشعب » ، ومن حركة العمل التى كانت تصهر الطبقات الفقيرة ؛ ومن هنا أوجدوا « ثقلا مادياً » فى القصيدة العربية .

. . ثم إنهم كانوا يبدون ككتيبة من العُصاة . فقد أجبرتهم الحياة بصفة عامة على أن يعبروا عن القلق والفقر والموت والأشياء القريبة التناول ، ولهذا نزعم أنهم من روّاد « الواقعية العربية » فقد كشفوا عن الشاعرية الكامنة فى الأشياء البسيطة ، واقتربوا من لغة الحكى ، وتنبهوا بشفافية إلى المرئيات التافهة ، وأخذوا من الحياة شرائح ساخنة ، ثم عبروا عنها من خلال نفوسهم .. ومن خلال نظرتهم الخاصة للحياة .

ومن ثم رأينا أغراضهم الشعرية تختلف إلى حد ما عن الأغــراض الشعرية المتوارثة فى الشعر العربى ، بل إن نظرتهم من داخل هذه الأغراض تختلف عن نظرة غيرهم ، فهم مثلا لايقدمون عادة النسيب فى مفتتح القصائد ، وهم حين يمدون لهفتهم خارج دائرة السوداوات يقتتلون ، ومن هنا صرخوا وقالوا : إن الحب سقم ، والحب فرقة ، والحب داء والعشاق مساكين ، وقد يهربون إلى عشق الفتيات الصغيرات السن ، أو المنبوذات ، أو المحرمات عليهم ، وقد يعجزون عن المواجهة فيرسلون رسلا كما فعل عنترة قديما ، قبل أن تكون هذه الطريقة خاصية لعمر بن

أبي ربيعة . ومع ملاحظة أن وظيفة الرسول عند عنترة تختلف عنها عند شاعر مثل امرئ القيس أو الأعشى .

وعلى كل فقد كان البديل لهذا أنهم أصبحوا من معالم « الشعر المكشوف » . ذلك لأنهم كانوا لا يدخلون فيما يُعلي دوافعهم ، ولأن العاطفة الجنسية غذاء نفسي كامل في العهود البدائية وللنفوس البدائية كذلك . ثم إن لهم ميراثهم القديم في هذا فيما يعرف عند الأحباش من نوع من الأناشيد يسمى « ملكىء » .. وعلى كل فلقد زرعوا في هذا المجال زهور شعر كثيرة . ومع أن بعضها « زهور شر » إلا أن أحدا لا يشك في جمالها الضاري ، وفي عبيرها المتوحش .

ولقد اهتموا اهتماماً خاصاً بظاهرة الموت . فعنترة يمزج بينه وبين الحياة بحيث يصعب التفريق بينهما ، والسليك يرى في كل شيء الموت ، وسحيم يتذكره وهو يصغي في جسد عشيقته إلى رنين اللذة ، وعبادة بن الطبيب يرى أن الحياة نوع من العدم وخيبة المسعى . وابن شكلة يقول : إن الموت يكدح أبدا في زنده وفي عصبه .. والذي وراء هذا أنهم يحسون أن الحياة متداعية ، وأن جذورهم لا تضرب بعيداً في المجتمع ، وأن هناك ماضيا انتزعوا منه انتزاعاً ، ثم إنهم يحسون أنهم دائماً في خطر ومن ثم فإن خلاصهم الحقيقي لابد أن يكون خارج الحياة لا داخلها ، وهم في الغالب لم يمارسوا الحياة في « دائرة الأب » وهكذا عاشوا يتامى في الحياة ، وفي الوقت نفسه كانوا مطالبين بالحصول على « تصريح إقامة » داخل مناطق بعينها في المجتمع .

ثم إنهم قد تفردوا بأنواع غريبة من الموت فهذا مثلا سحيم قبل مقتله يقرب من النار ، ويضرب بالعيدان المحمية ، وهذا علي بن جبلة يخرج لسانه من قفاه ، وأبو نخيلة بعد قتله يسلخ ببطء جلد وجهه الأسود ، وابن الياسمين يوجد في حجرته مقتولا بطريقة شاذة ، والإمام أحمد الرشيد يصلب شنقا ثم يجر من رجله إلى إحدى الحفر ، ومثل هذا الموت

نراه يحيط بالشاعر سعيف .. ومن قبل كل هؤلاء قتل عنترة والسليك قتلا فيه الكثير من المرارة ، والقليل من العزاء

فالإحساس بالموت لا يمكن فصله عن الحياة البائسة ، خاصة حين يكون فاقد الجذور ، ومنتزعا من حضارته . ومدموغاً بالسواد . وفاقداً الأمل فى العدل الاجتماعى ، وحين تكون فى الوقت نفسه ثوراته من أجل العدل الاجتماعى – كثورة الزنج – قد قوضت ، وصفيت ، وأصبحت عاراً يعلق على الجباه !

. وهم لم يمدحوا كثيراً ، لأنهم لم يشغلوا بالناس عن أنفسهم ، ثم إنهم لا يحسنون الإنشاد والمسامرة وليست لهم نماذج فى الخارج يقلدونها أو يتعاطفون معها ، فهم لم يهتموا « بالبطل » قدر اهتمامهم بالأحداث التى تطحنهم طحنا.. ولقد وقفوا وقفات ذكية وبسيطة أمام الطبيعة ، ذلك لأن الكثير منهم رعويون وزراعيون ، ويتمتعون بعين حادة وأذن حادة ، وقد كان من الملاحظ اهتمامهم بالحيوان ، وبخاصة الحيوان غير المستأنس كالذئب والثور .. ومع هذا فى شعرهم إيقاع الطبيعة وألوانها وتموجاتها الحسية وأنفاسها الحارة ، ومع أنهم تناولوا الطبيعة تناولا واقعياً إلا أنهم استطاعوا بحق أن يحدثوا ضجة فى الحياة من حولهم !

. . وقد كانت الحروب وسيلة ليعلن بها الشاعر عن نفسه فى أول الأمر ، ولكنه بعد ذلك انعزل عن أصدائها المدوية . وأصبح إنساناً وديعاً .. وشاعراً مستأنساً :

. . وكما خالفت بحسم الذين نفوا عنهم التجويد فى بعض الأغراض كالهجاء ، فإنى قد اهتديت إلى العديد من القضايا الجديدة من خلال أغراض شعرهم .

* * *

وبالإضافة إلى دراسة أغراضهم الشعرية ، درستهم من خلال مايعرف بمصطلح « شعر الشخصية » فخاصّية الشخصية تعتبر فى المقام الأول من الشعر المطبوع ، وإذا كان « شعر الشخصية » لم يظهر كثيرا فى الشعر العربى فانا نجده عند السود أكثر من غيرهم . . وعلى كل فهم بصفة عامة يخرجون على المجتمع ويصادمونه وينقمون عليه ، ويركزون على الفرد أكثر من « النوع » فالشاعر الأسود كان يحمل أزمته الخاصة أكثر مما يحمل أزمة الآخرين المشتركين معه فى نفس الأزمة ، ثم إنه لم يكن يعيش فى معازل باستثناء زنوج البصرة وما حولها . : فالتّعبير بصفة عامة عن قضايا الإنسان الأسود المجرد لم يوجد إلا تحت دوافع ، وعند شعراء بأعيانهم كهؤلاء الشعراء الذين سميناهم « الشعراء الغاضبين » . . . ولعل هذا يرجع إلى حالة التصالح التى كانت تنعقد بين الشاعر ومجتمعه إذا نبغ ، بالإضافة إلى أن المجتمع العربى الإسلامى لم يكن يسخر من السود كمجاميع ، وإنما كأفراد ، فإذا كان من يزدريهم فى الجاهلية لعلة عنصرية ، فإن جهد الازدراء بعد ذلك أن يكون لعلة اجتماعية .

ثم إنا لانجد عندهم محاولة للعودة إلى مسقط رءوسهم ، بل لانجد هذا الحنين الحار إلى مسقط الرأس هذا ، كما لانجد محاولة الانسلاخ من المجتمع الجديد، ودمغه كما كان الحال عند شعراء الزنجية فى فرنسا .. فغاية ما نجده عندهم محاولات الخروج من منفاهم ، والاندماج فى المجتمع الجديد ، والهبوط إلى النفس . . إلى الداخل ، فالشاعر الأسود كان كثيراً مايجد أمنه فى الداخل ، وفى ضوء هذا كان يتحدد الكثير من قسماته .

وكما وضحت أن الفردية غير الشخصية ، وأن شعر الشّخصية كما يظهر فى التجارب الذاتية يظهر فى التجارب الموضوعية .. ملت إلى القول بأن القصيدة ليست هروباً من الشخصية ، ولكنها إظهار فريد لها :

إنها تحرير للشخصية .. إنها ظاهرة تنفيسية .. وهى أحياناً عملية « استشفاء ! »

* * *

ثم درست شعرهم من خلال « المواقف » باعتبار أن الموقف يدل على علاقة الكائن بالبيئة ، وعلى علاقته بالآخرين كذلك فى وقت ومكان محددين ، فالموقف كشف للإنسان وما يحيط به من أشياء ومخلوقات . سواء أكانت وسائل لحريته أم عوائق فى سبيلها .. وكما وضحت أن الموقف غير الموضوع ، وضحت أنهم يختلفون إلى حد ما عن شعراء الخوارج الذين طرحوا عنهم القضية القبلية والجنسية ، وأصبحوا مذهبيين ويختلفون عن شعراء الشيعة الذين لم يفرغوا لمذهبهم .. ومع أن الخلاف معهم ليس حاسما إلا أن الذى لاشك فيه أن موقف الشاعر الأسود من الحياة يختلف عن موقف غيره ، ذلك لأن قضية سواده لايختلف عليها ، ولأنه ينظر إليه ابتداء على أنه شىء سىء مالم يقم دليل مخالف ، ولأن المجتمع سواء كان مغاضبا أو مشفقاً أو راضياً ، فان الشاعر الأسود كان يحس فى كثير من الظروف أن النظرة إليه ليست حانية أو متوددة

* * *

ثم درست الانفعال عندهم ، وآثرت هذا المصطلح على مصطلح العاطفة ، فالانفعال كما قيل شىء زنجى !

ومن خلال هذا المصطلح وضحت أنهم لايتأملون الحياة وإنما يدركونها إدراكاً مفاجئاً ومذهلا ومباشراً ، ومن هذه الصدمة يتفجر شعرهم ، ويأخذ كلماته العصبية ، وايقاعه السريع ، فهم لم يتعاملوا مع الحقائق المجردة ، ولم يطرزوا ، ولم يتحذلقوا ، وإنما عبروا بصدق مذهل عن « الروح الشعبية » فى الحضارة العربية .

.. ومن هنا كان تجاهلهم للمقدمات الطللية ، والنسيبيّة ، وكان بعدهم عن الغموض والثرثرة والقصائد الطويلة كطوابير الجيش ، المهم أنهم كانوا فى حالة « التجلى » فى صميم « الحضرة الشعرية.» .

.. كما تعرضت لخيالهم باعتباره الشئ الذى يعطى الحياة شكلها ، وسواء أكان ملكة إلهية أم ملكة ميتة .. كما يقال .. فان الذى لاشك فيه أن خيالهم قريب يتحرك فيما يعرف بالخيال البيانى أو التفسيرى .

.. وحين تعرضت لقضية الأسلوب تعرضت لقضية اللفظ والمعنى ووجدت أنهم يميلون إلى الجدة ، وعدم التقليد . كما أنهم لايقفون عند كلمات بعينها كانت نهباً للشعراء ، كما أنه ليس من خصائصهم صيغة خطاب الاثنين ، والالتفات فى استعمال الضمائر ، وبصورة عامة نجد عندهم السهل لاالجزل ،ونجد أنهم لايهرولون وراء الكلمات المجردة، وإنما وراء الكلمات « العينية » بالإضافة إلى أنهم حافظوا على وجود تيار مادى فى القصيدة العربية ، وبعبارة أخرى حافظوا على عنصر الصلابة فى اللغة ، بحيث يذكرنا شعرهم بالنحت لابالرسم .

* * *

وإذا كان الحجاز هو الذى هلهل الشعر ، وأعطاه طابع الشعبية والقرب الحميم من الحياة . فقد وضحت أنه كان وراء هذا التيار الشعراء السود مغنين .. وراقصين :

وإذا كان قد قيل إن من شق الطريق بوضوح إلى شعبية الشعر هو « أبو العتاهية » فانى قد ذهبت إلى أن الشعراءالسود كانوا هم القادة الحقيقيين لهذا التيار الشعبى ، بل لقد ذهبت إلى أن السود كانوا وراء التجديد الذى أحدثه أبو العتاهية ،فقد كان فى بيته ، وفى مصنعه للفخار عمال سود . لايكفون عن الغناء،وعن الحركة ، وعن تشقيق الكلمات .. ولقد كان أبو العتاهية ملتصقاً بهؤلاء السود ، وعاطفا عليهم .

* * *

ولقد وقفتُ طويلا عند عيوب النطق عندهم ، وعند عاداتهم فى خلع الثنايا ، ووضحت فى ضوء هذا أخطاءهم فى اللغة ، وفى التقاط بعض جوانب الحياة ، كما وضحت أن هذا العيب كان وراء بعدهم عن ظاهرة « الإلقاء الشعرى » ووراء الاتجاه الشديد إلى التبسيط ، وإلى القرب الحميم من بكارة اللغة .

وقد أكدنا أنهم لم يحاولوا تدمير اللغة العربية من الداخل كشعراء الزنجية فى فرنسا ، فهم لم ينظروا للعربية على أنها لغة مستعمر ، ومن ثم لم يفعلوا كهؤلاء الشعراء الذين عملوا على تجريد اللغة من فرنسيتها بضرب الكلمات بعضها ببعض ، وبتهشيم الجمل ، وتحطيم التداعيات المألوفة ، وبالمزاوجة بينها بعبث ، بحيث لا يتبنى الشاعر الكلمات إلا بعد أن تكون - كما قيل - قد تقيأت بياضها !

فهم داخل الحضارة العربية قد ساروا خفافا ينادون فى مسيرتهم بشعبية الشعر وهلهلته ، وبأنه لا يجب أن ترتفع الميزان عن الحياة ، وأن من حقهم أن يعيشوا كالآخرين ، وإن من حقهم كذلك أن يقولوا كلمة جديدة ، فالشاعر فى حقيقته « خالق » لا « مفسر » أو « واصف »

* * *

وإذا كنت قد ذكرت أن القصيدة المتعارف عليها ليست الشكل الشعري الوحيد المتعارف عليه كذلك ، فإنى وقفت بصفة خاصة عند ظاهرة « الشعر المغنى » . . عند هذا الشعر الذى كان وراء تشققات الشعر ، وتطور موسيقاه ، وشيوع روح الأغنية فيه ، وقد هدانى إلى هذا أن السود كانوا من أهم العناصر المغنية والراقصة فى عنفوان الحضارة العربية .

بل لقد ذهبت إلى أن « زرياب الأسود » الذى شغل الأندلس ، كان وراء ظهور حركة الموشحات هناك .

.. وعلى كل فكما اقترب سحيم من المذهب القصصى فى القصيدة ، وقف عنترة على قمة البواكير الأولى للمذهب التحليلى البسيط فى القصيدة العربية .

ولقد كانوا وراء الحرص على الوزن والقافية ، ولهم دور واضح فيما يعرف بأساليب التكرار ، والتقسيم ، والجناس ، والتصريع ، ومزج الصوت والحركة ، والجمال الحسى للألفاظ الملتقطة فى حالة اشتعال.. كما كانوا وراء الحيوية التى تتوثب فى الشعر كالشرر ، ثم إن فى شعرهم مايشبه إيقاع الآلات الموسيقية البسيطة ، بالإضافة إلى حركات الرقص والعدو .. فهم كانوا يغنون حياتهم ، ويرقصونها ، ويبكون عليها فى الوقت نفسه . . وقد أدرك هذا الأقدمون حين قالوا : إن الزنجى لو وقع من السماء إلى الأرض ماوقع إلا بإيقاع ، وحين قالوا : الطرب عشرة أجزاء ، تسعة منها فى السودان ، وواحدة فى سائر الناس !

* * *

وقد وقفت طويلا عند الصورة عند الشعراء السود ، باعتبارها ملكة متوجة فى شعرهم ، وباعتبار الإحساس والإدراك الحسى هو الأساس الأول للعمليات الشعرية عندهم ، وباعتبار أنهم استطاعوا الإمساك بإيحاءات العوالم المألوفة . . وعلى كل فلما كان الشاعر الأسود مشرع الحواس ، ويقظا ، وغائصاً فى جوانب دميمة من الحياة التى تطحنه طحنا ، ويمكن أن يقال إنه « مادى النظرة » . . فإنا نراه يبنى قصائده بالصور ذات الثقل المخملى وذات التألق فى الوقت نفسه ، وبعبارة حديثة لقد كان الغالب عليه الكتابة « بالكاميرا »

ومهما يكن من شىء فصورهم بارزة ونضرة فى الوقت نفسه ، ومن هنا بعدوا عن الصور المصقولة والمتحذلقة ، واللامعة ، ذلك لأن القصائد — كما قيل — لاتتغذى بالزنابق ، ولأن قضية الجمال بصفة عامة ليست

مطروحة عندهم .. وإن كان مايميز صورهم التقاطها فى حالة الشروع .. التقاطها فى حالة الحركة .

ولقد ربطنا بين صورهم وبين مايراه علماء الطباع من أن طغيان الصور على الفكر المجرد هو الخاصية التى تميز عقل المنطوى على نفسه وعقلية النازح بصفة خاصة .

* * *

وأخيراً . .

فاللون كان موجودا أبداً فى الفن والأدب . وإذا كانت هنالك بعض المدارس الأدبية كالرمزية تعتمد عليه اعتماداً واضحاً ، فقد سمعنا أخيرا عما يعرف « بمسرح اللون » وهو يقوم أساساً على ترقيص الألوان ، وإظهار العلاقات بينها ، وتغييرها باستمرار ، بحيث يمكن الحصول على لغة لاتصف الأشياء ، وإنما كل همها إثارة الخيال .

والذى لاشك فيه أن « السواد » لم يكن عندى مجرد لون !

لقد كان حياة كاملة لهذا الإنسان الفقير والمدموغ بين إخوانه ، والذى انتزع تاريخيا من حضارته ، والذى كان يحاول دائماً أن يرفع عنه هذا العذاب المحيط به ، أو الذى كان يتوهمه ، لفرط حساسيته .. فى بعض الأحيان ، ومن هنا يكون السواد فى نظرنا إلى حد ما .. كما قال إيميه سيزير – ليس غيبوبة ، ولكنه فى صميمه رفض ، كما يكون كلمة « لا » فى مواجهة العذاب الذى يحيط بالإنسان !

* * *

ومهما يكن من شىء فإنى حين أستقبل القارئ العربى بهذه الدراسة التى تقف عند العصر الحديث على هذه الصفحات المحدودة ، فإنى أعتقد أنه يبقى على أن أقدم له الكتب الآتية : السواد : أسبابه وآثاره ،

صلات السود بالعرب ، ثورة الزنج ، الشعر الإفريقى ، فبهذا أكون قد وفيت هذا الموضوع -- الذى كان رسالتى للدكتوراة -- حقه .

وفى الختام . .

لقد كنت حريصاً -- أشد الحرص -- على أن أوسع الحضارة العربية لكل الذين كتبوا بالعربية ، بدلا من النظر إلى بعضهم شزرا ، وبدلا من تركهم فى التاريخ بلا « هوية » ، فالحضارة العربية -- قبل الإسلام وبعده -- ليست الجانب الروحى فقط ، ولكنها إلى جانب ذلك كيان مادى صلب ، ولقد كان السود حجارة راسخة فى هذا البناء !

ومن هنا لم أكن راغبا فى اعطائهم مقعداً فى الصدارة من الحضارة العربية ، قدر رغبتى فى أن يظهر الحق -- كما قال شاعر منهم -- فى أتم نور !

والله الموفق .

٥ / ٧ / ١٩٨٧

الدكتور عبده بدوى
الأستاذ بكلية الآداب ـ جامعة الكويت

الشعراء السود
وخصائصهم في الشعر العربى

١ ـ الشعراء الأغربة المختلف عليهم

اطلق هذا الاسم على هؤلاء الشعراء الذين تسرب إليهم السواد من أمهاتهم الإماء، والذين فى الوقت نفسه لم يعترف بهم آباؤهم العرب أو اعترفوا بهم على ضيق منهم .

وهناك إجماع على أن أسوأ « الهجناء » حظا ، وأوضعهم منزلة اجتماعية كان هؤلاء الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم. « فقد كانوا سبة يعيّر بهم آباؤهم ، ومرد ذلك من غير شك إلى ظاهرة اللون ، فقد كان العرب يبغضون اللون الأسود بقدر مايحبون اللون الأبيض ، فقد وصفوا كل شىء ممدوح عندهم ماديا كان أو معنويا بالبياض ، وكان مما يمدح به الرجل أو يفتخر به أنه أبيض ، ومن سمات جمال المرأة أن تكون بيضاء ، وهو أيضاً دليل على شرفها ، فقد كان مما يمدح به الرجل أنه ابن البيضاء ، بل انهم كانوا يفخرون بأن سباياهم من النساء البيض » (١)

ولاشك فى أن هذا الأمر ليس على إطلاقه على نحو ما مر بنا فى أكثر من مكان ، المهم أنهم ميزوا هذا النوع من الهجناء بكلمة الأغربة « تشبيهاً لهم بهذا الطائر البغيض المشئوم فى لونه الأسود »(٢)

ونحن حين نريد أن نتعرف عليهم نجد لسان العرب يقول : (٣)

---

(١) الشعراء الصعاليك ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ١٠٩ ، شعراء موريتانيا ٣٥١ .

(٣) مادة غرب ٢ ـــ ١٣٨ .

« أغربة العرب سودانهم » شبهوا بالأغربة فى لونهم ، والأغربة فى الجاهلية : عنترة ، وخفاف بن ندبة السلمى، وأبو عمير بن الحباب السلمى أيضا ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبى معيط ، إلا أن هشاما هذا مخضرم قد ولى فى الإسلام ، قال ابن الأعرابى : وأظنه قد ولى الصائفة وبعض الكور الخ . قال ابن سيده : كل ذلك عن ابن الأعرابى .

وفى تاج العروس المادة نفسها : وكلهم سرى إليهم السواد من أمهاتهم .

ويقول أبو عبيدة فى كتاب الشعراء : « وإنما سموا أغربة ، لأن أمهاتهم كن سودا » (1)

والسيوطى يقول : والأغربة فى الجاهلية ، يعنى السودان : عنترة وخفاف بن ندبة السلمى - وندبة أمه -وأبو عمير بن الحباب السلمى ، وسليك بن السلكة - وهى أمه ، واسم أبيه يثربى - وهشام بن عقبة ابن أبى معيط مخضرم ، وتأبط شرا ، والشنفرى(2) وقد أفاض فى هذا أبو منصور عبد الملك الثعالبى النيسابورى فقال (3) :

(أغربة العرب) : وذؤبان العرب سادتها : وهم أربعة سودان شجعان ، فمنهم عنترة بن شداد العبسى ، سرى السواد فيه من جهة أمه ، وكانت حبشية زنجية تسمى زبيبة ، وفيها قال من وصف رجلا بقلة شرب الشراب .

ويدعى الشرب فى رَطْل وباطيةٍ وأم عنترةَ العبسىِّ تكفيه . .

ومنهم خفاف بن ندبة السلمى ، سرى السواد فيه من قبل أمه .

---

(1) مخطوط ورقة ٣١ .
(2) المزهر ٢١٧ .
(3) ثمار القلوب ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

ومنهم السليك بن السلكة ، الذى يقال له : سليك المقانب .

ومنهم عبد الله بن حازم السلمى والى خراسان لعبد الله بن الزبير ، ومن عجيب أمره أنه كان نهاية فى الشجاعة والنجدة ، وكان يخاف الفأر أشد مخافة .

أما ابن الكلبى فيحددهم بثلاثة هم : عنترة – وأمه زبيبة – ، وخفاف بن عمير الشريدى – وأمه ندبة – والسليك بن عمير السعدى – وأمه السلكة – كما يؤكد هذا صاحب خزانة الأدب (1) .

من هؤلاء – ومن غيرهم (2) – نجد أن الشعراء الأغربة هم من أنجبتهم الإماء السوداوات ، وأن عددهم ثلاثة ، وقيل : أربعة ، وقيل : سبعة وقيل أكثر ، وهذه الإحصائيات لاقيمة لها لأن المقصود هو تسجيل أسماء المشهورين (3) .

ونحن نرتاح إلى التحديد الحاسم الذى ذهب إليه الدكتور أحمد الحوفى حين قال بعد حديث عن السود : « والعرب يسمون ثلاثة من شعرائهم الفرسان أغربة العرب : عنترة بن شداد ، وخفاف بن ندبة ، والسليك ابن السلكة ، (4) » ونرتاح كذلك لما ذكره الدكتور عبد المجيد عابدين من أن الثلاثة الذين سبق ذكرهم هم غربان العرب ، وأنهم بالتحديد من سلالة حبشية « وبالإضافة إلى هؤلاء تطلق أغربة العرب أحياناً على نفر من الشعراء وهم عمير بن الحباب ، وهشام بن عقبة بن أبى معيط ، وتأبط شرًّا ، والشنفرى ، وعبد الله بن خازم ، وعمير بن أبى عمير ، وهمام بن مطرف ، ومنتشر بن وهب ،

---

(1) الأغانى ٨ – ٢٤٠ . خزانة الأدب ١ – ١٢٨ .

(2) الفتوة عند العرب، عمر الدسوقى ١٦ ، الحياة العربية فى الشعر الجاهلى د. أحمد الحوفى ١٥٩ ، الشعر الجاهلى د. شوقى ضيف ٣٦٥ .

(3) الشعراء الصعاليك ١١٠ .

(4) الحياة العربية فى الشعر الجاهلى ١٥٩ .

ومطر بن أوفى ، وحاجز . . ولم يثبت لدينا أن واحداً من هؤلاء ينتسب إلى جنس حبشي (١) » .

. . مع أننا نرتاح إلى هذين الرأيين ، إلا أننا سنعرج قليلا على شاعرين تردد كثيرا أنهما أسودان وهما تأبط شرا ، والشنفرى .

فاعتماداً على ماذكره ابن الأعرابي قال الدكتور شوقي ضيف عن تأبط شرا : « كان ابن أمة حبشية سوداء فورث عنها سوادها . وقيل بل أمه حرة فهي تسمى أميمة (٢) وقد ذهب إلى مثل هذا كارل بروكلمان (٣) وقال أحمد على : « إن أمه كانت حبشية وتدعى أمينة أو آمنة (تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ) في حين يقال إنها من بني القين . وهي بطن من فهم : وكانت تدعى أمية لا أمينة (الأغاني ١١ - ٤٨٠) ولأمية ستة أبناء منهم تأبط شراً (٤) » .

أما الدكتور يوسف خليف فقد ذكر أن Frsnel يرى أن تأبط شرا ابن أمة ، ثم يضيف أن المصادر صورتها في صورة امرأة غير محترمة (٥) .

وبالإضافة إلى ما سبق أن ذكرنا من أن دم الأحباش لايجرى في عروقه ، نضيف أنه لم يتحدث عن مشكلة اللون والعبودية التي يلاقيها أمثاله ، بل إنه يؤكد الحرية في قصيدته التي قالها بعد أن أفلت من الحصار الذي ضرب عليه وهو يجني عسل النحل ، فقد قال :

فذاك قريع الدهـــر ماعاش حول إذا سد منه منخر جاش منخر

---

(١) بين الحبشة والعرب ١٢٤ .
(٢) العصر الجاهلي ٣٧٧ .
(٣) تاريخ الأدب العربي ١ - ١٠٤ .
(٤) مجلة البيان الكويتية العدد ٢٣ .
(٥) الشعراء الصعاليك ٨٢ .

أقول للحيان .. وقد صفرت لهم وطابى ويومى ضيق الحجز معور
هما خطتا : إما إسار ومنة وإما دم والقتل بالحر أجدر[1]

ويقول فى قصيدته الطويلة التى يرثى بها ابن أخته :

وخفض جأشى أن كل ابن حـــرة إلى حيث صرت لامحالة صائر
إذا راع روع الموت راع وان حمى حمى معه حر كريم مصابر[2]

ونحن نعرف أن المرأة التى خطبها قالت له : والله إن الحسب لكريم ولكن قومى قالوا ما تصنعين برجل يقتل عند أحد اليومين ، وتبقين بلا زوج ؟

ثم إن ما ذكر عن أمه يؤكد أنها كانت مرغوباً فيها على نحو مانعرف من زواجها من أبى كبير الهزلى . ثم إنها فصيحة إلى الحد الذى تطلق فيه كلمة معبرة فتصير لقبا باقياً فى الحياة العربية ، ثم إنها كانت شاعرة من شاعرات العرب « وقولها منسجم وله طلاوة وأغلبه مراث فى ولدها » [3] وعلى كل فالمعتمد عليهم من المؤرخين يؤكدون أنها عربية حرة ويؤكدون أن الشاعر غير أسود ، وبخاصة صاحب الخبر الذى اهتم اهتماماً خاصاً بالسوداوات ، وبأبنائهم من العرب ، وإذا أخذنا أخته دليلا على مانقول عرفنا أنها كانت شاعرة مجودة ، وقد قيل : إن أخته آمنة تزوجت من نوفل بن أسد بن عبد العزى من بنى قصى ، وهو الذى أسلم ابنه عدى فى السنة الثامنة الهجرية ، واستعمله عمر - أو عثمان - على حضر موت ، وكان بطلا من أبطال البدو [4] ، وفى هذه السيرة لا نعثر على مايذكر بالسواد ، ولا على ما يحط من شأن هذه الأسرة .

---

(١) الحماسة : التبريزى ١ - ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الطرائف الأدبية : الميمى ٢٩ .

(٣) فهرست الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور . زينب بنت على بن حسين .

(٤) المقتالين ورقة ٧٢ ، تاريخ الأدب العربى ١٠٤ .

والظاهر أن الذى جر عليه هذا – بالإضافة إلى حياته الخارقة للعادة – هو ماكان يعرف من مخاصمته للوسامة ، وأنه كان يتعامل مع النعامة أوجهاً لوجه .

: أما الشاعر الثانى الذى لانرى أنه من الأغربة فهو الشنفرى .

أما قول الدكتور شوقى ضيف : « إن دماء حبشية كانت تجرى فيه من قبل أمه فهى حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عد فى أغربة العرب (١) » فإنه يعد امتداداً لما نقل عن ابن الأعرابى من أنه من أغربة العرب ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلا عن التهذيب والمحكم ولسان العرب (٢) ونرى مثل هذا عند السيوطى نقلا عن - ابن الأعرابى (٣) . . ومن كل هذا نرى أن ابن الأعرابى هو الأصل فى هذا رغم تعدد المصادر .

أما القول بأن لفظة الشنفرى تحمل فى طياتها دليلا على أصل الشاعر بحيث يجعلها Fresnel من أدلته ، كما يجعلها Laylall من أدلته كذلك فيقول « من المرجح أن دما إفريقيا زنجيا أو حبشيا كان يجرى فى عروقه (٤) » ويرد عليه بما سبق أن ذكرنا عند الحديث عن تأبط شرا ، بأن الشنفرى علم أو لقب ، وفى القاموس : «الشنيفرة بالكسر : الرجل السيئ الخلق » ، وقد علق الدكتور طه حسين على كلمة « وشفنرم » الحميرية بقوله : إنها علم « وهو يقرب من الشنفرى (٥) » كما يرد عليه مثلا بأن أخناتون كان ذا شفة سفلى غليظة مرتخية ولم يقل أحد إن له أصولا زنجية (٦) .

---

(١) العصر الجاهلى ٣٧٩ .
(٢) مادة غرب .
(٣) المزهر ٢ – ٢٦٩ .
(٤) الشعراء الصعاليك ٣٣١ نقلا عن The Mufaaddallyat, Vol. II, p. 68.
(٥) فى الأدب الجاهلى ٨٧ .
(٦) سندباد مصرى ٢٥٨ .

فإذا جعلنا الشعر حكما لما نذهب إليه من أنه ليس من الأغربة ، وجدنا تأبط شرا يقول فى رثائه :

لئن ضحكت منك الإماء لقد بكت ... عليك فأعولن النساء الحرائر
وخفض جأشى أن كل ابن حرة ... إلى حيث صرت لا محالة صائر

ووجدناه يقدم وصفاً لنفسه ولزملائه فيقول :

سراحين فتيان كأن وجوههم ... مصابيح أولون من الماء مذهب[1]

ثم إنه حين قبل ابنة الرجل الذى كان يعيش فى كنفه فتصككت وجهه ، وعلم أبوها خرج غاضبا فسمعه يقول :

ألا هل أتى فتيان قومى جماعــة ... بما لطمت كف الفتاة هجينها
ولو علمت تلك الفتاة مناسبى .. ... ونسبتها ظلت تقاصر دونها
أليس أبى خير الأواس وغيرها ... وأمى ابنةُ الخيرينْ لو تعلمينها
إذا ما أروم الود بينى وبينهــا ... يؤم بياضُ الوجه منى يمينها

وكان أن سأله عن نسبه ثم زوجه لها [2] .

ومن هذا نقف على أن أمه « ابنة الخيرين » ولا يقال هذا لحبشية أو من يجرى فى عروقها دم زنجى ، ونقف كذلك على أنه أبيض الوجه ثم إن الرجل الذى كان أسيراً عنده زوّجه ابنته .

وهو يخاطب الفتاة التى لطمته فى رواية أخرى فيقول :

ألا ليت شعرى والتلهف ضَلّةٌ ... بما ضربت كف الفتاة هجينها
ولو علمت قعسوس أنساب والدى ... ووالدها ظلت تقاصر دونها
أنا ابن خيار الحجر بيتاً ومنصبا ... وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها

---

(١) الطرائف الأدبية ٣٢ .
(٢) المصدر نفسه ٤١ .

أما اعتماد الدكتور يوسف خليف – فيما يعتمد – على كلمة « هجين » فسياق الحادثة والأبيات يدل على أن المراد بها لا يخرج عن التعبير عن وضعه المهين (١) ، وأما القول بأن البيت الذى ذكر فيه بياض الوجه قد يكون المقصود منه السخرية من اهتمام هؤلاء السادة بمسألة اللون ، أو أنه من أسماء الأضداد ، بالإضافة إلى أن البيت لم يرد إلا فى رواية واحدة من روايات الأغانى المتعددة عن هذه القصة « وهى رواية مجهولة الرواية فيها بعض تفصيلات غير معقولة (٢) » .

وعلى كل فالقول بهذا يرد عليه بأن هؤلاء السادة قد عاش الشاعر بينهم كواحد منهم ، وقد قبل والد الفتاة فكرة الزواج ، ولم تشغل الشاعر فكرة اللون فى شعره ، بل لم يثبت عندى فى شعر هذا الشاعر والطائفة التى ينتمى إليها أنها تستعمل أسماء الأضداد ، فهى لا تتفق وظروف حياتهم التى يحيونها ، ثم إن هذه الأبيات بصرف النظر عما فى الأغانى قد جاءت فى شعره الذى حققه عبد العزيز الميمنى فى الطرائف الأدبية ، ثم إن الدكتور خليف قد أخذ من هذه الأبيات التى شكك فيها – من واقع ماجاء فى الأغانى فقط – كلمة هجينها التى جعلها من حججه . ثم تأتى حجة واضحة تقول حين أسر أن من أسروه تماروا فى قتله ، فلما رأى ذلك أحد بنى حزام ضربه ضربة فقطع يده من الكوع وكانت بها « شامة سوداء » فقال الشنفرى حين قطعت يده :

لاتبعدى إمّا هلكت شامه .. فرُبّ خرق قطعتْ قتامه

ورب قرن فصلتْ عظامه (٣)

---

(١) الشعراء الصعاليك ٣٣١ .

(٢) الهجين اللئيم ، أو العربى الذى أم أمة ، يقول : ليتنى اعلم لم تصرب هذه الفتاة الحمق الحقير فى نظرها أنظر الأغانى ٢١ – ١٧٩

(٣) الأغانى ٢١ – ١٨٥ .

ثم تأمل قوله

هم عرفونى ناشئاً ذا مخيلــة أمشى خلال الدار كالفرس الورْد[1]

وفى ضوء هذا يتأكد لدينا أن الشاعرين : تأبط شرا ، والشنفرى لم يكونا من السود ، وأن الشعراء الأغربة الذين نرتاح إليهم هم :

عنترة ، وخفاف ، والسليك .

(١) الأغانى ٢١ ـ ١٩٣ مخيلة : خيلاء ، الفرس الورد : الأحمر .

ب ـ الشعراء الأغربة المتفق عليهم

١ ـ عنترة العبسي

تكاد شخصية عنترة العبسي تكون شخصية أسطورية لتعدد الروايات التي تحيط بحياته ، ولهذه السيرة الشعبية التي تمتاز بكل مايمتاز به الأدب الشعبي من خروج على التاريخ ، ومن الإثارة، ومن إلقاء الهموم في بعض الأحيان ، وقد تعددت هذه السيرة إلى حد أنها حملت أسماء السيرة الحجازية ، والسيرة الشامية ، والسيرة العراقية ، بالإضافة إلى مختصراتها . « فشخصية عنترة هي المحور الأساسي الذي تدور حوله السيرة (١) » .

وقد دعا هذا وغيره الدكتور طه حسين والمستشرق برنهارت هلر إلى شيء من إنكار وجوده الأدبي وإلى اعتبار أن شخصيته تكاد تكون أسطورة تعلق عليها القصص ، والشعر المنحول (٢) ، كما أن الدكتور حسين فوزي قال عنه : « ولم آخذ العبسي مأخذ الجد لحظة واحدة » (٣)

وفي الواقع ما أكثر الروايات التي تدور حول عنترة، فالرواة مع اتفاقهم على أن أمه حبشية سوداء تسمى زبيبة « أنه كان لها ولد

(١) سيرة عنترة : د. محمود ذهني ١٦١ .

(٢) حديث الأربعاء : ١ ـ ١٤٥ ، مجلة الفنون الشعبية (العدد ١٠)

(٣) سندباد مصري : ٢٨٠ .

عبيد [1] من قبل أن تلحق بآل شداد ، إلا أنهم يختلفون فى الذى وطأ هذه الأمة ، وبمعنى آخر من هو أب ذالك الغلام [2] » معظمهم يقول : إن من فعل ذلك هو عمرو بن شداد ؛ ومن هنا يكون شداد هو الجد ، وهناك من يقول : إن شداداً هو الأب . وعلى هذا الزعم سار كاتب السيرة — وقيل : إن شداداً لم يكن الأب أو الجد ، وإنما كان عما له كفله بعد موت أبيه [3] ، أما رواية الأغانى فهى « هو عنترة بن شداد ، وقيل : ابن عمرو بن شداد ، وقيل : عنترة ابن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة ، وقيل : مخزوم بن عوف .. الخ » [4] .

وهناك من ذهب إلى أن اسمه عنتر لا عنترة احتجاجا بقوله :

ولقـــد شفى نفسى وأبرأ سقمها قول الفوارس ويك عنتر أقدم[5]

ويذهب إبراهيم الإبيارى إلى أن عنترة لقب له بعد أن تمرس بالحرب وكان أن غطى اسمه الأول [6] ، أما الأغانى فيقول : « وله لقب يقال له عنترة الفلحاء ، وذلك لتشقق شفتيه [7] » وأنثوا اللقب اتباعاً لتأنيث اسمه ، أو لتأنيث الشفة التى وصفت بالفلح ، وما نرتضيه أن التاء فى عنترة ليست للتأنيث ، وإنما هى للمبالغة كالتاء فى علامة ونابغة ، وعنتر فى البيت على الترخيم بحذف التاء كفاطم فى قول الشاعر :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت . . الخ .

---

(1) الأغانى : ٨ — ٢٣٨ .
(2) سيرة عنترة : ٤٦ .
(3) خزانة الأدب ١ — ١٢٨ ، الشعر والشعراء ١ — ٢٠٤ .
(4) الأغانى : ٨ — ٢٣٧ .
(5) التاء محذوفة للترخيم أو للضرورة الشعرية ، والعنتر فى اللغة الذباب الأزرق ، الواحد عنترة . (خزانة الأدب ١ — ١٢٩) .
(6) مقدمة ديوان عنترة — المطبعة التجارية .
(7) الأغانى ٨ — ٢٣٧ .

كما أنه لقب بعنترة الفوارس ، وكان يكنى « أبا المغلس » إما لجرأته أو لسواد لونه [1] .

وكما اختلف على وثنيته ومسيحيته فقد اختلف حول وفاته فهناك من قال : إنها حول الفترة من عام ٦٠٨ إلى ٦١٠ . ومن قال : إنها ٦١٥ ومن قال : إنها ٦١١ ، ومن قال : إن حياته ومماته حوالى — (٥٢٥ — ٦١٥) [2]

وإذا كان الجاحظ قد أصاب حين قال : إن شهرته عرفت بين العامة فإنه يجب أن تنحى من حياته أشياء كثيرة ، كما يجب أن ينحى من شعره الكثير حتى يمكن تناوله إنساناً لا أسطورة ، إن هذا الموقف يذكرنا بالكاتب الذى تناول سيرة بيكاسو ، فإذا به يقول له : هل أنا من سكان المريخ ، يجب أن تضيف فصلا تقول فيه إن بابلو بيكاسو له ساعدان وساقان ورأس وأنف وقلب ، وكل مظاهر الكائن البشرى فالفنان يجب ألا يتناول « على أنه نبى أو بهلوان أو صانع معجزات ، أو نيزك سقط من السماء ، أو شيطان لفظ من الجحيم [3] » .

ومن واقع هذه النظرة نرى أن عنترة قد عاش حياة تعسة فهو ابن لأم تنتمى إلى الطبقة الثالثة من النساء فى المجتمع العربى بعد طبقة الحرائر وطبقة السبايا ، فالسبية كانت وقفا على رجل واحد ، أما الأمة فكانت شيئا مشاعاً « ولهذا فان الاعتراف بابن السبية كان أمراً طبيعياً مسلما به ، بينما كان الاعتراف بأبناء الاماء أمراً لا يقره العربى ولا يجيزه [4] » .

---

(١) معلقات العرب : د. بدوى طبانة : ١٨١ .

(٢) سيرة عنترة : ٤٧ ، كشف الظنون ، تاريخ العرب : ١ — ١١٤ ، معلقات العرب ١٨٢ .

(٣) الديوان ٢ — ١٠١ وواقعية بلا ضفاف ١٧ .

(٤) سيرة عنترة ٢٩ .

ولعل هذا يلقى ظلا على القول بتعدد الأسماء التى أطلقت على والده، ويوضح لنا الدلالة وراء القول الذى يقول «وإنما ادعاه أبوه بعد الكبر[1]» بل إنه يخيل إلى أن أباه — أو من يظن أنه أبوه — قد ادعاه على مضض، وتحت ضغط حاجة من حاجات القبيلة، فالرواية تقول: إن بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من بنى عبس فأصابوا منهم، فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم، وفيهم عنترة، فقال له أبوه: كر ياعنترة، فقال: العبد لايحسن الكر وإنما يحسن الحلاب والصر. قال: كر وأنت حر، فقاتلهم واستنقذ مافى أيدى القوم من الغنيمة فادعاه أبوه بعد ذلك[2]، وهناك رواية أخرى لاتخرج عن هذه الرواية إلا بعد القول بأنهم قالوا له: لانقسم لك نصيبا مثل أنصبائنا لأنك عبد وحين اعترف به قام وهو يقول:

أنا الهجين عنتره   كل امرئ يحمى حره[3]

وحتى بعد إعطائه الحرية ظل يعانى من عقدة اللون حتى وهو فى قمة انتصاراته فقبيلته التى كانت قوية ومهابة أنكرت فى إحدى المرات أن يحول عنترة هزيمتها إلى نصر، فقد ساء ذلك سيدهم قيس بن زهير، وقال حين رجع: والله ماحمى الناس إلا ابن السوداء، وحين بلغ عنترة ذلك عرض به فى قصيدته التى يقول[4] فيها:

إن المنيـــة لو تمثل مثلت   شطرى .. إذا نزلوا بضنك المنزل
إنى امرؤ من خير عبس منصباً   شطرى، وأحمى سائرى بالمنصل

---

(١) الأغانى ٨ — ٢٣٩ .
(٢) المصدر نفسه وخزانة الأدب ١ — ١٢٨ .
(٣) الأغانى ٨ — ٢٤٠، ديوانه ١٣٠ (ط. بيروت) .
(٤) الأغانى ٨ — ٢٤١، الشعر والشعراء ١ — ٤٣٥ .

وهو قد يقدم صورة واقعية لأمه :

وأنا ابن سوداء الجبين كـأنها ... ضبع ترعرع فى رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعـامة ... والشعر منها مثل حب الفلفـل

فنحن لانحس فى هذا الشعر تعاطفا معها ، بل إنا نحس أنه حين يبرر سواده فى شئ من المرارة [1] وحين يتكلم عن عبوديته يتكلم عنها فى ضيق شديد [2] .

. . فإذا تركنا هذه الأمة السوداء التى تشبه الضبع كما يقول ، وجدنا امرأة أخرى فى حياته ، ووجدنا موقفاً غير كريم ذلك أن سمية أو سهية زوجة سيده الذى ادعى بنوته بعد ذلك تقول : إنه يراودنى عن نفسى ، وقد غضب الرجل لذلك غضبا شديداً « وضربه » فما كان من الزوجة حين رأت جراحه إلا أن بكت ، وألقت بنفسها عليه ، وكفته عنه ، ونحن هنا نسأل : هل إذا كان عنترة يدرك تماماً أن الرجل هو والده كان يقع فى مثل هذا الخطأ ؟ على كل لقد صور عنترة هذا الموقف فقال :

أمن سمية دمع العين مذروف ... أوأن ذا منك قبل اليوم معروف
كأنها يوم صدت ما تكلمنى ... ظبى بعسفان ساجى العين مطروف
تجللتنى إذ أهوى العصا قبلى ... كأنها صنم يعتاد معكـوف
العبد عبدكم والمـال مالكم ... فهل عذابك عنى اليوم [3] مصروف

ولعله كان يقصدها فيما يسميه البلاغيّة النورية حين يقول :

ياشاة ماقنص لمن حلّت لـه ... حـرمت علىّ ولم تحـرم

---

(١) ديوانه ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٧٨ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٨٠ .
(٢) ديوانه ١٢٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٩١ ، ١٦٢ ، ١٩٩ ، ٢٣٦ .
(٣) الأغانى ٨ — ٢٣٧ ، ديوانه ١٥٤ ، وعسفان منزلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة وفى بعض الأصول وساجى الطرف .

فإذا تركنا هذه العلاقة العقيمة التى لم تسعد الشاعر ، إلى هذه العلاقة الأخرى التى تتمثل فى حبه لعبلة ، وإذا نحينا الجانب الأسطورى من هذا الحب ، وجدنا أن هذا الحب قد شقى به الشاعر أكثر مما سعد ، فقد كان أشبه ما يكون بظاهرة مرضية أخذت على الشاعر كل أقطار نفسه ، فحبه لها كان نوعاً من « السقم » . ولنتأمل بعض مايؤكد هذا من خلال الشعر المنسوب إليه :

فاغتالنى سقمى الذى فى باطنى أخفيته فأذاعـــه الإخفاء
بسمت فلاح ضياء لؤلؤ ثغـــرها فيه لـــداء العاشقين شفـــاء
(و) كل يوم يبرئ السقام محب.. من حبيب وما لسقمى طبيب
(و) إلى كم أدارى من تريد مذلتى وأبذل جهدى فى رضاها وتغضب
لقد ذل من أمسى على ربع منزل ينوح على رسم الديار ويندب
(و) ولولا الهوى ماذل مثلى لمثلهم ولا خضعت أسد الفلا للثعالب
(و) من أين تدرى الدار أنك عاشق أو عندها خبر بأنك مبتلى .
أذل لعبلة من فـــرط وجـــدى وأجعلهـــا من الدنيا اهتمامى

وحين وعدته امرأة كندية بأن تزوجه بمن يريد من بناتها قال :

لو كان قلبى معى ما اخترت غيركم ولا رضيت سواكم فى الهوى بدلا
لكنه راغب فيمن يعـــذبه فليس يقبل لا لوما ولا عـــذلا

وهو يخاطب عبلة بقوله :

لعل عبلة تضحى وهى راضية على سوادى وتمحو سورة الغضب (١)

وهو فى الكثير من شعره فى هذا المجال يطلب منها أن تسأل عنه ، ويعمل على تأكيد نفسه ، كأن نفسه تحتاج إلى تأكيد مستمر (٢) ، وهو كثيرا مايذكر أنها كانت تضحك منه :

---

(١) ديوان ٨ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ١٠٠ ، ١٣٧ ، ١٩٦ ، ٢٣٦ .
(٢) ديوانه ١٦٣ ، ١٦٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ .

ضحكت عبيلة إذ رأتنى عـــاريا خلق القميص وساعاى مخدوش
لاتضحكـــى منى عبيلة واعجبى منى إذا التفت على جيوش (١)
(و) عجبت عبيلة من فتى متبــذل عارى الأشاجع شاحب كالمنصل
شعث المفــارق منهج سرباله لم يدّهن حولا ، ولم يترجـــل
فتضاحكت عجبا وقالت يافتى لاخير فيك كأنها لم تحفل (٢)

كما روى أنها كانت تسمعه كلاما يكرهه (٣) ويقول : إنها ضيعت العهود (٤) .

من كل هذا نزعم أن علاقته بالمرأة لم تكن علاقة سعيدة ، فالأم التى تشبه الضبع تجثم على نفسه ولاتفارقه إلا فى القليل :

ينادوننى فى السلم يابن زبيبـــة وعند صدام الخيل يا ابن الأطايب (٥)

وزوجة الرجل الذى تبناه وشت به عند زوجها ، ولن يجديه أنه رأى دموعها حين ضرب ضرباً شديداً ؛ أما عبلة فيبدو أنها لم تعطه من حبها إلا بمقدار ، ويبدو أنها كانت فى بعض الأحيان تسخر منه سخريات موجعة « وفى عنترة تحبب إلى صاحبته ، وتهالك عليها ، وحنين متصل إليها فهو إذا فخر لايفخر على صاحبته ، وإنما يفخر لها، يريدأن يقنعها بأنه خليق بأن تحبه وتميل إليه (٦) »

وهم يذكرون أن مالك بن قراد فر بابنته عبلة من وجهه ، وأن فارسا يدعى أبا اليقظان حين رآها وقعت فى قلبه فطلبها من أبيها ، فكان

(١) ديوانه ١٣٤ .
(٢) ديوانه ، ١٧٠ ، ١٧١ .
(٣) ديوانه ٤٣ .
(٤) ديوانه ٧٧ .
(٥) ديوانه ٤٠ .
(٦) حديث الأربعاء ١ — ١٥٠ .

أن طلب منه الأب رأس عنترة أولا ، وقد حاول ولكنه لم يفلح وقد كان فيما قاله عنترة فى هذا المجال :

وأنا الأسود والعبـد الذى يقصد الخيل إذا النقع ارتفـع
نسبتى سيفى ورمحى وهمـا يؤنسانى كلما اشتد الفزع [1]

ويذكرون أن عمه طلب منه أن يكون المهر « نوقا عصافيرية » وأنه فى سعيه إليها وقع أسيراً فى سجن الملك المنذر بن ماء السماء ، وأنه صارع بين يديه الأسد على نحو ما كان معروفا عند الرومانيين [2]

وقد بارز روضة بن منيع السعدى الذى جاء خاطبا عبلة [3] كما بارز لهذا السبب مسحل بن طراق الكندى [4] .

وقد ذكر أنه غاضب قبيلته أكثر من مرة . أو بعبارة أخرى هم الذين أغضبوه . ودلالة هذا أنه رغم فروسيته ، فإن حاجز اللون كان يظل دائماً بينه وبين أسرته . ونحن حين نريد أن نقفز من هذا كله إلى السؤال الذى يقول : هل تزوج عنترة عبلة أم لم يتزوجها ؟ نرى أن الثابت عندنا أنه لم يتزوجها فالرواية التى تقول إنه قيل له : كر وقد زوجتك عبلة فكرّ وأبلى ووفى له بذلك لم يتفق عليها المؤرخون ، بل الثابت أن هذه القضية كانت تتصل بقضية حريته لا قضية زواجه ، ثم إنه يقول :

أما ترينى قد نحلت ، ومن يكن غرضا لأطراف الأسنة ينحل
فلرب أبلج مثل بعلك بادن ضخم على ظهر الجواد مهبل
غـادرته متعفـرا أوصاله والقـوم بين مجرح ومجندل

(١) ديوانه ١٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ١٥٩ ، أدباء السجون . عبد العزيز الحانى ١٩ — دار الكاتب العربى بيروت .
(٣) ديوانه ١٣ .
(٤) المصدر نفسه ١٦١ .

ومن غير المعقول أن يكون قد تزوجها ثم طلقها (١) . ثم إن الثابت أنه تزوج امرأة من بجيلة ، وكانت هذه المرأة تلومه لأنه يقدم لحصانه ألبان إبله فقال قصيدة أولها :

لاتذكرى مهرى ، وما أطعمتُه فيكون جلدك مثل جلد الأجرب (٢)

أما إنه لم ينجب فتلك قضية اتفق عليها الجميع .

ونحن نعتقد أن حاجز اللون كان وراء تحول هام فى القصيدة العربية وهو الانتقال من « ضمير الجمع » إلى « ضمير المفرد » ، ذلك لأنه كان فى حاجة إلى لفت الأنظار إليه ... كما كانت القصيدة العربية فى حاجة ماسة إليه كذلك لتزدهر من بعد تشتت الشاعر ، كما نعتقد أن حاجز اللون ، وإن كان إلى حد ما وراء فشل علاقاته -- مهما كانت هذه العلاقات مع المرأة -- أما ، وزوجة أب وحبيبة ، وزوجة إلا أنه أعطاه نوعاً من التحدى ، ونوعا من محاولة إثبات الذات فى مواجهة المجتمع والحياة من حوله ، وقد تمثل هذا فى فروسيته بل نحن نذهب إلى أن هذا الحاجز اللونى كان وراء تحديد هذ النوع الجديد من الفروسية العربية ، ففروسيته لم تكن هوجاء ، ولامغامرة إلى أبعد الحدود . ولعل هذا النوع العاقل من الفروسية هو الذى جعل النبى عليه السلام يقول .

« ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة » (٣) ولعله لم يكن يود ذلك إعجاباً بشعره كما وده لعلمه بجدوى ذلك الفارس الشاعر لدعوته ، إذ يجنح إليها ويقود لها عتقاء الصحراء جميعا

---

(١) مجمع الأمثال ٢ -- ٣٤٤ ، الفتوة عند العرب ٤٣٤ ، فارس بنى عبس لحسن عبد الله القرشى ٦١ ، ديوانه ١٧٢ .

(٢) ديوانه ٣٢ .

(٣) الأغانى ٨ -- ٢٤٢ .

تحت لواء نبي يبشر بالمساواة »[1] وهذا النوع الجديد من الفروسية العربية يوضحها هذا الحوار الذى جرى مع عنترة ، فحين قيل له : أنت أشجع العرب وأشدها ، قال : لا ، وحين قيل له : فبماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل إلا موضعا أرى منه مخرجاً ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنى عليه فأقتله[2] ، وقريب من هذا قول الحطيئة لعمر حين سأل عن حرب عبس فقال : « كان قيس بن زهير فينا وكان حازماً فكنا لا نعصيه . وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل و نحجم إذا أحجم[3] » .

كل هذا قد جعل الدكتور فيليب حتى يعده أخيل A Chilles[4] وجعل الدكتور شوقى ضيف يعد ملحمته المعروفة باسمه إلياذة العرب[5]

... على أن وقفته الرائعة عند « الحب والحرب » لم تظهر رائعة وجلية . إلا فى معلقته المشهورة والتى كانوا يسمونها المذهبة[6] :

هـــل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم

أعياك رسم الـــدار لم يتكلم ... حتى تكلم كالأصم الأعجم

وقد قيل : إن السبب فى نظمها هو ما كان بينه وبين رجل من عبس سبّه وعيره بالسواد وأنه لا يقول الشعر ، ومعنى هذا أن هذه القصيدة قد ارتجلت ارتجالا ليدلل على أن باستطاعته أن يقول الشعر ، ولكن المأثور من هذه « المذهبة » قد بلغ حداً كبيراً من الجدة والإتقان والإبداع الفنى وطول النفس « فليس الشعر الذى نقرؤه فى تلك المعلقة

---

(١) داعى السماء ١٦٨ .
(٢) الأغـــانى ٨ — ٢٤٣ .
(٣) الأغانى .
(٤) تاريخ العرب ١ — ١٠٧ .
(٥) العصر الجاهلى ٣٧٠ .
(٦) ديوانه ٢٠٣ ، الشعر والشعراء ١ — ٢٠٦ .

شعر شاعر مبتدئ بل هو شعر ناضج كل النضج ، وهو فى الذروة من شعر الفحول الذين راضوا أنفسهم طويلا على تلك الصناعة وفيها أغراض أخرى عبر عنترة عنها دون إشارة إلى ذلك الحديث ، بل إن تلك الأغراض من الممكن أن تكون أو يكون واحد منها سببا لانشادها(1) ».

وعلى كل فالبداية فى المعلقة لا تخرج عن كونها مواجهة من الشاعر للعدم فرسم الدار هنا هو ماض من العمر وهو رمز لشىء ضاع وهو بكاء حار على الحياة . « أصبح العقل العربى فى العصر الجاهلى مشغولا بمشكلة الموت الذى يتجسد فى الطلل . الطلل كان بالأمس دارا عامرة بالبشر وصناع الحياة . ولكن الرحيل يطرأ دواما على موقف الإنسان : الرحلة هى التى نغصت شعور البدوى الفنان بالحب والحياة ، كل شىء يرحل (2) » . ثم نرى الشاعر يستحضر صورة حبيبته الحلوة فى نفسه الرقيقة فهو نفسه « فيما يظهر .. كان حلو النفس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة جاءه ذلك من أنه عز بعد ذلة ، وتحرر بعد رق . فهو قد يتألم فى طفولته وصباه ، واحتمل الأذى فى شبابه وأى أذى ، هذا الذل يداخل النفس ، ويختلط بها اختلاطا فيصفى عواطفها تصفية ، ويلطف مزاجها تلطيفاً .. على حين تجد هذه النغمة من « لبيد » غليظة بعض الشىء ، لا تخلو من خشونة وجفاء بدوى » (3) ، لعل مما يدل على هذا ترفعه فى القصيدة عن الشماتة بعدوه ، بل انه يتحسر عليه .

فهو فى هذه المعلقة يتودد إلى عبلة ، ويتألم لفرسه ويرسم صورة لنفسه ، ويرسل أبياتاً محكمة تجرى مجرى الأمثال ويقيم الجمادات مقام الناطقين فى مخاطباتهم ومراجعاتهم ويرسل حوارا مع جارية يطلب منها أن تتجسس على صاحبته فهو فى هذا رائد لعمر بن أبى ربيعة ثم يرسل

---

(1) معلقات العرب ١٨٣ ، ١٨٤ .

(2) دراسة الأدب العربى . د. مصطفى ناصف ٢٣٨ .

(3) حديث الأربعاء ١ — ١٥٠ .

تهديداً فى آخر الأمر لأعدائه ، وقد وقف الدكتور طه حسين [1] بصفة خاصة عندهذا البيت الذى يشبه فيه الظليم وقد تبعته النعام بالعبد الأسود وقد ثابت إليه الإبل وانظر إلى هذا التعبير الظريف من العبد الأسود الذى لايحسن الإعراب عما يريد :

تأوى له قلص النعام كما أوت حزقٌ يمانيةٌ لأعجمَ طمطم

وهل يمكن أن أهمل هذه الأبيات التى كان القدماء يحبونها ويعجبون بها أشد الإعجاب ، وهى هذه التى يصف فيها ثغر صاحبته بالجمال وطيب النشر فيذكر فأرة المسك ويذكر الروضة الأنف التى ألح عليها الغيث حتى زكت نبتها ، وحتى كثر فيها الذباب مبتهجاً نشوان متغنياً بما يجنى من طيباتها :

وكأن فأرةَ تاجرٍ بقسيمةٍ سبقت عوارضها إليكَ من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها غيثٌ قليل الدمن ليس بمعلم . الخ

والملاحظ أنه يغلب عليه استعمال المصادر الثلاثية من نوع فعْل ، وفَعَل ، والصفات الثلاثية من طراز حسن وفرح ، والأفعال التى بمجراها نحو ضَرَبا وضَرَبت والأسماء التى بمجراها نحو نخْلة وكَلِيم وكل ماكان على « فَعْلة » أو « فَعَل » أو « فعْل » (٢)

وإذا كان قاموس الشاعر يقف بصفة خاصة عند اللونين : الأسود والأبيض ، ويكثر من كلمات العبد والغراب ، والمسك ، والكحل بالإضافة إلى النار ، والبرق والغضب ، والسيف ، والغبار ، والدم ، والشرار ، والكواكب ، والطعن ، فإنه قد لوحظ عليه فى شعره السهولة واللين « قلما يوجدان فى الشعر النجدى القديم (٣) » وهو يهتم اهتماماً خاصاً بالألوان ، وبالتحديد العددى ..

---

(١) المصدر نفسه ١٥٢ .
(٢) المرشد فى فهم أشعار العرب . د. عبد الله الطيب ١ — ٢٨٤ ط . الحلبى
(٣) المصدر نفسه ١٤٩ .

فيها اثنتان وأربعون حـلوبة   سودا كخافية الغراب الأسحم (١)

ويهتم بعنصر الحركة فى الصورة التى يأخذ مفرداتها من حوله ، وبعنصر التشخيص فحصانه يتحول أمامنا إلى إنسان ، بالإضافة إلى أنه لا يبدأ كل شعره بالوقوف على الأطلال ، ذلك لأن همه فى غالب شعره أن يعطى قصة بسيطة لمصاعب تعترضه ثم ينتصر عليها .

وقد اهتم القدامى بتشبيهاته (٢) ، وبغوصه على المعانى (٣) واستشهدوا له فى باب التثنية التى لا تفرد (٤) ، كما يستشهدون بشعره على العديد من الألوان البلاغية مثل حسن الاختراع والالتفات والإشارة (أن يكون اللفظ القليل مشتملا على المعنى الكثير بإيماءة أو لمحة تدل عليه) والتبكيت والافتنان ، وبالتصريع (٥) ، واستشهدوا بلغته (٦) ووقفوا عند بيته :

حلت بأرض الزائرين فأصبحت   عسرا علىّ طلابك ابنة مخرم

مستشهدين بأن العرب ترجع من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى الخطاب (٧) وقد وضعه ابن سلام فى الطبقة السادسة وتكلم عنه بخفة وبإهمال (٨) . كما أنه كان من الأوائل الذين تنبهوا للحركات والمرئيات التافهة كالذباب ونقر الماء ، وجعلوا منها موضوعات للشعر (٩) كل هذا

---

(١) الديوان ٢٠٥ .

(٢) عيون الأخبار ٥ - ١٨٦ ، الحيوان ٣ - ٩١ ، خزانة الأدب ١ - ١٢٥

(٣) عنوان المرقصات والمطربات ١٥ .

(٤) المثنى لأبى الطيب عبد الواحد بتحقيق عز الدين التنوخى ص ٥٩ .

(٥) تحرير التحبير ٤٧١ ، ١٢٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٤٤٩ ، ٥٠١ ، ٥٨٨ ، صور البديع فى الأسجاع ٢ - ٦٦ .

(٦) الاستذكار لابن عبد البر تحقيق على النجدى ١ - ١٣١

(٧) الحجة لابن خالويه تحقيق د. عبد العال سالم ص ٩٦

(٨) طبقات فحول الشعراء . شرح محمود محمد شاكر ١ - ١٥٢ ط ٢

(٩) شعر الطبيعة فى الأدب العربى د. سيد نوفل ١٠٤ .

فى بحور هى بالترتيب : الكامل والطويل والوافر والرجز ، وكما تعددت الروايات حول الكثير من أخبار حياته، فإنها تتعدد كذلك حول موت هذا البطل « المتميز » بين أبطال العرب ، والذى انتخب بعد ذلك ليكون بطلا فى سيرة، تحمل الكثير من أحزان العرب ، وطموحهم وشوقهم إلى التغلب على المعوقات التى تضغط عليهم [1] .

. . وعلى كل فقد قيل إنه غزا طيئا ، فانهزمت عبس ، وخر عن فرسه ولم يستطع العودة إليه لكبره وكان أن دخل دغلا ، وحينئذ أبصره فارس طائى فنزل إليه « وهاب أن يأخذ أسيراً فرماه وقتله » وقيل إن ريحا هاجت به فقتلته [2] ، وقيل إن فارساً رماه وقال له : خذها وأنا ابن سلمى ، فتحامل بالرمية حتى أتى أهله وهو مجروح ، وكان أن قال :

وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دمى

وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمى [3]

وكأنه كان يتنبأ بهذا البيت إلى أن أحدا لن يأخذ ثأره [4] ، فلم يذكر أحد أنه ثأر له ، ذلك لأن عبسا بموته كانت — فى الواقع — قد ماتت هى الأخرى ، بعد أن كانت تعتز بأنها إحدى جمرات العرب [5] ولكن الجمرة كانت تتحول إلى تراب .. ثم نرى عنترة يتحرك بعد ذلك إلى حد النمو فى « عقل الإنسان الباطن » فبقفزة جامحة من قفزات الخيال تحول من « البطل الفرد » إلى تمثيل كل ما هو عربى ، لا فى عصر

---

(١) هناك من يقول إنها وضعت أصلا لصرف ذهن الشعب عن فضيحة وتمت فى قصر الخلافة الفاطمية .(تراث الإنسانية م ٦٤٤ .د. عبد الحميد يونس) .

(٢) الأغانى ٨ — ٢٤٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ٢٤٥ ، خزانة الأدب ١ — ١٢٩ .

(٤) كان يفتخر بقاتله «ومنا قاتل عنترة » الأغانى ١٧ — ٢٥٢ .

(٥) الجمرة هى القبيلة التى تستغنى بنفسها عن محالفة الغير .

واحد ولكن فى العديد من العصور ، وهذا ما جعل تين Taine يضعه فى صف أبطال الملاحم الكبرى مثل رولاند، وأخيل ، ورستم (١) :

. وأخيرا فهناك لفتة من النبى إليه فقد أعجب بقوله :

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظَلُّه ... حتى أنالَ به كريمَ المأكل !

وقال عليه السلام: ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة (٢).

---

(١) مجلة الفنون الشعبية (العدد ١٠) .

(٢) الأغانى ٨ — ٢٤٣ .

٢ ـ خفاف بن ندبة

هو خفاف بن ندبة[١] بن عمير بن الحارث بن الشريد بن رباح السلمى ، وقد كانت ندبة سوداء حبشية عرف بها [٢] ، وقد دعا هذا ابن قتيبة إلى أن يضعه مع آخرين تحت باب « المنسوبون إلى غير عشائرهم وآبائهم [٣] » وكان مما قاله عنه : « هو منسوب إلى أمه ، وكانت سوداء ، وخفاف أحد أغربة العرب لسواده ، وأبوه عمير بن الحارث بن الشريد السلمى ، وكان شاعراً وشهد مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فتح مكة ، ومعه لواء بنى سليم وبقى إلى زمان عمر [٤]» أما كنيته فأبو خراشة ، وفيه يقول عباس بن مرداس :

أبا خراشة أما أنت ذا نفـــر فإن قومى لم تأكلهم الضبع (٥)

---

(١) خفاف بالضم ، وندبة «بضم النون وفتحها» ، وفى اللآلى ٣٩ أن الشعر أتاه من قبل خاله تأبط شرا ، ولكن لايوجد دليل على هذا ، ولكنه ابن عم الخنساء الشاعرة (الحماسة ١ - ٢٥٥ ، الشعر والشعراء ٣٠٠) .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة . العسقلانى ٤٥٢ ، الاشتقاق ٣١٠ ، الأغانى ١٦ ط ساس ١٣٤ ، لسان العرب (ندب) الشعر والشعراء ٣٠٠ ، المؤتلف والمختلف ١٥٣ .

(٣) المعارف ٥٩٦ .

(٤) المصدر نفسه ٣٢٥ .

(٥) الإصابة ٤٥٢ ، نسب هذا البيت خطأ لخفاف فى الحيوان ٥ - ٢٤ ، ولكن قائله هو عباس بن مرداس .

وأبوة عمير له لاخلاف عليها ، فهناك اتفاق على أن أمه أخذت في حرب مع بني الحارث بن كعب ، وأن جد خفاف وهبها لابنه عمير . وكانت ثمرة هذا خفاف (١) .

ومن هنا نرى الشاعر يأخذ طريقاً سوية في قبيلته ، فهو لا يستعبد ولا يغمز نسبه ، وقد ساعدته على هذا جسارته وبسالته ، وهناك اتفاق على أنه أحد سودان العرب وفرسانها وأحد المشهورين في هذا المجال إلى حد أن الجاحظ يجعله من مفاخر السودان على البيضان ، كما أنه أحد الذين يضرب بهم المثل في شدة البأس ، وشجاعة القلب (٢) .

وحياة هذا الشاعر تكاد تكون غامضة في الفترة التي عاشها في الجاهلية والفترة التي عاشها في الاسلام « فقد سكتت المصادر القديمة عن حياته الأولى وهذا ماجعل تفاصيلها غير واضحة المعالم وجوانبها غير متبينة الخطوط ، أما أخباره قبل إسلامه فهي أكثر غموضا » (٣)

وقد أسرع الدكتور نوري حمودي القيسي ، فذكر أنه مع كونه أسود حالكاً إلا أن ذلك لم يترك في نفسه أثراً ، ومستشهداً بما ذكره الدكتور يوسف خليف من أن الأغربة لم يتحدثوا عن هذه الظاهرة لأنهم كانوا يجدون غضاضة في الحديث عنها « لأنها كانت مصدر احتقار المجتمع الجاهلي في تلك الفترة » (٤)

ونحن نسأل أولا : كيف تكون مصدر احتقار المجتمع الجاهلي دون أن يؤثر هذا على شعر الشاعر من قريب أو بعيد، ودون أن يترك هذا بصمة — ربما تكون كالنار . . على صدقه الفني ؟ ، أما نحن فنذهب

---

(١) الإصابة ٤٥٢ .

(٢) الاشتقاق ٣١٠ ، جمهرة اللغة ١ - ٢٤٩ ، المؤتلف والمختلف ١٥٤ ، الشعر والشعراء ٣٠٠ .

(٣) شعر خفاف بن ندبة تحقيق د. نوري حمودي القيسي (٨)

(٤) المصدر نفسه (٨) ، والشعراء الصعاليك ٢٢٠ .

إلى أن نظرة المجتمع إلى اللون الأسود كانت كثيراً ماتكسر قلب الشاعر وتدمغه ، وتعرقل خطواته ، ومن الطبيعى أن هناك عدة مستويات لهذا فهناك الشاعر المولود من أبوين أسودين ، وهناك من أمه سوداء واستعبد كعنترة ، وهناك من أمه سوداء ولكن وجد الاعتراف به حين رأى نور الحياة ، ومع أن هذا النوع الأخير كان أقل الشعراء الذين عذبتهم عقدة اللون ، إلا أننا لانستطيع أن نسلم بأن نظرة المجتمع لهم « لم تترك فى نفوسهم أثرا » .

ولعل مما دعا إلى القول بهذا هو قلة الشعر المروى لخفاف ، وقلة مايعرف عن حياته ، ونحن إذا تركنا التصاق اسم أمه به فإننا لانعدم ضيق الشاعر بسواده ، فهو يقول :

كـــلانا يسوده قــــومه على ذلك النسب المظلم (١)

وهو كثيراً ماكان يعير بهذا ، على نحو ماحدث له حين قتل مالك ابن حمار الشمخى صديقاً لخفاف كان قد خرج معه فى غزوة ، فما كان من خفاف إلا أن قال : قتلنى الله إن برحت مكانى حتى أثأر به ، ونفذ ماقال ، وكان مما قال فى ذلك :

أقــول له والرمح يأطر متنـــه تأمل خفافا إننى أنا ذلكا (٢)
وقفت له علوى ، وقد خام صحبتى لأبنىَ مجدا ، أو لأثأر هــالكا
لان ذر قرن الشمس حين رأيتهم.. سراعا على خيل تؤم المسالكــا
فلما رأيت القــوم لا ود بينهم شريجين شتى طالبا ومواشكــا
تيممت كبش القــوم حتى عرفته وجانبت شبان الرجال الصعالكا

---

(١) شعر خفاف ١٠٨ .

(٢) روى الأخفش فى شرح ديوان الخنساء أن خفافا لما قال له ذلك، قال مالك : أنت ابن ندبة ، يريد أنت ابن جارية سوداء يعيره ذلك ، وقوله : انى أنا ذلك استئناف بيانى ، كأنه قال له : هل أنت مما يتأمل ، إنما أنت ابن ندبة ... الخ ، شعر خفاف ٦٤ .

فهما هو مالك — وكان سيد بنى شمخ — يسخر منه ويعيره بأمه ، وهناك موقف آخر يقول له فيه عباس بن مرداس : « والله لا أشتم عرضك ، ولا أسب أباك وأمك ، ولكن رمى سوادك بما فيك » (١)

بل إن اللون الأسود يلعب فى شعره دوراً كبيراً ، فهو يرى الدم أسود اللون :

فجادَتْ له يمنى يدى بطعنة كست متنه من أسود اللون حالكا(٢)

وهو يتكلم كثيراً عن السواد ، وقد يجمع بين السواد والبياض حين يتكلم عن البلق ، ويريد بالجون الأبيض على أنه من الأضداد ، ويتكلم عن اللثة التى كأنها مسحت بالإثمد ، كما أنه لاينسى الوقوف عند الغربان (٣) .

.. وعلى كل فالملح البارزة فى حياة خفاف هو أنه بدأ بالتمرد على زعيم القبيلة عباس بن مرداس ، فقد قيل إنه كان فى ملأ من بنى سليم فقال لهم : إن عباس بن مرداس يريد أن يبلغ فينا مابلغه عباس بن أنس ، ويأبى ذلك عليه خصال قعدن به ، فقال له فتى من رهط العباس وما تلك الخصال ياخفاف ؟ ، فقال : اتقاوه بخيله عند الموت واستهانته بسبايا العرب ، وقتله الأسرى ، ومكالبته للصعاليك على الأسلاب ، ولقد طالت حياته حتى تمنينا موته ، فانطلق الفتى إلى عباس وأخبره الخبر ، فوقع بينهما ماوقع . (٤) ومن ثم كانت هجائيات خفاف (٥) :

---

(١) الأغانى ١٦ — ١٣٥ طبعة ساسى .

(٢) شعر خفاف : ٦٦ ، أراد بأسود اللون : الدم ، والحالك : الشديد السواد .

(٣) شعر خفاف : ٨٠ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ١٠٦ ، ٩٥ .

(٤) الحماسة ١ — ٢٥٦ .

(٥) شعر خفاف : ٥٥ .

أعباس إنــا وما بيننـــــا كصدع الزجاجة لا يجبر
فلست بكفء لأعــراضنا وأنت بشتمكم أجــدر

ثم يقول أهل الفساد له : إن عباسا رد عليك ففضحك ، فيقول خفاف :

يأيها المهدى لى الشتم ظـــالما ولست بأهل حين أذكر للشتم
أبى الشتم أنى سيد ، وابن سادة مطاعين فى الهيجا مطاعيم الجرم
همو منحوا الضرا . . أباك وطاعنوا
وذاك الذى يرمى ذليلا ولا يرمى ... إلخ[1]

ثم يقول عدداً من القصائد فى الهجاء منها (٢) :

أزى العباس ينقص كـــل يوم ويزعم أنه جهـــلا يزيد

ويقول فى قصيدة أولها :

أعباس إما كرهت الحـــروب فقد ذقت من عضها ما كفى

ويقول قصيدة أولها :

أعباس بن مرداس ألمـــا تخبرك المجامع عن خفاف

ومن قصائده تلك القصيدة التى أولها :

أعباس إن الذى بيننـــــا أبى أن يجـــاوزه أربع

وهذا النوع من الهجاء لا يصل إلى حد الإسفاف ، وإنما يحاول كل واحد منهما أن يظن نفسه أنه المقدم فى قومه وفى الحرب وفى الأخلاقيات العامة .

. . فإذا تركنا هذا إلى الحب عند الشاعر وجدنا أنه فى أكثر الأمور يقف عند طيف الحبيبة الذى يعبر إليه الوديان حتى يستقر لدى وساده ،

---

(١) شعر خفاف : ٥٩ .
(٢) المصدر نفسه : ٦٣ ، ٦٨ ، ١٠٤ ، والحماسة للتبريزى ١ — ٢٥٦

وهو من خلال هذا الطيف يستعيد ذكرى لقاء مع صاحبته خلسة فى مواضع بعينها ، ثم يذكر محاسنها ، ومع أنه يقف وقفة حزينة عند الشباب الزائل إلا أنه يفخر بما ضمه هذا الشباب من مروءة ونجدة وتمرس على الحروب ، على فرس بعينه ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الناقة فى موحش من البلاد ، وهو فى أثناء ذلك يتعرض للعديد من مظاهر الطبيعة على نحو ما هو معروف من قصيدته التى منها :

ألا طرقت أسماءُ فى غير مَطْرق ... وأنَّى إذا حلَّتْ بنجرانَ نلتقى
سَرتْ كلَّ وادٍ دون رهْوةَ دافعٍ ... وجِلْذانَ أو كَرْم بليَّةَ مُحْدق
تجاوزتِ الأعراضَ حتى توَسَّنَتْ ... وسادى بباب دون جِلْذانَ مُغْلَق(١)

وهو فى القصيدة التى أولها :

طرقت أسماء الرحـــال ودوننا ... من فيد غيقة ساعد فكثيف

فهو هنا أيضاً يتحدث عن الطيف ويعجب لمسراه ، فالطيف هنا على حد تعبير الشريف المرتضى « يعلل المشتاق المغرم ، ويمسك رمق المعنى المسقم ، ويكون الاستمتاع به والانتفاع به (٢) » . ثم نراه يتحدث عن نفسه بعد ذلك ، وأخيرا يفخر بنزول الغيث على فرس يطارد به بقر الوحش وحمره . (٣) .

وخفاف فى شعره نبرة تدل على تطهره وزهده وعدم إقباله على مسرات الدنيا ، ويظهر هذا واضحا من تلك القصيدة التى أولها :

يا هند يا أخت بنى الصـــــادر ... ما أنا بالباقى ولا الخالد (٤)

---

(١) الأصمعيات : ٢١ ، ٢٢ ، رهوة : جبل أو طريق بالطائف . جلذان : موضع قرب الطائف ، لية : موضع بالطائف أيضا ، الأعراض : جمع عرض وهو الوادى أو جوانبه توسنت ، يقال : توسن فلان إذا أتاه النوم ، وتأمل قوله فى السحاب :

علا الأكم منه وابل بعد وابل ... فقد أرهقت قيعانه كل مرهق
يجر بأكناف البحار إلى الملا ... رباباً له .. مثل النعام المعلق

(٢) طيف الخيال : ٥ .

(٣) الأصمعيات : ٢٧ . (٤) المصدر نفسه : ٢٩ .

ولعل هذا يسوقنا إلى مشاركته الفعلية فى الإسلام ، فهو قد حمل لواء بنى سليم فى فتح مكة ، كما شهد موقعتى حنين والطائف (١) ، وقد أخلص للإسلام إلى حد أن بعض قومه حين ارتدوا قال :

لا دينكم دينى ولا أنا كـافـر   حتى يزول إلى صراة شمام (٢)

ومما يحفظ رثاؤه لأبى بكر فى قصيدة منها :

إن أبا بكـر هو الغيثُ إذ   لم تشمل الأرض سحاب بماء
تالله لا يـدرك أيـامه   ذو طرة حافٍ ولا ذو حـذاء
من يسع كـى يدرك أيـامه   يجتهد الشد بأرض فضـاء
المرء يسعـى وله راصـد   تنذره العين وثوب الضراء (٣)

وشتان بين هذه الروح المؤمنة وعدم الجزع من الموت وبين رثائه من قبل لشقيقى الخنساء (٤) ، ولرثائه نديمه وصديقه اليهوى حضير الكاتب فى قصيدتين (٥) ، وقد ذكر موته ، وكيف ستخسر الدنيا أشياء كثيرة بموته فقال :

إذا أنا وفـانى حمامى ومضجعى   وسوى على جندل وكثيب . .
فكـل وفـاء عند ذلك ميت   وكل رجاء عند ذاك يخيب . .
وكـل سنان فى الأنام ولهـذم   ومسرورة وجدا على تذوب (٦)

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٣٠١ .

(٢) الأصمعيات . شمام : جبل لباهلة فى نجد ، والمداد : حتى ينقل هذا الجبل من موضعه .

(٣) شعر خفاف : ٩٩ ، ١٠٠ أى تنـذر الرصيد عينه أن يثبت على هـذا المرصد ليحتـله .

(٤) المصدر نفسه : ٤٩ .

(٥) المصدر نفسه : ٧٠ : ٧٢ .

(٦) المصدر نفسه : ١٠٢ .

كما قال أيضا :

أتاني حديث فكذبته ... وقيل خليلك في المرْمَس ..
فيا عين بكي حضير الندى ... حضير الكتائب والمجلس
ويوم شديد أور الحديد ... تقطع منه عرى الأنفس !
صليت به وعليك الحديد ... ما بين سلع إلى الأعرس
فأودى بنفسك يوم الوغى ... ونقى ثيابك لم تدنس (١)

والملاحظ أن شعره قد رق بعد الإسلام ، وامتلأ بالمفاهيم الجديدة على نحو مامر بنا في الرثاء بصفة خاصة ، ولاسيما في تلك القصيدة التي تتمتع « بالحوار والسرد الهادئ ، إلى جانب بعض التأملات والحكم والمعاني التي يغلب عليها التفكير الإسلامي ، والطابع الديني الجديد(٢)» ومع أن هناك من ينسبها إلى غيره إلا أنها بمضمونها وبإشاراتها إلى ما كان بينه وبين عمه ، وبالخوف على وحدة القبيلة .. تشير إلى أنها له ، فهو يقول :

يا من لقلب شديد الهم محزون ... أمسى تذكر ريا أم هارون
أمسى تذكرها من بعد ما شحطت ... والدهر ذو غلظة حينا وذو لين
فإن يكن حبها أمسى لنا شجنا ... وأصبح الرأي منها لا يواتيني
فقد غنينا وشمل الدهر يجمعنا ... أطيع ريا وريا لا تعاصيني
.. ولي ابن عم لسه خلق ولي خلق ... قد اختلفنا فأقليه ويقليني
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا ... فخالني دونه ، بل خلته دوني
لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب ... عني ولا أنت دياني فتخزوني
ولا تقوت عيالي يوم مسغبة ... ولا بنفسك في العزاء تكفيني

---

(١) الأغاني ١٧ — ١٢٩ .
(٢) شعر خفاف : ١١٧ .

فإن ترد عرض الدنيا بمنقصتي فانّ ذلك مما ليس يشجيني
ولا يرى فى غير الصبر منقصة وما سواه فإن الله يكفيني
لولا أياصر قربى لست تحفظها ورهبة الله فيمن لا يعاديني
إذا بريتك بريا لا انجبار لـه إنى رأيتك لاتنفك تبريني
إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها إن كان أغناك عنى سوف يغنيني
الله يعلمنى ، والله يعلمكـم والله يجزيكم عنى ويجـزيني
ماذا على وإن كنتم ذوى رحمى ألا أحبكم إذ لم تحبـوني
.. عباس إن لا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقوني
.. عباس لو كنت لى ألفيتنى بشرا سمحاً كريماً أجازى من يجازيني
والله لو كرهت كفى مصاحبتى لقلت إذ كرهت قربى لها: بيني

. . .

ولقد وقف القدامى عنده أكثر من وقفة ، فالأصمعى يقول : أنى الدنيا مثل فرسان قيس وشعرهم ، ثم يذكر بينهم خفافا ، وقد جعله ابن سلام فى الطبقة الخامسة . وقال عنه الآمدى : إنه شاعر مجيد ، وقد اختار له الأصمعى أربع مقطعات (١) . «والذى أراه فى خفاف أنه شاعر مجيد لا يصل فى شاعريته إلى الطبقة الأولى من الشعراء الكبار، ولا ينحدر إلى طبقة الشعراء المغمورين (٢) » .

وقد وقف عنده أصحاب معاجم اللغة على نحو ما نرى فى اللسان ، والتاج ، وعلى نحو ما نرى فى الجمهرة ، والاشتقاق لابن دريد ، وفى المنصف والتمام لابن جنى ، والمخصص لابن سيده ، وأساس البلاغة للزمخشرى

---

(١) الأصمعيات ٢١ وما بعدها ، المؤتلف والمختلف ١٥٤ ، الأغانى : ١٦ / ١٣٤ (ولم يذكر هذا النص فى طبقات فحول الشعراء لابن سلام، والظاهر أنه ساقط أو أن له كتابا آخر لم يعثر عليه ، .شعر خفاف ١٦) .

(٢) شعر خفاف ١٧ .

وفى أماكن أخرى ، وكذلك فعل ابن قتيبة والمبرد ، وأصحاب كتب الحماسة، واستشهد له البكرى وياقوت فى ضبط المواضع وتحديد أماكنها كما قد استشهد له بأبيات كثيرة « لتفسير بعض الآيات وتأويلها على الوجه المراد منها (١) » .

.. وعلى كل فقد وقف عنده ابن طباطبا وقفتين هامتين ، أولاهما حين تعرض للتشبيهات البعيدة ، أو بعبارة أخرى للغلو ، فقد استشهد لها بقوله :

أبقى لهـــا التعـــداء من عتداتها ومتونها كخيوطة الكتان (٢)

أما الوقفة الثانية فهى حين تعرض الشعر الردىء النسج ، مستشهداً بقول خفاف :

إن تعرضى وتغنى بالنوال لنـــا فواصلن إذا واصلت أمثالى (٣)

.. وإذا كان من المعروف فى شعره شدة اهتمامه بالأماكن وتحديدها إلى حد الاستدلال بشعره على ضبط بعض المواضع وتحديد أماكنها ، فانه لاينبغى لنا أن نغفل له اهتمامه المرهف بالزمان ، وإن كان الزمان عادة يقف ضده ، وبخاصة حين يكون هناك طيف زائر ، على أن مراجعة شعره تدل على ما عبر عنه القلقشندى بصفاء الزمان ، وصفاء المكان . (٤)

ثم إنه كان يهتم بالأمثال السائرة فى عصره ، فهو يقول :

وعباس يدب إلى المنايـــا وما أذنبت إلا (ذنب صحر)

---

(١) شعر خفاف ٢٢ .

(٢) عيار الشعر ٨٩، العتدات : القوائم ، أراد أن قوائمها رقت حتى عادت كأنها الخيوط ،وأراد «ضلوعها» فقال : متونها — أما أبو هلال فى الصناعتين فيعلق بقوله: وهذا محمود غير معيب من أصحاب الغلو .

(٣) المصدر نفسه ١٠٥ ، وفى الصناعتين كان ينبغى أن يقول: إن تضنى بالنوال علينا ، على أن البيت كله مضطرب النسج .

(٤) صبح الأعشى ٢ / ٣٢٠ ، ٣٢١ .

فذنب صحر هنا هى بنت لقمان بن عاد ، ويضرب بها المثل لكل من لاذنب له ويعاقب . (١)

ومما يروى عنه أنه خرج ذات عشية إلى مال ينظر إليه ، فأتبعه بعض ولده ، فقال له : ارجع إلى البيت قبل الليل ، فإنى أخاف أن يأكلك الذئب ، فقال : « قد كنت وما أخشى بالذئب » فذهبت مثلا . (٢) .

. . والثابت أنه تخلص من قيم الجاهلية ، وأخلص للإسلام وشغل عن الشعر فى آخر حياته .

ومع أن الزركلى ذكر أن وفاته كانت عقب الهجرة مباشرة (٣) . إلا أن الدلائل تؤكد ماذهب إليه محقق ديوانه من أنه توفى فى زمن عمر بن الخطاب (٤) .

---

(١) ثمار القلوب : ٣٠٧ ، الحيوان ١ / ٢٢ .
(٢) المعمرون والوصايا ٣١ . وما أخشى (بضم الألف وفتح الشين المشددة) .
(٣) الأعلام الزركلى .
(٤) شعر عقاف ٨ .

٣ ــ السليك بن السلكة

هو السُّلَيك بن عمرو بن يثربي (١) ، وهو من بنى كعب بن سعد ابن زيد بن مناة بن تميم (٢) ، وهناك إجماع على أنه من أغربة العرب وأن أمه سوداء ، وهناك من حدد بأنها حبشية (٣) ، بالإضافة إلى القول بأنه من صعاليك العرب وعدائيهم إلى القول بأنه لاتعلق به الخيل ، ومن أقوالهم عنه . . « أعدى من السليك » ، و« أمضى من سليك المقانب » ، و« أدل من قطاة » (٤) .

ولتكمل الصورة عنه نذكر قول عمرو بن معديكرب (٥) : ما أبالى من لقيت من فرسان العرب مالم يلقنى حراها وهجيناها . يعنى

---

(١) قيل السليك بن عمير ، وقيل ابن يثربي .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٣٢٤ ، سرح العيون ٧٤ ، خزانة الأدب ، ط بولاق ٢ / ١٧ جمهرة أنساب العرب ٢١٧ ، والسليك بالتصغير فرخ الحجلة ، والأنثى سلكة بضم السين وفتح اللام .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٣٢٤ ، خزانة الأدب (بولاق) ٢ / ١٧ ، مجمع الأمثال للميدانى ١ / ٣٩٩ ، الكامل للمبرد ١ / ٣١٠

(٤) الشعر والشعراء ١ — ٣٢٤ ، مجمع الأمثال ، ٢ — ٢٣٣ ، العقد الفريد ٣ — ٧٠ . الأغانى ١٨ — ١٣٧ .

(٥) الأغانى ٨ / ٣٤٦ ، لباب الآداب لأسامة بن منقذ ١٨١ ، مروج الذهب ١ / ٤٣٠ الأغانى ١٠ / ٢١٤ .

بالحرين : عامر بن الطفيل ،وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبلدين عنترة ، والسليك بن السلكة ، وهو يقدم وصفا لها فيقول : وأما عنترة فقليل الكبوة شديد الجلب ، وأما السليك فبعيد الغارة كالليث الضارى .

وقد اهتموا بأخبار عدوه فقيل : « كان سليك يحضر فتقع السهام من كنانته فترتن فى الأرض من شدة إحضاره » . وقال له بنو كنانة حين كبر : « أريت أن ترينا بعض ما بقى من إحضارك ؟ قال : نعم اجمعوا لى أربعين شاباً وابغونى درعا ثقيلة . فأخذها فلبسها وخرج بالشباب حتى إذا كان على رأس ميل أقبل يحضر فلاث العدو لوثاً . واهتبضوا (عدوا) فى جنبتيه فلم يصحبوه إلا قليلا فجاء يحضر منبترا من حيث لا يرونه ، وجاءت الدرع تخفق فى عنقه كأنها خرقة [1] » وقد أفاده العدو فى كثير من غزواته ، بالإضافة إلى ما يذكر عن ذكائه وحسن حيلته ، وإرساله الأقوال فتتحول إلى أمثلة مثل قوله : إن الليل طويل وأنت مقمر [2] .

. . وفى الواقع لقد عاش السليك حياة بائسة فهو قد يشتد عليه الجوع إلى حد الإغماء :

وما نلتها حتى تصعلكت حقبــة وكنت لأسباب المنية أعــرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى إذا قمت تغشانى ظلال فأسدف [3]

وقد كان يعذبه منظر خالاته السوداوات وهن يقمن بعملية الحلب ، وقد كان العرب يتعايرون بحلب النساء .

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٧٦ .

(٢) الأغانى ١٨ – ١٣٤ – ١٣٦ ، عيون الأخبار ٢ / ١٧٦

(٣) الأغانى ١٨ / ١٣٥ ، وأسدف الانسان : أظلمت عيناه من الجوع .

أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرجال
يعز على أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهن مالى (١)

ثم إنه كان يعانى بالإضافة إلى لونه الأسود بعض الدمامة على نحو ماترى من قوله :

ألا عتبت على فصارمتنى وأعجبها ذوو اللمم الطوال
فإنى يا ابنة الأقوام أربى على فعل الوضىّ من الرجال
فلا تصلى بصعلوك نؤوم إذا أمسى يعد من العيال
ولكن كل صعلوك ضروب بنصل السيف هامات الرجال (٢)

وهناك نص يدل على اعتقاده بأنه ليس له نصيب فى الحياة ، وأنه دائماً إلى جانب التعاسة . فقد ذكر المفضل الضبى .. « كان سليك ابن سلكة التميمى من أشد فرسان العرب وأذكرهم وأدل الناس بالأرض وأجودهم عدوا على رجليه لا تعلق به الخيل وكانت أمه سوداء وكان يقول : اللهم إنك تهيئ ما شئت لما شئت إذا شئت ، اللهم إنى لو كنت ضعيفاً كنت عبدا ولو كنت امرأة كنت أمة . اللهم إنى أعوذ بك من الخيبة . فأما الهيبة فلا هيبة (٣) » .

وقد أهله كل هذا الهوان إلى أن يترجم عن عبوديته — على حد قول العقاد — بالإباق والتشرد والسطو على الأموال والأعراض (٤) ، فهو يذكر أنه لقى الجموع التى فيها الحوفزان — سيد قومه — :

ثكلتكما . . إن لم أكن قد رأيتها كراديس يهديها إلى الحى كوكب
كراديس فيها الحوفزان وحوله فوارس همام متى يدع يركبوا (٥)

---

(١) خزانة الأدب ٣ / ١٢٨ (بولاق) .
(٢) الكامل للمبرد ١ / ٣١٠ .
(٣) عيون الأخبار ٢ / ١٧٥ ، سرح العيون ٧٤ .
(٤) بين الكتب والناس ٧٥ ، ٧٦ .
(٥) الشعر والشعراء ١ / ٣٣٧ .

وقد كان من الجسارة بحيث ينحى رفيقيه عند الغارة ليكون صاحب الوثبة ، على نحو مافعل فى إحدى غاراته ، فقد زجر الإبل وساقها إلى حيث رفيقيه بعد أن أطاح برأس صاحبها :

وعاشية راحت بطانا ذعرتها بسوط قتيل وسطها يتسيف

كأن عليه لون برد محبر إذا ما أتاه صارم يتلهف

فبات له أهل خلاء فناؤهم ومرت بهم طير فلم يتعيفوا

وباتوا يظنون الظنون . . وصحبتى

إذا ماعلوا نشزاً : أهلوا وأوجفوا (١)

بل إن أصحابه كثيراً ما كانوا ينصرفون عنه فى الغارات خوفاً من العطش ، على نحو ما نرى من انصرافهم عنه ما عدا رجلا يسمى صردا ، لم يتحمل هو الآخر فبكى ، فقال السليك :

بكى صرد لما رأى الحى أعرضت مهامه رمل دونه وسهوب

فقلت له : لاتبك عينك إنها قضية مايقضى لنا فنؤوب ..

سيكفيك صرب القوم لحم معرض وماء قدور فى القصاع مشوب (٢)

وكما كان ينصرف عنه أصحابه فى أعمال الغزو ، كان بعض أعدائه ينصرفون عن متابعته خوفاً منه (٣) :

. . ومع أن من أخباره أنه خرج يتبع الأرياف (٤) . إلا أنه كان يهتم بمناطق اليمن البعيدة ، وكان من عادته عدم الإغارة إلا صيفاً حتى

---

(١) الأغانى ١٨ / ١٣٤ ، ١٣٥ ، العاشية : الإبل ترعى ليلا . يتسيف : يضرب بالسيف . لون برد محبر : طرائق الدم على القتيل . أهل : صاح ورفع صوته . أو جفوا : حملوا الابل على الوجيف وهو ضرب من السير .

(٢) شرح العيون ٧٦ . الصرب : اللبن الحامض ، ماء القدور : المرق ، كأنه يقول : ستستغنى وتأكل اللحم بعد اللبن .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٣٢٧ .

(٤) المقتالين ورقة ٩٠ ، ، الحماسة شرح التبريزى ٢ / ١٩٢ .

لا يكون فريسة لمطاردة الخيل خاصة إذا عرفنا أنه كان يغزو على قدميه، وقد كان يتهيأ لعملية الإغارة هذه بأن يعمد إلى بيض النعام فيملأه بالماء ثم يستودعه الطريق الذى يؤدى به إلى اليمن ذاهبا وآيبا — وقد قيل فيه: « أدل من القطاة » .. يجئ حتى يقف على البيضة (١) ، ويبدو أنه كان يغزو فى الأماكن الغريبة على فرسه المسمى « النحام » ، وللسليك فى رثاء هذا الفرس شعر يقول فيه :

كأن قوائم النحّام لما تحمل صحبتى أصلا محار

على قرماه عالية شواه .. كأن بياض غرته خمار

وما يدريك ما فقرى إليه إذا ما القوم ولّوا أو أغاروا (٢)

ومع غزواته الموفقة إلا أنه ضيق عليه فى مرة ، فقد ذكر أن السليك « وهو الذى يدعى الرئبال» قد غزا بكر بن وائل ، فقعدوا له وأمهلوه حين رأوا أثر رجل يرد الماء لا يعرفونه ، وبينما هم ينتظرون صاحب هذا الأثر الغريب ، ورد السليك حين قام قائم الظهيرة ، « فوضع نقابه وعب فى الحوض ، فشرب حتى امتلأ وجعل يصب الماء على وجهه ورأسه ، فهاجوا به فأثقله بطنه » فما كان منه إلا أن عدا حتى ولج قبة فكيهة بنت قتادة بن شنوء ، فاستجارها ، فأدخلته تحت درعها وحين أرادوه ذادتهم عنه حتى انتزعوا خمارها ، فحين رأت ذلك نادت أخواتها وولدها ، وكان أن نجا السليك ، ويدخل هذا فيما يسمى « طقس الميلاد الجديد » ذلك لأنه دخل بين ثوب فكيهة وجلدها ، وفى ضوء هذا يعتبر عند الميثولوجيين من أبناء الأرية أو أبناء الأثواب » فهنا طقس دينى كان معروفا فى الجاهلية (٣) ، وقد سجل هذا فى قوله (٤) :

---

(١) الأغانى ١٨ / ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢١٦ .

(٢) الاشتقاق ١٣٧ ، الكامل ٢ / ٥٧ .

(٤) الصورة فى الشعر العربى .د. على البطل ص ٤٨ ، ٤٩

(٣) المحبر ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

لعمر أبيك والأنباء تنمى لنعم الجار أخت بنى عوارا
من الخفرات لم تفضح أباها ولم ترفع لإخوتها شنارا
فما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف، وانتشلوا الخمارا

وإذا كانت امرأة سببا فى حياته وهو على وشك الموت ، فإن امرأة أخرى كانت السبب المباشر لموته . ذلك لأنه خرج مرة فلقى رجلا من خثعم يقال له مالك بن عمير . فما كان منه إلا أن أخذ الرجل وامرأته التى كانت معه ، وكانت من قبيلة خفاجة وتدعى « نوار » .

فما كان من الرجل الخثعمى إلا أن طلب منه ألا يفك إساره حتى يحضر مايفدى به نفسه وزوجته ، فوافق السليك ولكن بعد أن ذهب الرجل ، عدا على الزوجة ، وحين جعلت تقول له : احذر خثعم، قال :

تحذرنى أن أحذر العام خثعما وقد علمت أنى امرؤ غير مسلم
وما خثعم إلا لئام أدقة إلى الذل والإسحاق تنمى وتنتمى

وحين عرف ذلك شبيل بن ولاد ، وأنس بن مدرك خرجا له ، على غير رضا من الزوج الذى كان يثق فى كلمة السليك . وحين طرقاه أنشأ يقول :

من مبلغ حربا بأنى مقتول
يارب نهد قد حويت عثكول
ورب خرق قد تركت مجدول .. الخ

فقال أنس لشبيل : إن شئت كفيتك القوم وتكفينى الرجل فقال شبيل : لابل أكفيك القوم وتكفينى الرجل .

فشد أنس على السليك فقتله ، وحين طولب أنس بديته قال قصيدة منها :

إني وعقلي سُليكاً بعد مقتله كالثور يضرب لما عافت البقر (١)

. . .

وبمقتله (٢) نقف على تلك القصيدة الرائعة لهذه السيدة السوداء المسماة السلكة . فإلى جانب أنها تعطينا دليلا على شاعرية المرأة السوداء التي أتاحت لها الظروف . . وما أقسى هذه الظروف . . أن تقول الشعر ، فإنها تلقي ظلالا على شخصية السليك .. فهذه المرثية الحارة تقول :

طاف يبغي نجوة من هلاك فهلك
ليت شعري ضلّة أي شيء قتلك
أمريض لم تعد أم عدو ختلك
أم تولى بك ما غال في الدهر السلك
والمنايا رصّد للفتى حيث سلك
أي شيء حسن لفتى لم يك لك
كل شيء قاتل حين تلقى أجلك
طال ما قد نلت في غير كد أملك
إن أمرأ فادحا عن جوابي شغلك
سأعزّي النفس إذ لم تجب من سألك
ليت قلبي ساعة صبره عنك ملك
ليت نفسي قدمت للمنايا بدلك (٣)

. . .

وإذا كنا لم نقرأ له شعراً مباشراً في تأثير السواد عليه ، فيما عدا ما مر بنا من الحديث عن خالاته وعن دمامته ، فان القضية ترجع أساساً

---

(١) المختار ورقة ٧٥ وما بعدها ، وهناك رواية أخرى ورقة ٧٣ ، ولكنها في جوهرها لاتخرج عن هذه الرواية .

(٢) قتل نحو (١٧ هـ — ٦١٥ م) الأعلام للزركلي ٣٨١ .

(٣) الحماسة التبريزي ١ — ٣٨٦ .

إلى قلة شعره الذى وصل إلينا ، وقد تعرض الدكتور خليف لعدم وجود شعر يتحدث فيه السليك عن عدوه ثم قال : « وليس من شك عندى فى أن جانباً كبيراً من شعر السليك قد فقد ، فليس من المعقول أن كل مانظمه السليك من شعر لايعدو تلك الأبيات القليلة المتفرقة فى مصادر الأدب العربى المختلفة ، وإذا كنا قد لاحظنا أن مجموعة السليك الفنية لاتضم حديثاً عن هذا الجانب من حياته ، فاننا نلاحظ أيضا أنها لاتصور جوانب حياته الأخرى تصويراً كاملا أو شبه كامل »[1].

ومع موافقتنا الدكتور خليف على ضياع الكثير من شعره ، إلا أنا عثرنا على مايتعرض لعدوه فى قوله :

بخثعم مابقيت وان أبـــوه ... أوار بين بيشة والجفـــار

أوار تجمع الرجـــلان منه ... إذا ازدحمت ظنا بين الحضار[2]

وقد تعرض العقاد للسليك حين تعرض للحجر على المرأة والحجر على العبيد ، وذهب إلى أن الحجر على المرأة لايصل إلى الحد الذى يصل فيه على العبد ، ومع هذا فانه من السهل على الإنسان أن يعثر على العديد من الشخصيات المتميزة فى شعر الشعراء السود ، ولايكون التمييز لمجرد اختلاف الموضوع مع بقاء الطبيعة واحدة فى القصائد المختلفة بل هو تمييز بالروح وبالدلالة وبالأسلوب [3] .

فكونه شخصية متميزة شىء ، لاخلاف عليه ، وكون الأصمعى قد قال : إنه ليس من الفحول ، لايستدعى أن يقول الدكتور خليف فيما يقول إن شعره ليس من الجودة بحيث نأسف على ضياعه (٤) .

---

(١) الشعراء الصعاليك : ٢٢٤ .

(٢) سمط اللآلى ١ / ٤٧ ، ٤٨ ، والحضار والعدو ، وتجمع الرجلان منه : يريد الجد فى العدو والانكماش ، يقال جمع رجليه إذا طلب عدو دابته . والأوار : الشدة ، والظرب مسمار الرمح .

(٣) بين الكتب والناس ٧٥ .

(٤) فحولة الشعراء ورقة ١٥ ، الشعراء الصعاليك ٢٢٥ .

فما مر بنا من شعره لايضعه فى هذا المكان من الهوان ، وبخاصة تلك القصيدة التى تبدأ بقوله :

وعـــاشية راحت بطانا ذعرتها بسوط قتيل وسطها يتسيف

فالصدق يلف التجربة ، والبناء بالصور محكم ، والمفردات قريبة ، ثم إن لكلماته شكلا يشبه — إن صح التعبير — شكل المعنى عنده ، ثم إنه يلاحظ عليه نوع من العجلة فى تكوين البناء عنده ، بالإضافة إلى أن أبياته لاتشد التنفس شداً إلى الشطر أو البيت . وإنما تمكن القارئ من الوقوف عدة وقفات داخل البيت . « ولعل هذا يتفق وحركة شهيقه وضربات قلبه ووقع أقدامه وهو يسير — أو يستحضر السير — للغنم أو الموت ، وكثيراً ما نجد فى شعره « التصريع » وقد غنى له ابنُ سُرَيج « رمل بالسبابة فى مجرى الوسطى » :

مـــن الخفـــرات لم تفضح أخاهـــا ولم ترفـــع لوالدها شنارا . .
كـــأن مجـــامع الأرداف منهـــا نقا درجت عليه الريح هارا
يعـــاف وصال ذات البذل قلبى وأتبع الممنعة النوارا (١)

وهو نفسه قد كان يغنى لرجاله — ولعل هذا وراء سهولة شعره — فقد قال لهم : ألا أغنيكم ؟ فلما قالوا : بلى ، فغنى قائلا :

يا صاحبى ألا لا حىَّ بالوادى إلا عبيـــد وآم بين أذواد
أتنظران قليلا ريث غفلتهم أم تعدوان فان الريح للعادى (٢)

ومهما يكن من شئ فمن خلال ماوصلنا من شعره يمكن التعرف على تمرده وعلى الدوافع التى كانت وراء هذا التمرد والخروج على مجتمعه ، وأخيراً فانها تعطينا ملامح حاسمة لشخصيته .

---

(١) الأغانى ٤ / ٣٦٣ النقا (مقصور) : الكثيب من الرمل ، هار : سقط وتهدم . النوار : المرأة النفور من الريبة والجمع نور .
(٢) عيون الأخبار ٢ / ١٧٦ .

حول الشعراء السود

١ - امتداداً للشعراء الأغربة ، سنتعرض للشعراء المؤكدين على مستوى الأمة العربية ، سواء أسرى السواد إليهم من الآباء والأمهات ، أم جاء إليهم ، من قبل الأمهات فقط ، المهم أن يكون هناك إجماع على سواد الشاعر وعلى شاعريته وعلى تلك المادة التى تجلوه للناس ، ونحن ابتداء سيقابلنا شعراء أهملوا وضاعت ملامحهم مثل الشاعر « فَلْحَسَ » الذى نعرف من شعره ما قاله بعد أن ضربه مولاه :

ولولا عُرَيْقٌ فىّ من حبشيّة ... يردّ إباقى بعد حول مُجرَّمِ
وبعد السّرى فى كل طخياءَ حندس ... وبعد طلوعى مخرماً بعد مَخْرَم
علمت بأنى خَيْرُ عبد لنفسه ... وأنك عندى مغنم أى مغنم
أيضربنى فرداً ولو كان مفرداً ... تبيَّنَ أن الليث غير مقلم [١]

وهناك شعراء سود كانوا يقولون البيت والبيتين .

وهناك شعراء عوملوا بقسوة فلم يضيئوا إلا فوق رقعة صغيرة من الأرض ومن النفس ومن هؤلاء « داود بن سَلْم [٢] » من مخضرمى الدولتين : الأموية والعباسية ، والذى كان يقال له « الأرملك » و « الآدم

---

(١) الحماسة البصرية ١ / ٥٦ .
(٢) الأغانى ٦ — ١٠ / ٢٠ .

لشدّة سواده » و « أقبح الناس وجهاً » و « أبخل الناس » و « أسمجهم » وقد وصل الأمر به أنه تخايل مرة فى مشيته فاذا والى المدينة يضربه ضرباً مبرّحاً ، ومع أنه مدح عدداً من الرجال إلا أنه انقطع على ذل فى نفسه لقثم بن العباس ومما يحفظ له هذا الشعر الذى غنى فيه الغريض والذى جاء فيه :

ومن يُطع الهوى يعـرف هواه — وقـد يُنْبيك بالأمر الخبير
على أنى زفرت غداة هَرْشَى — فكاد يريبهم منى الزفير

ومما يعجب من شعره قوله :

وأعجب أنى لا أموتُ صبابةً — وما كمد من عاشق بعجيب[1]
وكل محب قد سلا غير أننى .. — غريبُ الهوى ياويح كل غريب !

٢ — وقبل أن ندخل العالم الحقيقى للشعراء السود نتريث قليلا عند من ذكر عن بعض الشعراء أنهم سود، ثم تبين لنا غير ذلك . فالدكتور يحيى الجبورى حين تعرض « للعباس بن مرداس السلمى » قال : مع أنه يكاد يكون إجماع على أن الخنساء أمه إلا أن ابن الكلبى ذكر أولاد المرداس منها ماعدا العباس ، أما صاحب المحبر فذكر أن أمه تسمى هندا ، إلا أنه حين يرى أن سنيح بن رباح يعدد فى قصيدته عظماء الزنوج فيقول :

وسليك الليث الهِزَبرّ إذا عـدا — والقرم عباس علوك فعـالا

يذهب إلى أن أمه هى هند بنت سنة بن سنان « وكانت زنجية سوداء »

ونحن من جانبنا لانرى هذا الرأى ، لأن اسم هند ابتداء لم يعرف فى الزنجيات ولأن امرأة وصفت خفاف بن ندبة فقالت رأيت رجلا شديد الأدمة شاعراً[2]، ثم حين وصفت العباس قالت : رأيت

(١) ديوان العباس ٣ ، ٤ .
(٢) الأغانى ١٥ / ٧٩ .

شاباً جميلا له وفرةٌ حسنة ، ثم إنه لايوجد فى شعره ولا فى أحاديث الذين عاداهم أنه أسود أو أن أمه زنجية ، ومن البدهى أنه لم ينسب إليها كخفاف فى نفس القبيلة ، على حين نراه يقول فى خفاف : والله لاأشتم عرضك ، ولا أسب أباك وأمك ، ولكن رمى سوادك بما فيك ، ونحن نجده فى شعره يقول :

هم سوّدوا هُجْنَنا وكـل قبيلـة   يبيّن عن أحسابها من يسودها(١)

من كل هذا نميل إلى الأخذ بأن أمه لم تكن زنجية ، وأنه لم يكن أسود .

. . أما الشاعر الثانى فهو « سحيم بن وثيل »

وما يهمنا هنا أن العينى فى باب المُعْرب والمبنى قد أخطأ عند الكلام عنه فقال : كان عبداً حبشياً وكان عبد بنى الحسحاس ، فهو هنا يخلط بينه وبين سحيم الآخر ، ونحن لاننسى أن ابن وثيل هو صاحب تلك القصيدة الشهيرة التى أولها :

أنا ابن جـلا وطـلاّع الثنايا   متى أضـع العمامة تعـرفونى

وهذا المطلع - بالإضافة إلى تتبع تاريخه - يدل على أنه غير أسود ، وهناك من قال : أنا ابن جلا وابن بيض وهما واحدوهو أول النهار ، وهناك من زعم أن جلى وأجلى معاً اسم رجل بعينه ، والرأى الراجح أن المقصود : أنا ابن الواضح المكشوف ، أما أن سحيما مصغر أسحم فالعرب كانت تسمى به على نحو مانعرف من سحيم بن الأعرف من بنى الهجيم (٢) .

(١) المصدر نفسه ١٦ / ٣٥ (ساسى) ، ديوان العباس ١٢٢ والمهجنة إنما تكون من قبل الأم .

(٢) خزانة الأدب ١ / ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، المفضليات ١٨ ، الدرة الفاخرة للأمثال للأصفهانى تحقيق عبد المجيد قطامش تحت الطبع) .

. أما الشاعر الثالث فهو « عمرو بن شأس »

ووقفتنا عنده ، لأن الدكتور نجيب البهبيتي قال : كان عمرو رجلا رقيق العاطفة ، ومن المصادفات أن يكون أسود اللون كعنترة ، وأن يكوّنا معا رأسى مدرسة العذريين (١) . ولما كان مرجعه فى هذا كتاب الأغانى رجعنا إليه وإلى غيره ، وقد وجدنا أن شبهة السواد جاءت من أن عَمْرا كان قد تزوج سوداء وأنجب منها ابنه عرارا ونص الأغانى هو : « كانت امرأة عمرو بن شأس من رهطه . ويقال لها أم حسان واسمها حية بنت الحارث بن سعد ، وكان له ابن يقال له عرارا من أمة له سوداء . وكانت تعيره وتؤذى عرارا وتشتمه ويشتمها (٢) » والنص الذى أورده التبريزى هو : « كانت له امرأة من قومه ، وابن من أمة سوداء يقال له عرارا ، فكانت تعيره إياه وتؤذيه، فأنكر عمرو أذاها .. (٣) الخ » ، ولعرار هذا قصة طريفة تتعلق بسواده مع عبد الملك حين أرسله إليه الحجاج برأس محمد بن الأشعث (٤)

أما الشاعر الرابع فهو « ذو الرُّمّة » .

ووقفتنا عنده لأنا وجدنا ابن قتيبة يقول : ومكثت ميّة زمانا لاترى ذا الرمة وتسمع شعره ، فجعلت لله عليها أن تنحر بدنة يوم تراه ، فلما رأت رجلا دميما أسود، وكانت من أجمل النساء فقالت : واسوأتاه(٥) ويلاحظ أن هناك تناقضاً بين أنها مكثت زمنا لاتراه وبين أنها حين رأت رأت رجلا أسود .

---

(١) تاريخ الشعر العربى ١٦١ — ١٦٣ .

(٢) الأغانى ١١ — ١٩٦ .

(٣) الحماسة ١ — ١٠٥ ، ١٠٦ ، الشعر الشعراء ، ٣٨٩ ، طبقات فحول الشعراء ١٩٩ ط ٢ .

(٤) الأغانى ١ — ١٠٩٩ ، الشعر والشعراء ٣٩٠ .

(٥) الشعر والشعراء ٥٠٦ .

وهناك من ذهب إلى القول ببياضه على نحو ماجاء فى تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق ، فقد جاء فيه « وكان ذو الرمة لطيف المنظر حسن الهيئة طويلا إلى رقة وبياض [1] » .. وعلى كل فنحن يرضينا ما قيل عنه من أنه كان شديد القصر دميا يضرب لونه إلى السواد [2] .

.. ويبدو أن « لعبة الألوان » هذه مغرية ، فمع أن ابن الرومى لاخلاف على بياضه إلى حد قول العقاد ، فذلك غير عجيب فى رجل له جد من الفرس وجد من الروم ، إلا أن محمد عبد الغنى حسن ذكر أنه وقع على نص فى هجائه للشاعر فرسان العمى يقول :

قد سوّد الله بعد القلب صورته   فوجهه مظلم الأقطار كالسبّج [3]

ثم يقول : فالهاجى هنا يصف شاعرنا ابن الرومى المهجو بسواد الصورة وإظلام الوجه .. الخ .. ، ومهما يكن من شئ فهذا النص قد قيل فى الهجاء ، ويبدو أن الشاعر - كما هو واضح من تركيب البيت - قد انساق انسياقاً إلى ماقال بحكم الصنعة .

.. ومن قبل ذلك رأينا من يذكر أن الشاعر السيد الحميرى كان أسود فهناك من قال : « كان السيّد جارى ، وكان أدلم ، وكان ينادم فتياناً من فتيان الحى فيهم فتى مثله أدلم غليظ الأنف والشفتين مُزَنَّج الخلقة ، وكان السيد من أنتن الناس إبطين ، وكانا يتمازحان فيقول له السيد : أنت زنجى الأنف والشفتين ، ويقول الفتى للسيد : أنت زنجى اللون والإبطين [4] » ورغم أن هذا الكلام قيل فى المداعبة ..

---

(١) ص ٨٧ .

(٢) طيف الخيال تحقيق حسن الصيرفى ١١٢ ، الأعلام للزركلى ٢ / ٧٦٢ .

(٣) ابن الرومى للعقاد ١١٠ ، ابن الرومى لمحمد بن عبد الغنى حسن ٢٢٣ ، والسبج الخرز الأسود .

(٤) الأغانى ٦ / ٢٩٦ .

إلا أنا شغلنا أنفسنا بهذا ، بحيث ارتحنا لرواية أبى جعفر الأعرج . فقد قال « كان السيد أسمر ، تام القامة . . الخ » وهناك رواية أخرى لاتخرج عن هذا (١) بالإضافة إلى ما يعرف عن حياته وعن شعره .

٣ — والآن سوف نتعرض لهؤلاء الشعراء السود الذين هناك إجماع على سوادهم، ومن خلال دراستهم سنرى أن لهم مذاقاً جديداً ، وسنرى أنهم لم يكونوا حصيلة للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فقط ، وإنما كانوا فى الواقع تجاوزا لكل هذه الظروف، وتحدياً لها . فقد قالوا كلمة جديدة متوترة وصادقة فى اللغة العربية . ذلك لأنهم حاولوا بقدر استطاعتهم تغيير الظروف من حولهم . حين عبروا بصدق عن التشققات التى فى نفوسهم ، وعن العذاب الذى يعانونه من صورتهم المهزوزة فى أعين الناس من حولهم ، ثم حين تركوا بصمات من هذا العذاب لاعلى مضامينهم فقط ، ولكن على أشكالهم كذلك . فقد كانوا فى مسيرتهم جرحى يطلبون الشفاء المستعصى عليهم .

ومع أن المجتمع العربى — وخاصة بعد أن ظهر الإسلام .. كان إلى حد ما يتعاطف معهم ، إلا أنه ظلت دائماً داخل هؤلاء الشعراء صرخات مكتومة ، فهم كما كانوا يرفضون عملية دمغهم بالسواد ، كانوا يرفضون كذلك الشفقة ، بل كانوا فى حالة توتر دائم من أن تكون هناك نظرة ذات دلالة معينة تنظر إليهم .

وسنحاول التعرف على هؤلاء الشعراء من خلال ما وصلنا عنهم .. وهو قليل بالنسبة لغيرهم — من غير حب أو كره بقدر استطاعة الإنسان حتى نحاول أن نقدمهم فى صورة موضوعية .

والآن فإلى هؤلاء الشعراء الذين تصدق عليهم هذه الكلمة على طول المسيرة العربية .

---

(١) المصدر نفسه ٦ / ٢٣١ ، ٢٣٢

١ ـ عبدة بن الطبيب

هو عبدة بن الطَّبيب ، والطبيب اسمه يزيد بن عمرو بن وعلة بن أنس بن عبد الله بن عبدنهم بن جشم بن عبد شمس ، ويقال أيضاً « عبشمس » بن سعد بن زيد مناة بن تميم[1] ، والعبدة واحدة العبد .

وهو من المخضرمين الذين أدركوا الإسلام ، وانضموا إلى جيوشه . فقد شهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمز عام ١٣ . كما كان فى جيش النعمان بن مقرن الذى حارب الفرس فى المدائن . « وكان عبدة أسود وهو من لصوص الرباب »[2] .

ومع أنه يذكر عنه أنه من الشعراء المجيدين غير المكثرين إلا أن مايروى عنه فى الجاهلية يدل على أنه كان راسخ القدم فى الشعر ، فقد ذكر عنه : أنه اجتمع مع الزبرقان بن بدر ، والمخبل السعدى ، وعمرو بن الأهتم ، قبل أن يسلموا ، وقبل أن يبعث النبى عليه السلام ،

---

(١) المفضليات ١١ ـ ١٣٢ ، النوادر فى اللغة ٦ ، وفى الاصابة ٤ ـ ١٠٠ (عبدة) بن الطبيب وهو تحريف .. وقد جاء فى شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف للعكبرى ـ تحقيق عبد العزيز احمد ص ٣٧٨ : « يقول العامة عبدة بن الطبيب بفتح الباء فى عبدة ، والصحيح تسكين الباء . والعبدة : واحدة العبد وهو نبت .

(٢) المفضليات ١ ـ ١٣٢ ، الأغانى ١٨ ـ ١٦٣ ط ساس ، الأعلام ٣ ـ ٢١٢ ، الاصابة ٤ ـ ١٠٠ ، الشعر والشعراء ٧٠٥ .

وبعد أن تم عقد اجتماعهم نحروا جزورا ، واشتروا خمرا ببعير . وجعلوا يشوون ويأكلون ويشربون ، فقال بعضهم : لو أن قوماً طاروا من جودة أشعارهم لطرتم فتحاكموا إلى أول من يطلع عليهم . فطلع ربيعة بن حذار اليربوعي فسروا به وحكموه . فقال : أخاف أن تغضبوا فأمنوه من ذلك .

فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن لاهو أنضج فأكل . ولاترك نيئا فينتفع به .

وقال لعمرو : وأما أنت فان شعرك كبرود حبر ، يتلألأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر قصر البصر

وقال للمخبل وأما أنت فشعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم .

وقال لعبدة : وأما أنت فان شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولاتمطر (١)

. . ثم بعد فترة الجاهلية نراه يدخل الإسلام ، ونراه يشارك مع الشعراء في الفتوح الأولى ، فقد اشترك فيها عدد كبير من الشعراء . من أمثال عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وأبي محجن الثقفى ، وربيعة ابن مقروم الضبي ، وأبي ذؤيب الهذلى ، وعمرو بن شأس الأسدى ، وقيس بن مكشوح المرادى ، وعروة بن زيد الخيل الطائى ، والنابغة الجعدى ، والشماخ ، والحطيئة ، وعبدة بن الطيب (٢) . فقد وضع كل هؤلاء الشعراء أنفسهم في خدمة الفتح ، وانطلقوا مع الجيوش العربية في تدافعها لخارج الجزيرة .

---

(١) الاصابة ٢/ ١٠٠ ، الموشح / ١٠٨

(٢) الأغانى ١٨ / ١٦٣ ، شعر الفتوح الاسلامية . النعمان عبد المتعال القاضى ١٨٠

وفى هذه الفترة رثى قيس بن عاصم المنقري التميمى بقوله (١) :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية من أوليته منك نعمة إذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وقد وقف كثيرون عند هذا البيت الأخير . فقال أبو عمرو بن العلاء : هذا البيت أرثى بيت قيل ، وقال ابن الأعرابى : هو قائم بنفسه ماله نظير فى الجاهلية والإسلام (٢) . وقد جعله صاحب كتاب عنوان المرقصات والمطربات فى المطرب ، والمطرب عنده هو « ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع إلا أن فيه مسحة من الابتداع (٣) »

ويمكن أن نتعرف عليه — على قلة ما يروى عن حياته الخاصة — من تلك الرواية التى تقول : إن رجلا قال لخالد بن صفوان كان عبدة لايحسن أن يهجو ، فقال : لاتقل ذاك فوالله ماأبى عن عىّ ، ولكنه كان يترفع عن الهجاء ، ويراه ضعة ، كما يرى تركه مروءة وشرفا (٤) ، ومما يحفظ له فى هذا هجاؤه ليحيى بن هزال (٥)

وشعر عبدة يكاد يكون مقصوراً — وقد مر بنا ماقيل من أنه كان مقلا — على تلك القصيدة التى رويت له فى المفضليات وتبلغ واحداً وثمانين بيتاً ، وإلى قصيدة أخرى تبلغ أبياتها الثلاثين .

---

(١) قصة مابينهما فى الأغانى ١٤ / ٨٣ .

(٢) الحماسة : التبريزى ١ / ٣٣٤ ، الاصابة ٤ / ١٠٠ ، المفضليات ١ / ١٢٢ .

(٣) المرقصات والمطربات ٢١ ، وقد نقد صاحب البديع بيته الذى يقول :

يحملنى اترجة نضح العبير بها كأن تطيابها فى الأنف مشموم

فقال : إن الشم لايكون بالعين وإنما هو بالأنف ، والتطياب أيضا من اقبح المصادر وأبرزها واقشها ، على أنه يمكن اعتبار هذا مما يسمى حديثا تراسل الحواس

(٤) الأغانى ١٨ / ١٦٣ .

(٥) الحيوان ٥ / ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٦ / ٦٨ .

فهو قد قال القصيدة الأولى فى حرب المسلمين مع الفرس « ونحن نميل إلى أن تكون هذه القصيدة قد قيلت فى وقعة نهاوند ، التى وقعت بعد تمصير الكوفة التى يشير إليها الشاعر [1] » .

وهذه القصيدة قد حيرت بعضهم ، لأنه يرى فيها مجلساً حاراً للشراب وكأن الإسلام لم يحرمها ، ولولا ماذكره عرضاً من أن قوماً كانوا يجاهدون العجم ما عرفنا أنه من الغزاة المجاهدين الذين شاركوا فى الفتوح [2]

وهناك من وقف حائراً أمام هذه القصيدة الرائعة إلى حد أنه رأى فيها جزأين واضحين ومختلفين فى مدلولها وصياغتها ، فأحدها إسلامى والآخر جاهلى « وليس ببعيد أن يكون أحد الرواة قد مزجهما فى قصيدة واحدة على هذا الشكل الذى نراها عليه ، ورويتها به الروايات [3] » وهذه الأبيات هى :

وقد غدوتُ وقرن الشمس منفتق ودونه من سواد الليل تجليل
إذ أشرف الديك يدعو بعض أسرته لدى الصباح وهم قوم معازيل[4]
إلى التجـار فأعـدانى بلذته
رخو الإزار كصدر السيف مشمول [5]
خرق يجد إذا ما الأمر جد به مخالط اللهو واللذات تضليل [6]

(١) شعر الفتوح الاسلامية ١٨١ .

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى د. شوقى ضيف ٢٣ .

(٣) شعر الفتوح الاسلامية ١٨٤ .

(٤) المعازيل : العزل من السلاح .

(٥) التجار : الخمارون ، أعدانى : أعاننى .

(٦) الخرق : المتخرق فى فنون الخير والمعروف .

حتى اتكأنا على فرش يزينها | من جيد الرقم أزواج تهاويل (١)
فيها المجاج وفيها الأسد مخدرة | من كل شيء يرى فيها تماثيل (٢)
.. فى كعبة شادها بان وزينها | فيها ذبال يضيء الليل مفتول (٣)
لنا أصيص كجذم الحوض هدمه | وطء العراك، لديه الزق مغلول(٤)
والكوب أزهر معصوب بقلته | فوق السياع من الريحان أكليل(٥)
مبرد بمزاج الماء بينهما . | حب كجوز حمار الوحش مبزول(٦)
والكوب ملآن طاف فوقه زبد | وطابق الكبش فى السفود مخلول(٧)
يسعى به منصف عجلان منتطق | فوق الخوان وفى الصاع التوابيل
ثم اصطحبت كميتاً قرقفا أنفا | من طيب الراح ، واللذات تعليل
صرفا مزاجا وأحيانا يعللنا . | شعر كمذهبة السمان محمول (٨)
تغدو علينا تلهينا ونصفدها | تلقى البرود عليها والسرابيل(٩)

وجو القصيدة العام كما جاء فى المفضليات أن عبدة كما قال الطبرى ٤ — ٤٣ قد هاجر لمهاجرة حليلة له حتى شهد وقعة بابل ، فلما آيسته رجع

---

(١) الرقم : ضرب من الوشى ، الأزواج : الأنماط ، وهى البسيط ، التهاويل : الألوان المختلفة .

(٢) مخدرة : فى خدرها ، وهو أجمتها .

(٣) الكعبة : بيت مربع . شادها : رفعها . الذبال : الفتائل .

(٤) أصيص : دن مقطوع الرأس كأنه جذم الحوض قد هدمه عراك ابل عليه فبقيت منه بقية .

(٥) أزهر : أبيض . قلة كل شيء : أعلاه . السياع : كل ماطلى به من طين او جص او نحـــوه .

(٦) بينهما : بين الأصيص والكوب . الحب (بالضم) : الجرة الضخمة : الجوز : الوسط مبزول : مثقوب .

(٧) طابق الكبش : ربعه أو قطعة منه . مخلول : مشكوك فى السفود .

(٨) السمان : وشى .

(٩) نصفدها : نعطيها .

إلى البادية وقال الأبيات الأولى ، ثم تحدث فى بُعْد « خولة » عنه وحلولها بالمدائن حيث يقارع العرب رءوس العجم ، وشكا ما يخامر قلبه من تذكرها ، ثم طفر إلى إعلان عزمه على نسيانها بالرحلة على ناقة وصفها ووصف طريقها ، وشبهها بالثور قد ساورته كلاب الصائد يصارعها وتصارعه حتى غلبها ونجا ، ثم تحدث عن عدوه فى المفاوز القاحلة ، ووصف منها آجنا أورده القوم بعد لأى وجهد ، وأنهم قعدوا يتعجلون الطعام ، حتى إذا كان الأصيل رحلوا على العيس يرجون فضل الله ، ثم فخر بخروجه للصيد فى الكلأ العازب . ونعت فرسه . ثم وصف غدوته عند انشقاق الصبح إلى الخمارين . ووصف مجلس الشراب [1] .

من كل هذا نرى أن هناك خيطا هرب يلف القصيدة ، وهذا الخيط كما يتمثل فى الهرب بالشراب . ومن هنا يكون الجزء الخاص بالشراب طبيعيا فى القصيدة ، ثم إنه قد مر بنا النص الذى يؤكد ولعه بالشراب فى الجاهلية .وليس معنى دخول شاعر فى الإسلام أنه قد تخلص تماماً من نزواته .

ونحن إذا قارنا هذه الأبيات بباقى القصيدة نجد أن طريقة التناول واحدة ، ونحس بنفس الإيقاع الذى يلف القصيدة كلها . بالإضافة إلى الإدراك الحسى الذى ينشأ عن التصور وهو « استحضار صور المدركات الحسية عند غيبتها عن الحواس . دون التصرف فيها بزيادة أو نقص ، أو تغيير أو تبديل . وذلك كاستحضار صورة حديقة رأيتها من قبل ، أو استدعاء صورة حادثة شاهدتها . أو استحضار نغمة قطعة موسيقية سمعتها . وإلى اختلاف الناس فى الإدراك الحسى يرجع اختلافهم فى التصور والقدرة على التصوير [2] » فهو مثلا حين يقول :

---

(١) المفضليات ١ / ١٣٣ .

(٢) دراسات فى علم النفس الأدبى . حامد عبد القادر ٣٢ .

لمــا نزلنا نصبنا ظِــلّ أخبية   وفار باللحم للقــوم المراجيــل
وردٌ ، وأشقــر ماينيه طابخه   ما غيّر الغلى منه فهــو مأكول
وقد وثبنا على عوج مسومة   أعرافهــن لأيدينا مناديل (١)

إنما يصف مارآه وأحسه معتمدا فى ذلك على عملية التصور . فقد استحضر الأخبية وظلالها ، والمراجيل الفائرة ولون اللحم وغليان الماء به، ثم التهام هذا اللحم بمجرد أن يغيره غليان الماء « وهذا تصوير مطابق للواقع لازيادة فيه ولاتغيير ولاتبديل (٢) »

فاذا انتقلنا من هذه الصورة المستحضرة إلى صورة ذهابه إلى حوانيت الخمارين مع صياح الديك ورفيق راغب فى اللهو واللذة ، وجدنا كيف بسطت الفرش المزينة بصور الدجاج والأسد ، ووجدنا ذبال الضوء يكشف عن الزق والكوب والريحان ، وسمعنا صوت الزبد وشممنا رائحة الشواء وأشياء أخرى يعدها الخادم فوق المائدة « واصطبح الشاعر بما شاء من طيب الراح ، وتابع الشرب صرفا وممزوجا على الريحان ، وعلى شعر مذهب لآنسة جيداء ، صوتها ترتيل ، تغدو على الشرب وتروح ، فتلهيهم تارة وتارة أخرى يحاصرونها ، يلقون عليها بردهم وسراويلهم إعجاباً (٣) »

من كل هذا نخالف من يقول : إن القصيدة قصيدتان . نراها قصيدة واحدة رائعة حتى لو قضى الشاعر ليلة جاهلية فى أيام إسلامية ، ثم أخيرا هل معنى هذا أنه كان هناك تحول أساسى فى نفوس العرب جميعاً بعد أن اعتنقوا الإسلام ، وبخاصة عند الشعراء ؟

---

(١) هذه رواية الكامل للمبرد ١ / ٢٦٥ ، وفى المفضليات : وردا وأشقر لم ينهئه طابخه وقيل ان عبد الملك بن مروان قال لأصحابه : أى المناديل أفضل ؟ فقيل مناديل مصر التى كأنها عرقىء البيض (القشرة الملتصقة ببياضها) وقيل مناديل اليمن التى كأنها أنوار الربيع ، فقال ما صنعتم شيئا . . أفضل المناديل مناديل عبدة (العقد الفريد) مكتبة صادر من ١٤٤ .
(٢) دراسات فى علم النفس الأدبى ٣٢
(٣) شعر الفتوح ١٨٣ .

. إن بعض هؤلاء الشعراء الفاتحين ، قد فعلوا مثل الذى فعله شاعرنا حين رأوا هذا العالم الخارجى المائج بالنشوة واللذة ، على نحو مانعرف من النعمان بن عدى بن نظلة الذى وُلِّى أعمال دست ميسان لعمر بن الخطاب فقد قال فيما قال : :

لَعَلَّ أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا بالجوسق المتهدم ؟

وقد بلغ عمر هذا فقال : وايم الله ... قد ساءنى (1) ! »

ثم إن الصبوة والمرح والاستمتاع فى هذه القصيدة لا يتناقض مع تلك القصيدة الأخرى على نحو مايرى النعمان عبد المتعال القاضى (2) ، والتىّ يوصى فيها بنيه وصايا نابعة من الدين الإسلامى . ذلك لأنه كتب هذه القصيدة ، « لما أسن ورابه بصره (3) » . وفيها يقول :

أبنىّ إنى قد كبرت ورابنى بصرى ، وفىّ لمصلح مستمتع

فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا تبقى لكم منها مآثر أربعُ

. أوصيكم بتقى الإله فانه يعطى الرغائب من يشاء ويمنع

وبرّ والدكم ، وطاعة أمره إن الأبر من البنين الأطوع

إن الكبير إذا عصاه أهله ضاقت يداه بأمره ما يصنع

ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم إن الضغائن للقرابة توضع

واعصوا الذى يُزجى النمائم بينكم متنصحاً ، ذاك السمام المنقع (4)

وهذه القصيدة طويلة ، وقد علق على بعض أبياتها الجاحظ فقال : وهذا الشعر من غرر الأشعار ، وهو مما يحفظ (5) كما استشهد البحترى

---

(1) الاصابة ٦ / ٤٣ ؛ وهناك أخبار عن الأشراف الذين حدوا (نهاية الأرب ٤ / ٩٠ وما بعدها) .

(2) المصدر نفسه ١٨٤ .

(3) المفضليات ١ / ١٤٣ .

(4) المفضليات ١ / ١٤٣ ، الشعر والشعراء ٧٠٥ .

(5) الحيوان ٤ / ١٦٨ .

ببعض أبياتها على ما قيل فى النمائم (١) ، ومما يتصل بهذه القصيدة تركيزه على قضية الزمن والإنسان فى قوله :

إذا الرِّجـالُ ولـدتْ أولادُها   واضْطَرَبَتْ من كِبرٍ أعضادُهـا
وجعلت أسقامُها تعتادُهـا   فهى زروعٌ قد دنا حصادُها(٢)

وما نريد أن نؤكده أن عبدة بن الطبيب كان رائدا من رواد فن الخمريات ، وأن من جاءوا بعده — وبخاصة أبا نواس — قد تأثروا به « ولكن هؤلاء الأوائل لم يكن أحدهم يقف شعره أو معظم شعره على وصف الخمر ، وإنما كانوا يمسونها مساً ، أو يطيلون فى وصفها إذا سنحت بذلك سانحة ، حتى إذا كان الفتح وثبتت دعائم الملك العربى فى أيام بنى أمية ، واطلع الناس فى الأراضى المفتوحة على ألوان أخرى من الحياة تقع منها الخمر موقعاً أصيلاً ، وجدنا الشاعر يقف شعره كله على وصفها ، ووصف مايتصل بها من ألوان اللهو ، وهو إذ يفعل ذلك لايفعله فى أرض عربية خالصة ولكن فى أرض أعجمية (٣) » .

صحيح إن مذهب الخمريات ليس مذهباً حجازياً . ولكنا نجد عددا من الشعراء قد شهروا به مثل طرفة ، وعمرو بن كلثوم ، — وعبادة بن الطبيب ، وعلى هذا يكون التأثير فيهم راجعاً فى الأرجح إلى العراق « فهو فن تدعو إليه الحياة العراقية من خالط العراقيين من غيرهم (٤) » ونحن قد مرت بنا صلة عبدة بن الطبيب بفارس .

وقد احتج به بعض رجال اللغة على شرح بعض الكلمات (٥) ، ثم إن البلاغيين قد اهتموا به واستشهدوا بقوله :

والمـرء ساع لأمر ليس يدركه   والعيش شحٌ وإشفـاقٌ وتأميل

---

(١) الحماسة ٢٤٠
(٢) الوحشيات لأبى تمام ص ١٥٦
(٣) تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى ٤٢٠ ، ٤٢١ .
(٤) المصدر نفسه ٣١٣ .
(٥) مجالس ثعلب ٢٩٤ ، اللسان ٨ / ٩٢ .

على مايسمى بصحة التقسيم (١) . . وأدركوا أن على بن الجهم وآخر . . لم يذكر اسمه — قد تأثرا فى وصفها لبعض الحيوانات بقوله فى ثور : لسانه عن يسار الشدق معدول (٢) وقالوا : إنه كان « شاعراً مفلقاً (٣) » .

. . وقد رد الجاحظ على من خطأه فى قوله : إذا صفق الديك يدعو بعض أسرته ، بدعوى أن الديكة تتجاوب بقوله : إنما أراد توافى ذلك منها معاً فجعلها دعاء وتجاوباً (٤) وقد أورد له أسامة بن منقذ تلك الأبيات تحت عنوان فصل آخر فى ذكر الديار :

كأن ابنة الزّيدى يوم لقيتُها ... هنيدة مكحول المدامع مُرْشِقُ
تراعى خَذُولاً ينفضُ المَرْدَ شادنا ... تنوش من الضّال القذاف وتعلق
وقلت لها يوما بوادى مُبايِضٍ ... ألا كلُّ عانٍ غير عانيك يُعْتَقُ ..
يصادفُ يوما من مليك سماحة ... فيأخذ عرض المال أو يتصدّق
وذكّرنيها بعد ما قد نسيتُها ... ديار عليها وابل مُتبعِّقُ
وقفت بها والشمس دون مغيبها ... قريباً فهاج الشوق من يتشوق ..
قليلا ، فلما استعجمت عن جوابنا ... تعزيت عنها ، والدموع ترقرق
فلا الدار تدنيها لنا غير فينة ... ولا حبها عن شاحط النأى يخلق (٥)

ووقف الجاحظ عند رأيه فى عدم تعليم الصبى العداوة (٦) واستشهد

---

(١) المختار من الصناعتين ١٧٢ ، وجاء فى البيان والتبيين ١ / ٢٤١ إن عمرا أعجب من حسن ما قسم وفصل .

(٢) الجمان فى تشبيهات القرآن ٨٦ .

(٣) المصدر نفسه ٨٦ .

(٤) الحيوان ٢ / ٢٥٤ .

(٥) المنازل والديار تحقيق مصطفى حجازى ٨٣ ، معجم البلدان ٧ / ٣٧٩ .

(٦) الحيوان ١ / ٤٠ .

له البحترى فى باب قبح الصبابة بذى الشيب[1] ، ثم إن رجال اللغة قد أخذوا عليه قوله :

فبكى بناتى شجوهن وزوجتى والطامعون إلىَّ ثم تصدَّعوا

فلو قال فبكت لكان جيداً ، ويقال هي زوجي ، وكان الأصمعي يكره هي زوجتى ، وقد قرئ عليه الشعر فلم ينكره[2] ، وإنما لج الأصمعي لأنه كان مولعاً بأجود اللغات ويرد ما ليس بالقوى[3] .

وقد استشهد ابن رشيق له فى باب الرجز والقصيد بقوله :

باكرنى بسحرةٍ عواذلى وعذلهنّ خبلٌ من الخبل
يلمنني فى حاجةٍ ذكرتها فى عصر أزمان ودهرٍ قد نسل[4]

ثم إن « الاقواء » قد وقع فى شعره عند قوله :

.. ينتحزن ما بين مخجونٍ ومركول

وفى تلك القصيدة التى أولها :

هل حبلُ خولةَ بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ[5]

ولعل من الضرورة هنا التأكيد على ما يمكن أن يسمى بعروبة علم البديع فالحلى اللفظية التى سميت بالبديع وجدت فى شعر امرئ القيس وطرفة والحارث بن حلزة وعنترة وعبدة بن الطبيب ، وبهذا يكون هذا العلم ذا وجه عربي ، وبهذا يكون الرد على القائلين باقتباسه ، إن التشابه قد يكون أثرا لمؤثر واحد ، كأن يكون كل منها قد أخذه عن سابق لهما ، أو قد يكون كل منهما قد جرى فيه مجرى التوازى مع الآخر لأنه من

---

(١) الحماسة ٣١٣ .
(٢) النوادر ٢٣ .
(٣) مجالس العلماء للزجاجى تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦ .
(٤) العمدة ص ١٢١ ط ١ .
(٥) شرح المفضليات الأنبارى ص ٢٧٣ .

الأشياء المشتركة فى الشعر ، فلا داعى لانتظار أمة من الأمم الكى نقول للتى لحقتها أنها لابد آخذة عنها (١) .

والآن يأتى سؤال يقول : وأين إحساس عبدة بن الطبيب بالسواد؟ والجواب على هذا أن هناك إجماعاً على سواده ، ولكن أحداً لم يتحدث عن عبوديته ، وقد يكون السواد عرقاً بعيداً نزعه ، ولكن الذى لاشك فيه أن ما روى من شعره القليل لا يمكن أن يعطى صورة متكاملة عن حياته ، وعن صراعاته :

إنه قد يلتقى فى الخصائص الموجودة عند الشعراء السود . ولكن الشىء الغريب من الموضوعية أنه -كما ذكرعنه - لم يكن مكثرا من جهة . ولم يصلنا كل شعره من جهة أخرى ، رغم أنه يبدو أنه عاش فترة كبيرة (٢) ، وفى الوقت نفسه ينبغى ألا ننسى أن حياته فى الجاهلية وإن كانت غير واضحة ، إلا أن الفترة التى قضاها فى الإسلام كانت تتميز بالمساواة المطلقة بين الناس .. كل الناس .

---

(١) تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث ص ٢٧٢ .

(٢) توفى عام ٢٥ هـ (تثقيف اللسان لابن مكى الصقلى تحقيق د.عبد العزيز مطر ص ١٢٢ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية) .

٢ ـ سحيم عبد بنى الحسحاس

قيل فى اسمه حبة [١] ، ويكنى أبا عبد الله ، وأول ما يعرف عنه أن عبد الله بن أبى ربيعة قد اشتراه وكتب إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه : إنى قد ابتعت لك غلاماً شاعراً حبشياً ، فكتب إليه عثمان : لاحاجة لى به فأردده ، فإنما قصارى أهل العبد الشاعر إن شبع أن يشبب بنسائهم ، وإن جاع أن يهجوهم ، فرده عبد الله واشتراه أبو معبد [٢] . وقيل إن مولاه هو جندل بن معبد من بنى الحسحاس بن نفاثة [٣] .

وقد اتفق جميع من كتب عنه على أنه كان حبشياً ، ولم يشذ عنهم إلا ابن معصوم الذى قال : « كان عبدا أسود نوبياً أعجمياً مطبوعاً فى الشعر اشتراه بنو الحسحاس فنسب إليهم ، وهم بطن من بنى أسد [٤] » .

---

(١) سحيم مصدر أسحم وهو الأسود تصغير مرخم ، ويجوز أن يكون مصدر سحم ، وهو ضرب من النبات والأول أجود (خزانة الأدب ٢ / ١٠٥ ، ١٠٦) .

(٢) المقتالين ورقة ٩٠ ، الخزانة ٢ / ١٠٤ ، الشعر والشعراء ١ / ٣٦٩ ديوان سحيم ٥

(٣) سمط اللآلى ٧٢٠ ، ٧٢١ .

(٤) سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر .

ونحن نميل إلى أنه كان من المنطقة التي تشغلها جمهورية السودان الآن ، ولم يكن حبشياً ، لأن ابن قتيبة ذكر أنه كان « معلطا » (١) وكذلك صاحب مخطوط رفع شأن الحبشان (٢) .

وعادة التعليط هذه أو « التشليخ » كما تعرف عند السودانيين لم تعرف في الحبشة ، ومن هنا خطيء أبو حيان النحوى لأنه اختلط عليه بين السودانية المشلخة والحبشية التي لا تشلخ فقال :

وبي حبشيّة سلبت فـــؤادى ... فليس يروق شيء سواهـــا
كأن لعـــوطهـــا طـــرق ثـــلاث ... تسير بها القلوب إلى هواها (٣)

أما أنه كان ينشده شعره ثم يقول : « أحسنك والله » أو « أهننك والله » واللغة الحبشية تستخدم الكاف للمتكلم والمخاطب بدلا من التاء التي تستعمل في العربية ، فانه يرد على هذا بأن النحاة قد أتوا شاهدا على إبدال الكاف من التاء قول الراجز :

يابن الزبير طـــالما عصيـــكا ... وطـــالمـــا عنيتنا إليكـــا
لنضربن بسيفنا قفيكا (٤)

ثم إن هذه الكلمة رويت عنه « أهسنت والله » كما رويت « أهشند والله (٥) » .

---

(١) الشعر والشعراء ١ – ٣٦٩ .

(٢) ورقة ١٣١ ، ١٣٢ ، والمعلط : هو الموسوم بالعلاط ، وهى خطوط تجعل سمة فى عرض عنق البعير ، ثم نقلت للإنسان ، وهى بعبارة أخرى مايعرف فى السودان باسم الشلوخ (الشعر الحديث ، عبده بدوى ١٢٤) .

(٣) يراجع الشعر الحديث فى السودان د. عبده بدوى ٣٢٥ .

(٤) بين الحبشة والعرب ١٢٦ ، ديوان سحيم ٥ ، خزانة الأدب ٢ / ٢٥٧ ط بولاق

(٥) خزانة الأدب ٢ / ١٠٤ وروى أن عمر حين قال له لو قدمت الاسلام على الشيب لأجزتك حين أنشده بعض شعره قال : ما سعرت يريد ماشعرت (البيان والتبيين ١ – ٧٢) .

. ويروى أن أول ما تكلم به من الشعر أنه أرسل رائدا ، فجاء وهو يقول :

أنعـــت غيثا حسنا نباتــه كالحبشى حـــوله بناتـــه

فقال من سمعه شاعر والله [1] .

وسحيم من المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام « ولايعرف له صحبة [2] » وقد أدرك النبى عليه السلام ، وقيل : إن النبى تمثل بشعره فقال : كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : إنما قال الشاعر . كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً ، فلما أعادها النبى كالأول . قال أبو بكر : أشهد أنك لرسول الله (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) . وقيل : إن سحيما أنشد هذه القصيدة لعمر بن الخطاب ، فقال له عمر : لو قدمت الإسلام لأجزتك ، كما قيل : إن النبى عليه السلام أنشد أمامه قول سحيم :

الحمد لله حمدا لا انقطــاع لـــــه فليس إحسانه عنا بمقطـــــوع

فقال : أحسن وصدق والله يشكر مثل هذا ولئن سدد وقارب إنه لمن أهل الجنة [3] .

. . والذى يبدو أنه عاش حياة عابثة تحت ظل أنه عبد دميم أسود لاخطر منه ، فقد جالس نسوة من بنى صبير بن يربوع ، وأجرى معهن هذا التقليد الذى يتلخص فى أنه كان من شأنهم إذا جلسوا للغزل « أن يتعابثوا بشق الثياب وشدة المعالجة على إبداء المحاسن » وقد صور سحيم هذا بقوله :

كـــأن الصبيريات يوم لقيننـــا ظباء حنت أعناقهـــا فى المكانس

---

(١) سلافة العصر ٢٨٦ .

(٢) خزانة الأدب ٢ / ١٠٢ .

(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٠٢ ، ١٠٣ ، والأغانى ٢٠ / ٢ .

وهن بنات القوم : إن يشعروا بنا

يكن فى بنات القوم إحدى الدهارس

فكم قــد شققنا من رداء منيَّر ومن برقع عن طفلة غير عانس
إذا شق برد شق بالبرد برقــــع دواليك .. حتى كلنا غير لابس(١)

ويبدو أنه كان من الظرف وخفة الروح إلى الحد الذى يجعل النساء يأخذن سواكه ، ويعطينه خاتماً ذهبياً للذكرى :

تعــاورن مسواكى، وأبقين مذهبا من الصوغ فى صغرى بنان شماليا

كما أنه كان جسورا إلى الحد الذى يخرج فيه وراء فتاته فلا تقاوم ، وإنما تقول له هذه الكلمة الرقيقة : ياويح غيرك ، ثم تستجيب له بعد أن تشى بأملها عنده :

وماشيةٍ مشى القطــاة اتَّبعتهــا من الستر . تخشى أهلها أن تكلّما
فقــالت له : ياويح غيرك إننى سمعت كلاما بينهم يقطر الدما
فنفَّض ثوبيْه ، ونظَّــر حــوله ولم يخش هذا الليل أن يتصرّما
نعفى بآثار الثيــاب مبيتنــا ونلقُط رفْضا من جمان تحطمّا ..
ألا حبَّذا مَسْرَاك ، من ثم ليلــة طرقت على شحط النوى أم أسلما

وفى ديوانه نعثر على عدد كبير من النساء فهناك « عميرة » وإن كان أبو عبيدة يقول : إن صاحبته التى شغف بها تسمى « غالية » وهى من أشراف تميم بن مر ، ولكنه لم يتجاسر على ذكر اسمها ، وهناك . « هند » وهناك « مية » وهناك « أسماء » وهناك « سليمى » ، وهناك جارتان له « أم عمرو وتربها » ، ثم هناك تلك التى تلهف عليها هذه اللهفة العارمة فقال :

---

(١) ديوان سحيم ١٥ — ١٦ .

(٢) المصدر نفسه ٢٦ .

فياليتنى من غير بلسوى تصيبنى أكون لأجمال ابن أيمن راعيا
وفى الشرط أنى لاأبـاع وأنهم يقولون غـبّق يا عسيف العذاريا
فأسند كسلى بزهـا النوم ثوبها إلى الصدر والمملوك يلقى الملاقيا
فلما أبت لا تستقل ضممنهـا ترى الحسن منها والملاحة باديا

وهناك تلك المرأة التى ضحكت شامتة به وهو يسير إلى القتل ، فقال :

فان تضحكى منى فيا طول ليلة تركتك فيها كالقباء المفرّج (١)

والذى يبدو أنه مرت فى حياته أكثر من تجربة ، ولكن التى شغفته عشقاً كانت تلك التى قتل بسببها . وسواء أكانت أخت سيده ، أم ابنته ، أم من علية القوم ، فان عشق كل منها للآخر كان عشقاً مادياً حارا ، إنا نسمع فى جسم عشيقته رنين اللذة ، ونحس أنه متفتح الحواس عليها بطريقة لافحة ، سواء أكانت تلك الحواس التى دربها العقل مثل السمع والبصر ، أم تلك الحواس غير المدربة كالذوق والشم ، ومن هنا لانرى هذا الشاعر يعطى الجنس لمسة إنسانية ، وإنما نراه يدنس الجسد . ويقف عند حد التعامل مع العناصر المادية البحتة :

وبتنا وسادانـا إلى علجـانة وحقف تهاداه الرياح تهاديـا
توسدنى كفـا ، وتثنى بمعصم على ، وتحوى رجلها من ورائيا
وهبت لنا ريح الشمال بقـرّة ولا ثوب إلا بردها وردائيـا
. . وأشهد عند الله أن قد رأيتها وعشرين منها إصبعا من ورائيا

فهو يتعرض الجنس هنا بطريقة واضحة مباشرة . وبكلمات حادة ومتوترة . والعملية الجنسية لها فى كل لغة كلمات سافرة وكلمات معماة ، ولكن الناس تقبل دائماً على الكلمات المعماة فى هذا الموقف « وكذلك

---

(١) ديوان سحيم ١٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٥٧ ، و ٥٩ .

كل مايتعلق بالزنا أو هتك العرض أو العربدة فقد بلغ الأمر ببعض اللغات أن أصبحت تكنى عن أسماء الزوجة ، وعن الملابس الداخلية للإنسان [1] » وقد كنى القرآن الكريم عن العملية الجنسية بألفاظ كريمة هى : السر ، والحرث ، والإفضاء ، والملامسة ، والدخول والرفث ... وتكنى عنها العامة بالنوم والاستحمام والاجتماع [2] .

ولكن الملاحظ أن الشاعر سحيم ترك ألفاظه المدبية فى هذه القصيدة – وفى غيرها – تحدد الوضع الجنسى بطريقة لم تعرف إلا عند الشعراء السود أو الذين كان له بهم اتصال كامرئ القيس ، وعمر بن أبي ربيعة .

ومن الغريب أنه ينتقل فى هذه القصيدة من مغامراته الجنسية إلى التحدث عن ثور قوى تتحاشاه الكلاب ، وكيف يأخذ فى حفر عروق شجرة ليكتن من البرد والمطر ، ولكن رامياً بكلابه يناوشه فيذود عن نفسه ذياد الإبل العطاش التى تمنع من الماء – وهو يتحدث فى شعره كثيرا عن العطش الجنسى [3] – ثم يتحدث بعد ذلك عن البرق وعن السحاب الذى يشبهه بالناقة حين يصيبها المخاض ، ومن خلال الحديث عن الثور وعن البرق والسحاب يحس الإنسان أن الشاعر يتكلم عن نفسه من خلال الثور ، وعن الجنس من خلال السحاب وامتزاجه بالبرق والرعد ثم اختلاطه بالأرض السهلة اللينة (٤) ، فكأنه يتحدث عن مغامرته مرتين ؟ وكأنه يريد أن يقول : إن الطبيعة تفعل مثله ؟ وعلى

---

(١) دلالة الألفاظ . د. ابراهيم أنيس ١٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٣٨ .

(٣) نرى هذا فى قوله عن عشيقه :

سقتنى على لوح من الماء شربة سقاها بها الله الذهاب الغواديا

اللوح : العطش (الديوان ٢٠) .

(٤) على حد تعبيره (يفقئن بالميث الدماث السواريا) يفقئن : يشققن ، والميث : جمع ميثاء ، وهى الأرض السهلة واللينة .

كل فهو ينهى القصيدة بالبيت الواحد والتسعين وله دلالته .. وهذا البيت هو :

فأصبحت الثيران غرقى ، وأصبحت نساء تميم يلتقطن الصّياصيا

وهو يسمى الأشياء بأسمائها فى قوله :

ياذكرة مالك فى الحاضر تذكرها وأنت فى الصادر
من كل بيضاء لها كعثبٌ مثل سنام البكرة المائر (١)

والعشق عنده نوع من المرض ، وهو كثيرا مايمتزج بالقسوة :

ألا نساد فى آثارهن الغوانيا سقين سماماً ما لهن وما ليا
تجمعن من شتى ثلاث وأربع وواحدة حتى كمان ثمانيا
وأقبلن من أقصى الخيام يعدْنني نواهد لم يعرفن خلقا سواليا
يعدن مريضا هن هيجن داءه ألا إنما بعض العوائد دائيا
وراهنّ ربّى مثل ماقد ورينى وأحمى على أكبادهن المكاويا(٢)
(و) تزود من أسماء ما قد تزودا وراجع سقما بعد ما قد تجلدا

وهو قد يمزج الحب أو العشق بالموت ، فهو بعد أن يتكلم عن أسماء « بعد هجعة من الليل » ينتصب الموت أمام الشاعر فجأة وكأنه الوجه الآخر للحب أو للعشق ، وخاصة أنها تراه يؤكد أن الموت حين يجيء يحس الإنسان كأنه لم يلذ « بالبيض الكواعب » :

كأن على أنيابها بعد هجعة من الليل نامتها سلافا مبّردا
سلافة دنٍ ، أو سلافة ذارع إذا صب منه فى الزجاجة أزْبدا
. . سيلقاك قِرْنٌ لاتريد قتاله كَمِىٌّ إذا ما همّ بالقرن أقصدا

---

(١) ديوانه ٣٤ البكرة : الفتية من الابل . والكعثب : الفرج

(٢) استشهد به فى كتاب البديع على المخالفة ، فقد قال أسامة : والمحب لايدعو على حبيبته ولا سيا هذا العبد الأسود .

بغـــاك وما تبغيه إلا وجـــدته كأنك قد أوعدته أمس موعدا
.. فالا تلاق الموت فى اليوم فاعلمن بأنك رهـــن أن تلاقيه غـــدا
فتصبح فى لحـــد من الأرض ثاويا كأنك لم تشهد من اللهو مشهدا
ولم تله بالبيض الكواعب كالدمى زمانا ، ولم تقعد الأرض مقعدا[1]

ونحن نعتقد أن هذا كان نتاجاً طبيعياً لإنسان يحس أنه ضيف على الوجود ، ويحس أن الحياة من حوله هشة ، فهو يشكو دائماً من أن الهموم قديمها وجديدها تعاوده [2] ، وهو لاينكر دمامته الظاهرة :

أشارت بمدراهـــا وقالت لتربها : أعبد بنى الحسحاس يزجى القوافيا
رأت قتباً رثاً ، وسحق عباءة وأسود مما يملك الناس عـــاريا
يرجلن أقـــواما ويتركن لمتى وذاك هوان ظاهر قد بدا ليا [3]

بل إنا نرى الجاحظ يورد بيتين لسحيم تحت عنوان « أشعار العرب فى هجاء الكلب ، وهذان البيتان هما :

أتيت نساء الحـــارثيين غـــدوة بوجه براه الله غير جميـــــل
فَشَبَّهْنَنِي كلبا ولست بفوقـــه ولا دونه إذ كان غير قليل [4]

وهو يتكلم عن السواد ، وعن أمه ، وعن الرق بمرارة :

فلو كنت ورداً لونه لعشقنى .. ولكـــن ربى شاننى بسواديـــا
فما ضرنى أن كـــانت أمى وليـــدة تَصُرُّ وتُبرى باللقـــاح الشواديا
(و) أشعار عبد بنى الحسحاس قمن له
يوم الفخار مقام الأصل والورق
إن كنت عبدا فنفسى حـــرة كرما أو أسود اللون انى أبيض الخلق

---

(١) ديوانه ٤٠ / ٤٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ٣٧ ، ٤٥ .
(٣) ديوانه ٢٥ .
(٤) الحيوان ١ / ٢٥٤ .

(و)وددتُ على ابغاضي الرق أنني	أكون لأجمال ابن أيمن راعيا

(و)أرقـاً وتغنيظاً ونأيا وفرقة	على حين أبصرت المشارع تَنْشِفِ(١)

واللون الأسود وما يدل على السواد يشغل الشاعر ، وربما يؤرقه(٢) وفي الجانب الآخر نرى اللون الأبيض وما يدل على البياض وهو يستمعه غالباً في حالات النشوة والفرح بالحياة (٣) .

فسحيم فيه ناحية من نواحي التفرد في الانتقام من عبوديته ، ومن هنا فهو لايلتقي تماماً مع شعراء مثل عنترة والسليك وخفاف « وأحسب هذا العبد الفاجر أمام الشعر المكشوف في اللغة العربية قاطبة ، ومن كلامه مايروى في هذا المقام ومالا يروى ، ومنه ماسمعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال له إنك لمقتول ، وقد كان (٤) » .

وهو قد يرق أحياناً وتصفو عنه نفسه حين يقف أمام الضعف الإنساني ، وقد وصل إلى هذه الحال من الشفافية مرة واحدة فيما روى له من الشعر حين كانت - كما يقول أبو عبيدة - أخت مولاه عليلة وهي التي اتهم بها ، فقد سمع بالليل يقول :

ماذا يريد السقـام من قمر	كل جمال لوجهـه تبـع

ما يبتغـي جـار في محـاسنها	أمَا لـه في القبـاح متّسع ؟.

غيّر من لـونها وصفّـرهـا	فـزيد فيه الجمال والبـدع

لو كـان يبغـي الفـداء قلت له	هـا أنا دون الحبيب يا وجـع

وهذه الأبيات هي التي قال عنها العقاد .. على اختلاف طفيف في الرواية - ما أحسب شاعرا من شعراء الحضارة يترفع عن توقيع

(١) ديوانه ٢٦ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٣ .

(٢) ديوانه ١٧ ، ١٨ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ .

(٣) المصدر نفسه ١٨ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٢ .

(٤) بين الكتب والناس ٧٦ .

هذه الأبيات (١) والشاعر لاينسى التعبير عن ذاته ، ولاينسى أن يصبغ هذا التعبير بكينونته المفردة على حد قوله :

وما بيضةٌ بات الظليم يحفها ... ويرفع عنها جؤجؤاً متجافيا
ويجعلها بين الجناح ودفّه ... ويفرشها وحفاً من الزف وافيا
بأحسن منها يوم قالت : أراحلٌ ... مع الركب ، أم ثاوٍ لدينا لياليا (٢)

فالشاعر حين يشبه المرأة بالبيضة لاينسى أن يشبه نفسه بالظليم الذى هو الحاضن ، ولقد كان سحيم عبدا ، والعرب تشبه الظليم بالعبد ، فهو يوائم هنا بين التجربة وبين الأداة ، وفى الوقت نفسه يومئ من بعيد إلى الجنس وما أرق وقفة بهاء الدين الأربلى عند قوله :

أشوقا ولما تمض بى غير ليلة ... فكيف إذا ماراح المطى بنا عشرا

وقد أوصى ابن السراج بحفظ شعره فقد روى عن ابن جنى (٣) : إذا لم تفهموا كلامى فاحفظوه ، فانكم إذا حفظتموه فهمتموه ، وكذلك الشعر ، النفس له أحفظ ، وإليه أسرع ، ألا ترى أن الشاعر قد يكون راعياً جلفاً ، أو عبداً عسيفاً ، تنبو صورته ، وتمج جملته (أو خلقته) فيقول مايقول من الشعر ، فلأجل قبوله ، وما يورده عليه من طلاوته وعذوبة مستمعه مايصير قوله حكما يرجع إليه ، ويقتاس به ، ألا ترى إلى قول العبد الأسود :

إن كنت عبدا فنفسى حرة كرما ... أو أسود اللون إنى أبيض الخلق

ولقد ذكر فى الذين أحسنوا وصف المطر ، كما ذكر فى الطبقة التاسعة من فحول الجاهلية (٤)

---

(١) ديوانه ٥٤ ، بين الكتاب والناس ٧٦ .

(٢) فى كتاب البديع ص ٢١٢ استشهد بهذا على باب الحذو ، وهو أن يكون البيت على صناعة البيت الآخر .

(٣) الخصائص ١-٢١٦ ، رسالة الطيف تحقيق عبد الله الجبورى ٨٠ .

(٤) طبقات فحول الشعراء . شرح محمود محمد شاكر ١ / ٩٢ ، ٢ / ١٨٧ ط ٢

واحتج ابن طباطبا بشعره على مايسميه الشعر المحكم (١) ، ووقف ابن ناقيا عند تشبيهين رائعين له (٢) ، وسمى ابن الأعرابي بعض شعره « الديباج الخسرواني » وغنى بعض شعره (٣) ، وذهب ابن مكى الصقلى إلى أنه يقال « سوائيا » بفتح السين لابكسرها استشهادا بقوله :

وأقبلن من أرض العراق يزرنني أوانس لم يقصدن خلْقاً سوائيا(٤)

وهناك من ذكر أن ابن الرومي انتفع ببعض شعره (٥) ، أما انتفاع عمر بن أبي ربيعة (٦) به فأوضح بل هناك من رأى أنه — مع امرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة والعرجي — من رواد المذهب القصصي وذلك لاعتمادهم على تيار يجرى مجرى الوصف المباشر والسرد فى الغزل ، أما التيار الآخر الذى يسمى المذهب التحليلي ويعتمد على الغزل العذرى فيقف على قمته عنترة (٧) .

وعلى كل فهناك من علق على بيته :

وما دمية من دمـــى ميسنا ن معجبـــة نظـــرا واتّصافا

(١) عيار الشعر ٣٣ والشعر والشعراء ١ / ٣٦٩

(٢) الجمان فى تشبيهات القرآن ١٧١ ، ٢٤٥ .

(٣) الخصائص ١ — ٢١٦ ، الأغانى ٥ — ٣٦٧ .

(٤) تثقيف اللسان ٢٧٦ تحقيق د. عبد العزيز مطر .

(٥) الأقلام جـ ٧ السنة ٥ ص ٧٩ .

(٦) تأمل القصيدة التى يقول فيها : «

وجدتهما يوماً وللصيد غرة تدقان مسكا مائلا برقعاهما

بكت هذه وارفض مدمع هذه وأذريت دمعى فى خلال بكاهما

تمنيت أن ألقاهما ، وتمنيسا فلما التقينا استحييا من مناهما

(٧) تاريخ الشعر العرب ١٥٢ — ١٥٥ .

فقال : أراد ميسان فزاد النون ضرورة ، فهذا لعمرى تحريف يتعجرف عار من الصنعة ، وهناك من يأخذ عليه قوله :

وقـد أقسمت بالله يجمع بيننـــا هوى أبدا حتى تحول أمردا [1]

لأن المقصود : أقسمت بالله لايجمع بيننا .

وكذلك أخذ عليه قوله :

فما زال بردى طيبا من ثيابهـا إلى الحول حتى أنهج البرد باليآ[2]

وقال آخرون : هذا على التوهم لفرط العشق ، وهو على نحو قول ابن الأعرابى حين قال له : مابلغ من حبك لها ؟ فقال : إنى لأذكرها وبينى وبينها عقبة الطائف فأجد من ذكرها ريح المسك ، وقد اعتبر القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى هذا البيت من الغلو الذى يسامح فيه [3] .

وعلى كل فنحن نراه قد اختار طريقاً خاصاً فى الحياة وسار فيه حتى النهاية حتى القتل . فهو لم يسر فى طريقه مغيباً أو مدفوعاً بقوة يجهلها ، وإنما سار بوعى، صحيح إن ضميره قد هز فترة حين استيقظ أمامه الموت فجأة وهو يتحدث عن المتع التى عرفها عند عشيقته ، ولكن الذى لاشك فيه أنه رسم طريقه وسار فيه ، ومن حديقة هذا — الشعر أعطى الشعر أكثر من زهرة بلون الدم .

ومع أنه من وجهة نظرنا قد تجول فى أكثر من جسد إلا أنا نراه ينتقى واحدة من السادة .. ثم يسير من أجلها إلى الموت .

وهناك عدد من الروايات تتحدث عن هذه العشيقة ، فهى مرة

(١) ديوانه ٤٠ ، والخصائص ١ — ٢١٦ .

(٢) الشعر والشعراء ١ — ٣٦٩ أنهج الثوب ونهجه كمنعه أخلقه . وأنهج الثوب ينهج : بلى ، والنويرى فى نهاية الأرب ٢ / ٦٣ يعلق عليه بأنه من البليغ .

(٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ٣١١ — ٣١٥ .

شقيقة مولاه ، وهى مرة بنته ، ولعل أهمها تلك الرواية التى تحدثت عن قتله فى خلافة عثمان والتى تقول :

إن إمرأة من بنى الحسحاس أسرها بعض اليهود واستخصها لنفسه وجعلها فى حصن له ، فبلغ ذلك سحيما فأخذته الغيرة ، فما زال يتحيل حتى تسور على اليهودى حصنه فقتله ، وخلص المرأة فأوصلها إلى قومها فلقيته يوماً فقالت له : ياسحيم ، والله لوددت أنى قدرت على مكافأتك على تخليصى من اليهودى !

فقال لها : والله إنك لقادرة على ذلك — عرض لها بنفسها — فاستحيت وذهبت ، ثم لقيته مرة أخرى فعرض لها بذلك فأطاعته ، فهويها وطفق بها يتغزل فيها ، ففطنوا له فقتلوه خشية العار (١) .

فهذه الرواية تتفق مع أن امرأة من السادة بهرت به — على ماهو عليه — ثم سارت فى عشقه إلى مالا نهاية ، ثم خاطرت بنفسها لتخبره بما بيته أهلها من أجله .

وقد ظل عنيداً وقاسياً وعاشقاً فى الوقت نفسه حتى وهو يودع الحياة ... بل لقد تركها بدون وداع ، تركها وهو يحسب أنه قد انتقم لسواده وعبوديته .

فقد قيل : إنهم لما أرادوا قتله ، أوثقوه كتافاً ، وقربوه من نار وجعلوا يجمعون عيدان العرفج الرطبة ويضربون استه بها ، ويرتجزون عليه ، فلما مرت به التى اتهموه بها وهو مقيد « أهوى لها بيده » فأكثروا من ضربه ، فقال :

إن تقتلونى فقــد أسخنت أعينكم ... وقــد أتيت حراماً ما تظنونــا
وقــد ضممت إلى الأحشاء جارية ... عذب مقبلها مما تصونونــا

---

(١) الخزانة ٢ / ١٠٣ ورواية ابن الجوزى « وكان آخر أمره أن أحب امرأة من أهل بيت مولاه فأخذوه فأحرقوه ... مخطوط رفع شان الحبشان ورقة ١٣١ .

وقال أيضاً :

إن تقتلونى تقتلونى وقد جرى   لهـــا عرقٌ فوق الفراش وماء

فلما كانت لحظاته الأخيرة قال :

شدوا وثـــاق العبـــد لايفلتكم   إن الحياة من الممات قـــريب

فلقـــد تحـــدر من جبين فتاتكم   عرقٌ على ظهر الفراش وطيب

وهكذا صمت فى عام ٤٠ هـ (١) وبدأ شعره جولة جديدة فى تأكيد الرقعة العربية ، وفى زراعة زهور رائعة للشعر .

---

(١) ديوانه ٥٩ — ٦٠ ، المقتالون ورقة ٩٠ — ٩٤ ، وهناك من ذكر أنه توفى فى حدود الأربعين ... تثقيف اللسان ٢٧٦ .

٣ ـ النجاشي

هو قيس بن عمرو بن مالك من بنى الحارث بن كعب ، وقد عاش فى الجاهلية فترة ، ثم أسلم مع من أسلم من قومه فى اليمن ، وقد سمى النجاشى لأن لونه كان يشبه لون الأحباش ، ويروى أن جماعة من بنى الحارث بن كعب وفدت على النبى عليه السلام لتسلم فكان مما لفته عليه السلام إليهم ضخامة أجسامهم ، وسواد لونهم[١] ، ويبدو أنهم أصهروا إلى كثير من الأحباش المقيمين فى اليمن .. ولعل شهرته أخذت تظهر حين أصاب قبيلة بنى عجلان فى الصميم ، فقد كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم « ويتشرفون بهذا الوَسْم » ذلك أن عبد الله بن كعب جدهم سمى العجلان لتعجيله القرى للضيفان وذلك أن حياً من طيئ نزلوا به ، فبعث إليهم عبداً له ، وقال له :

أعجل عليهم ، ففعل العبد ، فأعتقه لعجلته ، فقال القوم : ماينبغى أن يسمى إلا العجلان ، فسمى بذلك ، فكان شرفاً لهم ، حتى قال النجاشى فيما قال :

وما سُمِّيَ العَجْــلان إلا لقــوله

خُذْ القَعْبَ واحلب أيها العبد واعْجل

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٨٨ ، الاشتقاق ٤٠٠ ، الطبقات الكبرى لابن سعد القسم الثانى من الجزء الأول ٢٠٧ .

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبه قال : كعبي ، ويكنى عن العجلان (١) ولما كان معروفاً أن حرية الشاعر كانت بدون مدى فيما يتناول من الأشياء قبل الإسلام ، فانه حين جاء الإسلام جدت ظاهرة جديدة فى هذا المجال وهى الشكاية من الشعراء إلى الخليفة ، ثم أخذ الخليفة موقفاً تستدعيه الشكاية من الشعراء .

فقد ذهب ممثلو بنى عجلان إلى عمر بن الخطاب يستعدونه على الشاعر فقال لهم : ماقال فيكم فأنشدوه :

إذا الله عادى أهْلَ لُؤْم ورقة ... فعادى بنى العجلان رَهْط بنْ مُقْبل

فقال : إنما دعاه ، فإذا كان مظلوماً استجيب له ، وإذا كان ظالماً لم يستجب له فأكملوا :

قبيلة لايغدرون بذمة ... ولايظلمون الناس حَبَّةَ خَرْدَلِ

فقال : ليت آل الخطاب هكذا ، فقالوا : وقال أيضاً :

ولا يردون الماء إلا عشية ... إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال : ذلك أقل لِلّكاك (٢) ، فأكملوا :

تعاف الكلابُ الضارياتُ لُحومَهم ... وتأكل من كَعْبٍ وعوْفٍ ونَهْشَلِ

فقال : أحسن القوم موتاهم فلم يضيعوهم ، فقالوا : وقال :

وما سمى العجلان إلا لقوله ... خذ القعبَ واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : خير القوم خادمهم وكلنا عبيد الله .

على أن عمر بن الخطاب لم يكتف بهذا وانما استشار فى هذه القضية

---

(١) زهر الآداب للحصرى ١٩ ، مخطوط فضل العرب على العجم ورقة ٥٣ ، وفى رواية لقيلهم : الحر والشعر ١ — ٢٩٠ .

(٢) بكسر اللام : الزحام .

« النقدية » حسّانَ بن ثابت ، والحطيئة – وكان محبوساً عنده – وقد انتهى إلى أن هدد النجاشى بقوله : إن عدت قطعت لسانك (١) .

فالشعراء فى الماضى كانوا يخوضون ماشاء لهم الخوض فى الناس ولكنه ظهر بعد ذلك فى ظل الإسلام من يأخذ على أيديهم ، ويعاقبهم بالحد أو السجن ، وقد كان لهذا دوره فى التقليل من شعر العصبيات(٢) بل يخيل إلينا فى إضعاف حركة الشعر بصفة عامة .

ولقد كانت قوة النجاشى الحقيقية فى الهجاء ، ولعل هذا كان وراء صمته بعد دخول الإسلام ؛ فنحن لانعرف عنه شيئاً ذا بال إلابعد أن وقع الخلاف بين على ومعاوية ، فقد التزم النجاشى موقف على فى مواجهة معاوية وشاعره كعب بن جعيل .

فحين استوثق معاوية من أهل الشام كتب إلى على بأبيات كعب ابن جعيل التى أولها :

أرى الشامَ تكره أهلَ العراقِ وأهلُ العراقِ لهم كارهونا

فلما قرأ علىٌّ هذه الأبيات قال للنجاشى أجب فقال :

دعَنْ معاوىَ مالن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق وأهلِ الحجاز فما تصنعونا
يرون الطعانَ خلال العجاج وضربِ القوانس فى النقع دينا
هم هزموا الجمعَ جمْعَ الزبير وطلحةَ والمعشر النّاكثينا
فان يكره القوم ملك العراق فقد رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وائل ومن جعل الغث يوما سمينا
جعلتم علياً وأشياعهُ نظير ابن هند . . أما تستحونا(٣)

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٨٩ – ٢٩١ ، مخطوط فضل العرب على العجم ورقة ٥٣ .
(٢) العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى ٢٠١ .
(٣) الأخبار الطوال للدينورى تحقيق عبد المنعم عامر ١٦٠ ، ١٦١

وأبيات النجاشي يجب أن ننظر إليها في ضوء أنها « نقيضة » ، وأنه لم يكن يؤمن تماماً بالقضية التي يدافع عنها .

وحين أراد عليّ السير إلى « صفين » لم يكن مطمئناً إلى الأشعث الكندي فنزع منه الرياسة وأعطاها لحسان بن محدج الذهلي ، فكان أن غضب لذلك أهل اليمن ، وكاد الشر أن يقع بين القبيلتين ، وقد صور النجاشي هذا فقال :

رضينا بما يرضى عليّ لنا بـه وان كان فيما يأت جَدَّعُ المناخر
على أن في تلك النفـوس حزازةً وصدعـاً يواسيه أكفُّ الجوابر

وقيل إنه في هذه الحرب تغاضب في الميدان عتبة بن أبي سفيان ، وجعدة بن أبي هبيرة بن أبي وهب القرشي ، وقد كانت الغلبة في هذا اليوم لجعدة ، فسجل هذا النجاشي بقوله :

إنّ شتمَ الكريم ياعُتب خَطْبٌ فاعلمنه من الخطـوب عظيمُ
أمه أمُّ هـانىء ، وأبـوه من لـؤى بن غالب لصميم
إنـه للهبيرة بن أبي وهب أقـرت بفضـله مخـزوم

وقال أيضاً :

[ما زلت تنظـر في عطفيك أبهةً لا يرفع الطرف منك التّيهُ والصلف
لـما رأيتهم صُبحـاً حسبتُهمُ أسدَ العرينِ حمى أشبالها الغرَفُ(١)
ناديت خيلك إذ عض السيوفُ بها عُوجي إليّ فما عاجوا وما وقفُوا
هلاّ عطفت إلى قتلى مصرّعة منها السكون ومنها الأزد والصّدَفُ
قد كنت في منظرٍ عن ذا ومستمع ياعُتْبُ لولا سفاهُ الرأى والتّرفُ(٢)

---

(١) الغرف : الشجر الكثيف الملتف .

(٢) المصدر نفسه ١٧٣ ، ١٧٤ ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ٢٠٧ .

وفى إحدى المعارك التى انتصر فيها القائد العلوى الأشتر (١) قال :

رأيتُ اللواءَ كظِلّ العقاب يقحمه الشامىءُ الأخزرُ
دعونا له الكبش كبش العراق وقد خالط العسكرَ العسكرُ
فرد اللواء على عقبه وفاز بحظوتها الأشترُ (٢)

قد أكد يوليوس فلهوزن « أن النجاشى بشعره ألقى ضوءاً على هذه المعركة التى وصف فيها الأشتر بعد أن كان الإنسان يتبين : أشجاراً متفرقة من بعيد ولايتبين أنها غابة » ، ذلك لأن هذه المعركة كانت تحتاج إلى ربط بين أجزائها (٣) .

ونحن لاننسى قصيدته التى يقول ابن قتيبة إنها من جيد شعره والتى هجا بها معاوية :

ياأيها الملك المبدى عداوته روِّىءْ لنفسك أى الأمر تأتمر (٤)
وما شعرت بما أضمرت من حنق حتى أتتنى به الأخبار والنذر
فان نفست على الأقوام جدهم فأبسط يديك فإن الخير يبتدر
واعلم بأن على الخير من نفر شم العرانين لايعلوهم بشر .
نعم الفتى أنت إلا أن بينكما كما تفاضل ضوء الشمس والقمر
وما إخالك إلا لستَ منتهياً حتى يمسك من أظفاره ظفرُ
إنى امروٌ قل ماأثنى على أحد حتى أرى بعض مايأتى ومايذر
لاتمدحنّ امرأ حتى تُجربه ولا تذمن من لم يبله الخبر .

وقد ظل هجاؤه يؤرق معاوية ، فانه يروى عنه أنه قال : لقد علم الناس أن الخيل لاتجرى بمثلى ، فكيف قال النجاشى .

---

(١) لقب أشتهر به ابراهيم بن مالك بن الحارث .
(٢) الأخبار الطوال ١٨٥ .
(٣) تاريخ الدولة العربية ترجمة د/ محمد عبد الهادى أبو ريده : ٧٥ ، ٧٦ .
(٤) الشعر والشعراء ١ / ٢٩١ .

فأصبح أهــل الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتاب الله خير قران
ونادوا عليا يابن عم محمــــد ... أما تتقى أن يهلك الثقـــلان
ونجى ابنَ حرْب سابحٌ ذو عُلالَةٍ ... أجشُّ هزيمٌ والرِّماح دوانى (١)
من الأعوجيات الطــوال كأنه ... على شرف التقريب شاةُ إران
شديدٌ على فـــأس اللجام شكيمـــه ... يفرج عنه الرَّبْوُ ، بالعسلان
كأن عقـــابا كاسرا تحت سرجـــه ... تحاول قُـــرْب الوكر بالطيران
إذا قلت أطـــراف العوالى ينلنه ... مرت به الساقـــان والقـــدمان
إذا ابتل بالمـــاء الحميم رأيتـــه ... كقادمة الشؤبوب ذى النفيـــان
كأن جنابى سرجـــه ولجـــامه ... من المـــاء ثوبا مائح خضلان
من الوُرد أو أحْـــوى كأن سراتهُ ... بُعيْد جـــلاء ضرجت بدهان
جـــزاه بنعمى كـــان قدمها لـــه ... بما كان قبل الحرب غير مهان

وقد قيل إنه عرض فرساً على عبد الرحمن بن حسان قائلا : كيف تراه ، فقال عبد الرحمن : أراه أجش هزيماً ، مومئاً إلى بيت النجاشي (٢)

كما قد تعرض فى قصيدة طويلة لهجاء معاوية ، مركزاً على موقفه فى « صفين » وعلى « قضية التحكيم » وقد جاء فيها :

فأصبح أهلُ الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتاب الله خـــير قـــرآن
ونادوا عليه : يا ابْن عمّ محمـــــد ... أما تتقى أن يهلك الثقلان (٣)

ثم إن هجاءه لم يقف عند هذه الحرب بين على ومعاوية ، ذلك لأنا نرى له شعراً يهجو فيه قريشاً ، وقد قدم هذا الشعر ابن قتيبة بقوله : وهجا قريشاً لعنه الله فقال : —

---

(١) أبيات هذه القصيدة نقول كما فى حماسة البحترى ٧١ ، ٧٢ ، الوحشيات ١١٢

(٢) عيون الأخبار ١ / ١٦٣ ، ٢ / ١٩٨ .

(٣) حماسة البحترى ٤٤ ، مروج الذهب ٤ / ٣٧٨ .

سخينةُ حيٌّ يعرفُ الناسُ لؤمها ... قديماً ، ولم تُعرَف بمجد ولا كرَم
فيا ضيعةَ الدنيا وضيعــةَ أهلها ... إذ أوتى الملك التنابلةُ القــُـزم
وعهدى بهم فى الناس ناسٌ ، ومالهم ... من الحظ إلا رعية الشاء والنعم
(و) إن قــريشا والامامة كالذى ... وفى طرفاه بعد أن كان أجــدعا
وحق لمن كــانت سخينة قــومه ... إذا ذكر الأقوام .. أن يتقنعا (١)

ثم إنه هجا الأنصار فقال :

لستم بنى النجــار أكفــاءً مثلنا ... فأبعدكم منا هناك بأبعــدِ
فــان شئتم نافــرتكُمْ عن أبيكمُ ... إلى من أردتم من تهام ومنجــد

وقد التجأ بنو النجار إلى حسان فهجا قوم النجاشى (٢) ، ولقد قيل إنه هاجى تميم بن أبىّ وغلبه ، ولكن حين هاجى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت غلبه عبد الرحمن (٣) .

ولقد كان كما قال ابن قتيبة « فاسقاً رقيق الإسلام » فقيل : إنه خرج مرة فى شهر رمضان على فرس يريد « الكناسة » فمر بأبى سمال الأسدى ، فوقف عليه وقال :

هل لك فى رءوس حملان فى كرش فى تنور من أول الليل إلى آخره قد أينعت وتهرأت .

فقال له : ويحك فى شهر رمضان تقول هذا ؟

قال : ما شهر رمضان وشوال إلا واحد !

قال : فما تسقينى عليها ؟

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٩٢ والسخينة : طعام رقيق من دقيق وسمن كان القرشيون يكثرون من أكله .

(٢) شعراء النصرانية بعد الإسلام ط ٢ ص ٤٥ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ط ٢ ص ١٥٠ ، والعمدة ٦٨ ط ١

قال : شراباً كأنه الورس ، يطيب النفس ، ويجرى فى العرق ، ويكثر الطرق ، ويشد العظام ، ويسهل الكلام فثنى رحله فنزل ، ودخلا المنزل فأكلا وشربا ، فلما أخذ فيهما الشراب تفاخرا ، فعلت أصواتهما فسمع ذلك جار لهما ، فذهب إلى على بن أبى طالب وأخبره فبعث فى طلبهما .

فأما أبو السمال فشق الخص ، ونفذ إلى جيرانه ، فهرب . وأما النجاشى فأتى على بن أبى طالب وقال له :

ويحك ولدانتا صيام وأنت مفطر ؟

وكان أن ضربه ثمانين سوطاً ، وحين زاده عشرين ، قال النجاشى : ما هذه العلاوة ياأبا الحسن ؟

فقال : هذه لجرأتك على الله فى شهر رمضان .

ثم أمر بأن يوقف ليراه الناس ، وكان أن هجا أهل الكوفة بالقصيدة التى أولها :

إذا سقى الله قوما صوب غادية فلا سقى اللهُ أهل الكوفة المطرا (١)

ثم قال من قصيدة أخرى :

ضربونى . ثم قالوا قدر قدّر الله لهم شر القدر (٢)

ومن المعروف أنه هرب إلى معاوية ، وهجا علياً .

من كل هذا نرى أن النجاشى كان شاعراً حزبياً ، فهو قد سمى « شاعر العراق » فى مواجهة « شاعر الشام » وهو قد وجد فى هذا متنفساً لملكته الحقيقية فى الهجاء ، وإن كان قد اضطر إلى نوع من الجهارة والسطحية التى تلون الكثير من الشعر السياسى ، وقد تنبه لهذا الدكتور

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٨٩ وما بعدها ، قصة الأدب فى اليمن ١١٤ / ١١٧ .
(٢) مختصر البلدان لابن فقيه ١٨٥ .

عبد الرزاق حميده فعلق على بعض شعره بقوله : « وفى هذا الشعر من المعانى ما تراه فى الخطابة سابقاً ، ولاشك فى أن الشاعر الذى يقحم نفسه فى هذا الميدان يخضع للطابع العام الذى يطبع حزبه (١) .

ومع هذا كما مر بنا يبدو أن التزامه لم يكن كاملا لحزب الإمام على ، فقد كان فيه شئ من المرح لايتفق وما يأخذ به أنصار الإمام على أنفسهم به !

وهو يعبر عن نفسه أصدق تعبير حين يقول :

وكنت كذى رِجْلين : رِجْلٍ صحيحةٍ
وَرِجلٍ رَمت فيها يدُ الحدثان (٢)

. . وبعيداً عن هجائياته ، وعن شعره السياسى توجد له قصيدة فى الذئب حيث يدخل فى حوار معه ، ويضع على لسانه مايمكن أن يقوله الذئب ، ومع أن العرب لاتألف الذئب . على نحو مانرى من أمثالهم وأشعارهم ، إلا أننا نرى فى هذه القصيدة نبرة جديدة فهو يقول :

وماء كاون الغِسْل قد عاد آجنا ... قليلٌ به الأصوات فى بلد مَحْل
وجدتُ عليه الذئب يعوى كأنه ... خليعٌ خلا من كل مال ومن أهل
فقلت له ياذئب هل لك فى فتى ... يواسى بلا مَنٍّ عليك ولا بخل
فقال : هداك الله للرشد إنما ... دعوتَ لما لم يأته سبع قبلى
فلست بآتيه ولا أستطيعه ... ولاكِ اسقنى إن كان ماؤك ذا فضل
فقلت : عليك الحوض إنى تركته
وفى صغْوه فضل القلوص من السجل
فطرّب يستدعى ذئاباً كثيرةً ... وعدّيتُ كلٌّ من هواه على شغْل (٣)

---

(١) ادب الخلفاء الأمويين ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٢) النوادر فى اللغة ١٠ .
(٣) خزانة الأدب ٤ / ٣٦٧ .

وقد وفق البغدادى وهو يتعرض لهذه الحادثة فيقول : عرض للنجاشي ذئب فى سفر فدعاه إلى طعام وقال له : هل لك ميل فى أخ .. يعنى نفسه — يواسيك فى طعامه بغير من ولابخل ؟ فقال له الذئب : قد دعوتنى إلى شئ لم يفعله السباع قبلى من مؤاكلة بنى آدم ، وهذا لايمكننى فعله ، ولست بآتيه ولاأستطيعه ولكن إذا كان فى مائك الذى معك فضل عما تحتاج إليه فاسقنى منه ثم يقول : وهذا الكلام وضعه النجاشى على لسان الذئب كأنه اعتقد فيه أنه لو كان ممن يعقل أو يتكلم لقال هذا القول (١) :

كما توجد له أبيات تقريرية فى رثاء الحسين بن على منها (٢) :

لـن تُغْلقى بابا عـلى مثله فى الناس من حافٍ ولاناعـل

وقد استشهد له البحترى فى حماسته فى أكثر من موضع ، ففى باب ما قيل فى الإطراق حتى تمكن الفرصة :

أمشى الضَّراء لأقوام أحاربهم حتى إذا ظهرت منهم الفُقـرُ
جمعت ضَبْراً جـرازيمى بداهية مثل المنية لا تبقى ولا تـذر

واستشهد له فيما قيل فيمن يتهدد عدوه إذا كان بعيداً عنه فاذا قرب منه خار وجبن :

أبلغ شهاباً أخا خـولان مألكةً إن الكتائب لايهزمن بالكتـب
تهدى الوعيد برأس السر متكئاً فإن أردت مصارع القوم فاقترب
وإن تغب فى جمادى عن وقـائعنا فسوف نلقاك فى شعبان أو رجب

واستشهد له فيما قيل فى إخلاف الوعد :

متى نلقكم عاماً يَكُنْ عام علةٍ وينظر بنا عام من الدهـر مقبل
فو الله ما ندرى أما عندكم لنـا يريثُ على الموعود أم نحن نعجل

---

(١) أمالى المرتضى ١ / ٢١٠ ، ٢١١ .
(٢) نسب قريش ٤١ .

واستشهد له فيما قيل فى نزوع المرء إلى أصله وشبهه بآبائه وأجداده بقوله :

خـــلائق فينا منْ أبينا وجـــدّنا　　كذلك طيب الفرْع ينْمى على الأصل

واستشهد له فيما قيل فى ترك الحمد للإنسان قبل اختباره بقوله :

انى امرؤٌ قـــل ماأثنى على أحد　　حتى أبين مايأتى وما يـــذر
لاتحمدن امرأ حتى تُجـــرّبهُ　　ولاتذمن من لم يبله الخـــبر

وقد استشهد على الاهتدام (١) - وهو السرقة فيما دون البيت - بقوله :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة　　ورجل رمت فيها يدُ الحدثـــان

فقد أخذه كثير عزة فقال :

وكنت كذى رجلين : رجل صحيحة　　ورجل رمى فيها الزمان فشلت

كما استشهد له صاحب اللسان فى (مادة دبج) (٢) واستشهد صاحب المرقصات والمطربات بقوله :

قبيلـــة لايغـــدرون بـــذمة　　ولايظلمون الناس حبة خردل ..إلخ

والمطرب هو « ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع إلا أن فيه مسحة من الابتداع (٣) » .

وقد أخذ عليه حذف النون فى قوله . « ولاك اسقنى إن كان ماؤك ذا فضل » وأورده سيبويه فى باب ضرورة الشعر (٤) .

---

(١) العمدة ٢ / ٢٦٠ .
(٢) ٢ / ٢٦٣ .
(٣) ٤ ، ٥ ، ٢٢ .
(٤) أمالى المرتضى ٢ / ٢١٠ وما بعدها .

. . وعلى كل فنحن نراه يمثل مايمثله الشعراء المخضرمون ، فهم يعدون أنفسهم فى الغالب لشئ ، ثم تظهر قوة جديدة فتغير الحياة من حولهم فيرتجفون فترة ، ثم لايبقى منهم إلا القادر على الحياة فى الحياة الجديدة .

ونحن نرى أن هذا الشاعر كان مهيئا للحياة فى المجتمع الجاهلى ولكنه فى المجتمع الإسلامى يؤخذ على يده ، ويهدد بقطع لسانه ، مع أن امكانياته الحقيقية فى المنابذة والهجاء ، صحيح إنه وجد له متنفساً فى الحرب التى كانت دائرة بين على ومعاوية ، ولكن الشاعر - فى الغالب - لم يلتزم بما يستوجبه حزب على ، ومن هنا نراه يحد ، بل يزاد عليه الحد ، لأنه تجرأ على الله فى رمضان كما قال الإمام على ، بالإضافة إلى أن التزامه كان يوجب عليه حب قريش ، ولكنه مشى إلى الجميع على أسنة القصائد .. وعلى رماح البغضاء ، والظاهر أنه لم يكن مخلصاً تماما للمذهب السياسى فهو - كما يبدو من أخباره - لم يدخل الاخلاص لعلى قلبه (١) ، وأنه توفى نحو سنة أربعين هجرية (٢) .

ومع أن ماوصلنا من شعره لايدل مباشرة على تأثره بسواده ، ولكن تصرفه ونظراته إلى الحياة ، وطريقته فى التناول تدل على خصائص الشاعر الأسود ، ومع هذا فانه لن يغيب عن أذهاننا أن الشاعر عاش فى تلك الفترة النقية التى كان ينظر فيها للناس على أساس المساواة .

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة ٣٥٢ .

(٢) انظر هامشا فى ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشرى . تحقيق د. سليم النعيمى ص ٥٢٧ .

٤ ـ الفضل اللهبى

هو الفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف ، أما أمه فهى آمنة بنت العباس بن عبد المطلب (١) وهناك إجماع على سواده ، وقد جاءه السواد من قبل جدته لأمه (٢) ، وهو نفسه يؤكد هذا فيقول :

وأنا الأخْضر مــن يعــــرفُنى أخضرُ الجِلْدة من بيت العـــرب

وهو قد طلع على الدنيا بسواده فى وقت تتردد فيه كلمة المساواة المطلقة بين كل الناس ، وهو لا يعانى تماماً من هذه العقدة ، وإن كنا نلمح أحياناً فى نبرة الهجوم عليه ، بل عند الذين تناقلوا أخباره شيئاً من الاستخفاف به ، صحيح إنه كان هناك جرح بارز يطعن من خلاله وهو انتماؤه إلى « بيت أبى لهب » وإنه كان حاداً فى الرد على مناوشيه، ولكنا نلمح من وراء هذا كل شخصيته .. بما فيها السواد ..

وبيت أبى لهب هذا لم يقتصر عداوه على الدعوة الإسلامية ، وإنما أحدث ألماً عميقاً فى نفس النبى عليه السلام ، ذلك لأن رقية بنت النبى كانت متزوجة من عتبة بن أبى لهب ، وكذلك أم كلثوم كانت متزوجة

---

(١) جمهرة أنساب العرب ٧٢ ، المؤتلف والمختلف ٤١ .

(٢) الأغانى ١٦ / ١٧٤ ، سمط اللآلى ٢ / ٧٠١ .

من عتيبة شقيقه ، وقد حدث أن طلقاها « بعزم أبيهما عليهما وأمهما » وروى أن عتبة قال للنبي : يامحمد أشهد من حضر أنى قد كفرت بربك وطلقت ابنتك ، وقيل إنه لما نزلت « والنجم إذا هوى » .. قال عتبة : أنا أكفر برب النجم إذا هوى . ويروى فى الحالتين أن النبى قد دعا بأن يبعث الله عليه كلباً من كلابه يقتله ، وقد حدث بالفعل أن أسدا افترسه ، وسواء أكان عتبة هو الذى قتله الأسد (١) أم عتيبة فى رواية أخرى (٢) ، فان الباقى منهما بالإضافة إلى شقيق آخر يسمى « معتب » قد حسن إسلامهما ، ولكن المرارة من هذا « البيت اللهبى » كانت تملأ نفوس الكثيرين وقد أثر كل هذا فى الشاعر فهو يحس أن الريح تأتيه من أكثر من جانب .

وهو يجد نفسه يدخل فى صراع مع الشاعر الأحوص ، ورواية الأغانى فى هذا الصراع نحس منها تعاطفاً مع الأحوص ، فهو يقول : مر الفضل اللهبى بالأحوص وهو ينشد : وقد اجتمع الناس عليه ، فحسده ، فقال له : ياأحوص إنك لشاعر ، ولكنك لاتعرف الغريب ، ولاتعرب . قال : بلى ، والله إنى لأبصر الناس بالغريب والإعراب فأسألك ؟ قال : نعم : قال :

ماذات حبل يراها الناس كلهم وسط الجحيم فلاتخفى على أحـــد
كل الحبال حبال الناس من شعـــر وحبلها وسط أهل النار من مسد

فقال له الفضل :

ماذا أردت إلى شتمى ومنقصتى؟ ماذا أردت إلى حمالة الحطب ؟
أذكـــرت بنت قروم سادة نجب كانت حليلة شيخ ثاقب النسب (٣)

---

(١) الأغانى ١٦ / ١٧٥ .

(٢) نسب قريش ٩٠ ، الروض الأنف للسهيل ٢ – ٨١ .

(٣) الأغانى ١٦ / ١٧٧ ، هناك رواية أخرى لأبيات الفضل فى نسب قريش ص ٩٠ .

وهو يدخل فى نفس الصراع مع الحزين الدوْلى الشاعر فقد مر الحزين به يوم جمعة وعنده قوم ينشدهم ، فقال له الحزين : أتنشد الشعر والناس يروحون إلى الصلاة ؟ فقال الفضل : ويلك ياحزين ! أتتعرض لى ، كأنك لاتعرفنى قال : بلى والله ، إنى لأعرفك ، ويعرفك معى كل من قرأ سورة « تبت يدا أبى لهب » وقال يهجوه :

إذا ماكنت مفتخـرا بمجـد ... فعرّج عن أبى لهـب قليـلا
فقـد أخزى الإلـه أباك دهـرا ... وقلد عرْسه حبْلا طويـلا

فأعرض عنه الفضل . « وكان الشاعر الحزين مغرى به وبهجائه »(1)

وهو يجد الحارث بن خالد المخزوم مغرى بشتمه ، لأنه كانت هناك دوافع لهذا قديمة تقول : إن أبا لهب قامر جده ، « فقمره وأسلمه فينا ثم بعث به بديلا يوم بدر فقتله علىّ بن أبى طالب » .

وعلى كل فقد كان الفضل كلما أنشد شعراً قال له : هذا شعر ابن « حمالة الحطب » وكان أن رد الفضل فقال :

ماذا تحـاول من شتمى ومنقصتى ... ماذا تعير من حمالـة الحطـب
غـراء سائلة فى المجـد غـرتها ... كانت حليلة شيخ ثاقب النسب
إنا وان رسول الله جـاء بنا ... شيخ عظيم شئون الرأس والنشب
يالعـن الله قـوما أنت سيدهم ... فى جلدة بين أصل الثيل والذنب
أباالقيـون توافينى تفاخرنى ... وتدعى المجد .قدأفرطت فى الكذب
أما أبوك فعبـد لست تنكـره ... وكـان مالكه جدى أبو لهـب
البيع عـادتنا والمجد شيمتنا ... لسنا كقومك من مرخ ولا غرب(2)

---

(1) الأغانى ١٦ / ١٧٧ .

(2) الأغانى ١٦ / ١٨٤ يلاحظ تشابه بين هذه الأبيات والأبيات التى رد بها على الأحوص ، ويبدو أنه تمثل ببعضها فى الرد السريع على الأحوص .

وخبره مع الفرزدق يدل على أنه قد اقتحمه لمنظره أولا فالرواية تقول إنه حين سمعه يقول :

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من بين العرب
من يساجلني يساجل ماجداً يملأ الدلو إلى عقد الكرب

تشمر وقال : أنا أساجلك من أنت ؟ فقال :

برسول الله وابن عمه وبعباس بن عبد المطلب (١)

فحين سمع هذا الفرزدق : قال مايساجلك إلا من عض بفعل أمه .

والظاهر مما وصلنا من شعره أن سواده لم يشغله ، فالذين ضغطوا عليه تماماً ضغطوا عليه لتلك الصلة التي تجمع بينه وبين أبي لهب ، ولقد كانت تقتحم شخصيته ويقطع الحياة باحساس من يقع على كاهله عبء كبير كما سنرى .. هذا جانب من الصورة . أما الجانب الآخر فيتمثل في التزامه بقضية الهاشميين ، ووقوفه ضد الأمويين ، ثم كيف تهدأ أخيراً هذه الحدة

فالذي لا شك فيه أن الوليد بن عقبة بن معيط (٢) كان من أسبق الشعراء إلى الدعوة لبني أمية ، ويمكن القول بأن الفضل اللهبي كان من أسبق الشعراء للدعوة لعلي .. فالوليد يقول في رثائه لعثمان معرضاً لمعاوية ، ومهدداً لبني هاشم

بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولاتنهبوه . لاتحل مناهبه (٣)
وإنا وإياكم . وما كان منكم
كصدع الصفا لايرأب الصدع شاعبه

---

(١) سرح العيون ٢١٦ ، سمط اللآلي ٢ / ٧٠١ ، الأغاني ١٦ / ١٧٧ ، ١٦٨ .
(٢) أخو عثمان لأمه وأحد ولاته .
(٣) يشير إلى أن عليا بعث برسول لأخذ السلاح من دار عثمان بعد مقتله ولأخذ إبل من إبل الصدقة ، وأما قوله إلى ابن أختكم «فلان» جدة عثمان وتسمى البيضاء كانت بنت عبد المطلب ابن هاشم .

لعمرك لا أنسى ابن أروى وقتلـه   وهل ينسين الماء ماعاش شاربه
هم قتلوه كـى يكـونوا مكـانه   كما غدرت يوما بكسرى مرازبهُ
وإنى لمجتاب إليكم بجحفـل   يصم السميعَ جـرسُه وجلائبه

وأمام هذا رد عليه الفضل اللهبى قائلا :

فـلا تسألونا سيفكم إن سيفكـم   أضيعَ .. وألقاه لدى الروع صاحبُه
وكـان ولىّ العهـد بعـد محمد   على .. وفى كل المواطن صاحبه
علىٌّ ولى الله أظهـرَ دينَـه   وأنت مع الأشقين فيما تحاربه
وأنت امرؤٌ من أهل صيفور مارح   فمالك فينا من حميم تعـاتبه
وقـد أنزل الرحمن أنك فـاسق   فمالك فى الإسلام سهم تطالبه (١)

ثم نراه بعد ذلك يخاطب بنى أمية فيقول :

مهلا بنى عمنا . مهـلاً موالينـا   لا تنبشوا بيننا ما كان مدفـونا
لاتطمعوا أن تهينونا ونكـرمكم   وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
مهـلا بنى عمنا عن نحت أثلتنا   سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا
الله يعلم أنـا لانحبكـم   ولا نلومكم أن لا تحبّـونـا
كـل له نية فى بغض صاحبـه   بنعمة الله نقليكـم وتقلونا (٢)

ونحن نحس موقفه فى عصره من هذا الحوار الحار الذى دار بينه وبين عمر بن أبى ربيعة ، ونحن ندع عمر يروى :

بينما أنا جالسٌ فى المسجد الحرام فى جماعة من قريش ، إذ دخل علينا الفضل بن العباس بن عتبة ، فسلم وجلس ووافقنى وأنا أتمثل بهذا البيت :

وأصبح بَطْـنُ مكةَ مُقْشَعِراًّ   كأن الأرضَ ليس بها هشام (٣)

(١) مروج الذهب ١ / ٤٤٢ ، ٤٤٣ .
(٢) الحماسة : التبريزى ١ / ٨٢ .
(٣) هو هشام بن اسماعيل المخزومى أمير الحجاز .

فأقبل على وقال : ياأخا بنى مخزوم ان بلدة تبحبح [1] بها عبد المطلب ، وبعث منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقر بها بيت الله عز وجل فحقيقة ألا تقشعر لهشام ، وان أشعر من هذا البيت وأصدق قول من يقول :

إنمـا عبدُ منـاف جوهـرٌ   زيَّنَ الجَوْهـرَ عَبْدُ المطلب ..

فأقبلت عليه فقالت : ياأخا بنى هاشم ، إن أشعر من صاحبك الذى يقول :

إنَّ الدليلَ على الخيرات أجمعها   أبناءُ مخزوم ، للخيرات مخزوم

فقال لى : أشعر والله من صاحبك الذى يقول :

جبريل أهـدى لنا الخيرات أجمعها   آرام هاشم لا أبناء مخزوم [2]

فقلت فى نفسى : غلبنى والله ، ثم حملنى الطمع فى انقطاعه على، فخاطبته فقلت : بل أشعر منه الذى يقول :

أبنـاء مخـزوم الحَريقُ إذا   حَرَّكْتَهُ تارةً تـرى ضرمـًا
يخرج منه الشَّرار مع لهب   من حاد عن حـره فقـد سلما

فوالله ماتلعثم [3] أن أقبل على بوجهه فقال : ياأخا بنى مخزوم : أشعر من صاحبك وأصدق الذى يقول :

هـاشم بحـر إذا سما وطمـا   أخمد حر الحـريق واضطرما
وأعلم ـ وخير المقـال أصدقه ـ   بأن مَنْ رام هاشماً هُشِما

.. فتمنيت أن الأرض ساخت بى ، ثم تجلدت عليه فقلت :

.. يا أخا بنى هاشم ، أشعر من صاحبك الذى يقول :

---

(١) تبحبح : تمكن من المقام والحلول .
(٢) مخزوم وهاشم : اسمان للقبيلتين ، فلذلك منعا من الصرف .
(٣) ماتلعثم : ماتوقف .

أبناء مخـزوم أنجم طلعـت للناس تجلو بنورهـا الظلما
تجود بالنيل قبل تسألـه جوداً هنيئاً ، وتضرب البهما

فأقبل على بأسرع من اللحظ ، ثم قال : أشعر من صاحبك وأصدق الذى يقول :

هـاشم شمس بالسعـد مطلعها إذا بدت أخفت النجـوم معا
اختار منها ربى النبى . . فمن قارعها بعـد أحمد قرعـا

فاسودت الدنيا فى عينى ، ودير بى ، وانقطعت ، فلم أحر جواباً ثم قلت : يا أخا بنى هاشم ، إن كنت تفخر علينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يسعنا — مفاخرتك . فقال : كيف ؟ لا أم لك ، والله لو كان منك لفخرت به على .

فقلت صدقت واستغفر الله ، إنه لموضع الفخار ، وداخلنى السرور لقطعه الكلام ، ولئلا ينالنى عوز عن إجابته فأفتضح . ثم إنه ابتدأ بالمناقضة ، ففكر هنيهة ثم قال : قد قلت فلم أجد بدا من الاستماع ، فقلت : هات فقال :

نحـن الذين بها لفخـارهم ذو الفخر أقعده هناك القعود
أفخـر بنا إذ كنت يوماً فاخـراً تلق الأولى فخروا بفخرك أفردوا
قل يا ابن مخزوم لكل مـفاخر منا المبارك ذو الرسـالة أحمد
ماذا يقـول ذوو الفخـار هنالكم هيهات ذلك ، هل ينال الفرقد

فحصرت والله وتبلدت ، وقلت له : إن لك عندى جوابا فانظرلى ، وفكرت مليا ، ثم أنشدت أقول :

لا فخـر إلا قـد علاه محمد فإذا فخـرت به فإنى أشهد
أن قد فخرت ، وفقت كل مفاخر وإليك فى الشرف الرفيع المعمد
ولنا دعـائم قـد بناهـا أول فى المكرمات بجرى عليها المولد

من رامهـا – حاشى النبى وأهله – بالفخر غطغطه الخليجُ المُزْبِدُ
دعْ ذا ورح بغناء خـود بضة مما نطقت به وغنّى معبـد
مع فتيةٍ تندى بطـون أكفهـم جوداً إذا هزَّ الزمان الأنكد (١)
يتناولـون سلافـةً علنيةً طابت لشاربها وطاب المقعـد

فوالله لقد أجابنى بجواب كان أشد على من الشعر : قال لى :

ياأخا بنى مخزوم أريك السها وتريني القمر (٢) ؟ أتخرج من المفاخرة إلى شرب الراح ، وهى الخمر المحرمة ؟ .

فقلت له : أما علمت – أصلحك الله – أن الله عز وجل يقول فى الشعراء : (وأنهم يقولون مالايفعلون) .

فقال : صدقت ، وقد استثنى الله قوماً منهم ، فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فإذا كنت منهم فقد دخلت تحت الاستثناء، وقد استحققت العقوبة بدعائك إليها ، وإن لم تكن منهم فالشرك بالله عليك أعظم من شرب الخمر .

فقلت : أصلحك الله ، لاأجد للمستخذى شيئاً أصلح من السكوت. فضحك وقال : أستغفر الله وقام عنى (٣) .

فمن خلال هذا النص يظهر ذكاؤه وثقافته والتزامه ببنى هاشم .. وهذا الالتزام الأخير يظهر كأروع مايكون الالتزام فى قوله :

مابات قوم كـرام يدّعون يدا إلا القومى عليهم منّةٌ ويـد
نحن السنام الذى طالتْ شظيتـه فما يخالطه الأدواء والعمد (٤)

(١) هز : ساء خلقه واشتد .
(٢) معناه : أدلك على الأمر الغامض وأنت لم تبلغ أن ترى الأمر الواضح .
(٣) الأغانى ١٦ / ١٨٦ – ١٩٠ .
(٤) الأغانى ١٦ / ١٨٦ – ١٩٠ .

ثم نراه تدريجياً يغير موقفه من حكام بنى أمية ، فهو ابتداء يقول :

هــلا سألت وأنت خير خليفــة | عن حور غايتنا وبُعــد مدانا
أهــل النبوة والخلافــة والتُّقى | الله أكرمنا به ، وحبــانــا
حوضَ النبي ، وحوضُنا من زَمزَم | ظمىء امرؤٌ لم يروه حــوضانا
علمتْ قــريش أننا أعيانهم | من قــام يمدح قــومه استثنانا
ولنا أسلم لا تليــق بغيرنــا | ومشاهدٌ تهتلُ حين ترانا (١)
ويسود سيدنا بغير تكاــف | هونا ، ويدركُ تبْلَهُ مولانا (٢)

ثم نراه يقدم على عبد الملك بن مروان بالشام فينشده :

أتيتك خــالا وابن عم وعمة | ولم أك شعبا لاطَهُ بك مشعب (٣)
فَصِلْ واشجات بيننا من قــرابة | ألا صلة الأرحام أبقى وأقــرب
ولا تجعلنى كــامرىء ليس بَيْنَهُ | وبينكم قُــرْبَى ولا مُتَنَسَّبُ ..
أتحــدب من دون العشيرة كلها | فأنتَ على مولاك أحْنَى وأحدب

ونحن نرى عبد الملك من حوار يدور بينه وبين ابن لعبد الله بن زياد قال حين سمع الفضل : هذا هو الشعر .. نراه غير متسع الصدر له (٤) بل إن هناك صداماً قد وقع بين الخليفة وبين الشاعر ، ذلك أنه سمع فى الشام من يحدى بعبد الملك فيقول :

يأيها البكــر الذى أراكــا | عليك سهْل الأرض فى ممشاكا
ويلك هــل تعلم من علاكــا | إن ابن مروان على ذُراكا
خليفــةُ الله الذى امتطاكــا | لم يعل بكرٌ مثلَ من عــلاكــا

(١) اهتل مثل تهلل : أشرق وتلألأ .
(٢) مجالس ثعلب ٢ / ٦٠٠ .
(٣) لاطه : الصقه ، وفى الشعر تعريض بزياد بن أبيه وقصة استلحاقه .
(٤) الأغانى ١٦ / ١٨٢ .

فإذا بالفضل يحلى بعلى بن عبد الله بن عباس .. وكان رفيقه فى الرحلة إلى الشام — فيقول :

يأيها السائل عــن عــلىٍّ مسألتَ عن بَدْر لنا بــدرىٌّ
أغلب فى العلياء غــــالبى ولين الشيمة هــــاشمىٌّ
جاء على بكر له مهرى

وحينئذ نظر عبد الملك إلى على بن عبد الله ثم قال له :

أهذا مجنون آل أبى لهب ؟ فقال على : نعم !

ويقال : إنه لما أعطى قريشاً مر به اسمه فحرمه ، وقال : يعطيه (١) على !

وحين قدم الوليد بن عبد الملك حاجا وهو خليفة ، دخل عليه الفضل اللهبى ، وشكا إليه كثرة العيال ، وسأله فأعطاه ، فلما مات وولى سليمان وقدم حاجا ، أتاه فسأله فلم يعطه فقال :

ياصاحبَ العيس التى رحلــت محبوسةٌ لعشية النفــــر
أمْرُرْ على قبر الوليد فقلْ له : صــلى الإلهُ عليك من قبر
ياواصــل الرّحم التى قطعت وأصابها الجفواتُ فى الدهــر
إنى وجدت الخــل بعدك كاذباً فبرئت من كــذب ومن غدر
ولقــد مررتُ بنسوة يندبنه بيضَ السواعد من بنى فهــــر
تبكى لسيدهــا الأجل ، وما يبكين من ناب ولا بكْــــر
يبكينه ويقلــن : سيدنــــا صناع الخلافــة آخر الدهــــر
ماذا لقيتَ : جُــزيت صالحــة من جفوة الإخوان لو تدرى

ومن أخباره معه أن سليمان فى حجه جاء إلى زمزم فجلس عندها. ودخل الفضل اللهبى يستقى ، ويرتجز :

---

(١) المصدر نفسه ١٦ / ١٨٣ .

يأيها السائل عن على سألت عن بدر لسنا بدرى
مقدم فى الخير أبطحى ولين الشيمة هاشمى
زمزمنا بوركت من ركى بوركت للساق وللمستقى

فغضب سليمان ، وهم به ، فكفه عنه على بن عبد الله (1) .

فنحن نرى الشاعر وقد أقبلت الدنيا على الأمويين يحاول أن يتقرب إليهم ، وفى نفس الوقت يظل على التزامه بقضية الهاشميين ، ولكنه لا يستطيع ، ومن هنا يفشل فى محاولة التوفيق التى أراد أن يقوم بها .

وقد أكثروا من القول فى بخله إلى حد القول بأنه طلب من الوليد أن يفرض لحماره الذى كان يسميه « شارب الريح » وإلى حد القول بأن على بن عبد الله حين سأله هل من حاجة ؟ قال : لا والله ، وإنى لأشتهى هذا العنب ، وقد أغلاه علينا هؤلاء العلوج ، فأمر بإحضار سلة عظيمة من العنب ، وجعل يغسل له عنقودا عنقودا ويناوله ، وهو يقول له : برّتك الرحم وكأنهم ينسون أنه خاصم من أجل على بن عبد الله هذا خليفتين لا خليفة ، وأن أولها قال عنه : إنه مجنون وحرمه ، والثانى همّ بعقابه ، ومع أن صاحب الأغانى يقول : إن السلة كانت عظيمة (2) إلا أنا نعرف أن ما كان بها يستطيع إنسان أكله !

أما قصة أنه كان يستعير دائماً دابة لركوبه ، وأن بعض بنى هاشم اشترى له حمارا ، فما كان منه إلا أن طلب منه طعام الحمار ، وبخاصة أنه اضطر إلى شراء سرج له حين تواصى الناس بعدم إعارته سرجاً ، فإن القصة كلها تبدو ملفقة خاصة إذا عرفنا أن عدوه الشاعر الحزين الذى مر بنا ذكره قد كتب رقعة ورفعها إلى مسئول ، وكانت هذه الرقعة تحتوى على القصة التى مرت بنا ، بالإضافة إلى أن الشاعر يأخذ

---

(1) الأغانى ١٦ / ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٤ .

(2) المصدر نفسه ١٦ / ١٧٩ وما بعدها .

علفه وقضيمه من الناس ، وفى الوقت نفسه يعلفه التبن ويبيع الشعير ويأخذ ثمنه . . ومن هنا – والكلام على لسان الحمار – يطلب الإنصاف (١)

إنه فيما يبدو كان يبالغ فى حرصه على ماله الذى لاشك كان قليلا ، بالنسبة للأموال التى كانت تتدفق على أهل المدينة وبخاصة الهاشميين : ولاسيما إذا عرفنا أن الأمويين لم يقبلوا عليه لأنه لم يتنازل عن ولائه للهاشميين ، ومن هنا كانت تلك الصور الضاحكة التى نقلها صاحب الأغانى .

وأما قضيته مع التاجر المسمى « عقرب » فصاحب الأغانى يجرى على طريقته فى السخرية منه ، أما ابن نباتة فيخفف اللهجة ويقول : إن عقرباً كان أمطل الناس فعامله الفضل ، « وكان أشد الناس تقاضيا »(٢) فلما حل المال قعد الفضل على باب العقرب يقرأ ، وعقرب على سجية فى المطل ، فلما أعياه أمره هجاه بقوله :

قد تجرت عقرب فى سوقنا ... ياعجبا للعقرب التاجره
قد صافتْ العقرب ، واستيقنت ... أن ما لها دنيا ولا آخره (٣)
فان تعد عادتْ لما ساءها ... وكانت النعل لها حاضره
إن عدواً كيده فى إسته ... لغير ذى كيدٍ ولا نائره (٤)
كلُّ عدو يتّقى مقبلا ... وعقرب تخشى من الدابره
كأنها إذا خرجت هودجٌ ... شدّتْ قواه رفعةٌ باكره(٥)

---

(١) المصدر نفسه ١٧٩ ، ١٨٠ ، تاج العروس ماده (حزن) .

(٢) وماذا يفعل غير ذلك مع هذا المماطل ؟

(٣) العلة من صاف عن الشئ إذا عدل عنه ، يريد عدلت عن الايذاء .

(٤) النائره : العداوة والشحناء .

(٥) أورد الجاحظ فى الحيوان ٤ / ٢١٨ اختلافا فى هذه الأبيات .

وقد أورد عنه ابن نباتة حكاية يبدو منها ظرفه وخفة دمه ، وهذه الحكاية تقول : إنه شرب ليلة مع بعض ولد جعفر على سطح ، فلما سكر الجعفرى رمى بنفسه إلى أسفل وقال : أنا ابن الطيار فى الجنة — فتكسر وتهشم — فما كان من الفضل إلا أن تشبث بالحائط وهو يقول : أنا ابن المقصوص فى النار [1] .

من كل هذا نرى أن « الفضل اللهبى » عاش حياة قريبة من البؤس كما عاش فى شبه تعاسة نفسية ، ذلك لأنه وجد مجتمعاً يخاصمه من أجل أشياء ليس مسئولا عنها ، ولأنه وقف بحزم مع الهاشميين . « وقف مع نفسه » وحين أراد أن يتنازل عن جزء من موقفه بحيث لا يتغير الجوهر رفض من الجانب الآخر ، وحكم عليه بالجنون ، ورفع اسمه من الأعطيات ، وهم واحد بعقابه .

صحيح إن الوليد تعاطف معه ولكن لعله كان يريد أن يجره تماماً إلى المعسكر الأموى ، ولكن الفضل اللهبى كان فيه دائماً شئ صلب لايقبل أن يتكسر !

. . ولقد كان جزء من موقف الشاعر أن يحافظ على جزالة اللغة أمام موجة من التبسيط الشديد لها ، وأمام متطلبات « الغناء » الذى أصبح ملمحاً من ملامح المدينة ، وهذا يوضح لنا قوله للأحوص : إنك لشاعر ولكنك لا تعرف الغريب ولاتعرب [2] ، وقد عاق على هذا الدكتور شوقى ضيف فقال : « وفات الفضل أن عصر الغريب انتهى على الأقل عند الأحوص ، وغيره من الغزليين فى الحجاز » [3] ولكن الواضح من شعر الفضل اللهبى أنه كان يريد الجزالة لا التقعر وشعره الذى مر بنا يؤكد هذا .

---

(١) الأغانى ١٦ / ١٨٥ ، سرح العيون ٢١٨ وما بعدها .

(٢) الأغانى ١٦ / ١٧٧ .

(٣) الشعر الغنائى (١ — المدينة) ١٩٠ .

.. ولعل مما يزيد تعاسة هذا الشاعر أن المؤرخين لم يقفوا طويلا عنده ، وأنهم لم يركزوا إلا على شعره السياسى سواء أكانوا معه أم ضده أما الذين وقفوا طويلا عنده كصاحب الأغانى فإنهم ركزوا على أخباره أكثر مما ركزوا على شعره بصفة عامة ، وبخاصة أنهم حاولوا إظهاره فى صورة مضحكة .

وعلى كل فقد استشهد النحاة بقوله :

يامىُّ أن تفقدى قوما وزينتهم ... وتخلسيهم فانّ الدهر خلّاسُ
عمرو وعبد مناف والذى عهدتْ ... بطاحُ مكة آبي الضيم .. عباسُ
ليث هزبر مدل عند خيسته ... بالرقمتين له أجرٍ وأعراس

أجر على أنها جمع لجرو ، والأصل أجرو فحذفت الواو لوقوعها طرفا مضموما ما قبلها .

كما أن بعضهم استشهد على « السناد » بقوله :

عَبْدُ شَمْسٍ أبِي فإن كنت غضبى ... فاملئى وجهك الجميل خموشا
.. نحن كنا سكانها من قريش ... وبنا سميت قريش قريشا

إلى أن يقول « .. ولا تمليت عيشا [1] » — .

..

وهكذا نحس أنه — حتى موته عام ١٠٠ هـ — قد سبح ضد التيار بلونه الأسود ، وبالتزامه الحار فى وقت كانت فيه أعناق الكثيرين من حوله تكاد تنخلع من مواقعها فى المدينة وغير المدينة لتظل دائماً على صلة حميمة بالذهب الذى يفيض من دمشق !

---

(١) سرح العيون ٢١٨ ، الموشح للمرزبانى ١٨ .

٥ ــ نصيب الأكبر

هو نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان، ويكنى أبا الحجناء وقيل أبا محجن ، ويسمى فى البادية « النصيب » تعظيما له ، كما يسمى نصيبا الأكبر « أو نصيب المروانى » تمييزاً له عن غيره، وبخاصة الشاعر « نصيب الهاشمى » الذى سندرسه فيما بعد (١) ، وبالإضافة إلى هذا فهناك من سماه « الشاعر الزنجى (٢) »

ومع أن كلمة « وجه الناصبى » تصفه الشيعة بالسواد ، ويشبه به كل شئ شديد السواد ــ وهناك شعر يدل على هذا (٣) ــ إلا أننا نرتاح فى تسميته إلى ما قيل من أن أبا مزيد سأله : يا أبا محجن ، لم سميت نصيبا ، ألقولك فى شعرك : عاينها النصيب ؟ فرد عليه : لا، ولكنى ولدت عند أهل بيت من ودان ، فقال سيدى إيتونا بمولودنا هذا لننظر إليه . فلما رآنى قال : إنه لمنصب الخلق ، فسميت النصيب (٤) .

ومع الاتفاق على سواده إلا أن هناك اختلافا فى نسبه ، فقيل :

---

(١) الأغانى ١ / ٣٢٤ وما بعدها ، سمط اللآلىء ١ / ٢٩١ ، النجوم الزاهرة ١ / ٢٦٢ المزهر ٢ / ٤٥٧ وهناك أقوال أخرى ، ولكن ما أوردناه هو الصحيح .

(٢) تزيين الأسواق ٨٦ .

(٣) ثمار القلوب ١٤٣ ، ١٧٤ .

(٤) الأغانى ١ / ٣٤١ ومنصب الخلق : مستقيمه .

إن أمه كانت سوداء فوقع عليها سيدها فحبلت بنصيب ، ثم استعبده عمه بعد موت أبيه وباعه (١) .

وقد كان معنى هذا أن أمه يطبق عليها مايطبق على أم الولد فى الإسلام ثم إنه ثبت أن الشاعر اشتراها بعد ذلك ، وقد قيل إن نصيبا حبشى « ولكن المتواتر عنه وبخاصة من المقربين منه أنه نوبى لنوبيين ، فقد قال مقدمه لعبد العزيز بن مروان جئتك بوصيف نوبى يقول الشعر ، وتحدث مع هشام عن بنت عم له لأبيه » ثم إن ابنته غرضة قالت عنه : كان ابن نوبيين سبيين كانا لخزاعة ، ثم اشترت امرأة من خزاعة أم النصيب المسماة سلامة ، والظاهر أن النظرة إليها لم تكن طيبة فى المجتمع الذى تعيش فيه ولاشك فى أن هذه النظرة كانت معممة بالنسبة لجميع السوداوات — ذلك أن ثلاث نسوة تناشدن الشعر فى المسجد الحرام فقالت الأولى : قاتل الله جميلا حيث يقول الخ ... وقالت الثانية : قاتل الله كثير عزة حيث يقول ... الخ وقالت الثالثة : قاتل الله ابن الزانية نصيبا حيث يقول : فلما دخل عليهن قلن له من أنت ؟ فقال : أنا ابن المظلومة المقذوفة بغير جرم « فقمن إليه فسلمن عليه ، ورحبن به ، واعتذرت إليه القائلة ... الخ (٢) » وأمه هذه هى التى يقول فيها :

ولكننى فاديت أمى بعـــد ما علا الرأسَ منها كبرة ومشيب(٣)

وقد عاش طيلة حياته مهموماً بسواده وأسرته وعبوديتهم ، فهو قد اشترى أمه على كبر ، « ثم ابتاع أمة بضعف ما ابتاع به أمه فأعتقها ويقال إنه أعتق — فيما أعتق — ابن خالة له يسمى سحيما ، وأنه قد مر به يوماً وهو « يزفن ويزمر مع السودان » فأنكر عليه ذلك ، فرد عليه ابن خالته : إن كنت قد أعتقتنى لأكون كما تريد فهذا الله مالا يكون

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٣٢٤ ، وسمط اللآلىء ١ / ٢٩١ ، الشعر والشعراء ١ / ٣٧١ .

(٢) الأغانى ١ / ٣٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٣٣٠ ، ٣٢٤ ، ٣٧٧ .

أبداً ، وإن كنت قد أعتقتني لتصل رحمي وتقضي حقي فهذا والله الذي أفعله هو الذي أريده . فانصرف النصيب وهو يقول :

انى أراني لسحيم قـــائــلا إن سحيا لم يُثبني طائـــلا
نسيتَ إعمالى لك الرّواحـــلا وضَرْبِى الأبوابَ فيك سائلا
عند الملــوك أستثيبُ النائـــلا حتى إذا آنستَ عتقا عاجلا
ولّيتني منك القفــا والكاهــلا أخلقا شكسا ولونا حائلا ؟ (١)

ونحن نراه يطلب من عبد العزيز أن يرجعه سريعاً إلى أخته « أمامة » التي تبكي فراقه . وأن يتبع بعض أسرته بعضاً ، وقد عاش طيلة حياته مهموماً ببناته ، لأنه كان يرغب بهن عن السودان ، ويرغب عنهن البيضان ، وقد طلب من عمر بن عبد العزيز أن يفرض لبناته اللاتي كما يقول .- نفض عليهن من سواده فكسدن ، وقد سئل مرة : ماحال بناتك ؟ فقال : صببت عليهن من جلدي فكسدن على : فهن على حد قوله (٢) :

كَسَدْنَ من الفقر فى بيتهنُ وقد زادهنّ سَوادِي كَسادا(٣)

. . والذي يبدو لنا أن نصيباً لم يشأ أن يتصادم مع المجتمع ، وإنما أراد التسلل إليه ، فقد نظر بثاقب فكره ، إلى المدى الذي يمكن أن يصله فى هذا المجتمع وآثر الوقوف عنده ، فإذا قال له عبد العزيز بن مروان : هل لك فيما يثمر الحادثة ؟ (٤) ، نراه يقول : أصلح الله الأمير

---

(١) شعر نصيب ، جمع الدكتور داود سلوم ٦٥ .

(٢) الأغـاني ١ / ٣٣٩ ، ٣٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٣١٠ ، شعره ٨٦ ، وفى رواية «كسودا » وقد أشار لهذا أبو تمام وهو يتحدث عن شعره حين قال :

كانت بنات نصيب حين ضن بها على الموالي ولم تحفل بها العرب .

ديوانه بشرح التبريزي تحقيق محمد عبده عزام ١ / ٢٥٣ .

(٤) يريد المنادمة .

الشعر مغلغل ، واللون مرمد ، ولم أقعد إليك بكرم عنصر ولا بحسن منظر ، وإنما هو عقلى ولسانى ، فإذا رأيت ألا تفرق بينهما فافعل .

ودخل مرة على عبد الملك بن مروان فأنشده ، فوصله عبد الملك ، ثم دعا بالطعام فطعم معه ، ثم قال له عبد الملك : هل لك أن تنادم عليه؟ فقال : ياأمير المؤمنين تأملنى ، قال : قد أراك . قال : ياأمير المؤمنين جلدى أسود ، وخلقى مشوه ، ووجهى قبيح ، ولست فى منصب ، وإنما بلغ بى مجالستك ومواكلتك عقلى ، وأنا أكره أن أدخل عليه ماينقصه فأعجبه كلامه وأعفاه (١) .

وحين أراد ابنه أن يتزوج ابنة أحد السادة الذين أعتقوه . واجتمع الناس للملك ، حضر نصيب ثم قال لعبيد له سود : خذوا برجل ابنى هذا فجروه فاضربوه ضرباً مبرحاً ، ففعلوا وضربوه ضرباً مبرحاً . وقال لأخى سيده : لولا أنى أكره أذاك لألحقتك به ، ثم نظر إلى شاب من أشراف الحى ، فقال : زوج هذا ابنة أخيك ، وعلى مايصلحهما فى مالى ، ففعل . (٢)

ومما يروى فى هذا أن سوداء وقفت عليه وهو ينشد بالمدينة ثم قالت : بأبى أنت ياابن عمى وأمى ! ما أنت والله على مايخزى . فضحك وقال : والله لمن يخزنك من بنى عمك أكثر مما يزينك .

وشبيه بهذا أنه لما أنشد عبد العزيز بن مروان (بمقطم مصر) اجتمع حوله السودان وفرحوا به ، فقال لهم : أسررتكم ؟ قالوا : إى والله . قال : والله لما يسوؤكم من أهل جلدتكم أكثر (٣) وليس معنى هذا أن شعوره بلونه الأسود كان ضعيفاً ، ولكن الذى نريد أن نؤكده أنه فهم مجتمعه ، وأن فهمه هذا لم يصل إليه بقفزة عقل واحدة ، وإنما

---

(١) نهاية الأرب ٤ / ١٠٨ ، الأغانى ١ / ٣٤١ .
(٢) الأغانى ١ / ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٣٨ .
(٣) الأغانى ١ / ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٣٨ .

وصل إليها بعد العديد من الاصطدامات مع الكثيرين وبخاصة الشعراء أما بيوت الخلافة التي تردد عليها فقد عرف ابتداء كيف يجعل لنفسه حدوداً فيها ، كما عرف كيف يكون دائماً نقي الثوب حسن الزى « إن شعوره بهذا اللون المخالف لم يكن بالشعور العارض الذى ينحيه عنه بكلمة فى بيت من الشعر كما يبدو من ظاهر كلامه ، بل لعله كان هو محور شعوره كله وكان باعثه الأول إلى طلب الكرامة والكمال ، وما طرب قط ، ولا غضب قط إلا برز شعوره هذا من الأعماق إلى طرف اللسان[1] »

. . ونحن حين نتتبع هذا لن نقف طويلا عند حادث خروجه إلى مصر ذلك لأن هذه القصص . . كما يقول الدكتور عبد الرزاق حميدة - تشبه قصص المغامرات [2] ولعل أقربها إلى الصحة تلك القصة التى يرويها عن نفسه فيقول : قلت الشعر وأنا شاب فأعجبنى قولى ، فجعلت آتى مشيخة من بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناه [3] ، ومشيخة من خزاعة فأنشدهم القصيدة من شعرى ، ثم أنسبها إلى بعض شعرائهم الماضين ، فيقولان : أحسن والله ؟ هكذا يكون الكلام ؟ وهكذا يكون الشعر ، فلما سمعت ذلك منهم علمت أنى محسن . . فأزمعت الخروج إلى عبد العزيز ابن مروان وهو يومئذ بمصر ، فقلت لأختى أمامة وكانت عاقلة جلدة : أى أخيَّة ، إنى قد قلت شعراً ، وأنا أريد عبد العزيز بن مروان ، وأرجو أن يعتقك الله عز وجل به وأملك ومن كان مرموقاً من أهل قرابتى : قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ! يا ابن أم ، أتجتمع عليك الخصلتان : السواد ، وأن تكون ضحكة الناس فلما أنشدتها قالت : أحسنت والله ! فى هذا والله رجاء عظيم فاخرج على بركة الله [4] .

---

(١) بين الكتب والناس ١١٨ .

(٢) الأدب العربى فى مصر ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٣) هم مواليه .

(٤) الأغانى ١ / ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

وابتداء من هذه النقطة انت محنته الحقيقية مع أهل مهنته من الشعراء ففي طريقه قابل الفرزدق ، وعرض عليه شعره . فطلب منه أن يكتمه على نفسه لولا أن تنبه لهذا رجل كان يصغى إليه . فقد دعاه إليه ثم قال له : «قد والله أصبت ، والله لئن كان هذا الفرزدق شاعراً لقد حسدك ، فانا لنعرف محاسن الشعر ، فأمعن لوجهك ولا يكسرنك» ويتمكن بعد كفاح من الوصول إلى عبد العزيز بن مروان . ويقال إنه قال حين علم به : عليّ بالأسود وهو يريد أن يضحك منه الناس ، ولكنه يبهر عبد العزيز ، ويدخل الشاعر أيمن بن خريم فيقول له الأمير : كم ترى ثمن هذا العبد ؟ فيقول : والله لنعم الغادى فى إثر المخاصر [1] هذا أيها الأمير أرى ثمنه مائة دينار .

فيقول الأمير : فان له شعراً وفصاحة .

فيسأل أيمن نصيبا : أتقول الشعر ؟ فإذا قال : نعم ، رد بأن قيمته ثلاثون ديناراً .

ويقول الأمير : يا أيمن ، أأرفعه وتخفضه أنت ؟ :

فيرد : لكونه أحمق أيها الأمير ! مالهذا والشعر ؟ أمثل هذا يقول الشعر ؟ أو يحسن شعراً ؟

ويطلب الأمير من نصيب أن ينشد من شعره ، وينشد نصيب ، ثم يقول : كيف تسمع يا أيمن ؟

فيرد أيمن : شعر أسود . هو أشعر أهل جلدته ويقول الأمير : هو والله أشعر منك ؟

ويكون فراق بين الأمير وشاعره أيمن بن خريم .

ثم يشترى نصيب نفسه ويتم عتقه (٢)

---

(١) الخوامل من السوق .

(٢) الأغانى ١ / ٣٢٦ وما بعدها ، وقيل إنه قال للمنادى عليه : قل على انه عربى شاعر لايوطىء ولا يقوى ولايساند ، وبهذا رفع سعره إلى الف دينار .

ويهجوه شاعر من أهل الحجاز فيقول :

رأيت أبا الحجناء في الناس جائراً ولونُ أبي الحجناء لونُ البهائم
تراه على مالاحـــه من سواده وان كان مظلوما له وَجْهُ ظالم

ويجتمع مع الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك ، ويقول سليمان للفرزدق انشدنى فيقول :

وركب كـــأن الريحَ تطلب عندهم لهاترة من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الريح ، وهى تلفهم إلى شعب الأكوار ذات الحقائب
إذا آنسوا نارا يقولون : ليتها وقد خصرتْ أيديهم نارُ غالب

فيعرض سليمان كالمغضب ، ويقول نصيب : ألا أنشدك فى رويها لعله لايتضع عنها .. ثم يقول :

أقول لركب صادرين لقيتهم قفا ذات أوشال ومولاكَ قارب
قفوا خبرونى عن سليمان : إننى لمعروفه من أهل ودان طالب
فعـــاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب(١)

ويقول سليمان للفرزدق كيف تراه ؟ فيقول : هو أشعر أهل جلدته ثم قام وهو يقول :

وخير الشعـــر أشرفه رجـــالا وشـــرُّ الشعر ما قال العبيد (٢)

وقيل مر جرير بنصيب وهو ينشد، فقال له : اذهب فأنت أشعر أهل جلدتك : فيرد عليه : وجلدتك (٣)

---

(١) استشهد به ثعلب فى قواعد الشعر على لطافة المعنى ، وهو الدلالة بالتعريض على التصريح ، اما المرتضى فى أماليه ١ / ٦٢ قال إن أبيات الفرزدق مقدمة فى الجزالة والرصانة ، إلا أن أبيات نصيب وقعت موقعها ، ووردت فى حال تليق بها !

(٢) الكامل للمبرد ١ / ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ٥٤٤ تحقيق محمود محمد شاكر .

وهكذا نرى أن الصراع بين الشعراء وبينه كان قائماً على أنه أشعر السود فقط ، وهم حين يشهدون له يشهدون وهم ممتلئون بالمرارة .

فكثير يقول : لوددت أنى كنت سبقت الأسود (أو العبد الأسود) إلى هذين البيتين :

من النفر البيض الذين إذا انتجوا أقرّت لنجواهم لؤىّ بن غالب
يحيون بسّامين طوراً وتارة يحيون عباسين.. شوس الحواجب

وجرير يقول : وددت أن هذا البيت من شعر هذا العبد كان لى بكذا وكذا بيتاً من شعرى وهذا البيت هو :

بزينب ألم قبل أن يرحـــل الركب وقل إن تملينا فما ملّك القلب(1)

ولكن الروايات تتوالى بعد ذلك بانتصاراته على الأحوص والكميت (2) وقد يسخر منه بعض المثقفين فى عصره ، فقد قيل : إنه أنشد ابن أبى عتيق قوله :

ولدت ولم أخلق من الطير أن بـدا سنا بارق نحو الحجـــاز أطير

فقال : ابن أبى عتيق : ياابن أم قل : « غاق » فانك تطير . يعنى أنه غراب أسود ، وقيل إن ابن أبى عتيق قال له : إنى خارج ، أفترسل إلى سعدى بشئ ؟ فقال بيتى شعر ، هما :

أتصبر عن سُعـــدى وأنت صبـــور وأنت بحسن الصبر منك جدير
ولدت ولم أخلق من الطير إن بـــدا سنا بارق نحو الحجـــاز أطير

فلما أنشدت سعدى البيتين ، تنفست « تنفسة شديدة » .

(1) فى رواية الأمالى للقالى ط2 جـ 2 ص 196 : وددت أنى سبقت ابن سوداء إلى هذه الأبيات .

(2) الكامل 1 / 105 ، 106 ، الموشح 259 ، 304 .

فقال ابن أبي عتيق : أوه ! أجبته والله بأجود من شعره ولو سمعك خليلك لنعق وطار إليك .

. ولقد كان نصيب يقابل كل هذا بما يستلزمه كل موقف ، وهو في الجميع لايخرج عن اللياقة وشروط الأدب . فهشام يقول له : يا أسود ، بلغت غاية المدح فسلني ، فيرد عليه : يدك بالعطية أجود وأبسط من لساني بمسألتك ، فإذا بهشام يقول : هذا والله أحسن من الشعر ويحسن جائزته .

ويقول له عمر بن عبد العزيز : ياأسود ! أنت الذي تشهر النساء بنسيبك ؟ فإذا به يرد عليه : إني قد تركت ذلك ياأمير المؤمنين وعاهدت الله عز وجل ألا أقول نسيباً ، وشهد له بذلك من حضروا وأثنوا عليه خيراً . ويقال إنه في وفادة له عليه مع كثير والأحوص ، أذن لهما بالإنشاد ، ولم يأذن له ، وأمر لكل منهما بثلاثمائة دينار ، أما هو فقد أمر له بمائة وخمسين فقط (١) .

ويقول له قائل : أيها العبد مالك وللشعر ؟ فيقول له : أما قولك عبد فما ولدت إلا وأنا حر ، ولكن أهلي ظلموني فباعوني ، وأما السواد فأنا الذي أقول :

وإن أك حـالكاً لوني فإنّي لعقل غير ذي سَقَط وعـاء
وما نزلت بي الحاجـاتُ إلا وَقَى عرضي من الطمع الحياء(٢)

إنه رجل عرف كيف يصل إلى الطبقة العليا في المجتمع ، وعرف كيف يتصرف بما لا يؤذي هذه الطبقة التي يمد إليها يده لا من أجله فقط ولكن من أجل تحرير أسرته ، ومن أجل تقسيم مايحظى به بين مواليه « وكان كذلك معهم حتى مات » (٣) فهو كان يتحمل الكثير

(١) العقد الفريد ٤ / ١٤٣ مكتبة صادر .
(٢) الأغاني ١ / ٣٥٣ .
(٣) المصدر نفسه ٣٣٦ . .

بشجاعة من أجل هذه الأهداف النبيلة « وربما جرى حديث جلدته وأبناء جلدته على أناس من جلسائه الأوداء المنطلقين فى الحديث ، فلا يساوره الغضب ولا يسب ولا يضرب ، ولكنه يعقب بكلام ينم عن الأسى والتسليم على مضض لما ليس منه بد » كما أنه كان يحافظ على الصلاة ، ولا ينشد شعرا يوم الجمعة [1] ثم إنه بعد ذلك كان يحس أن المجتمع من حوله يعتبره شذوذا فى قاعدة تقول : إن الشعر العربى لا يقوله إلا عربى ثم إنهم كانوا يعتقدون فيما يسمونه «الأرومة الشعرية[2]» ولهذا كان نصيب يعتبر من الشذوذ المبكر لطائفة العبيد الذين لا ينتمون إلى العرب من جانب الأب أو من جانب الأم ، والذين يقولون شعراً مرموقاً ومرهفاً . . وعلى كل فنحن نرى قضية السواد تشغل جانباً من شعره على نحو مانرى من نتاجه [3] ، وإذ كنا نراه فى جميعها لا يصل إلى حد الزعيق أو الصخب أو اقتحام الذين يتعرضون إليه ، فهو فى جميع ماقاله لا يخرج عن النبرة التى نجدها فى قوله :

ليس السواد بناقص مادام لى   هـذا اللسان إلى فؤاد ثـابت
من كـان ترفعه منابت أصله   فبيوت أشعارى جعلنَ منابتى
كم بين أسودَ ناطـق ببيانـه   ماضى الجنان وبين أبيضَ صامت
إنى ليحسدنى الرفيـع بنـاؤه   من فضل ذاك وليس من شامت

كما نراها - أى قضية السواد - وراء الكثير من أغراضه ، فهو فى الحب مثلا يعرف ابتداء قدر نفسه ، فحين يقال له إن نسوة يردن أن ينظرن إليك ويسمعن منك شعرك ، يقول : وما يصنعن بى ! يرين جلدة سوداء، وشعراً أبيض، ولكن ليسمعن شعرى من وراء ستر [4] .

---

(١) بين الكتب والناس ١١٩ ، والأغانى ٢/ ٣٩٧ .
(٢) شعر نصيب ٢١ .
(٣) المصدر نفسه ٥٧ ، ٥٨ ، ٧١ ، ١٠٠ ، ١٢١ .
(٤) الأغانى ١ / ٣٤٤ .

ونحن نعرف أن فى حياته تجربة حب فاشلة ، ذلك أنه أحب أمة لبنى مدلج وكانوا يحرسونها منه، ثم بيعت وولدت من سيدها، وحين سئل : فهل فى نفسك منها شئ ؟ قال :

بعد مرور السنوات - نعم عقابيل حزن (١)

ثم أحب جارية حمراء (يعنى من البيض) فماطلته ، وحين ألح عليها قالت : إلياك عنى ، فوالله لكأنك من طوارق الليل ، فقال لها : وأنت والله لكأنك من طوارق النهار ، فقالت ماأظرفك ياأسود ، فقال لها هل تدرين ما الظرف ؟ إنما الظرف العقل ، ثم قالت له : انصرف حتى انظر فى أمرك ، وبعد فترة كتب إليها :

فإن أك حالكا فالمسك أحوى ۝ وما لسواد جلدى من دواء
ولى كرمٌ عن الفحشاء نـاء ۝ كبعد الأرض من جوّ السماء
ومثلى فى رجالكم قليل ۝ ومثلك ليسَ يعدم فى النساء
فإن ترضَىْ فردى قول راضٍ ۝ وإن تأبىْ فنحن على السواء

وقيل إنها تزوجت ، وفى تسريح النواظر أنه لم يتزوجها وأنها اعتذرت حين أرسل إليها بأن العرب تعيرها بزواج الزنجى ، ولكن المتواتر غير ذلك (٢) .

وعلى كل فنحن نجد فى قصائده أسماء : ليلى ونعم وزينب وسلمى وسعدى ورسيم . وقصائد ديوانه تؤكد أنه دخل أكثر من تجربة ، فهناك قصة العجوز التى كان يختلف إلى « ابنتها الصفراء » فى الحجة ، وكيف أنه وهو « نائم بها » قامت مع غيره مرتين فقال :

أراك طموح العين ميّالة الهوى ۝ لهذا وهذا منك ودملاطف
فإن تحملى ردفين : لا أك منهما ۝ فحبى فرد لست ممن يرادف

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٣٧٦ عقابيل حزن : بقايا حزن .
(٢) المصدر نفسه ١ / ٣٥٤ ، تزيين الأسواق ٨٧ .

وهناك امرأة كان ينزل بها بمكان اسمه مالي (١) ، وهناك قصته مع زينب التي أوردها ابن الجوزي تحت باب « في الافتخار بالعفاف » (٢)

وهو على النقيض من حب شاعر كسحيم فهو كثيراً مايربط شعره بأماكن الحج متذكراً أو طالباً من الله الاستعانة على حبه ، كما في العديد من قصائده (٣) وفي قوله :

وبين الصفـا والمروتين ذكـرتكم بمختلف مابين ساع وموجف
وعند طوافي قـد ذكرتك ذكرةً
هي الموتُ بل كادت على الموت تضعف

وهو يكتفي من الحبيب بالنظرة (٤) ويحب على السماع ، ويؤكد إخلاصه في الحب ، ويعش على التعلل ، ويحسن التذكر والتلهف كقوله :

ذكرت مقامي ليلة الباب قـابضا على كف حوراء المدامع كالبدر
ألا ليت شعري هـل أبيتن ليلة ؟ كليلتنا حتى أرى وضح الفجر
أجود عليها بالحـديث وتـارة تجود علينا بالرضاب من الثغـر
فليت إلهـي قـد قضى ذاك مرّةً فيعلم ربي عند ذلك ماشكري (٥)

وهو رقيق في الحديث إليها فيأتي بجمل اعتراضية مثل سلمت ، وقد أخذ عليه هذا البيت الذي يقول فيه :

أهيم بدعـد ماحييت فـان أمتْ فيا ويحَ دعد من يهيم بها بعدي

---

(١) الأغاني ١ / ٣٤٦ .
(٢) ذم الهوى ٢٢٧ .
(٣) شعر نصيب ٧١ ، ٧٢ ، ١٠٥ ، ١٢٥ .
(٤) المصدر نفسه ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ٨٤ ، ١٨٨ .
(٥) معجم البلدان لياقوت ٢ / ١٣ ط ١٠

فقد صححه عبد الملك بن مروان فقال :

أهيم بدعــد ماحييت فــان أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

وأعقب : ماينبغى للملك . ويرد نصيب : ماينبغى لعبد .

ونحن نلاحظ فى أكثر من قصيدة ولعه بالفتيات الصغيرات ولعل وراء هذا أنه كان يشفق أن يتغزل بمن يرددنه محتقرات ، والعقاد يسمى هذا عنده نوعاً من « الصغار » . ولقد كان موفقاً حين ساق القصيدة التى تبدأ بالبيت الآتى :

ولولا أن يقــال صبا نصيبٌ لقلت بنفسى النشا الصغــار

فالقصيدة : كما أوردها الدكتور داود سلوم تؤكد ملاحظته أما صاحب ثمار القلوب فقد اقتصر على هذا البيت ، وعلى بيت آخر وقال : إنه يقصد بناته (١) . على كل فالحاتمى فى حلية المحاضرة عقد فصلا بعنوان « أحسن ماقيل فى حب الصغار » جاء فيه : أول من تنازع هذا المعنى كثير ونصيب .

وعلى كل فنحن نحس فى أعماق الشاعر تعاسة تمنعه من الفرح بالحب ، والاستمتاع به . فهو يقول : إن « العشاق مساكين» وإن « الحب فرقة » . « والحب داء كما يذكر أنه يعاوده التبل (أى سقم الحب) وأنه لايذوق من حبيبته إلا بعينيه . وأن من يحب تسخن عينه عند التنائى وعند التلاقى (٢) ثم يقول :

ومازلت أستصفى لك الود أبتغــى محاسنة حتى كــأنى مجــرم

وما أكثر مايتحدث عن الوشاة ، وعن الحمائم التى تبكى . فتجاربه فى الحب تكاد تكون جميعها محبطة .

---

(١) بين الكتب والناس ٧٦ ، ٧٧ ، ثمار القلوب ٢٢٢ ، شعر نصيب ٨٨ و ٩٨

(٢) شعر نصيب ١٣٢ ، ١٣٠ ، ١١٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢٤ .

. . وهو يجيد فى المدح على الطريقة التقليدية ، ولكنه يبتكر الكثير من المعانى والصور ، منحها وبطريقة حاسمة تلك الجهارة التى تملأ شعر المدح ، وهذا الطول الذى يثقل على غير الممدوح « فهو أقرب إلى النفسية الشعبية منه إلى نفسية طبقة المختصين بالمدائح الرسمية المعتمدة فى رسمها وتأليفها على السماع والتقليد الشعرى الموروث (١) » وهو فى الرثاء ينطلق من نفس منطلق المدح .

أما الهجاء فانه قال لمن قال إنه لا يحسنه : بلى والله ! أترانى لا أحسن أن أجعل مكان عافاك الله أخزاك الله ؟ ثم إنه هو القائل : انما الناس أحد ثلاثة : رجل لم أعرض لسؤاله فما وجه ذمه ؟ ورجل سألته فأعطانى فالمدح أولى به من الهجاء ، ورجل سألته فحرمنى فأنا بالهجاء أولى منه » . وهذا كلام عاقل منصف لو أخذ به الشعراء أنفسهم لاستراحوا واستراح الناس . ولا شك أن مشكلة اللون كانت تحتم عليه نوعاً من المحاسنة ، وكانت تبعده بحسم عن الهجاء ، ولهذا يعلق العقاد على قول نصيب السابق بقوله « وهذا كلام يدل على خلق كريم ، ولكنه لا يصلح لتعليل القصور فى الهجاء فان الشاعر الذى يجيد المدح لا يلزم من قدرته عليه أنه قادر على نقيضه » .

إذ كانت فنون الشعر ترجع إلى دواعيها وبواعثها ولا ترجع إلى مقابلة النقيض بالنقيض (٢) . .

فهو قد أعد لنفسه داخل المجتمع مكانة لا يتعداها ، وهو لا يريد أن يدخل فى صراعات تصرفه عن أهدافه ، صحيح إنه قد يثور على نحو ما فعل بإبراهيم بن هشام حين مدحه ، فإذا بابراهيم يقول له ما هذا بشئ ، وإذا بنصيب يغضب وينزع عمامته ويبرك عليها ويقول : إن

---

(١) المصدر نفسه ٢٥ .

(٢) الأغانى ١ / ٣٤٤ ، بين الكتب والناس ١١١ ، العمدة ١ / ٧١ ط ١ .

المديح إنما يكون على قدر الرجال (١) . . وصحيح إنه كلم مرة أمير المدينة كلاماً غليظاً ، ولكن حياته مع الناس جميعاً كانت سوية ، بل كثيراً ماكان يقبل فيها الضيم .. كل الضيم !!

وقد اهتم به إلى حد ما ، فقد ذكر له أسامة بن منقذ بيتين قيلا في ربع (٢) ، وأبياتاً قيلت في الدار وفي عنوان المرقصات والمطربات يسوق دليلا على المطرب :

ولمدت ولم أخلق من الطير إن بدا   سنا بارق نحو الحجاز أطير

ويسوق له دليلا على المرقص :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله   ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب (٣)

وقد استشهد ابن أبي الأصبع بهذا البيت على اللون البلاغى المسمى « حسن الاتباع » (٤) ذكر أن أبا الجويرية العبدى تأثر به بعد ذلك وذكر يوسف البديعي أن المتنبي تأثر به في قوله تنشد أثوابنا مدائحه . . الخ (٥) كما استشهد بقوله :

فقال فريق القوم لا . وفريقهم   نعم ، وفريق ليمن الله ماندرى

على مايسميه « صحة الأقسام » (٦) كما استشهد بقوله :

وقلبك آنس المعتفين   من الأم بابنتها الزائره (٧)

واستشهد ببيته المشهور : أهيم بدعد .. الخ .. على مايسمى « الموازنة (٨) »

---

(١) الأغانى ١ / ٣٦٣ ، ٣٧٣ .
(٢) المنازل والديار ١٥٣ ، ٣٢٧ .
(٣) ص ١١ ويستشهد به على «النصبة» وهى الحال الناطقة بغير اللفظ والمشير بغير اليد .
(٤) تحرير التحبير ٤٨٨ .
(٥) المصدر نفسه ١٧٧ ، الصبح المنبى ٦٩ .
(٦) ١٧٧ ، تحرير التحبير ١٧٧ .
(٧) عيون الأخبار ٢ / ١٩٠ .
(٨) تحرير التحبير ٢٤٩ .

كما استشهد بشعره على جواز قولهم أنت مأثوم إن فعلت (١) كذا ، ومن المعروف أن ابن سلام تكلم عنه باهمال ووضعه فى الطبقة السادسة من فحول الإسلام (٢) .

والظاهر أن شعره كان متداولا لعوامل ترجع إلى قيمة الشعر فى نفسه، ولعوامل تتصل بشخص الشاعر لابين الأدباء الرسميين وأهل المدن ، وإنما عند طائفة كثيرة من الناس على نحو مانعرف من الأعرابية التى قيل لها : مافعلت نعم ! ، فإذا بها تجيب : سل النصيب تريد قوله :

ألا تسأل الخيمات من بطل أرثد إلى النخل من ودان مافعلت نعم (٣)

وقد تنبه الدكتور إبراهيم سلامة ومن قبله أبو هلال العسكرى لما يسمى «السرقات النثرية» واستشهد لهذا النوع من السرقات بما أخذ من نصيب (٤)

. . ويبدو أن الأمر لم يقف عند حد الاقتباس منه على حد ما مر بنا ، وما جاء فى أمالى المرتضى من تأثر وقع لابن مطير من نصيب (٥) ومن تأثير وقع لأبى الجويرية من نصيب فقد أخذ قوله : قفوا خبرونى . . فنقل معناه ، وكثيرا من ألفاظه ثم يقع من إحسانه أحسن موقع » (٦) وإنما تعداه إلى حد نسبة بعض قصائده إلى بعض الشعراء على نحو مايورده الدكتور داود سلوم فى ديوانه تحت عنوان « الشعراء الذين اشتركوا فيما نسب لنصيب » وهم كثير وكأننا مازلنا فى العصر الجاهلى .

وعلى كل فالذى يهمنى هنا أن أوضحه أن بعض الشعر المشترك بينه وبين هؤلاء الشعراء ظاهر أنه له . وبصفة خاصة يهمنى أن أستعيد

---

(١) تثقيف اللسان ٢٣٣.

(٢) طبقات فحول الشعراء ٦٧٥ ط٢

(٣) شعر نصيب ١٢٧ .

(٤) بلاغة أرسطو بين العرب اليونان ٣١٦ .

(٥) ٤٣٦ ، أمالى المرتضى ١ / ٤٣٦ .

(٦) الوساطة ط ٣ ص ١٩١ .

له إحدى درر الشعر العربي التي نسبت لعدد من الشعراء أهمهم مجنون ليلى .. وهذه القصيدة هي :

كأن القلب ليلة قيل يُغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاةٌ عزّها شركٌ فباتتْ ... تجاذبُه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تُركا بوكر ... فعشهما تصفّقه الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصّا ... وقد أودى به القدر المتاح
فلا في الليل نالت ما ترجّى ... ولا في الصبح كان لها براح (١)

فنصيب غنى بمن تسمى ليلى غناء حارا في شعره ، وهو يذكر العامرية أحياناً فيقول :

خليلي زورا العامرية فانظرا ... أيبقى لديها الودُّ أم يتقضب (٢)

وصورة القلب الحائر «وجدت في شعره» :

كأن فؤاده كرة تنزّى ... حذار البين لو نفع الحذار (٣)

أما صورة الطائر المعذب والفاقد الأمل فتوجد في مايقرب من عشر قصائد حين يتعرض للحمامة التي يمكن أن تكون عنده رمزا للوحدة ، ولضياع شيء بلا أمل في عودته ، وللاحساس بأن الحياة هشة وبأن الأحزان قادمة ، فهو صاحب الفضل في إدخال الحمامة في الشعر بعد أن كانت غير موجودة في الشعر الجاهلي (٤) ولاشك في أن نصيباً

---

(١) البيت الأول والثاني في الأغاني لمجنون بني عامر ٢ / ٤٨ ، ٢/٦٢ ، ٢ / ٨٩ وحين حرج د . داود سلوم هذا النص ذكر أنهما في معجم الأدباء ١٩ / ٣٢ ، وشرح الحماسة للتبريزي ٣ / ١٦٨ والبيان ٢٢١ في الحماسة البصرية ٢ / ١١٥ ، وشرح المرزوقي ٢ / ١٣١٣ والبيت ، في السمط ٦٩٦ وشاهد الانصاف ٤ / ٨٤ لمجنون ليلى ، والبيت ٢ في الكشاف ٤ - ٨٣ ولم ينسبه ... الخ (شعر نصيب ١٧٤ ، ١٧٥) .

(٢) شعر نصيب ٧٤ ، ٦١ .

(٣) المصدر نفسه ٨٩ .

(٤) المصدر نفسه ٦٦ و ٨٥ و ٩١ و ١٠٦ و ١١٦ و ١١٩ و ١٢٨ و ١٣٠ و ٣٦ .

قد تأثر بالبيوت التى انتشرت فى هذا العهد وحولها الحدائق ، بل إن تربية الحمام قد صارت هواية الكثيرين « وظهر أدب الحمام هذا فجأة فى العصر الأموى وفى شعر شعراء المدن فى الغالب ، وفى أدب سكان الحواضر أو الذين يمرون بها [1] » وقد استشهد له الآمدى بستة نماذج فى باب نوح الحمائم [2] فإذا عرفنا أن القطاة لا تختلف عن الحمامة كثيرا ، وأن وزن البيت كان يطلب كلمة قطاة عرفنا أن هذه الأبيات لنصيب وبخاصة إذا أدركنا أن تقديم الصورة الشعرية بهذه الصورة المركبة يوجد عنده كثيرا خاصة وأن الحمامة تخدم عنده عنصر الحركة الذى يهتم به كقوله :

يضم علىّ الليل أطراف حبها ... كما ضم أطراف القميص البنائق

(و) إذا ما بساط اللهو مُدّ وقُرّبَتْ ... للذاته أنماطه ونمارقه

(و) كقوله فى القمر :

بدا أن بنا وابن الليالى كأنه ... حسامٌ جلت عنه القيونُ صقيلُ

فما زلت أفنى كل يوم شبابه ... إلى أن أتتك العيش وهو ضئيل

(و) أقول وليلتى تزداد طولا ... أما لليل بعدهمُ نهار ..

جفت عينى عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار

(و) وبات وسادى ساعدٌ قل لحمه ... عن العظم حتى كاد تبدو أشاجعه

(و) دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

(و) من الخفرات البيض ود جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثةٌ لو تعيدها [3]

ثم إن طبيعة التجربة المحبطة عنده تتفق وهذه الأبيات .

---

(١) المصدر نفسه ٣٧ .

(٢) الموازنة ٢ / ١٤٢ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ٨٩ ، ٨٦ و٩٤ ، ٨٢ .

فالذى لاشك فيه أن طائفة من شعر نصيب قد نسبت لعدد من عشاق العرب ، لأن نصيباً فى الواقع لم تكن له قصة حب مشهرة مثلهم ، وهو بتركيزه على « ليلى » قد جعل قسما كبيراً من شعره ينتقل إلى تراث المجنون ويضاف إليه وقد تنبه لهذا ابن المعتز « ويبدو أن كثيراً من الشعراء قلد بعضهم بعضاً فى القصائد المشهورة ، فلا بد أن شيئاً يشبه المعارضة والتقليد كان قائماً فى بيئة الحجاز وخاصة القصائد المشهورة فى الغزل [1] » ويبدو أن إمكانيات الشاعر المرهقة ، وعدم وجود عصبية عربية له ، إلى جانب اهتضامه للونه قد كان وراء انتهاب بعض شعره على صورة من الصور .. كأن فى هذا احتجاجاً عليه ، .. وكأن فى هذا عقاباً من لون آخر له ، ومن هذا الجانب مايذكره أسامة بن منقذ فى باب التضييق والتوسيع والمساواة من كتاب البديع ، حيث يقول أن أبياته التى تقول :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسّح بالأركان من هو ماسح
وفاضوا ليوم النّحر من كل وجهة ... ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالتْ بأعناق المطىّ الأباطح

تدل على هذا الباب — وكالعادة هناك من يقول إن هذه الأبيات ليست له !

« ولا خلاف فى أن المعنى ضائع فى اللفظ ، لأنه يعنى لما حججنا رجعنا وتحدثنا فى الطريق ، لكن عليه حلاوة وطلاوة » .

وإذا كانت الدكتورة بنت الشاطئ تؤكد أن شعر نصيب لم يضع ، لأنه كان من شعراء البلاط فى الوقت الذى ضاع فيه شعر الموالى [3] ، فانا نرى من واقع ديوانه الذى قدمه أخيراً د. داود سلوم

(١) المصدر نفسه ٥٠ ، طبقات الشعراء ٨٩ .
(٢) ص ١٥٤ .
(٣) قيم جديدة للأدب العرب ١٢٤ د. بنت الشاطئ .

أنه لايمثل كل المواقف التى عاشها ، ولهذا نرجح ضياع جزء منه . كما نؤكد أن عدداً من قصائده قد نسب إلى عدد من الشعراء .

ونحن نعرف أنه كان له بصر مرهف بفن الشعر على نحو مانعرف من مساجلاته مع عدد من الشعراء [1] ، ومن الخروج على المتوارث عندهم [2] ، ولعل أعمق ماعرف عنه حين سئل عن بعض الشعراء فقال :

جميل أصدقنا شعراً ، وكثير أبكانا على الظعن ، وابن أبى ربيعة أكذبنا وأنا أقول ماأعرف [3]

فهو بحق قد عاش حياته ولم « يمثلها » ولم ير من حوله إلا ماالتحلت به وأضاءه ولعل هذا يوضح لنا أنه لم يتعرض فى شعره الهاشميين . أو الأمويين البارزين فى عصره كآل زياد والحجاج ، ولقد كان هذا خيراً وبركة على الجانب العاطفى عنده .

ثم إنه كان يحس أنه مراقب ممن حوله ، ولهذا ـ كما مر بنا ـ لم يحاول أن يرى نفسه إلا كما يراه الآخرون ، ولم يكسر هذا إلا فى حالات نادرة ، وقد كان هذا يستدعى منه دائماً وسط مجتمع كالمجتمع الذى يعيش فيه أن يكون على جانب كبير من « اليقظة » ولاشك أن هذا قد انعكس على شعره ، وبخاصة فيما يتصل بالصورة التى يلتقطها فى لحظة الحركة ، أو تلك الصور الخيالية التى كان يأتى بها ، لكى

---

(١) الموشح ٢٥٩ ، ٣٠٤ .

(٢) استشهد له فى هذا المجال أسامة بن منقذ فى البديع نقد الشعر بما سماه باب المخالفة وهو الخروج عن مذهب الشعراء ، وترك الاقتفاء لآثارهم كقوله :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا   وقت الزيارة فارجعى بسلام

فليس المعهود رد المحبوب على عقبه إذا أراد زيارة محبه وكقوله

أهيم بدعد ما حييت فإن مت   فوا أسفى من ذا يهيم بها بعدى

(٣) المصدر نفسه ٣٢١ .

يكسب المعنى امتلاء وخصوبة والتى « يجسم فيها مشاعره فى تركيبة حسية موحية » على نحو مانعرف من قصيدته التى أولها :

كـأن القلب ليلـة قيل يُغـدَى   بليلى العـامرية أو يُـراح

وعلى كل فلعله بهذه اليقظة » (١) يمكن أن يفسر موقفه حين أنشد الفرزدق - كما مر بنا - فخرا عند سليمان الذى كان يتوقع مدحاً ، فاذا بنصيب يدرك « المقام » وينشد مايرضى سليمان ، بدلا من تصوير الأمر على أنه « مقاييس القصر » (٢) التى تصرف فى ضوئها نصيب ، وقريب من هذا ماحيته حين أخذ على الكميت قوله

أم هـل ظعائن بالعلياء نافعـة   وإن تكامل فيها الأنس والشنب

فقد قال له : باعدت فى القول ، ماالأنس من الشنب ، فهو هنا يطلب من الكميت أن يقرن كلماته إلى لفقها ويصلها بمشكلاتها ، ومعنى هذا أنه يلفته إلى ما يسمى عند البلاغيين « مراعاة النظير » (٣) وحين قيل له : لك بيت نازعك فيه جرير أيكما فيه أشعر ، فقال ماهو ؟ فقيل قولك :

أضرَّ بها التهجير حتى كـأنها   بقايا سلال لم يدعهـا سلالهـا

ثم أنشد قول جرير :

إذا بلغـوا المنازل لم تقيَّد   وفى طول الطـلال لهـا قيودا

فقال : قاتل الله ابن الخطفى ، فقيل له قد فضلته عليك ! فقال : هو ذاك (٤) وفى الوقت نفسه يمكن القول ، بأنه البؤس الروحى الشاعر

---

(١) التفسير النفسى للأدب د. عز الدين اسماعيل ٩١ .

(٢) قيم جديدة للأدب العربى د. بنت الشاطئ ١١٤٠ ، ٣٢١ .

(٣) البلاغة تطور وتاريخ . د. شوقى ضيف ص ١٨

(٤) آمالى المرتضى ١ / ٥٨٠ .

الأسود الذى ضاعت مفاخره ، ولعله لو كان يملك جداً كجد الفرزدق لما تردد فى أن يقول شعراً مثل شعر الفرزدق .

ومهما يكن من شىء فقد استطاع أن يخرج من طبقته ، وأن يبهر عصره ، بعد أن تخطى العديد من العقبات . وبعد أن نقش اسمه نقشاً حاداً على صخرة الشعر الصلبة [1] .

(١) كانت وفاته فى ١٠٨ هـ – ٧٢٦م ، وقد ذكرت من صفاته الجسيمة أنه كان أسود خفيف العارضين ناتئ الحنجرة كما عرفت عنه الصلاة ، وعدم الإنشاد يوم الجمعة (شعر سحيم ٥٦ ، الأغانى ١ / ٣٤٢ ، ٢ / ٣٩٧) .

٦ ـ الشعراء الغاضبون

قبل أن ننتقل إلى الشعراء الذين عاصروا الغروب الأموى والشروق العباسى ، والشعراء العباسيين بصفة عامة نقف وقفة عند ثلاثة من الشعراء الذين عاشوا فى العصر الأموى ، وقد رأينا أن نجمع بينهم لاتفاقهم فى ظاهرة الغضب من جهة ولقلة المعروف عنهم من جهة أخرى ، ثم لأنهم من وجهة نظرنا كانوا أول من شغب على العرب فنياً قبل أن تستفيض هذه الظاهرة على أيدى الشعراء الفرس بصفة خاصة ، وكانوا من أوائل الذين تأثروا بنظرية النقاء العنصرى التى أكدها الأمويون .

فالمعروف أن السود فى الجاهلية كانوا طبقة مهزومة ، وكانت حياتهم تقوم على خدمة العرب بالعمل وبالغناء وبالرقص ، وفى ضوء هذا نراهم إذا عيروا بالسواد يكتفون بالوقوف عند تبرير هذا اللون ، والاعتذار عنه ، فكثيراً ما كانوا يقابلون بين سواد الليل وبياض الخلق ، أو يذكرون أن هناك أشياء أخرى يمكن أن تسودهم على « النسب المظلم » كما عرفنا من عنترة ، وسحيم ، وخفاف بن ندبة .

ولكن الإسلام حقيقة أنعش روحهم ، وأرسى دعائم المساواة ، وحطم الإحساس بالرق الداخلى الذى كانوا يحسون به إلى حد أنهم كانوا غير مصدقين بأنهم على قدم المساواة مع الإنسان العربى ، ولكن هذا لم يدم كثيراً ذلك ، لأن السود أحسوا أنهم لا يعاملون كغيرهم ،

ومن هنا انسحب بعضهم من المجتمع ، أو أغرق نفسه فى العبادة ، فالذى حدث فعلا أن القرن الأول الهجرى حمل معه فى أول الأمر — على استحياء — تلك العصبيات والحزازات القديمة، ثم مالبث أن اشتدت بين عرب الشمال وبين عرب الجنوب ، وقد رأينا فى أوائل هذه الفتنة أن السود يتعاطفون مع عرب الجنوب أكثر مما يتعاطفون مع عرب الشمال ، ثم رأيناهم من خلال هذه العداوة يعملون على تأكيد ذاتهم ، وحين يوجه إليهم لوم بسبب ركاكة أنسابهم ، أو بسبب ألوانهم لا يسوغون هذا بأنهم « بيض الخلق » أو أن هناك أشياء أخرى يمكن أن تغطى على نقاط الضعف التى يعترفون بها عندهم ، ذلك لأننا نراهم يدافعون بعنف وغضب عن كل ميراثهم ، فهم لا ينظرون إلى الخلف فى غضب ، وإنما يتعمدون الإلتفات إلى الوراء ، ثم يقفون عند أشياء بعينها يرون أنها تكيد العرب ، وتثقل عليهم.. وهكذا ظهر ميلاد غضب جديد للسود فى الأدب العربى .

ومع أنه لم يلاحظ أنهم لم يكونوا يبدأون الشعراء العرب بالعدوان ، إلا أنهم أصبحوا فى حالة لا يسكتون فيها على تهمة توجه إليهم ، أو على نظرة غضب تقذفها العيون — كحجر — على جلودهم ، وعلى ماضيهم !

ومهما يكن من شيء فسنحاول أن نقف بقدر إسعاف النصوص لنا عند ثلاثة من الشعراء السود الذين كانوا علامات على التصادم المبكر بالعرب .

١ — يعتبر الشاعر الأموى الحيقطان (١)

هو صاحب الصوت الأول الحقيقى الذى يؤرخ للنبرة الجديدة التى بدأ يتحدث بها الشعراء السود فى الحياة العربية ، والتى كانت المدخل لما يعرف بالشعوبية .

---

(١) اصل معنى الحيقطان طائر الدراج او الذكر منه ، وهو الذى قيل عنه انه كان يفضل فى رأيه وعقله وهمته ، وهو الذى يقول فى الاخوان : لا تعرف الأخ حتى ترافقه فى الحضر =

وقد بدأت الشرارة الأولى حين رآه مرة الشاعر جرير يلبس في يوم عيد قميصا أبيض على جسده الأسود ، وكان أن تهكم به قائلا :

كأنه لما بدا للناس أير حمار لُفَّ في قرطاس

ولما كان هذا البيت العابث في تواتر من فم إلى فم ، فانه يقال : إن الحيقطان حزن حزناً شديداً ودخل إلى منزله ثم قال هذه القصيدة الرادعة ، التي تحتج بها اليمانية على قريش ومضر ، ويحتج بها كذلك العجم والحبش على العرب ، وهذه القصيدة هي :

لئن كنت جَعْدَ الرأس والجلد فاحم فاني لسبْطُ الكف والعرض أزهَر
وإن سواد اللون ليس بضائري إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر
فان كنت تبغي الفخر في غير كنهه فرهط النجاشي منك في الناس أفخر
تأبي الجلندي ، وابن كسرى ، وحارثٌ وهوذة ، والقبطي ، والشيخ قَيْصر .
وفاز بها دون الملوك سعادة فدام له الملك المنيع الموقّر
ولقمان منهم ، وابنه ، وابن أمه .. وأبرهة الملك الذي ليس ينكر
غزاكم أبو يكسوم في أم داركم وأنتم كقبض الرمل أو هو أكثر (١)
وأنتم كطير الماء لما هوى لها ببلقعة حجن المخالب أكدر

== وتراه في السفر ... رسائل الجاحظ ١٨٠ وما بعدها ، معجم البلدان لياقوت ١ — ٣٩٤ ، ظهر الإسلام ١ — ٧٢ ، وقد جاء ذكره في قول خالد بن سلمة :

فما كان قائلهم دغفل ولا الحيقطان ولا ذو الشفه

وعقب الجاحظ في البيان والتبيين ١ — ١٣٠ يقوله : الحيقطان عبد اسود وكان خطيباً لايجارى .

(١) القبض : العديد الكثير ، وهو يعني صاحب الفيل حتى أتى مكة ليهدمها ، فهو يقول : كنتم كعدد الرمل فلم فررتم منه ؟ وما دامت قد غزيت — وهي أم القرى وفيها البيت الحرام الذي هو شرفكم — فإن كل مكان لكم قد غزى .

فلو كـان غير الله رام دفاعـه
علمت .. وذو التجريب بالناس أخبر

وما الفخر إلا أن تبيتوا إزاءه وأنتم قـريبٌ ناركم تتسعـر
ويدافع منكم قـائدٌ ذو حفيظة نكافحه طوراً، وطوراً يدبّر
فأما التى قلتم فتلكم نبـوّة وليس بكم صون الحرام المستّر (١)
وقلتم لقـاح لانؤدى أتاوة فاعطاء أريان من الغر أيسر (٢)
ولو كـان فيها رغبـةٌ لمتوّج إذا لأتتها بالمقاول حِمْيَر (٣)
وليس بها مَشْتىً، ولا متصَيَّف ولا كجوّاثا ماؤها يتفجر (٤)
ولا مرتع للعين، أو متقنَّصٌ ولكن تجراً. والتجارة تحقـر
ألست كليبيا، وأملك نعجة لكم فى سمان الضأن عارٌ ومفخر (٥)

.. وهذه القصيدة الجريئة تعتبر « جواز المرور » للشعراء الذين جاءوا بعد ذلك، والذين يطلق عليهم اسم الشعراء الشعوبيين، والملاحظ ابتداء أنه لم يقف عند جرير وقبيلته فقط، ولكنه تعرض بحسم للأحباش والعرب، ثم أعطى — بانفعال — الأحباش كل مكرمة، وسلب عن العرب كل مكارمهم، فهو يسخر من مكة، ويسخر من قدرة أهلها على الدفاع عن أنفسهم، ويذكر أن حياتهم التى تقوم على التجارة حياة محتقرة لأنها تقوم على شئ محتقر، ثم يسوق — بفخر — عدداً من السود فى معرض الزهو على العرب، ومع أنه يحتاط فيذكر أنه لا ينبغى

---

(١) أى صين البيت الحرام ذو الستور، وصون لغة فى صين.

(٢) اللقاح : القوم لم يدينوا للملوك، ولم يصبهم فى الجاهلية سباء، الأريان : الخراج والأغارة.

(٣) المقاول : جمع مقول ل بالكسر، وهو القيل الملك من ملوك حمير.

(٤) جؤاثا : حصن لعبد القيس بالبحرين.

(٥) بنو كليب يرمون باتيان الضان، وكذلك بنو الأعرج، وسليم، وأشجع ترمى باتيان الماعز، يريد أن يقول : أما العار فالذى شاع عليهم من ذكر النعاج.

للعرب أن تفخر بالإسلام لأنه « نبوة » تجئ قدراً من السماء ، إلا أنه لايخفى فرحه بهؤلاء الذين تأبوا على الإسلام، فيقول باستمتاع ماكر :

تأبى الجلندى ، وابن كسرى ، وحارث
وهوذة ، والقبطى ، والشيخ قيصر

فهو يريد أن يقول : كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى الجلندى فلم يستجيبوا له ، وكذلك كان الحال مع كسرى ، والحارث بن أبى شمر ، وهوذة بن على الحنفى ، والمقوقس عظيم القبط بمصر ، وقيصر الروم .. وهو فى كل ذلك يرفع راية السود ويلوح بها فى غطرسة وحنق وهكذا تكون هذه القصيدة جديدة فى موضوعها ، وتكون من أولى القصائد التى جهرت للعرب بالقول ، وأكدت فى الوقت نفسه روح تلك القوة السوداء التى لم تعد تطيق الصمت ، ولا الاعتذار عن السواد ، ومن هنا بدأت الحرب بالكلمة الحادة كالسيف ، والمدببة كالرمح .

٢ – أما الشاعر الثانى فهو سنيح بن رباح .

وقصته لاتختلف عن قصة الحيقطان ، ذلك أن الشاعر جريراً لما هجا بنى تغلب جاء فى هجائه :

لاتطلبن خئولة فى تغلب
فالزنج أكرم منهم أخوالا

وكان أن غضب العبيد من الزنج وقالوا : « من يعذرنا من ابن الخطفى » فقال رجل منهم يقال له سنيح بن رباح مولى بنى ناجية هذه القصيدة (١) :

---

(١) الكامل فى اللغة والأدب ٢ – ٨ ، نقائض جرير والأخطل لأبى تمام تحقيق الأب أنطون صالحانى ٨٨ ، خزانة الأدب ٢٧٠٢ ، والجزء الحادى عشر من تاريخ مصنف مجهول ، وهو لعله كتاب أنساب الأشراف وأخبارهم للشيخ الامام ابى الحسين احمد بن يحيى بن جابر داود البلاذرى البغدادى ص ٣٠٣ مطبعة بولس آب فى مدينة غريفزولد ١٨٨٣ ... وقيل إن اسم الشاعر رباح بن سنيح ، وسبيح بن رياح ، ورباح بن سبقيج ، ووالصحيح سنيح بن =

ما بال كلب من كليب سبّنا | إن لم يوازن حاجبا وعقالا
ان امرأ جعل المراغة وابنها | مثل الفرزدق جائر قد فالا (١)
والزنج لو لاقيتهم فى صفهم | لاقيت ثم جحاجحا أبطالا
فسل ابن عمرو حين رام رماحهم | أرى رماح الزنج ثم طوالا (٢)
فجعوا زياداً بابنه، وتنازلوا | لما دعوا النزال ثم نزالا (٣)
ومربطين خيولهم بفنائهم | وربطت حولك شيها وسخالا (٤)
كان «ابن ندبة» فيكم من نجلنا | و «خفاف» المتحمل الأثقالا
وابنا زبيبة «عنتر» و «هراسة» | ما إن ترى فيكم لهم أمثالا . .
سل «ابن جيفر» حين رام بلادنا | فرأى بغزوتهم عليه خبالا (٥)

= رباح ، وقد رويت له فى الجزء السابع من كتاب الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ هذه الأبيات ، ويقصد بالخضر فيها النبى صاحب موسى :

ما أبغض الخضر فيلا منذ كان ولا | أحب عيرا ... وذاكم غاية الكذب
وكيف يبغض شيئاً فيه معتبر | وكان فى الفلك فراجا من الكرب
والفيل اقبل شىء لو تلقنه | حاجات نفسك من جد ومن لعب
ولو تتوج فينا واحد فرأى | زى الملوك لقد أوفى على الركب
يغضى ويركع تعظيما لهيبته | وليس يعدله النشوان فى الطرب
وليس يجزل إلا كل ذى فخر | حر ومنبته من خالص الذهب
مثل الزنوج فان الله فضلهم | بالجود (...) والتطويل فى الخطب ؟

(١) والمراغة : الأتان . فالا : أخطأ رأيه وضعف .

(٢) ابن عمرو : هو حفص بن زياد بن عمرو العتكى كان خليفة أبيه على شرطة الحجاج ، وحين غلب رباح شار الزنجى على الفرات ، توجه إليه حفص بن زياد فقتله رباح ، وقتل أصحابه ، واستباح عسكره ، وفى النقائض ص ٨٨ هو زياد بن عمرو وقد قتله رباح زمن الحجاج بن يوسف .

(٣) زياد : والد جعفر بن زياد بن عمرو .

(٤) الشيه : جمع شاه .

(٥) ابن جيفر : هو النعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر الجلندى ، كان قد غزا بلاد الزنج مقتلوة ، وغنموا عسكره .

و « سليك » الليث الهزبر إذا عدا والقـــرم عباس علوك فعـــالا
هذا « ابن خازم بن عجلى » منهم غلب القبائل نجـــدة ونوالا
أبناء كـــــل نجيبة لنجيبة أسد تربب عندهـــا الأشبالا
فلنحـــن أكرم من كليب خئولة ولأنت ألأم منهم أخـــوالا
وبنو الحباب مطاعـــن ، ومطاعم عند الشتاء إذا تهب شمالا .

وهو لاينسى لكى يحكم حلقات العداء أن يفضل عليه الفرزدق فيقول :

قد قستُ شعرك ياجرير وشعرَه فقصرت عنه ياجـــرير وطالا
ووزنتُ فخرك ياجرير وفخـــره فخففتَ عنه حين قلتَ وقالا

والملاحظ هنا أن الشاعر لم يغضب لهجاء شخصى على نحو مافعل الحيقطان ، وإنما رأيناه يغضب لبنى قومه الزنج ، ويذكر بالمواقع التى انتصروا فيها على العرب ، وكيف يربطون فى فنائهم الخيول ، فى الوقت الذى يربط فيه جرير حوله الشياه والسخالا .

وهو يذكر السود الخالصى السواد فى العرب ، ثم يذكر أبناء السوداوات ، ويسميهن النجيبات ليزيد الألم على العرب الذين يسمون حرائرهم نجيبات ، ثم يذكر أن خئولتهم أنجب من خئولة كليب

٣ ـ أما الشاعر الثالث فهو عكيم الحبشى (١) .

وقد قيل إن علماء أهل الشام كانوا يأخذون عنه كما أخذ أهل العراق من المنتجع بن نبهان ، وعلى كل فقد سمع عكيم الحبشى أن حكيم ابن عياش الكلبى يقول :

---

(١) رسائل الجاحظ ١٩٨ ، ١٩٩ ، بين العرب والحبشة ١٣٧ ، ١٣٨

لاتفخـــرن بخال من بنى أسد فان أكرم منها الزنج والنوّب (١)

فاذا بهذا الشاعر الحبشى يحس أنه أهين، وأنه لا بد أن ينتقم للسود، وكان أن قال فيما قال :

ويوم غمدان كنا الأسد قد علموا ويوم يثرب كنا فحلّة العرب
وليلة الفيل : إذ طارت قلوبهم وكلهم هاربٌ موفٍ على قتب
منا النجاشى، وذو العقصين صهركم وجد أبرهة الحــامى أبى طلب
هبنى غفرت لعدنان تهكمهم فما لحميرَ والمقــوال فى النسب
جبارة جمعت من كــل مخزية جمع الشبيكة فوق الزاخر اللجب

.. من كل هذا نرى أن أول الأصوات الصاخبة التى ارتفعت على العرب كانت من السود، فقد جمعوا لهم مابين أعينهم، وسخروا منهم، ونقبوا عن نقط الضعف فيهم، وألحوا على هذه النقاط، وفى كلمة موجزة رفعوا أنفسهم عليهم، وقالوا ماقالوه بغضب وعنف لاعلى حياء كما كانوا قبل مجئ الاسلام. وهكذا يكون الشعراء السود هم «الشعوبيون الأول» الذين قالوا ماقالوه بانفجار مخيف، أما الذين شغبوا على العرب فى العصر الأموى من غير السود كزياد الأعجم، واسماعيل بن يسار، وابن ميادة، فقد كانت نبرتهم خافتة وعلى شيء من الإبقاء للود، وحتى الذين صرخوا فى وجه العرب فى العصر العباسى أعتقد أن عنفهم كان دون عنف السود، وبخاصة إذا عرفنا أن هناك نصوصاً قد ضاعت أو ضيعت بالنسبة للشعراء السود، فنحن لانتصور أن يضيع ذكر هؤلاء الشعراء الثلاثة بالصورة التى ضيعوا عليها إلا إذا كان وراء ذلك غضب عليهم، وتعمد لإهمالهم، ومن غير الطبيعى

(١) يبدو أن هذا كان متعارفاً عليه عند بعض العرب، فنحن نجده عند الفرزدق، وسويد ابن أبى كاهل، وحاجب بن يزيد (مجالس ثعلب ١٢٧، الأغانى ١٣ – ٨، ١٤ – ٢٦٨، ٢ – ٣٣٥).

أن نتصور أن هذا الشعر هو كل شعرهم ، وأن غضبهم لم يمتد أكثر من ذلك ، ذلك لأنا أمام شعر ناضج ، ومستكمل الأداة .

ولهذا فنحن نخالف الدكتور محمد نبيه حجاب حين يقول « .. وإذا تطرق الحديث إلى الزنوج وهم موالى النوبة ، كنصيب وسنيح فى الإسلام وعبد ياليل فى الجاهلية ، فيجدر بنا — حين نشير إلى موقفهم من العرب - أن نقرر أنهم كانوا أقل الشعوب عصبية على العرب ، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى قلتهم وضعفهم وماضيهم الذى لم يبلغ من الحضارة ما بلغه الفرس والروم (١) » فمع أن الزنوج ليسوا موالى النوبة ، ومع أن الاستشهاد بعبد ياليل لايدعم القضية التى يراد اثباتها ، إلاأن الذى لاشك فيه أنه من خلال القصائد التى أوردناها ، ومن خلال الغضب الذى يطفح منها فى هذا الوقت المبكر فى عهد الأمويين .. نزعم أن السود كانوا رواد الشعوبية ، وأنهم لم يقلوا عن الذين خاشنوا العرب وغاضبوهم بل زادوا عليهم .

وإذا كان الدكتور محمد نبيه حجاب يستشهد على قوله بأن الفرزدق حين قال :

وخير الشعر أشرفه رجالا وشر الشعر ماقال العبيد

رد عليه نصيب بقوله :

ليس السواد بناقص مادام لى هذا اللسان إلى فؤاد ثابت
من كان ترفعه منابت أهله فبيوت أشعارى جعلن منابتى
إنى ليحسدنى الرفيع بناؤه
من فضل ذاك وليس بى من شامت ا

---

(١) الصراع الأدبى بين العرب والعجم ٥٠ ، ٥١ .

ثم يقول : « وفى تلك الأبيات من التسامى والتطاول مالا يخفى ، من حيث إنه يتمسح بالأصول والجدود ، وإنما قد فخر بقلبه ولسانه . وهل المرء إلا بهذين الأصغرين ، كما فخر بشاعريته ، وهى عنده أسمى من الأصول التى يزدهى بها العرب [1] » .

ونحن من جانبنا نرى أن نصيباً بالذات لم يكن له نصيب ما فى الهجاء على عادة الشعراء فى عصره ، ويروى أنه سئل : لم لا يقول الهجاء ؟ فقال : رأيت الناس رجلين ، إما رجل لم أسأله شيئاً فلا ينبغى أن أهجوه فأظلمه ، وإما رجل سألته فمنعنى ، فنفسى كانت أحق بالهجاء إذ سولت لى أن أسأله ، وأن أطلب ماالديه ، ومع هذا فانه يروى أن جريراً مر به وهو ينشد فقال له : اذهب فأنت أشعر أهل جلدتك ، فرد عليه : وجلدتك ياأبا حزرة [2] .

ويبدو أن غضبهم الحاد والمتفجر كان بعد أن أحسوا بعد عهد الخلفاء أن النظرة إليهم بدأت تتغير وأن الأمويين يؤكدون النقاء العنصرى ، ومن ثم كانت صيحتهم ، وكان شعرهم هذا الغاضب الذى نزعم أنه من أقسى الشعر الذى قاله الشعوبيون فى العرب ، كما نزعم أنهم الرواد الحقيقيون للحركة التى تحددت تحت اسم « الشعوبية » . ولكن صوتهم وهن بعد ذلك لأسباب أهمها ، أن السود لم يكن لهم دور كالفرس مثلا فى المجتمع الجديد ، ولأن الفتوحات لم توجه إليهم ، ثم إنهم حوصروا فى المجتمع الجديد فى وظائف بعينها ، وأنهم بعد انفجارهم فيما سمى « ثورة الزنج » رضوا أن يتصالحوا - على مضض - مع المجتمع الذى عاشوا فى إطاره .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) الأغانى ١ — ٣٣٨ .

ومهما يكن من شيء فالذى يجب ألا ننساه أنه كانت هناك مؤامرة من الصمت بالنسبة لهؤلاء الشعراء الغاضبين وأنهم كانوا يحسون بالهوان الاجتماعى ، وبأن نظرة المجتمع إليهم لم تعد عاطفة ورحيمة ، فلقد كان هذا المجتمع فى كثير من الأحيان يستثيرهم وكأنهم ثيران فى حلبة ، ومن هنا رأيناهم يقذفون أبياتهم - كماء النار - على وجه هؤلاء الذين يحقرونهم ، فهم لا ينقدون فقط ، ولكن يصادمون ، ويتوعدون ، وهم من خلال ذلك يؤكدون ذاتهم بالتركيز على النابغين منهم ، وبتعرية عاهات من يناوشهم ، وهكذا - وبأسلوب الكواسر - قد هشموا زجاج المجتمع ، وأطلوا بوجوههم الغاضبة ، بعد أن كانوا فى الماضى يصمتون على مضض ، أو يكتفون « بالنقر » على زجاج العداوة .

٧ ـ سديف بن ميمون

هو سديف [1] بن ميمون مولى خزاعة ، وكان سبب ادعائه ولاء بنى هاشم أنه تزوج مولاة أبى لهب ، فادعى ولاءهم ، ودخل فى جملة مواليهم على الأيام ، وقيل : بل أبوه هو الذى تزوج مولاة اللهبيين فولدت منه فلما يفع وقال الشعر ، وعرف بالبيان وحسن العارضة ادعى الولاء فى موالى أبيه فغلبوا عليه [2] . وقد كان هذا وراء تعصبه الشديد لبنى هاشم دون خوف من بنى أمية فى عصرهم . وقد بدأ حياته غاضباً ، ومهيجاً على الحياة من حوله إلى حد الإحساس بأن الاضطراب يعتبر أعمق وأرسخ من النظام الذى تحكم باسمه الحياة من حوله .

فمما يروى عن حياته المبكرة أنه كان يذهب إلى مكان خارج مكة ، ويخرج مولى لبنى أمية اسمه سباب ، ثم يتسابان ويتشاتمان ويأخذان فى ذكر المثالب والمعايب للهاشميين والأمويين « ويخرج معهما من سفهاء الفريقين من يتعصب لهذا ولهذا ، فلا يبرحون حتى تكون بينهم الجراح والشجاج ويخرج السلطان إليهم فيفرقهم ، ويعاقب الجناة [3] » .

---

(١) السدفة الظلمة والسدفة الضوء وهما من الأضداد ، وسميا بذلك لأن الأصل فى السدفة الستر « مجلة مجمع اللغة العربية جـ٧٢ و٧٣ »

(٢) الأغانى ١٦ — ١٣٥ .

(٣) المصدر نفسه ١٦ — ١٣٥ .

وقد كبر هذا الأمر ووجد هوى في نفس الكثيرين إلى حد أنه تكونت جماعتان كبيرتان تقلقان السكينة في مكة . كانت أولاهما تسمى السديفية (نسبة إلى سديف) والثانية تسمى السبابية نسبة إلى سباب (1) .

وقد كان طوال معاصرته لبني أمية يقول : إنه برئ من جورهم وظلمهم وعدوانهم (2) . كما أنه أثر عنه أنه كان يقول « اللهم فيئنا أصبح دولة بعد القسمة ، وإمارتنا غلبة بعد المشورة . وعهدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة ، واشتريت الملاهي المعازف بسهم اليتيم والأرملة ، وحكم في أبشار المسلمين أهل الذمة . وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة اللهم وقد استحصد زرع الباطل . وبلغ نهيته . واستجمع طريده اللهم فأتح له من الحق يداً حاصدة تبدد شمله . وتفرق أمره ليظهر الحق في أحسن صورته ، وأتم نور » (3) .

من هنا نرى أن ثورته قائمة على أسس ، وأنه يقدم مايسوغ غضبه فهو يدين النظام الأموي ويطالب بتغييره ليظهر الحق في « أتم نور ا » ثم يسقط حكم الأمويين . وتعلو راية العباسيين ، وإذا بالشعراء يأخذون عدة مواقف من خلال وجهات نظر الشيعة . فبعضهم — كالكيسانية . قال : لابأس من ذلك ووقف إلى جانب العباسيين كالشاعر السيد الحميري ، وبعضهم ، - كالإمامية ، - طبقوا على أنفسهم مذهب « التقية » وأخذوا ينافقون العباسيين ويمدحونهم على نحو مانرى من الشاعر منصور التمري ، أما بعضهم الآخر ، - كالزيدية . فقد انتظروا بعض الشئ وظنوا أن العباسيين لابد أن يشركوا معهم أبناء عمهم العلويين في الحكم ولكن بمرور الأيام تنطفىء بهجتهم ويأخذون موقفاً مضاداً للحكم القائم .

---

(1) المصدر نفسه ١٦ — ١٣٥

(2) طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٨ .

(3) الشعر : الشعراء ٧٣٧ .

ولقد كان يمثل هؤلاء خير تمثيل سديف (١) .. ذلك لأنه كما سبق أن ذكر من دعاة الحق واتمام النور .

وهو يسارع بالذهاب إلى أبي العباس السفاح ، وهنا يدخل الحاجب ثم يقول للسفاح : ياأمير المؤمنين بالباب رجل حجازى أسود راكب على نجيب متلثم يستأذن ولايخبر باسمه ، ويحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك ، فيقول : هذا مولاى سديف يدخل ، وحين دخل وجد السفاح جالساً في مجلس على سريره ، وبنو هاشم دونه على الكراسى وبنو أمية دونهم على الوسائد ، ومن هنا ينشد تلك القصيدة الدموية التي تقول :

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بنى العباس
بالصدور المقدمين قديما ... والرءوس القماقم الرؤاس
يا أميرَ المطهرين من الذم ... ويا رأس منتهى كل راس
أنت مهدىٌّ هاشم وهداها ... كم أناس رجوك بعد إياس
لاتقيلنّ عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والاتعاس
خوفهم أظهر التودد منهم ... وبهم منكم كحز المواسى
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الأرجاس
واذكرنْ مصرع الحسين وزيد ... وقتيل بجانب المهراس
والإمام الذى بحران أمسى ... رهن قبر في غربة وتناسى ..
فلقد ساءنى وساء سوائى ... قربهم من نمارق وكراسى
نعم كلب الهراش مولاك لولا ... أود من حبائل الإفلاس (٢)

---

(١) العصر العباسى الأول ٣٠٦ .

(٢) الحماسة البصرية ١ — ٩١ ، ٩٢ ، الأغانى ١٤ — ١٣٤ ، ١٣٥ ومع ان هذه القصيدة أشبه بالشاعر وبدخوله على السفاح إلا أن هناك من ينسبها لشبل بن عبد الله مولى بنى هاشم مع =

ويقال : إن أبا العباس حين سمع هذا أخذته رعدة ، وهنا التفت بعض ولد سليمان بن عبد الملك إلى رجل منهم وكان إلى جنبه ، ثم قال : قتلنا والله العبد، وبعد هذا أقبل أبو العباس عليهم فقال : يابنى الفواعل أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون فى الدنيا . خذوهم فأخذتهم الخراسانية بالكافركوبات ،فاهمدوا، إلا ماكان من عبد العزيز ابن عمر بن عبد العزيز ، فانه استجار بداود بن على وقال له : إن أبى لم يكن كآبائهم وقد علمت صنيعته إليكم ، فأجاره واستوهبه من السفاح وقال له : قد علمت ياأمير المؤمنين صنيع أبيه إلينا ، فوهبه له، وقال له : لاترينى وجهه ، وليكن بحيث تأمنه ، وكتب إلى عماله فى النواحى بقتل بنى أمية . ونحن قد اخترنا هذه الرواية من عدة روايات لقربها من العقل ، وفى الوقت نفسه نؤكد أنه لن يكون الشعر هو السبب فى إقامة هذه المأدبة البشرية ، فهناك مايدل على أن السفاح قد بدأ يضيق بهم ، وأن أبا مسلم الخراسانى كان يعمل على استئصالهم (١) بل إن هناك من يذهب إلى أن الأمر قد رتب بحيث يدعى الأمويون جميعاً إلى إقامة « وليمة مصالحة » (٢) . وقد علق على هذا يوليوس فلهوزن فقال : « وهذا المنظر بما فيه من استدراج الضحايا بدعوتهم إلى وليمة ومن إنشاد قصيدة تدعو إلى انفجار غضب يبدو غير مصطنع ، وهو يشبه هذا النوع من الولائم ، تلك الوليمة التى قضى فيها على « بيت

= تغيير فى البيت الأخير مثل صاحب الكامل ٢ - ٢٥٤ ، العقد الفريد ٢-٣٥٦ ، ولعلهما استكثرا هذا على شاعر أسود ظانين أن السبب الوحيد للقتل هو القصيدة ، وقد قال عنها ابن الأثير فى المثل السائر « وهذه الأبيات من آخر الشعر ونادره افتتاحاً وابتداء وتحريضا وتأليبا ، ولو وضمتها بما شاء الله وشاء الإسهاب والإطناب لما بلغت مقدار مالها من الحسن » قسم ٣ ص ١٠٧ تحقيق د. احمد بدوى ود. بدوى طبانه .

(١) الأغانى ١٤ - ٣٤٦ ، والنجوم الزاهرة ١ - ٣٣٠ ، تاريخ البيهقى ٢١٠ .

(٢) الامبراطورية العربية ، ترجمة خيرى حماد ٤٣٥ .

عمرى الاسرائيلى »(١) ، وقريب من هذا مافعلته قبيلة جديس بأعدائها من طسم (٢) .

ولعل مما يؤكد هذا أن أبا مسلم الخراسانى أغرى السفاح بقتل سليمان ابن هشام بن عبد الله قائلا : قد بقى من الشجرة الملعونة فرع ، وحين لم يلتفت إلى كلامه دس إلى سديف مالا ، وأغراه بأن يتعرض لهذا الأمر فقال :

لايغـرنّك ما ترى من رجـال إن تحت الضلوع داء دويـا

فضع السيف وارفـع السوط حتى لاترى فـوق ظهرها أمويا

فكان ذلك سبب قتله فقد ضرب السفاح عنقه ، وعنق ولديه وصلبهم .

فسياسة الدولة هنا التدبير والإعداد للمجزرة ، ولابأس بأن يسقط دم الجميع على رأس الشاعر ، ولاشك أنه من السذاجة أن يقال : إن هذه القصيدة كانت السبب فى إقامة هذه الوليمة الدامية .

. . وحين توفى السفاح وجاء بعده المنصور رسخ فى ذهن العلويين أن الأمر خرج من أيديهم ،ولهذا نراهم يجمعون على الخروج على النظام القائم . وفى عام ١٤٥ ه نرى أن ثورة زيدية (٤) يقوم بها فى المدينة محمد بن عبد الله الحسن الملقب بالنفس الزكية ، ونرى سديفاً يقف إلى جانب إبراهيم بن عبد الله شقيق النفس الزكية الذى ثار بالبصرة ، فقد وقف إلى جانب المنبر ثم قال :

---

(١) تاريخ الدولة العربية ٥٢٣ ، ٥٢٤ .

(٢) الأغانى ١١ — ١٦٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ١ — ٣٣٠ ، ٣٣١ ، عيون الأخبار ١ — ٢٠٨ ، المحبر ٤٨٦ .

(٤) الزيدية من فرق الشيعة ويعتبرون من اعدل الفرق لأنهم مع اعتقادهم أن عليا أحق بالخلافة من ابى بكر وعمر الا أنه مادام قد أجمع أكثر الصحابة على بيعتهما فان أمامتهما تعتبر صحيحة ، وهم ضد التستر والاختفاء (ظهر الاسلام ٢ — ١٣٦) .

إيه أبا اسحـــاق مُليتهـــا في صحة منك وعمر طويل
اذكـــر هـــداك الله زحـــل الألى سير بهم في مصمتان الكبول

كما قال مخاطباً النفس الزكية :

إنا لنأمل أن ترتـــد ألفتنـــا بعد التباعد والشحناء والإحن
وتنقضى دولةٌ أحكام قـــادتها فينا كأحكام قوم عابدى وثن
فـــانهض ببيعتكم تنهض ببيعتنا إن الخلافة فيكم يابنى الحسن[1]

وحين ظفر بابراهيم بن عبد الله وقتل ، هرب سديف ثم كتب للمنصور :

أيها المنصور ياخير العـــرب خير من ينميه عبـــد المطلب
أنا مولاك وراجٍ عفـــوكم فاعف عنى اليوم من قبل العطب

فوقع المنصور :

ما نمانى محمد بن عـــلى أن تشبَّهت بعدهـــا بولى

وكتب إلى عبد الصمد بن على يأمره بقتله ، فيقال إنه دفن حياً (٢)

.. وما عدا هذا يروى له شعر يمدح به أميرا ملحجياً على مكة (٣) وقد استحسن ابن المعتز قوله فى الغزل :

أعيب التى أهوى واطرى جواريا يَرَينَ لها فضلا عليهن بينـــا
برغمى أطيل الصد عنها إذا بدت أحاذر آذانا عليها وأعينا (٤)

---

(١) الشعر والشعراء ٧٣٧ ، العصر العباسى الأول ٣٠٦ .

(٢) الشعر والشعراء ٧٣٧ ، ٧٣٨ وهناك روايات أخرى تتعلق بالظفرية ، مقاتل الطالبيين ٤٧٦ .

(٣) طبقات الشعراء ٤١ .

(٤) المصدر نفسه .

كما يروى له فى وصف نساء :

وإذا نطقن تخالهن نواطقا درا يفصّل لؤلؤا مكنونا
وإذا بسمن فإنهن غمامة أو أقحوان الرمل بات معينا
وإذا طرفن طرفن عن حدق المها وفضلنهنّ محاجرا وجفونا
وكأن أجياد الظباء تمدها وخصورهن لطافة ولدونا
وأصح ما رأت العيون محاجرا ولهن أمرض ما رأيت عيونا
وكأنهن إذا نهضن لحاجة ينهضن بالعقدات من يبرينا (١)

ومن شعره الذى تغنى به أبو العبيس بن حمدون (خفيف ثقيل بالسبابة والوسطى) قوله :

علام هجرت ولم تهجرى ومثلك فى الهجر لم يعذر
قطعت حبالك من شادن أغنّ قطوف الخطا أحور (٢)

فهو قد أخلص لقريش كلها فى مواجهة بنى أمية ، ثم فرح بمقدم العباسيين ولكنه عدل عن موقفه . وقد ظل موقفه ظاهرا وحاسما « وهذا هو مثال العبد فى صورة المولى المخلص الصدوق » (٣) وقد ظل على موقفه هذا مع إنكار بنى عبد الدار انتسابه إلى قريش(٤) .

ولاشك فى أن التزام هذا الشاعر قد جنى عليه ، فهو أخذ موقف المعارضة من بنى أمية فلم يركز عليه كتابها ، وهو قد عارض العباسيين وخرج عليهم ، ثم هو إلى جانب ذلك أسود ، ومن هنا كما يقولون :

سقط بين مقعدين ؛ بل بين أكثر من مقعد

---

(١) زهر الآداب ١٥ . والعقدات : موضع ، واحتج بالبيت الخامس على صحة الطباق فى الصناعتين ص ٣٠٦ .
(٢) الأغانى ١٦ — ١٣٤ .
(٣) بين الكتب والناس ٧٨ .
(٤) مخطوط المغتالين ورقة ٩٠ ، الأغانى ١٦ — ١٣٦ .

.. صحيح إن ماروى له يؤكد شاعرية أصيلة ، وإن ابن المعتز قال عنه : كان سديف شاعرا مفلقاً وأديباً بارعاً وخطيباً مصقعاً وكان مطبوع الشعر حسنه وقد استشهد له فى باب الطباق بقوله :

وأصح مارأت العيون جوارحا   منهن أمرضُ مارأيت عيونـــا

ولكن أسوأ حلقة مرت به — وحياته كلها متصلة التعاسة — أن شعره لم يصل للناس منه إلا القليل [1] ، وإذا كنا لم نجد فى شعره الذى وصل إلينا شيئاً عن السواد ، إلا أن انفعاله ، وطريقة تصوره للحياة من حوله ، وهذا القلق الذى كان يقتات من أعصابه .. يرسم صورة لموقف الشاعر الأسود من الحياة وقد لمس هذا العقاد فى قوله :

« فبردت ذحول بنى هاشم ،ولم تبرد نقمة مولاهم هذا على الأمويين وهذا هو مثال العبد فى صورة المولى المخلص الصدوق »[2] .

---

(١) توفى عام ١٤٦ هـ الأعلام ١٢٦ .
(٢) بين الكتب والناس ٧٨ .

٨ ـ أبو دلامة

هو أبو دلامة زند بن الجون ، كان أبوه عبداً لرجل من بنى أسد ثم أعتق ، وقد عاش فترة فى عهد بنى أمية ولكنه لم ينبغ فى هذه الفترة فقد كانت فترة نظام يزول وفترة هموم تأخذ الجميع من كافة الأطراف ولكنه بعد قيام العباسيين ، وامتلاء الحياة الجديدة بالبهجة ، وثمار الانتصار برز نجمه فى عهد ثلاثة من الخلفاء هم السفاح ، والمنصور ، والمهدى (١) ، وهكذا انتمى تماماً – وبلا تردد – إلى الحكم الجديد .

وهناك إجماع على سواده وأنه كان عبدا حبشياً (٢) ونحن نقابل هنا شاعرا أسود من نوع جديد ، ذلك لأنه لم يهتم تماماً بسواده فى الوضع الاجتماعى الذى وضع فيه نفسه ، وارتضاه ، فقد أخذ على عاتقه أن يملأ الحياة من حوله بالبهجة ، والسخرية والدعابة ، وأن يتصل بالطبقة الحاكمة رجالا ونساء ليضاحكهم ثم يسلبهم أموالهم ، ولقد عرف كيف يتسلل إلى نساء القصور ليطلب أولا ما يريد من المتاع ، وليوسطهن ثانية لدى الرجال الحاكمين من أجل مايريد ، وأنه ليدخل

(١) الأغانى ١٠ – ٢٣٥ ، نهاية الأرب ٤ – ٤٦٧ ، امالى المرتضى ٢ – ٢٩٠ ، مخطوط رفع شان الحبشان ورقة ١٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ، وفيات الأعيان ٣ – ١٩٠ ، الكنى والألقاب ١ – ٦٧

على أم مسلمة — ولم تكن ضحكت منذ مات والدها أبو العباس ، فإذا بها تضحك وتقول له : لو حدثت الشيطان لأضحكته [1] .

وهو يبدأ لملاقاة الحياة خفيفاً من كل شيء ، فهو باسم الولاء المرح والحياة المبهجة يخرج على القيم السائدة فى المجتمع ، ويكاد يخرج الوجود نافضاً عنه كل القيم المسبقة ، وخارجاً عما تعارف عليه أكثر الناس ، ولكنه فى خروجه لا يحمل السيف ، ولا يخلع الولاء ، وإنما يمارس كل هذا من خلال النادرة ، والمفارقة . ثم إنه كان يحمى ظهره أساساً بالخلفاء ، وبالنساء فى بيوت الخلفاء « وكان فاسد الدين ، ردئ المذهب مرتكباً المحارم ، مضيعاً الفروض ، مجاهرا بذلك ، وكان يعلم هذا منه ويعرف به فيتجافى عنه للطف محله (٢) » .

وإذا كان هناك من يذكر أن عصر أبى دلامة كان يوجد فيه العديد من ألوان الزندقة ، كالزندقة السياسية ، والزندقة الدينية ، والزندقة الفكرية ، إلا أن أبا دلامة لا يمكن أن يدخل تحت هذه الدوائر ، فإذا كان لابد من وضعه فى دائرة فان هذه الدائرة ستكون بلاشك دائرة الزندقة الاجتماعية باعتبارها وسيلة للظرف ، والمنادمة ، ثم إن هذا اللون من الزندقة كان يحميه من البطش والمصادرة [3] .

فالخليفة أبو جعفر حين يطلب منه أن يصلى معه فى مسجده ، نرى الشاعر يقول فى هذا شعرا ثم يسلمه للمهدى ليسلمه إلى أبيه ، وهذا الشعر هو :

ألم تعلما أن الخليفـــة لــزّنى   بمسجده والقصر مالى وللقصر
أصلى به الأولى جميعا وعصرها   فويلى من الأولى وويلى من العصر

---

(١) الأغانى ١٠ — ٢٧٥ .

(٢) الأغانى ١٠ — ٢٣٥ .

(٣) ابو دلامة . على الخزاعى ٤٥ ، اتجاهات الشعر العربى د. محمد مصطفى هداره ٢٤٣ .

أصليها بالكره فى غير مسجدى فمالى فى الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان فى قومى مساجد جمة سواه ولكن كان قدرا من القدر
يكلفنى من بعد ما شبت خطة يحط بها عنى الثقيل من الوزر
وما ضرّه - والله يغفر ذنبه -
لو أن ذنوب العالمين على ظهرى (١)

ويلزمه الخليفة بقيام شهر رمضان حين عرف إسرافه فى شرب الخمر، فما كان منه إلا أن توسل إليه ليرد إليه حريته عن طريق ريطة(٢) وكان أن رفع إليها رقعة تقول :

أبلغا ريطة أنى كنت عبدا لأبيها
فمضى يرحمه الله وأوصى بى إليها
وأراها نسيتنى مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشى مشية ما أشتهيها
قائدا ليلة القدر كأنى أبتغيها
تنطح القبلة شهرا جبهتى لا تأتليها
ولقد عشت زمانا فى فياف وجيها
فى ليال من شتاء كنت شيخا أصطليها
قاعدا أوقد نارا لصباب أشتويها ..
وصبوح وغبوق فى علاب أحتسيها
ما أبالى ليلة القدر ولا تسمعنيها
فاطلبى لى فرجا منها وأجرى لك فيها (٣)

---

(١) المصدر نفسه ٢٤٧ .
(٢) ابنة السفاح وزوجة المهدى .
(٣) الأغانى ١٠ - ٢٤٩ .

وهو يهرب من الحج هرباً ، ذلك أن موسى بن داود قال له : أحجج معي ولك عشرة آلاف درهم ، فلما أخذها هرب إلى السواد وجعل ينفق منها هناك على ملذاته وبخاصة الخمر . وحين حمل إليه وهو سكران قال :

يا أيها الناس قولوا أجمعون معا صلى الله على موسى بن داود
كأن ديباجتي خديه من ذهب إذ بدا لك في أثوابه السود
إني أيها أعوذ بداود وأعظمه من أن أكلف حجًّا يا ابن داود
خبرت أن طريق الحج معطشة من الشراب وما شربي بتصريد
والله ما فيّ من أجر فتطلبه ولا الثناء على ديني بمحمود (١)

أما الخمر فكانت محنته الحقيقية ، وانه ليخرج مرة وهو سكران وحين يسأله الجند : من أنت وما دينك ؟ يقول :

ديني على دين بني العباس ما ختم الطين على القرطاس
إني اصطحبت أربعا بالكاس فقد أدار شربها براسي
فهل بما قلت لكم من باس

وحين يحمل إلى أبي جعفر يأمر بحبسه مع الدجاج في بيته ، وحين يفيق يكتب إليه :

أمير المؤمنين فدتك نفسي علام حبستني وخرقت ساجي
أمن صفراء صافية المزاج كأن شعاعها لهب السراج
وقد طبخت بنار الله حتّى لقد صارت من النطف النضاج
تهشّ لها القلوب وتشتهيها إذا برزت ترقرق في الزّجاج
أقاد إلى السجون بغير جرم كأنّي بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لكان سهلا ولكني حبست مع الدجاج

---

(١) المصدر نفسه ١٠ – ٢٤٦ ، المرزباني ٣٨٧ .

وقــــد كانت تخبرنى ذنوبى بأنى من عقــابى غير ناجـــى
عــلى أنى وإن لاقيت شرا لخيرك بعد ذاك الشر راجى [1]

ومع أنا نعتقد أن الخلفاء ما كانوا يأخذون عقابه مأخذ الجد ، إلا أنا نراه كما قلنا يتخفف من كل الملزمات ، فهو يبدأ بما يتصل بالدين وقواعده ، وهو بعد ذلك ينطلق على رقعة كبيرة من العبث ، ونحن نلاحظ أن عبثه قديم قد بدأ فى عهد بنى أمية ، فهو فى عهد مروان بن محمد [2] عمل على اضحاك الناس فى الحرب حين تعرض لفارس من الفرسان بصورة مضحكة إلى حد أن مروان قال: من هذا الفاضح [3] ، وهناك صورة قريبة من هذه الصورة حين خرج مع والى البصرة لمحاربة الجيوش الخراسانية [4] وحدث مثل هذا مع أبى مسلم [5] وابراهيم عبد القادر المازنى يعلق على تلك القصيدة التى أولها :

انى أعــوذ بــروح أن يقــدمنى إلى النزال فتخزى بى بنو أسد

يقوله إن هذا الكلام الذى قاله أبو دلامة يعتبر احتجاجاً قوياً لترك الحرب ، فلو كان الأمر إلى الجنود المسوقة ، وخوطبت بمثله لكان الأرجح فى الرأى أن تلقى السلاح ، وقد خاطب الألمان جنود فرنسا بمثل كلام أبى دلامة ، إذ كانوا فى الشهور الأولى كل ليلة ينادون من خط سيجفريد : لماذا تحاربوننا يامعشر الفرنسيين ، ولا عداء بيننا وبينكم ، ولا مطمع لنا فى مستعمراتكم . . وبالإضافة إلى هذا يقارن المازنى بين ماجاء فى قصيدة أبى دلامة ، وبين ما كان يقوم به الصينيون حين كانوا يتبارزون مع أعدائهم بالحجة والمنطق ، ويتصاولون على الورق والخرائط

---

(١) نهاية الأرب ٤ – ٤٢ ، ٤٣ ، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ص ٧٣٧
(٢) آخر خلفاء بنى امية .
(٣) الأغانى ١٠ – ٢٤٥ .
(٤) وفيات الأعيان ٣ – ١٩١ .
(٥) الأغانى ١٠ – ٢٦٨ .

حتى يقتنع العدو بأن الدائرة كانت ستكون عليه . ومن هنا يعد نفسه مهزوماً ، ويخضع لما يخضع له المهزوم من غير إراقة للدماء [1] . وإنه ليداعب المهدى وعلى بن سليمان حين خرجا للصيد . فأصاب المهدى ظبياً وعلى كلبا :

قد رمى المهدى ظبيا شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمان رمى كلبا فصاده
فهنيئاً لكما كل امرىء يأكل زاده ..

وإنه ليداعب .. فى قصص ضاحكة .. محرزاً ومقاتل ابنى ذؤال فى حضرة المهدى ، وسعيد بن دعلج ، ووصيفى المهدى ، والخيزران ، بل إنه ليشتط فى مداعباته فى المنصور .. ولا يملك المنصور إلا أن يضحك فى موقف بعيد عن الضحك .. فحين توفيت ابنة عم المنصور ، قال لأبى دلامة ما أعددت لهذه الحفرة ؟

ويرد أبو دلامة : ابنة عم أمير المؤمنين [2] .

إنه قد عمل بأناة على أن يخرج من دائرة الجد ، ودائرة القيم السائدة فى المجتمع ، بل انه يطالب بالخروج على شكل من أشكال النظام الذى يحكم حياة العباسيين . . ويجاب إلى هذا ، ذلك أن أبا جعفر المنصور أمر أصحابه بلبس السواد ، وقلانس طوال تدعم بدنان من داخلها ، وأن يعلقوا السيوف فى المناطق ، ويكتبوا على ظهورهم (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) وقد دخل عليه أبو دلامة فى أول الأمر متزيياً بهذا الزى . فقال له الخليفة : ما حالك ؟ . قال : شر حال . وجهى فى نصفى وسيفى فى استى ، وكتاب الله وراء ظهرى ، وقد صبغت بالسواد ثيابى .. فضحك الخليفة وأعفاه وحده من ذلك ، وقيل إنه قال فى ذلك :

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٤٠٠ لعام ١٩٤١ .

(٢) الأغانى ١٠ — ٢٥٨ وما بعدها ، وفيات الأعيان ٢٩٠ وما بعدها .

وكنا نرجّي من إمام زيادةً فجادَ بطول زاده في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللتْ بالبرانس [1]

. . ونحن نراه إلى جانب ذلك يهجو أمه ، وزوجته ، وابنته ، وابنه ، بل إنه ليقسو على نفسه ، ولا ينسى كذلك بغلته .. ومعنى هذا أن الشاعر يأخذ موقفاً عبثياً من كل شيء ، فهو يتنصل من الضغوط والمقومات بلباقة ، وهو يصل دائماً إلى مايريد . . . بذكاء !

فهو يقول عن أمه .. مخاطباً المنصور :

هاتيك والدتي عجوز همة مثل البلية درعها في المشجب [2]
مهزولة اللحيين . من يرها يقل أبصرت غولاً أو خيال القطرب [3]

ويقول في زوجته :

ليس في بيتي لتمهيد فراشي من قعيده
غير عجفاء عجوز . . ساقها مثل القديده . .
وجهها أقبح من حوتٍ طريٍّ في عصيده
ما حياة مع أنثى مثل عرسي بسعيده . .

ويقول فيها مرة ثانية :

إنني شيخ كبير ليس في بيتي قعيده
غير مثل الغول عندي ذات أوصال مديده . .
وجهها أسمج من حوت طريٍّ في عصيده
ذات رجل ويد كلتاهما : مثل القديده [4]

---

(١) الأغاني ١٠ — ٢٣٦ .
(٢) الهمة : العجوز الفانية ويريد أن يقول لها أنها فنيت حتى أشبهت خشب المشجب .
(٣) اللحى : عظم الحنك وهو الذي عليه الأسنان ، والقطرب : ذكر الغيلان (الأغاني ١٠ — ٢٥٩) .
(٤) نهاية الأرب ٤ — ٤٥ ، الأغاني ١٠ — ٢٦٩ .

ويقول في ابنته :

فما ولــــدتك مريم أمّ عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيم
ولكــنْ قــد تضمك أمّ سوء إلى لبّاتها . . وأب لئيم (١)

ومن الملاحظ أن هذا النوع من الهجاء يختلف عن هجاء شاعر كالحطيئة حتى أبو دلامة يقول عن نفسه :

ألا أبلــغْ إليك أبــا دلامــة فليس من الكــرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كــان قــــردا وخنزيرا إذا نــزع العمامــه
جمعت دمامة وجمعت لــؤما كــذاك اللؤم تتبعــه الدمامه
فإن تك قد أصبت نعيم دنيــا فــلا تفرح فقــد دنت القيامه

نحس أنه يعابث نفسه من واقع الموقف الذي قال فيه هذه الأبيات (٢) بل إنه يخيل إلى أنه كان يعد نفسه لهذا العبث فسادا ليضحك من حوله فيقتنص الأموال ، وأنه كان يتفق مع أهله لمواصلة هذا النوع المحبب من العبث ليصل إلى المزيد من المال ، على نحو مانعرف من خداعه المهدى حين قال له ، إن زوجته ماتت :

وكنا كــزوج من قطاً في مفازة لدى خفض عيش ناعم مونق رغد
فأفــردني ريب الزمان بصرفــه ولم أر شيئاً قط أوحش من فرد

ذلك لأنه في نفس الوقت كانت الزوجة . التي قيل إنها ماتت - تدخل على الخيزران ثم تخبرها بأن أبا دلامة مات ، وكان من وراء هذا مال كثير ، .. ومثل هذا قصة احتيال ابنه بأمر والدته على جارية أهديت لأبي دلامة من الخيزران ، ومثل عبث ابنه به حين أراد الولد

(١) طبقات الشعراء ٦٢ ، وتنسب إلى السيد الحميرى فقد جاءت في ديوانه ص ٣٩٥ .
(٢) الأغاني ١٠ - ٢٥٨ ، ولقد سمع بشارا يدل بنفسه فقال له : لوجهك أقبح من ذلك ووجهي مع وجهك ... الخ (الأغاني ٣ - ١٣٨) .

أن يخصى الأب ، وتحكى الزوجة فتقول : إن ابنى – أصلحه الله – قد نصح أباه وبره ولم يأل جهدا ، وما أنا إلى بقاء أبيه بأحوج منى إلى بقائه ، وهذا أمر لم تقع به تجربة منا ، ولا جرت بمثله عادة لنا ، وماأشك فى معرفته بذلك ، فليبدأ بنفسه فليخصها ، فاذا عوفى ورأينا ذلك قد أثر عليه أثرا محمودا استعمله أبوه (١) .

والذى نراه أن هذه الأسرة قد أخذت على نفسها إنعاش الأسرة الحاكمة والقريبين منها ، وأن مرحها كان لا يقف عند حد ، ومن هنا فهى تختلف تماماً فى دوافعها ، وأغراضها عن دوافع وأغراض الشعوبيين الذين عرفوا فى هذا الزمن .

إنه إذا كان هناك دافع بعيد فهو لا بد أن يكون عبوديته وسواده ، وبخاصة أن تحقيره من الخلفاء كان يجرى على الألسنة ، وأن كلمة – « ابن اللخناء (٢) » كانت حاضرة على الألسن ، ولكنه كان لا يسمح بشئ من هذا مثلا من شاعر كأبى العطاء السندى (٣) . ويتوهم من يرى مسكنة أبى دلامة فيحسب أنه قد غفر لنفسه عبوديتها ، وكف عن محاولة الانتصاف لها . فى قالب من القوالب التى تتيسر للشاعر الساخر فقد مدح الخليفة المهدى فقال :

أدعـوك بالرحم التى هى جمّعت   فى القـرب بين قريبنا الأبعـد

فوقع البيت أسوأ موقع من الخليفة الغيور الذى تقوم دعوته كلها على النسب ، ويجمع كل اعتزازه فى أصالته وعراقته وانتمائه إلى الرسول عليه السلام ، وإلى الصفوة من قريش قبل الإسلام فصاح به : ويلك ؟ أى الرحم بينى وبينك ؟

---

(١) الأغانى ١٠ – ٢٥٥ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ١٠ – ٢٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ١٠ – ٢٤٠ .

وكأنما اكتفى أبو دلامة بهذا التذكير فرجع إلى الدعابة ليقول : أبونا آدم وأمنا حواء .. أنسيتها ياأمير المؤمنين ؟

« ولعل الخلفاء كانوا يحسون منه « عقدة النسب » هذه فيحرجونه بها كلما سنحت لهم سانحة حرج (١) »

وأبو دلامة لم يشغل نفسه بالسياسة إلا قليلا على نحو مانعرف من هجائه القصير لأبي مسلم الخراساني كنوع من تأكيد النظام ، والتقرب إلى الخليفة .

أبا مجـرم ماغيرّ الله نعمـة على عبده حتى يغيرّها العبْد(٢)
أبا مجـرم خوفتني القتل فانتحى عليك بمـا خوفتني الأسد الورد
أفي دولة المهدى حاولت غدرة ألاإن أهـل الغدر آباؤك الكرد(٣)

وعلى نحو مانعرف من قوله في المهدى بعد قصة جرت أمامه :

أيُّهذا الأمام سيفك ماضٍ وبكف الولى غير كهـام
فـإذا ما نبا بكف علمنـا أنها كف مبغض للامام (٤)

وقد أجاد في الرثاء كما أجاد في المدح ، وحين أوقف كثيرا من رثائياته على السفاح غضب المنصور ، ولكن أبا دلامة أسرع يقول : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لى مكرما وهو الذى جاء بي من البدو كما جاء الله بإخوة يوسف إليه (٥) .. كما أن له غزلا محمود القيمة يجرى فيه على منوال عمر بن أبي ربيعة .

---

(١) بين الكتب والناس ٧٨ .
(٢) الشعر والشعراء ٧٥٣ .
(٣) الأغانى ١٠ — ٢٧٣ .
(٤) المصدر نفسه ١٠ — ٢٤١ .
(٥) ابو دلامة ٩٩ .

أما إمكانياته الحقيقية فقد كانت عبثه بكل شيء — حتى بنفسه — لإشاعة جو من المرح فى القصور ، وكانت فى الوقت نفسه فى مخاتلة الذين من حوله لاقتناص أموالهم اقتناصاً ، فهو لم يكن من هؤلاء الذين يشاقون النظام القائم ، وهو لم يكن من هؤلاء الذين يسهرون على النظام القائم ، ذلك لأن كل همه كان يقتصر على « تسلية » رجال القصور .

وقد كان من جراء هذا أنه يقترب فى شعره من الحياة اقترابا شديداً ويقوم فى الشعر بعملية « الحكى » ليعطى صورة ضاحكة لما حدث ، وهو فى كل هذا قد ينظم نادرة ، أو يصور حواراً ضاحكاً بينه وبين أهل بيته ، وفى هذا الشعر خاصية « النكتة » التى لاترحم حتى الممدوح على نحو قوله :

عجبت من صبيتى يوماً وأمّهم ... أم الدلامة لـمـا هاجها الجـزع
لا بارك الله فيهامن منبّهـة ... هبّتْ تلوم عيالى بعدما هجعوا
ونحن مشتبهو الألوان . . أوجهنا ... سودٌ قباح ، وفى أسمائنا شنع . .
إذا تشكت إلىّ الجوع قلت لها : ... ما هاج جوعك إلا الرىّ والشبع
. . لا والذى يا أمير المؤمنين قضى ... لك الخـلافة فى أسبابها الرفع
ما زلت أخلصها كسبى فتأكله ... دونى ودون عيالى ثم تضطجـع
شوهاء مشنأة فى بطنها بجـل ... وفى المفاصل من أوصافها فدع (١)
. . ذكرتها بكتاب الله حرمتنا ... ولم تكـن بكتاب الله ترتجـع
فاخرنطمت ، ثم قالت وهى مغضبة ... أأنت تتلو كتاب الله ياالكع (٢)
اخـرج تبغّ لنا مالا ومزدرعا ... كما لجيراننا مال ومـزدرَع . .
واخـدع خليفتنا عنـا بمسألة ... إن الخليفـة للسؤّال ينخـدع

---

(١) مشناة : قبيحة ، البجل : عظم البطن واسترخاؤه . الفدع : اعوجاج الرسغ فى اليد او الرجل .

(٢) اخرنطمت : رفعت انفها غضباً .

. . وينخدع الخليفة (١) ، وقد يقلد أستاذه ابن عبدل فى مطالبة الممدوح بما حدث فى حلم من الأحلام (٢) .

* * *

.. ولعل من الظلم له اعتباره من « الشعوبيين » بدعوى أن الشعوبيين كانوا يريدون مجتمعاً بلا شعر (٣) . وأنه كان يرغب عن الشعر كما فى قوله :

إن كنتَ تبغى العيش حلوا صافيا فالشعــر أعــزبه وكنْ نخــاسا

أما إنه كان يرغب عن الشعر فلا دليل عليه بل إنه « كان يتدفق على لسانه تدفقاً (٤) »

ثم إن أصل القضية التى جاء فيها هذا البيت ، أن دور النخاسة والقيان كانت تعتبر معارض للجمال ، وأنه حين مر بواحدة منها تحسر على حاله ، وعزم – كعادته – أن ينقل مفارقة للمهدى ، وقال شعراً يبدأ بقوله :

ان كنت تبغى العيش حلوا صافيا فالشعــر أعــزبه وكن نخــاسا

تنل الطــرائف من ظراف نهّد يحــدثن كل عشية أعــراسا ..

. . وقد حدث المطلوب « وجعل المهدى يضحك منه (٥) » إن هذا قد يلتمس من مجونه واستهتاره بالقيم السائدة ، ولكننا نعتقد أنه كان وراء ذلك عبث الشاعر المعربد ، لا تخطيط الشاعر الواعى ، فهو قد جرد على الجميع – حتى نفسه وأهله .. سيف الدعابة القاطع . ومهما يكن من شئ فقد تخلص الشاعر إلى حد ما من عقدة اللون والجنس عنده ، بل إنه

---

(١) نهاية الأرب ٤ – ٣٨ ، ٣٩ ، ذيل زهر الآداب ٨٢ .

(٢) الأغانى ١٠ – ٢٥٩ .

(٣) الحياة الأدبية فى البصرة . د. احمد كمال زكى ٤٨٠ .

(٤) العصر العباسى الأول د . شوقى ضيف ٢٩٦ .

(٥) الأغانى ٢٠ – ٢٥٠ ، عيون الأخبار ١ – ١٨٢ .

فى كثير من الأحيان اعتبرها عاهة وتاجر بها ، ولقد كان بحق شاعراً فكهاً يعرف مايراد منه فى بلاط الخلفاء ، وقد حافظ على مكانته فى عهد الأمويين وعهد العباسيين ، وإن كان قد سطع فى ظلال العباسيين وفى الوقت نفسه رضى عنه ثلاثة من الخلفاء كما رضى عنه نساء القصور بصفة خاصة !

.. وشخصيته المرحة هذه هى التى ساعدت - إلى جانب شعره - على تجوله فى القصور ، فالحريرى مثلا لاينسى بغلته فى المقالة التبريزية حين يقول : وأنت تعلم أنك أحقر من قلامه وأعيب من بغلة أبى دلامة(1) والرصافى ينظم قصة طويلة حدثت له فى إحدى الحروب(2).. وهكذا عاش حياة مرحة ، وبقى فى التاريخ شاعراً مرحاً (3) بل لقد اعتبره الشعراء فى عصره محظوظا ، وتمنوا أن يكونوا مثله ، فهاهو الشاعر أبو نخيلة يقول فى أرجوزته التى تتحدث عن بيعة محمد بن المنصور

أقول فى ذكرى أحاديث الغد لله درى من أخ منشد ..

لو نلتُ حظ الحبشى الأسود

ولقد كان يقصد بالحبشى الأسود المحظوظ أبا دلامة (4)

---

(1) الكنى والألقاب 1 - 67 .

(2) ديوان الرصافى ط 7 ص 377 ، 378 .

(3) توفى عام (161 ه - 777 م الأعلام 336 ، تاريخ الأدب العربى 2 - 18 ، وقيل ولد بين عام 100 ه ، 110 ، توفى عام 160 ه (ابو دلامة ص 28) .

(4) الأغانى 20 - 419 .

٩ ـ ابو نخيلة

اختلف حول اسم هذا الشاعر فقيل ان اسمه يعمر (١) ، وقيل ان اسمه حبيب (٢) ، وقيل إن اسمه أبو نخيلة ـ وهذا هو الراجح ـ وعبارات البغدادى هى « وأبو نخيلة ـ بضم النون وفتح الخاء المعجمة، اسم الشاعر لاكنيته كذا فى الأغانى ، وكنى أبا نخلة لأن أمه ولدته إلى جنب نخلة ، ويكنى أبا الجنيد ، وأبا العرماس ، وهو من بنى حمان بن كعب (٣) » .

وقد ذكر أنه كان أسود(٤)، وأنه مشكوك فى نسبه ومطعون عليه وأن أباه نفاه عن نفسه (٥) ، فاذا أضفنا إلى ذلك أن أمه انتبذت به مكاناً تحت نخلة ثم ولدته ، رجحنا أنه كان ابن جارية سوداء .

ونحن نحس أن الحياة ضاقت به داخل قبيلته، ومن هنا نراه يخرج إلى الشام ، ويعمل على أن يصل نفسه بمسلمة بن عبد الملك ، ولا يزال

---

(١) الشعر والشعراء ١٠٩ .

(٢) التاريخ الكبير لابن عساكر ٢ ــ ٣١٨ ، المؤتلف والمختلف ٢٩٦ .

(٣) خزانة الأدب ١ ــ ١٣٥ .

(٤) سمط اللآلى ١ ــ ١٣٥ .

(٥) الخزانة ١ ــ ١٦٥ .

يتقرب منه حتّى يوصله مسلمة بخلفاء بنى أمية ، وأنه ليمدح هشام بن عبد الملك فيقول :

وقلت للعيس اعتلى وجدّى ... فهى تخدّى أحسن التّخدى

قد اذّرعن فى مسير سمد ... ليلا كلون الطيلسان الجرد

إلى أمير المؤمنين المجدى ... ربّ معد ، وسوى معد

ممن دعا من أصيد وعبد ... ذى المجد ، والتشريف بعد المجد

فى وجهه بدر بدا بالسعد ... أنت الهمام القرم عند الجد

بلغتها مجتمع الأشد ... فانهل لما قمت صوتُ الرعد (١)

. . وقد قال أبو نخيلة « قرأتها ، أى هذه القصيدة ، حتى أتيت إلى آخرها ، وهممت أن أسأله فيها ، ثم تذكرت أن الناس نصحونى على ألا أسأله شيئاً فانه يحرم من سأله ، فلما فرغت أقبل على جلسائه فقال : الغلام السعدى أشعر من الشيخ أبى النجم العجلى ، وخرجت ، فلما كان بعد أيام أتتنى جائزته.. ولما أفضت الخلافة إلى السفاح نقل هذه الأرجوزة الدالية إليه (٢) .

. . ويبدو أن دخوله فى عالم العباسيين لم يكلفه كثيراً ، ذلك لأنه سرعان ما اتصل بهم ، وظاهرهم على الأمويين ، فقد قيل إنه دخل على أبى العباس السفاح فاستأذن فى الإنشاد، فقال السفاح : لعنك الله ألست القائل لمسلمة بن عبد الملك :

أمسلمة يانجل خير خليفة ... ويافارس الهيجا وياجبل الأرض

شكرتك إن الشكر حبلٌ من التقى ... وما كل من أوليته نعمة يقضى ..

---

(١) الخزانة ١ — ١٦٣ اعتلى : ارتفع . تخدى : اصله يتخدى ، اى تسرع . السمد : من سمدت الإبل فى سيرها أى جدت . الجرد : الخلق .

(٢) الأغانى ١٨ — ١٤٠ .

وألقيت لما أن أتيتك زائـرا على لحافاً سابغ الطول والعرض
ونبّهت من ذكرى وما كان خاملاً ولكنّ بعض الذكر أنبه من بعض (١)

فكان أن أسرع بإنشاد أرجوزة يقول فيها :

كنا أناسا نرهب الهـلاكـا ونركب الأعجاز والأوراكـا
وكـلّ ما قد مر فى سواكا زورٌ وقـد كفر هذا ذاكا (٢)

وله فى مدح السفاح :

حتى إذا ما الأوصياء عسكـروا وقـام من تبرّ السنى الجوهر
أقبل بالناس الهـوى المشهّر وصاح فى الليل نهار أنور (٣)

ولهذا فإن صاحب خزانة الأدب اعتبره « قليل الوفاء (٤) » ومع أنه لقب نفسه بشاعر بنى هاشم إلا أنه جعل العباسيين أوصياء على الخلافة « فليس العلويون أصحابها، إنما أصحابها العباسيون الذين استخلصوا لها كما يستخلص الجوهر (٥) » .

وقد تمادى فى ولائه وفى هجائه لبنى أمية ، ثم حدث أن شغلت الخلافة بولاية العهد ، فإذا به يدخل فى هذه القضية « طامعاً (٦) » .

وملخص هذه القضية أن المنصور عمل على أن يخلع عيسى بن موسى « من التقدم فى ولاية العهد وأن يقدم المهدى على نفسه» وقد فعل عيسى ابن موسى هذا على مضض ، إلى حد القول بأنه حين كان يمر على بعض مجان أهل الكوفة كانوا يقولون : هذا الذى كان غداً فصار بعد غد !

---

(١) نبه عبد القاهر إلى ان ابا تمام قد أفاد من هذا فى شعره . دلائل الأعجاز ٣٧٠ .
(٢) زهر الآداب ٩٥٢ ، التاريخ الكبير ٢ — ٢١٩
(٣) الأغانى ١٨ — ١٤٩ .
(٤) الخزانة ١ — ١٦٥ .
(٥) العصر العباسى الأول ٢٩٢ .
(٦) الخزانة ١ — ١٦٥ .

ثم حدث بعد ذلك أن رغب المهدى بدوره فى تنحية عيسى بن موسى مرة ثانية عن ولاية العهد فاستجاب لما طلب منه (١) .

وقد اختار أبو نخيلة الرأى العام السائد فى قصر الخلافة . ثم عبر عنه ومن هنا وقف إلى جانب المهدى ابن الخليفة المنصور ضد عيسى بن موسى فقال :

دونك عبد الله أهل ذاكا ... خلافة الله الذى أعطاكا
أصفاك والله بها أصفاكا ... فقد نظرنا زمنا أباكا
ثم نظرناها لها أباكا ... ونحن فيهم والهوى هواكا
نعم ونستذرى إلى ذراكا ... أسند إلى محمد عصاكا
فأنت ما استرعيته كفاكا ... واحفظ الناس له أدناكا
ولقد حملت الرجل والأوراكا ... وحكت حتى لم أجد محاكا
وزدت فى هذا وذا وذاكا ... فكل قول قلت فى سواكا
زور وقد كفر هذا ذاكا

جاء فى رواية على بن محمد بن سليمان قال : إنى لأسير مع سليمان ابن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، وقد عزم أبو جعفر على أن يقدم « المهدى » على « عيسى بن موسى » فى البيعة ، فإذا نحن بأبى نخيلة الشاعر - ومعه ابناه وعبداه - وكل واحد منهما يحمل شيئاً من متاع ، فوقف عليهم سليمان بن عبد الله فقال : أبا نخيلة ، اهذا الذى أرى ؟ وما هذه الحال التى أنت فيها ؟ قال : كنت نازلا على القعقاع . وهو رجل من آل زرارة وكان يتولى لعيسى بن موسى الشرطة ، فقال لى : اخرج عنى ، فإن هذا الرجل قد اصطنعنى وقد بلغنى أنك قلت شعراً فى هذه البيعة للمهدى ، فأخاف أن يبلغه ذلك أن يلزمنى لائمة لنزولك

(١) الوزراء والكتاب ٨٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٤٥ .

على ، فأزعجنى حتى خرجت ، قال : فقال لى : ياعبد الله انطلق بابى نخيلة فبوّئه فى منزلى موضعاً صالحاً ، واستوص به ، وبمن معه خيراً ثم خبر سليمان بن عبد الله أبا جعفر بشعر أبى نخيلة ، والأرجوزة المشار إليها هى :

إلى أمير المؤمنين فاعمدى سيرا إلى بحر البحور المزبد
أنت الذى يا ابن سمى أحمد ويا ابن بنت العرب المشيد
بل يا أمين الواحد المؤيد أنت الذى ولاك رب المسجد
أمسى ولىّ عهدها بالأسعد عيسى .. فزحلقها إلى محمد ..
من قبل عيسى معهداً عن معهد حتى تؤدى من يد إلى يد
فيكم وتفنى وهى فى تزيد فقد رضينا بالغلام الأمرد
بل قد فرغنا غير أن لم نشهد وغير أن العهد لم يؤكد
فلو سمعنا قولك امدد امدد كانت لنا كد عقة الورد الصدى
فبادر البيعة وشد الجسد تبين من يومك هذا أو غد
فهو الذى تم فما من عند وراد ما شئت فزده يزدد ..
ورده منك رداء ترتدى فهو رداء السابق المقلد
قد كان يروى أنها كان قد عادت ولوقد فعلت لم تودد ..
فهى ترامى فد فدا من فدفد حبنا فلو قد حان ورد الورد
وحان تحويل الغوى المقسد قال لها الله .. هلمى وارشدى
فأصبحت نازلة بالمعهد والمحتد المحتد خير محتدى
لم ترم تزمار النفوس الحسد بمثل قرم ثابت مؤيّد
لما انتحوا قدحا بزند مصلد بلوا بمشزوز القوى المستحصد
يزداد ايغاضا على التهدد فداولوا باللين والتعبد
صهامة تأكل أكل مبرد (١)

---

(١) الطبرى ٨٧ - ٢٠ وما بعدها .

وقد قيل أولا إن هذه القصيدة رويت ثم صارت فى أفواه الخدم ، وحين بلغت أبا جعفر المنصور سأل عن قائلها ، فأخبر أنها لرجل من زيد مناه ، فأعجبته فدعاه ، وقد تحدث عن هذا الموقف فقال : دخلت عليه ، وإذا عيسى بن موسى لعن يمينه ، فاستعاد منها أبياتاً ، فلما خرج تبعه عقال بن شبه ثم قال له : سررت أمير المؤمنين ولئن التأم الأمر على ما نحب ، فلعمرى لتصيبن منه خيراً ، وإن يكن غير ذلك : فابتغ نفقاً فى الأرض أو سلما فى السماء !

وقيل إن الخليفة وصله بألف درهم ، وقيل إن الخليفة كتب له بصلة إلى « الرى » فوجه « عيسى بن موسى » فى طلبه ، فلحق فى طريقه « فذبح وسلخ وجهه » وقيل إنه قتل بعدما انصرف من الرى ، وقد أخذ الجائزة [1] .

وإذا تجاوزنا عن « سلخ وجهه » فإنا نراه يحاول تأكيد دمامته ، على نحو ماقيل من أنه دخل اليمن فلم ير أحداً بها حسناً ، ورأى وجهه وكان قبيحاً ، فإذا هو أحسن من بها فقال :

لم أر غيرى حسنا منذ دخلت اليمنا
كيف تكون بلدة أحسن ما فيها أنا

... ثم إنه بدأ حياته بالانتحال ، فحين دخل على مسلمة بن عبد الملك مادحاً قال له مسلمة : ممن أنت ؟ قال : من بنى سعد .. وحين قال له : مالكم يابنى سعد وللقصيد وإنما حظكم فى الرجز ؟ قال له : إنا والله أرجز العرب ، وحين قال له : أنشدنى .. قال أبو نخيلة : فكأنى والله لما قال ذلك لم أقل رجزاً قط ، أنسانيه الله كله ، فما ذكرت منه ولا من غيره شيئاً إلا أرجوزة لرؤبة ، وقد كان قالها فى تلك السنة ، فظننت أنها لم تبلغ مسلمة ، فأنشدته إياها « فنكس وتتعتعت » فرفع رأسه إلى وقال :

---

(١) التاريخ الكبير ٢ – ٣٢١ – ٣٢٣ ، الأغانى ١٨ – ١٣٩ وما بعدها .

لاتتعب نفسك فإني أروى لها منك قال : فانصرفت وأنا أكذب الناس عنده وأجرؤهم على نفسى ، حتى تلطفت بعد ذلك ، ومدحته برجز كثير فعرفنى وقربنى وما رأيت ذلك فيه ، ولاقر عينى به حتى افترقنا !.

وروى الأصمعى : أن أبا نخيلة دخل إلى عبد الله بن سالم فى قبة زكية مظلمة، ودخل رؤبة فقعد فى ناحية دون أن يشعر أحدهما بالآخر، ثم قيل لأبى نخيلة أنشد ، فقال منتحلا :

هــاجك من أروى بمنهاض الفكك هم إذا لم يعــده هم فتــك
وقـــد أرتنا حُسنة ذات المسك شاذحة الغرة زهرى الضحك
أريت ان لم يحب حبوا لمعتبك أنت باذن الله ان لم يـترك ..
مفتاح حـــاجات الحبا هنّ فلك الذخر فيه عندنا والأجر لك

.. هذا ورؤبة « يئط ويزمجر» فلما فرغ قال رؤبة : كيف أنتم أبا نخيلة فقال : ياسوأتاه .. ألا أراك ههنا ، إن هذا كبيرنا الذى يعلمنا فقال رؤبة : إذا أتيت الشام فخذ منه ماشئت ، ومادمت بالعراق فإياك وإياه (١) ، ومما يحفظ له رجز فى هجاء شبيب بن شيبة ، ثم مدح فيه حين استرضاه (٢) .

وقد أخذ عليه أنه لم يكن يعرف أصول المدح ، فقد مدح الربيع وسائسه فى أرجوزة واحدة ، وقد قال له الربيع : أترضى أن تقرن بى السائس فى المديح كأنك لو لم تمدحه معى كان يضيع فرسك ، كما أخذ عليه أنه كان ينتقل من المديح إلى الهجاء بسرعة ، على نحو مافعل مع شبيب بن شيبة ، ومثل هذا فعله مع المهاجر بن عبد الله الكلابى (٣) .

---

(١) التاريخ الكبير ٢ — ٣١٨ وما بعدها ، الموشح ٣٤٣ .
(٢) البيان والتبيين ١١٣ .
(٣) الأغانى ٢٠ — ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

.. ومما يلاحظ أنه سبق أبا نواس فى وضع الأراجيز فى الطرد والقنص « يصف بها الصحراء والكلاب والوحش وحيوان الصحراء على طريقة القدماء» فأبو نواس صنع على مثال طردياته طرديات أخرى(١)، وقد ذكر ابن المعتز أن له فى الطرد أراجيز كثيرة، وأورد بعضاً منها(٢).

وإذا كنا نجد وعورة فى هذا الرجز . فذلك لأن الرجاز كانوا لايترددون على الحواضر إلا قليلا ؛ كما كانوا يرغبون فى إقبال علماء اللغة عليهم (٣) ، وقد تنبه أكثر من ناقد إلى أن شعر أبى نخيلة كان وراء شاعر مثل أبى تمام، فهو إذا قال مثلا : ونبهت من ذكرى وماكان خاملا .. نرى أبا تمام أخذه « فكشف معناه وحسنه بالصياغة فقال :

لقد زدت أوضاحي امتداداً ولم أكن	بهيماولا أرضى من الأرض مَجْهلا
ولكــن أيادٍ صادفتنى جسامها	أغر فأوفت بى أغر محجلا (٤)

والدكتور إبراهيم سلامة يقول : لو قرأت أبيات أبى نخيلة فى مسلمة ابن عبد الملك ، والتى تبدأ بقوله : أمسلم إنى ... وقرأت ماقاله أبو تمام بعد أن أخذ معنى البيت الأخير .. وجدت أن أبا تمام « قد صور مايريد وأبرز الصورة وألح عليها بالتلوين حتى كان فيها زيادة لا فى المعنى وحده بل فى بروز التصوير الذى كان له تأثيره فى إبراز المعنى وظهوره » ومن هنا يتحقق قول عبد القاهر » فنى هذا دليل لمن عقل أنهم لايعنون بحسن العبارة مجرد اللفظ ولكن صورة وصفة ، وخصوصية تحدث فى المعنى ، وشيئاً طريق معرفته على الجملة العقل دون السمع (٥) ، وقد استشهد الجاحظ بكثير من شعره فى كتابه الحيوان .

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ١٢٦ .

(٢) طبقات الشعراء ٦٦ .

(٣) تاريخ الشعر العربى ١ - ٣٠٦ د. الكفراوى .

(٤) سمط اللآلى ١ - ١٣٥ .

(٥) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٣٩٠ ، دلائل الاعجاز ٣٤٩ .

.. وقد جاء في العمدة : لما تعاطى الأعرابي أبو نخيلة ما لا يعرف قال :

جـارية لم تأكـل المرقّقـا ولم تذقْ من البقـول الفستقا

فجعله بقلا « على ما في نفسه من لعاع البقل (١) » .

ومهما يكن من شيء فنحن نجد شاعرا ، بائس المولد ، مطرودا من قبيلته ، متنقل العاطفة من الأمويين إلى العباسيين ، حاملا سواده ودمامته وراغباً في أن يركب موجة السياسة أيام المنصور ، ومع أنه آثر أن يقف إلى الجانب القوى ، إلا أنه كان قد أحدث جرحاً في قلب « عيسى بن موسى » بحيث لم يكفه أن يكون الجزاء ذبحاً فقط .. ولكن سلخاً لوجهه الأسود : وهكذا يكون مات من حيث آمن ! ولقد كان يهاجي الشاعر الأبرش ، فلما قيل له إنه مات قال : حتف أنفه ، قيل : لا بل اغتيل فقتل ، فقال : الحمد لله الذي قطع قلبه ، وقبض روحه ، وسفك دمه ، وأراحني وأحياني بعده (٢) ولكن بعد أن أضاف إلى « الرجز » معاني جديدة وبعد أن أدخله يحسم في معارك سياسية ضارية ! ولقد صدق الحنظلي وهو يقول عنه مامدح أبو نخيلة إلا خليفة أووزيرا . ومن الطرائف أنه اقترب من عمرو بن هبيرة الذي حبس الفرزدق ، وأبى فيه شفاعة أحد ، ولكن أبا نخيلة دخل عليه في يوم فطر ثم أنشده الأرجوزة التي أولها :

أطلقت بالأمس أسير بكـر فهـل فداك نفري ووفري

فما كان من عمرو إلا أن أمر باطلاق الفرزدق ، فلما خرج سأل عمن شفع له فأخبر ، فرجع إلى الحبس ، وقال : لا أريمه ولومت ، أخرجت بشفاعة دعي ، والله لا أخرج هكذا ولو من النار ، فأخبر بذلك ابن هبيرة فضحك ، ودعا به فأطلقه ، وقال : وهبتك لنفسك .

---

(١) في الشعر والشعراء ١٠٩ برية لم تأكل المرقفا .
(٢) الأغاني ٢٠ – ٤٢٢ .

وأخيرا فقد قيل انه كان إذا نزل به ضيف هجاه ، وله هجاء مقذع فى أخته ، وقد قال عنه صاحب الأغانى : كان أبو نخيلة نذلا برضيه القليل ويسخطه » (١) ، وعلى كل فقد كان من أفصح الناس وأشعرهم . وكان مطبوعاً مقتدرا كثير البدائع والمعانى غزيرا جدا . وكان الغالب عليه الرجز (٢) أما كارلو نالينو فيقول : إن شعره كان لين الألفاظ ، مجردا عن الغريب ، مصوغاً فى بحر الرجز المشطور إلاشيئاً قليلا جدا ورد على غير قالب الأرجوزة (٣) ، ومن قبل أعجب المرتضى به وببيته الذى يقول :

قيدهـــا الجهـــد ولم تقيـــد فهى سوام كالقنا المسنَّد (٤)

ومن قبله قال جرير :

إذا بلغـــا المنازل لم تقيـــد وفى طول الكلال لها قيودا

(١) الأغانى ٢٠ — ٣٩٧ ، ٤١٣ .
(٢) طبقات الشعراء ٦٣ .
(٣) تاريخ الآداب العربية ٢١٢ .
(٤) الأمالى ١ — ٥٨٠ .

١٠ ـ نصيب الأصغر

تكتفى المراجع بتسميته نصيب الأصغر ، أو نصيب مولى المهدى للتفرقة بينه وبين نصيب الأكبر مولى عبد العزيز بن مروان (١) ، وقد يكتفى بتسميته نصيب الأسود (٢) ، غير أن هناك نصاً يقول : نصيب ثلاثة : أحدهم نصيب الأسود المروانى ، والثانى نصيب الأبيض الهاشمى والثالث نصيب بن الأسود (٣)

. . أما كنيته فهى أبو الحجناء فقد كانت له بنت تسمى حجناء وقيل انه اشترى للمهدى فى حياة المنصور ، فلما سمع شعره قال : والله ماهو بدون نصيب مولى بنى مروان (٤) .

وكل مايعرف عنه قبل ذلك أنه كان عبدا نشأ باليمامة (٥) ويبدو أنه بدأ حياته فى خدمة المهدى بعلم تقدير للمسئولية ، فقد قيل إن المهدى وجهه إلى اليمن لشراء إبل ، ووجه معه رجلا من ثقاقة ، وقد كتب معه إلى عامل اليمن بعشرين ألف دينار ، فما كان من نصيب إلا أن مد يده

---

(١) فوات الوفيات ٢ — ٣٨٣ ، الأغانى ٢٠ — ٢٥ ، زهر الآداب ٩٥٩ ، البيان والتبيين ١٢٥ .

(٢) سمط اللآلى ٨٢٥ .

(٣) المزهر ٢٣٠ .

(٤) الأغانى ٢٠ — ٢٥ .

(٥) الحماسة . التبريزى ١ — ٣٧٣ ، شرح مايقع فيه التصحيف والتحريف ٤٠٤ .

إلى الدنانير « ينفقها ، ويشرب بها ، ويشترى الجوارى » فكتب الرجل الذى معه يخبره إلى المهدى — فأمر المهدى عامله بسجنه ، فسجن مدة طويلة فى صنعاء ، وفى فترة السجن هذه دخلت عليه ابنته الحجناء باكية فقال :

لقد أصبحت حجناءُ تبكى لوالد   بدرة عين قلّ عنه غناؤهـا
أحجناءُ صبراً كلُّ نفسٍ رهينة   بموت ، ومكتوبٌ عليها بلاؤها
أحجناء أسباب المنايا بمرصـد   فإلا يعاجـل غدْوُها فمساؤها
أحجناء إن أفلت من السجن تلقنى   حتوف المنايا لايرد قضاؤهـا
أحجناء إن أمسى أبوك ودلـوه   تعرت عرى منها ورث رثاؤها
لقـد كان يدلى فى رجال كثيرة   بمتنح ملء وهى صفرى ولاؤها
أحجناء إن يصبح أبوك ونفسه   قليل تمنيها قصير عزاؤهـا
لقـد كان فى دنيا تفيأ ظلهـا   عليه ومجلوبٌ إليه بهاؤهـا

ثم بعد فترة أمر بحمله موثقاً فى الحديد، فلما دخل على المهدى أنشده :

تأوبنى نغشـلٌ من الهم موجع   فـأرّق عينى والخليونَ هُجّعُ
هموم أطافت لو أطافت يسيرهـا   بسلمى لظلت صمّها تتصـدع
ولكنها نيطت فبـاء بحملهـا   جُهيّن المنايا خائن النفس يجزع
وعـادت بلاد الله ظلماء حنـدسا   فخلت دجـى ظلمائها لا تقشع
تلمست هل من شافع لى فلم أجد   سوى رحمة أعطاكها الله تشفع
لئن جلت الأجرام منى وأفظعت   لعفوك من جرمى أجلّ وأوسع

ثم يذكر أن فى أمير المؤمنين أربع صفات يمكن أن تسرع إلى الشاعر بأربع وسائل للعفو ، ثم يختم القصيدة بقوله :

وإنى لمولاك الذى إن جفوته   أتاك سكيناً خاضعاً يتضرع (١)

---

(١) أدباء السجون . عبد العزيز الحلق .

وينتهي الموقف بالرضى عنه ، ووصله ، وكان مما وصل به جارية جميلة ، وحين قال له سالم : قم دار الرفيق لأدفعها إليك ، أنشد بين يدى المهدى :

وما زلت تبدى لى الأموال مجتهداً ... حتى لأصبحت ذا أهل وذا مال
زوجتنى يا ابن خير الله جـارية ... ماكان من مثلها يهدى لأمثالى ..
زوجتنى فضـةً بيضـاء ناعمةً ... كـأنها درة فى كف لآلى
حتى توهمت أن الله عجلهـا ... بابن الخلائف لى من خير أعمالى
هيهات إلا أن أجـئ بها .. ... من فضل مولى لطيف المنّ فعال

فأمر المهدى بألف دينار ولسالم بألف دينار ، وإذا عرفنا أن المهدى كان أول خليفة « فتح أبوابه على مصاريعها للشعراء » (١) ، وإن نصيباً نال فى ظلاله الحرية ، والمال أدركنا أن حظ نصيب الأصغر كان حسناً .

وبعد المهدى وجد فى هارون الرشيد بحراً من العطاء فأبدع فى مدحه ومع أنه يقلد فى مطالعه إلا أنه كثيراً مايعبر عن ذاته وخاصة مايتصل منها بسواده وضآلته ، فهو قد أحب أن يقول الصدق الذى يشعر به ، على نحو مامر بنا ، وعلى حد قوله فى مدح الرشيد :

خليلى إنى لايـزال يشوقـنى ... قطينُ الحمى والظاعن المتحمـل
فأقسمتُ لاأنسى ليالىَ منعـج ... ولامأسل .. إذ منزل الحى مأسل
أمن أجـل آيـات ورسم كأنه ... بقيةُ وحى أو رداءٌ مسلسل
جرى الدمع من عينيك حتى كأنه ... تحدرَدر ، أو جمان مفصّـل
فيا أيها الزنجـى مالك والصبـا
أفق عن طلاب البيض إن كنتَ تعقّل

---

(١) فوات الوفيات ٢ — ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

فمثلك من أحبوشة الزنج قطعت وسائل أسباب بها .. يتوسَّل ..
قصـــدنا أمير المؤمنين ودونه مهامه موماة من الأرض مجهـــل
على أرحبيات طوى السير فانطوت شمائلهـــا مما تحـــل وترحـــل
إلى ملك صلت الجبين كأنه صفيحة مستوف جلا عنه صيقل
إذا تبلج البابان والستر دونـــه بدا مثل مايبدو الأغر المحجـــل
شريكان فينا منه عين بصيرة كلوءٌ ، وقلب حافظ ليس يغفل
فما مات عينيه رعـــاه بقلبه فآخـــر مايرعى سواء وأول
وما نازعت فينا أمورك هفوة ولاخطلة فى الرأى.والرأىَ يخْطل
إذا اشتبهت أعناقـــه . . بيَّنْت له معـــارف فى أعجازه وهو مقبل
لئن نال عهـــد الله قبل الخلافـــة لأنت من العهد الذى نلت أفضل
وما زادك العهد الذى نلت بسطة ولكن بتقوى الله أنت مسربـــل
ورثت رسول الله عضواً ومفصلا وذا من رسول الله عضو ومفصل (١)

وقد بلغ إعجاب الرشيد به أنه ولاه بعض « كور الشام » فأفاد من ذلك مالا كثيراً كما كان يقدمه على أكثر شعرائه (٢) .

على أن أكثر ما اشتهر به كان حبه البرامكة ، فقد انقطع لهم ، ومع أنه مدح إسحاق بن الصباح الكندى (٣) ، ومدح بنى سليمان بن على (٤) إلا أن روعة مدحه لم تظهر إلا فى البرامكة ، فله قصيدة فيهم

---

(١) الأغانى ٢٠ — ٢٥ .
(٢) طبقات الشعراء ١٥٥ ، ويمكن التعرف عليه مما جاء فى البيان والتبيين ١ — ١٢٥ .
(٣) طبقات الشعراء ١٥٥ ، الوحشيات ٢٦٦ .

كأن ابن صباح وكندة حوله إذا مابدا بدر توسط أنجما
على ان للبدر المحـــاق وأنـــه تمام ، فما يزداد إلا تتمما
ترى المنبر الشرقى يهتز تحتـــه إذا ماعلا أعواده وتكلما
وانت ابن خير الناس الانبوة ومن قبلها كنت السنام المقدما

(٤) زهر الآداب ٩٥٩ .

قد صارت أبياتها – على حد تعبير ابن المعتز – فاكهة أهل الأدب ، ومن هذه القصيدة :

عند الملوك مضرة ومنافـــع وأرى البرامك لا تضر وتنفعُ
إن العروق إذا استسرّ بها الثرى أشر النبات بها وطرب المزرع
وإذا جهلت من امرىء اعراقــه وقديمه .. فانظر إلى مايصنع (١)

وقد عقب العسكرى فى ديوان المعانى على البيت الأول بقوله : لايعرف أهجاهم أم مدحهم .

وقد قيل إنها أنشدت ثانية على الفضل بن يحيى فقال : كأنا والله لم نسمع هذا الشعر قط ، قد كنا وصلناه بثلاثين ألف درهم ، وانا نجدد له الساعة صلة (٢) .

وقد يمدح الفضل بن الربيع بن يحيى بن خالد ، فلايصل إليه إلا بعد أن يتحدث عن سواده فى حوار مع مية ، وحين يصل إليه لانحس أنه يتكلم عنه وإنما يتكلم عن البرامكة ..

لله مية خلــة لــو أنهـــا تجــزى الوداد بودها وتثيبُ
وكأن مية حين أتلع جيدهـــا رشا أغــن من الظباء ربيبُ
نصفــان ما تحت المؤذر – عاتك وعصِي أغرو فوق ذاك قضيب
ما للمنازل لا تكاد تجيبُ أنّي يجيبك جنـــدل وجبـــوب
جـــاءتك من سيل الثريا ديمة ريان من نوء السماء ذنــــوب
فلقد عهدت بك الحلال بغبطـــة والدهر غضن والجنـــان خصيب
إذ للشباب عليّ من ورق الصبا ظلٌ . وإذْ غصن الشباب رطيب
طرب الفؤاد ولات حين تطرب إن الموكل بالصبا لطــــروب

---

(١) طبقات الشعراء ١٥٦ .

(٢) الأغانى ٥ / ٣٩٣ .

وتقول مية : ما لمثلك والصبا   واللون أسود حالك غربيبُ
شاب الغراب وما أراك تشيب   وطلابك البيض الحسان عجيب
أعلاقة أسبابهن ، وإنما   أفنان رأسك فلفل وزبيب
لاتهزئي منى فربة عائب   مالا يعيب الناس وهو معيب
ولقد يصاحبنى الكرام وطالما   يسمو إلىَّ السيد المحجوب
واجرّ من جلل الملوك طرائفا   منها علىّ عصائب وسبيب
وأسالب الحسناء فضل إزارها   فأصورها وإزارها مَسْلُوبُ
والبرمكى إذا تقارب سنه   أو باعدته السنّ فهو نجيب
خرق العطاء إذا استهل عطاؤه   لامتبع منا ولا محسوب
يا آل برمك ما رأينا مثلكم   ما منكم إلا أغرّ وهوب

ويقال : إن الفضل استحسن هذه القصيدة وأمر له بثلاثين ألف درهم فقبضها ووثب قائماً وهو يقول :

إنى سأمتدح الفضل الذى حنيتْ   منا عليه قلوب البر والضلعُ
جاء الربيع الذى كنا نؤمله   فكلنا بربيع الفضل مرتبع
كانت تطول بنا فى الأرض نجعتنا   فاليوم عند أبى العباس ننتجع (١)

وهو لم يقف شعره على الرجال فقط ، فنحن نراه يمدح زبيدة أم جعفر ، فتأمر له بعشرة آلاف درهم وفرس ، ولكنه يعود إليها ثانية متعللا بأن الفرس سلم له بغير سرج :

لقد سادتْ زبيدة كلَّ حى   وميْت ما عدا الملك الهماما
تُقىً وسماحة وخلوص مجد   إذا الأنساب أخلصت الكراما
إذا نزلت منازلها قريش   نزلت الأنف منها والسناما

(١) الأغانى ٢٠ / ٣١٢٣٠ .

بلغت من المفاخــر كلّ فخــر ... وجاوزت الكلام فــلا كلاما
وأعطيت اللهـــا لكن طــرفى ... يريد السرج منكم واللجــاما

بل إنه كان يدفع ابنته لتنشد شعره على المهدى، وكذلك على العباسة بنته، وكان فى كل ذلك يحصل على المال الوفير .

وكما كان مدحه وقفاً على من يعطيه فقد كان هجاؤه وقفاً على من يمنع عنه العطاء أو يقلله ، فحين ذهب إلى عبد الله بن الأشعث بعد أن تقلد صنعاء للمهدى . . مادحاً فلم يثبه ، ثم استكساه فلم يكسه ، قال فيه :

سأكسوك من صنعاء ماقد حرمتنى ... مقطعة تبقى عــلى قــدم الدهــر
إذا طويت كانت وضوحك طيّها ... وإن نشرت زادتك طياً على النشر
أغــــرك إذا بيضت بيت حمامة ... وقلت : أناشبهان منتفخ الحصر

ثم يكمل ببيتين فى غاية البذاءة .

وحين يسأل عبد الله بن يحيى بن سليم مركباً ، فيعطيه إياه ويجعل له شريكاً فيه يقول :

لقد مدحت عبيدا إذ طمعت به ... وقــد تملقته لو ينفــع الملــق
فعــاد يسأل ما أصبحت سائلة ... فكلنا سائلٌ فى الحرص متفــق
أحين صار مديحــى فيكم طرقــا ... وحين غنت بك الركبان والرفق
قطعت حبل رجــاء كنت آمله ... فيما لديك فأضحى وهو منحذق
قد كان أورق عودى من أبيك فقد ... لحيت عودى فجف العود والورق
من نازع للكلب عرقا يرتجى شبعا ... كمصطل بحريق وهو يحترق (١)

---

(١) الأغانى ٢٠ / ٢٦ وما بعدها .

ومن الملاحظ أنه حاد فى هجائه، وأنه يصل إلى ما يتنافى مع الذوق ولكن طلب المال والكدح وراءه بطرق مشروعة وطرق غير مشروعة جعلته يخرج بالهجاء عن حدوده . . .

وهناك بعض المواقف التى تتميز بوفاء الشاعر فقد انقطع فترة لشبية ابن الوليد العبسى ومدحه ، وحين وفد بعد موت شبية على أخيه تمامة وجده يفرق خيله على الناس ، فلما أمر لنصيب بفرس أبى وبكى ثم قال :

أضحت جياد ابن قعقاع مقسمة   فى الأقربين بلامن ولا ثمـن (١)
ورثتهم فتسلّوا عنك إذ ورثـوا   ومـا ورثتك غير الهم والحزن

على أنه بعيداً عن المدح والهجاء سارت له أبيات فى الدنيا .. على حد تعبير ابن المعتز — ومن هذه الأبيات :

أرانى إذا استمطرت منك سحابة   لترويني كـانت عجاجاً وساقيا
إذا قلت ظلتنى سماؤك يا منت   شآبيبها أو ياسرت عن شماليا
فلا ترج منى أن تنال مودتى   إذا كنت عنى بالكـرامة جافيا
لقد كنت أسعى فى هواك وأبتغى   رضاك، وأرجو منك ماكنت لاقيا
وشيبتى ألا تـزال ملمـة   تقصر عنى أوتحـل ورائيـا
أتجعـل فـوق من يقصر رأيه   ومن ليس يغنى عنك مثل غنائيا
كـلانا غنى عن أخيه حياتـه   ونحـن إذا متنا أشد تنائيـا

ومن شعره الجيد قوله :

لقـد سامنى طرفى وقد ضر نفسه   وأظهر ما أكننتُ بين الجوانح

---

(١) المصدر نفسه، الحماسة : التبريزى ١ / ٢٧٣ ، الحماسة المرزوقى ق ٢ ط ١ ص ٩٢٢ .

فلم أستطع سيراً لما بى من الهوى
ولم يخفف ما أضمرت والقلب فاضحى
فيا بؤس من تنأى عن الإلف داره لغاد يوشك البين منك ورائح(١)

ولقد علق ابن المعتز على قوله فى الناقة :

هى الريح إمَّا خلتها . . غير أنها تبيتُ غوادى الريح حيث تقيل

بأنه « قد أفرط وتجاوز الحد » .

وقيل إنه أخذ بيته :

وإذا جهلت من امرىء أعراقَه وقديمه فانظر إلى ما يصنَع

من سلم الخاسر حيث يقول :

لا تسأل المرء عن خلائقه فى وجهه شاهدٌ ، من الخبر

وقيل فى أمالى المرتضى إنه انتفع بقول دعبل .

لاتعجبى ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

فقد قال :

يبكى الغمام به . . فأصبح رَوْضُهُ جذلانَ يضحكُ بالجميم ويزهر(٢)

وقال يمدح الفضل بقوله :

مالقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء

وعلق على هذا الجهشيارى بقوله : « فاستجيد البيت واستحسن ، وعيب بأنه بيت مفرد » — فقال أبو العذافر ورد بن سعد :

« علم المفحمين أن ينطقوا الأشعار منا ، والباخلين السخاء (٣) » .

---

(١) طبقات الشعراء ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٢) ١ / ٤٣٨ .
(٣) الوزراء والكتاب ١٩٥ .

وقد قال الهلالى يوماً للأصمعى : ما تقول فى شعر الأسود ؟

فقال : هو فى عصرنا هذا أشعر من عبد بنى الحسحاس فى عصره .

قلت : قلت فأين شعره من شعر نصيب (الأكبر) ؟ قال : هما فى قرن واحد لأن نمطهما نمط واحد، ولكن ذاك متقدم الزمان وهذا محدث[1].

ولاشك أن فى هذا مبالغة فنصيب الأكبر يتفوق عنه فى رحابة مضامينه وإكسابها طابعاً إنسانياً ، كما يتفوق عليه فى نقاء الأداة ، ودقة التصوير والبراعة فى الابتكار وفى فهم العصر ونضج الثقافة ، واقتحام العوالم الجديدة ، ثم إنه من فلك وعبد بنى الحسحاس من فلك آخر .

أما نصيب الأصغر فكان يضيق شعره بحيث لايتجاوز فى الغالب دائرة الذى يعطيه فيرضى ، أو يمنعه فيسخط ، وقد عرف بحدسه المكان الممرع الذى يمكن أن يعيش داخله فى عطاء دائم.. ومن هنا كان انتماؤه الشديد للبرامكة ، فقد كان مخصوصاً بهم ، وكانوا « يجرون عليه ويعاشرونه [2] » ، ولاشك أنه كان سيمتحن امتحاناً شديداً إذا كان قد عاش حتى شهد .. نكبة البرامكة.. ولكن الراجح أنه مات قبل ذلك[3]

---

(١) المصدر نفسه ١٥٦ ، ١٥٧ ، الوزراء والكتاب ٢٠٣ .

(٢) طبقات الشعراء ١٥٧ .

(٣) مع أنه قيل فى طبقات الشعراء إنه مات بعد التسعين والمائة ص ١٥٧ ، إلا أنه جاء فى فوات الوفيات ٢ / ٣٨٤ وما بعدها أنه مات بعد السبعين ومائة وفى أدباء السجون توفى عام ١٧١ هـ ، وفى الأعلام للزركلى توفى عام ١٧٥ هـ ، ونحن نعرف أن قتل جعفر بن يحيى — الذى كان مفتتح النكبة — كان فى عام ١٨٧ هـ كما جاء فى كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٣٤ .

١١ ــ الحجناء

الحجناء بنت نصيب الشاعر الأصغر الحبشى مولى المهدى .

قال ابن النجار : لها مدائح فى المهــدى ، قد جمعت فمنها قولهـــا :

أميرَ المؤمنين ألا ترانـــا خنافس بيننا جُعَــلٌ كبير
أمير المؤمنين ! ألا ترانا كأنا من سواد الليل قير
أمير المؤمنين ! ألا ترانا فقيرات ، ووالدنـــا فقير . .
أضرَّبنا شقـــاء الجـــدِّ منه فَلَيْسَ يميرنا فيمن يمير . .
وأحـــواض الخليفـــة مترعاتٌ لهـــا عرف ومعروف كبير
أمير المؤمنين ! وأنت غيثٌ يعم النـــاس وابله غـــزير
يُعاش بفضل جودك بعد موت إذا قالوا « وَيَنْجَبِرُ الكسير »(١)

.. ويمكن من سيرة أبيها أن نتعرف على شىءٍ من شخصيتها ، وعلى الفقر والعذاب والشعر الذى كان يشكّل الأسرة .

---

(١) نزهة الجلساء فى أشعار النساء : الحافظ جلال الدين السيوطى تحقيق د . صلاح الدين المنجد ص ٢٨ ط بيروت ، الأغانى ٢٠ / ١٣٢ ، وأعلام النساء ١ / ٢٤٩ .

وهي غير الحجناء الذي جاء في حماسية أوردها المرزوقي منها :

أعاذل من يرزق كحجناء لا يزل كثيباً ويزهد بعده في العواقب
نظام أناس كان يجمع شملهم ويصدع عنهم عاديات النّوائب
بعيد الرّضي لا يبتغي ودّ مدبر ولا يتصدّى للضفين المغاضب
وكنت إذا ماخفت أمراً جنيته يخفّض جأشي ضبثك المتراعب

فالشاعر هنا يتكلم عن ابن له يسمى الحجناء ، وهي تسمية نادرة على حد قول المرزوقي (١)

(١) شرح ديوان الحماسة قسم ٢ ط ١ ص ٩٢٢ .

١٢ ـ أبو عطاء السندى

قيل اسمه مرزوق ، وقيل هو أفلح بن يسار مولى لبنى أسد منشؤه الكوفة . « وكان يساراً سندياً أعجمياً لايفصح ، وأبو عطاء ابنه عبداً سود لايكاد يفصح أيضاً (١) » وجاء فى مخطوط المغتالين فى باب كنى الشعراء :

(أبو السرى) أبو عطاء السندى أبو مرزوق طريح بن اسماعيل أبو اسماعيل إبراهيم بن هرم(٢) والصحيح أن اسمه أفلح واشتهر بكنيته(٣) ولاخلاف من أحد على سواده ، ومعنى هذا أن جيلا أسود من أهل السند كان قد عرف طريقه إلى الأرض الإسلامية ، وقد مر بنا أن النبى عليه السلام شبه جماعة سوداء بالهنود ، وهذا يذكرنا بما قاله الشاعر أبو النجم فى سندية من الزط (٤) :

علقت خودا من بنات الزُّط ذات جهاز مُضغط مُلطّ
رابى المجس جيد المحطّ كأنما قُطّ على مقطّ

---

(١) خزانة الأدب ٤ / ١٧٠ (بولاق) ، ومعجم الشعراء ٤٥٦ .

(٢) ورقة ٩٤ .

(٣) ذو الفكاهة فى التاريخ صادق الملائكة ٣٨ .

(٤) الأغانى ١٠ / ١٥٤ ، ١٥٥ والزط : جيل أسود من السند ، والكلمة تحريف لكلمة «جات» بالهندية ، وقد قال عنهم ابن خلدون فى العبر وديوان المبتدأ والخبر ٣/٢٠٧ : الزط : قوم من أخلاط الناس ، غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها .

إذا بدا منها الـذى تُغَطّـى   كـأن تحت ثوبها المنغـط
شطـاً رميت فوقـه بشط   لم يَنْـزُ فى البطن ولم ينحـطّ

وقد ضرب بالسنديات المثل على الوفاء [1] .

وعلى كل فحين دانت للإسلام فارس والعراق اشتد التفكير فى الهند للصلات القديمة بين الهند والبلاد العربية ، وفى عام ٩١ هـ تم الوصول إلى جزء كبير هو المسمى بالسند ، وتوالت بعد ذلك الفتوحات بحيث أصبح الجيل السندى « عنصراً من العناصر المكونة للأمة الإسلامية » [2] وقد نظر المسلمون إليهم نظرة خاصة ، فاعتبروهم من الأمم الأربع العظام وقالوا إنهم « الغرة التى فيها الصلاح والحكمة » وعبر عن هذا المسعودى فقال : «والهند فى عقولهم وسياستهم وحكمتهم وألوانهم وصفائهم وصحة أمزجتهم وصفاء ذهنهم ورقة نظرهم بخلاف سائر السودان [4] »

وفى ضوء هذا نرى أن أحدا لم يعب سواده ، وإن عابوا لثغته ولكنته « وهو مع هذا من أحسن الناس بديهة ، وأشدهم عارضة وتقدماً ، وهو شاعر فحل فى طبقته ، أدرك الدولتين [5] » وهو كأغلب الشعراء الذين عاشوا عصر الخضرمة بين الأمويين والعباسيين فقد أحسوا أنهم فى مواجهة موقف جديد ، وأن عليهم أن يختاروا ، ثم إنهم حتى فى اختيارهم لابد أن يكون هذا الاختيار محسوباً عليهم سواء أوقفوا إلى جانب القديم ممثلا فى الأمويين أم وقفوا إلى جانب القوة الجديدة الممثلة فى العباسيين ، أم كان لهم تشيع مع العلويين .. إن كل موقف يأخذه الشاعر محسوب عليه .. ثم إنه لابد فى هذا أن يحتفظ لنفسه بحرية خاصة به .

---

(١) الأغانى ٣ / ٢٤٨ .

(٢) ضحى الاسلام ١ / ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٣) الفرس والهند ، والروم ، والصين .

(٤) مروج الذهب ١ / ٣٥ وما بعدها .

(٥) خزانة الأدب ٤ / ١٧٠ (بولاق) .

نحن سنرى تقلب الشاعر ولكننا لن نرى فى تقلبه تغييراً فى الرؤية الخاصة به ، أو نوعاً من الرفض لما يحدث حوله ، ولكننا نجد أنه كان يتحرك فى اتجاه مكاسب شخصية محدودة ، فهو قد التزم أولا بالنظام الأموى ، وأول ما يقابلنا من هذا : أن الضحاك بن قيس الشيبانى — وهو حرورى — حين غاب على الكوفة فى خلافة مروان بن محمد ، انضم إليه خوفاً على نفسه عبيد الله بن العباس الكندى ؛ فقال أبو العطاء السندى يعيره :

قـلْ لعبيْد الله لو كان جعفـر هو الحىُّ لم يجنح وأنت قتيـلُ
ولم يتبعْ المرّاق والثأر فيهم وفى كفّه عضْبُ الذباب صقيل
إلى معشر أردوا أخاك ، وأكفروا أباك ، فماذا بعد ذاك تقول

فلما بلغ عبيد الله بن العباس قول أبى العطاء قال أقول :

فلا وصلتْك الرحم من ذى قرابة وطالب وِتْر والذليل ذليل
تركت أخـا شيبان يسلب بزّه ونجّـاك خوار العنان مطـوّل

ثم إنه شهد الحرب بين الأمويين والعباسيين وأبلى (١) ، ولكن حين انقضى هذا النظام نراه يسرع إلى النظام الجديد ممثلا فى السفاح ، فهو يقول :

أليس الله يعلم أن قـلبى يحبُّ بنى أمية ما استطاعـا
وما بى أن يكـونوا أهل عـدل ولكنى رأيت الأمر ضاعـا

ويقول :

ان الخيار من البريّـة هـاشم وبنو أمية أرذل الأشرار
وبنو أميّة عودهم من خـروع ولهاشم فى المجـد عـود نضار
أما الدعاة إلى الجنـان فهاشم وبنو أميـة من دعاة النار

---

(١) تاريخ الطبرى ٧ / ٣٢٠ - ٣٢١ ، الأغانى ٧ / ٣٣٠ .

وحين لايصله السفاح بشئ يقول :

يا ليت جَــوْرَ بنى مروان عاد لنا وإن عدل بنى العباس فى النار[1]

ويقول فى بنى هاشم :

بنى هــاشم عــودوا إلى نخلاتكم فقــد قام سِعْر التمر صاع بدرهم
فان قلتم رهــط النبى صدقتــكم فهذى النصارى رهط عيسى بن مريم

ويقال إنه دخل على المنصور وهو يسحب الوشى والخز فقال له المنصور :

أنى لك هذا يا أبا عطاء ، فقال : كنت ألبس هذا فى الزمن الصالح ثم ولى ذاهباً فاستخفى فما ظهر حتى مات المنصور[2] .. ويبدو أن عدم الإقبال عليه يرجع إلى أنه كان أسود دميا قصيراً[3] بالإضافة إلى عدم إفصاحه ، وقد تعرض الجاحظ لعيب النطق العربى عند الإنسان السندى[4] كما أن هناك إشارة فى الأغانى إلى أمة سندية عجماء لاتفصح[5] ، وكذلك توجد إشارة فى البيان والتبيين[6] ، كما أن هناك محاولة لتحقيره بالحديث عن أمه[7] . وقد ذكر ابن قتيبة أنه كان يجمع بين لثغة ولكنة[8] ، وهو نفسه قد تعرض لهذا فى مدحته لسليمان بن سليم ، فقد قال :

أعــوزتنى الرواة يابن سُليمْ وأبى أن يُقيم شعرى لسانى
وغــلا بالذى أجمجم صــدرى وجفــانى لعُجمتى سُلطــانى

---

(1) الشعر والشعراء ٧٤٦ .
(2) خزانة الأدب ٤ / ١١٧٠ (بولاق)
(3) معجم الشعراء ٤٥٦ .
(4) البيان والتبيين ١ / ٧٠ .
(5) الأغانى ٢ / ٦٩ .
(6) ١ – ٧٤ .
(7) المصدر نفسه ١ / ٣٨٢ .
(8) الشعر والشعراء ٧٤٢ .

وازدرتني العيون إذ كـان لوني حالكاً مجتوى من الألوان
فضربت الأمور ظهـرا لبطن كيف أحتال حيلـة للسانى
وتمنيت أننى كنت بالشعر فصيحاً وبـان بعض بنـانى
ثم أصبحت قـد أنخت ركابى عند رحب الفناء والأعطان
فـاكفنى ما يضيق عند رواتى بفصيح من صالحى الغلمان
يفهم الناس ما أقـول من الشعـر فإن البيان قـد أعيـانى
فاعتمدنى بالشكـر يا بن سليم .. فى بلادى وسائر البلـدان
ستوافيهم قصـائد غـر فيك سباقة لكـل لسان
فقـديما جعلت شكـرى جزاء كـل ذى نعمة بهـا أولانى
لم تزل تشترى المحـامد قـدما بالربيح الغـالى من الأثمان

ويقال إنه أمر له بوصيف بربرى فسماه عطاء وتكنى به (١) ورواه شعره « فكان إذا أراد إنشاد مديح لمن يجتديه أو مذاكرة لشعره أنشده (٢) »

وقيل : إن راويته قام ينشد سليمان بن مجالد :

فما فضلت يمينك من يمـين ولا فضلت شمالك من شمال

برفع اليمين والشمال ، فغضب وقال : ويلك فما مدحته إذا إنما هزءته ، ثم أنشد البيت هكذا :

فما فـدلت يمينك من يمين ولا فدلت شمالك عن شمال

ثم يعلق الراوى « فكدت أضحك ولم أجسر (٣) » .

ومما يروى عن العبث به قول حماد الراوية : كنت يوماً وحماد عجرد وحماد بن الزبرقان مجتمعين ، فنظر بعضنا إلى بعض ، فقلنا : لو بعثنا

---

(١) هذا رأى آخر فى تكنيته .
(٢) الشعر الشعراء ٧٤٢ ، ٧٤٣ .
(٣) الأغانى ١٧ / ٣٢٧ .

إلى أبي عطاء ، فبعثنا إليه فقلنا : من يحتال حتى يقول : جراده ورج شيطان ، فقلت : أنا وجاء فقال : من هنا ، فقلنا : ادخل ، فدخل فقلنا : أتتعشى ؟ فقال : « قد تأسيت » قلت : أفتشرب ؟ قال : بلى[1] فشرب حتى استرخى ، فقال حماد الراوية : كيف بصرك باللغز ؟ قال « هسن ؟ » .

قال :

فما صفـــراء تكنى أمّ عـــوف كأن رجيلتيها منجـــلان

فقال « زرادة » قال : أحسنت . ثم قال :

فما اسم حـــديدة فى الرأس ترسى دوين الصدر ليست بالسنان ..

فقال « زز » قال : أحسنت ، ثم قال :

أتعـــرف مسجـــدا لبنى تميم فـــويق الميل دون بنى ابـــان

قال « بنى سيطان » فقلنا : أصبت ياأبا عطاء وضحكنا .

.. وفى رواية أخرى أنه أجاب على البيت الأول ببيت هو :

فتلك زرادة وادن دنـــا بأنك قد عنيت به لسانى (٢)

ومن قبل عبث به مواليه بعد أن أعتق وأثرى ، فقد ادعوا من جديد رقه فكاتبهم على أربعة آلاف درهم أخذها من الحر بن عبد الله القرشى بعد أن مدحه(٣) .

وعدم إقبال الدولة عليه جعله يتململ ، ويحاول غمزها فى الحين بعد الحين ، فمثلا حين أمر أبو جعفر المنصور الناس بلبس السواد قال :

---

(١) بل لاتستعمل إلا بعد النفى : «ألست بربكم قالوا: بلى» ولعل صحيح العبارة بعد رفضه العشاء : أفلا تشرب ؟

(٢) خزانة الأدب ٤ / ١٧٠ ويريد بالشطر الأول : فتلك جرادة واظن ظناً

(٣) الأغانى ١٧ / ٣٢٧

كسيت ولم أكفر من الناس نعمةً سواداً إلى لونى ودنا ملهوجا
وبايعت كرها بيعة بعد بيعة مبهرجة إذ كان أمرا مبهرجا(١)

ورأيناه يرثى القائد عمر بن هبيرة « وكان قد قتله المنصور بواسط غدرا بعد أن أمنه » فيقول :

ألا إنّ عينا لم تَجُد يوم واسط .. عليك بجارى دمعها لجمود
عشية قام النائحات وشققت جيوبٌ بأيدى مأتم وخدود
فان تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود
فانك لم تبعد على متعهد بلى كلّ من تحت التراب بعيد

ومع أنه مدح المهدى فى قصيدة أولها :

دعاك الشوق والأدب ومات بقلبك الطلب
ومثلك عن طلاب اللهو إن فكرت متقلب
ألا تنهاك واضحة تلوح كأنها العطبُ (٢)

.. إلا أن الإنسان يحس بخلو هذا الشعر من النبض ، بل نحس بالضيق الذى يعانيه الشاعر كما نرى فى البيت الأول فهو يعد مثلا قوياً « لأولئك الكوفيين » الذين وقفوا فى وجه الدولة (٣) .

.. وقد يعبث فيرجع على ماهو معروف من حكايته مع أبى دلامة ، حين بالت ابنته عليه فقال :

بللت على ـ لاحييت ـ ثوبى فبال عليك شيطان رجيم ..
فما ولدتك مريم أم عيسى ولا ربّاك لقمان الحكيم..

---

(١) الشعر والشعراء ٧٤٦ ، الحماسة التبريزى ١ / ٢٣٧
(٢) معجم الشعراء ٤٥٦ .
(٣) حياة الشعر فى الكوفة ٤٤٠ .

ثم التفت إلى أبي عطاء فقال له : أجز . فقال :

صدقت أبا دلامة لم تلدها مطهرة ولا فحل كريم
ولكن قد حوتها أم سوء إلى لباتها ، وأب لئيم . .

فقال له أبو دلامة : عليك لعنة الله : ما حملك على أن بلغت بي هذا كله ؟ والله لاأنازعك بيت شعر أبداً . فقال أبو عطاء : لأن يكون الهرب من جهتك أحب إلي (١) .

ومن شعره السائر قوله :

ويوم كيوم البعث ما فيه حاكم ولا عاصم إلا قنا ودروع
وحبست به نفسي على موقف الردى حفاظا وأطراف الرماح شروع
ما يستوي عند الملمات أن عرت صبور على مكروهها وجزوع (٢)
(و) فان العقل ليس له إذا ما تذكرت الفضائل من كفاء (٣)
(و) ذكرتك والخطيّ يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر
فو الله ما أدري وإني لصادق أداء عراني من ودادك أم سحر
فان يك سحر فاعذريني على الهوى وإن يك داء غيره فلك العذر (٤)
(و) رأيت مخيلة فطمعت فيها وفي الطمع المذلة للرقاب

وقوله وقد رأى إنساناً يومئ إلى امرأته :

كل هنيئا وما شربت مريئا ثم قم صاغرا وغير كريم
لا أحب النديم يومض بالعين إذا ما خلا بعرس النديم (٥)

---

(١) الأغاني ١٠ / ٢٤٠ .
(٢) الحماسة البصرية ١ / ٧ .
(٣) نهاية الأرب ٣ / ٢٣٢ .
(٤) الزهر لأبي بكر محمد بن أبي سليمان ٢٠٠ ، وشرح الحماسة للمرزوقي قسم ١ ط ١ ١ ص ٥٦ .
(٥) في رواية الأغاني ١٧ / ٣٣٩ وانت ذميم وهو خطا .

وقد اهتم به بعض الاهتمام القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى(١) فقال : وعلى من يأخذ قول أبى العطاء .

جلّتْ عطيته فعم مصابها فالناس فيه كلهم مأجور

فيقول :

ولقد أصاب غليلها من لم يصب وتصبَّرتْ فقدالمن لم [يفقد

وبين الكلامين فى صحة النظم وعذوبة المنطق ما تراه ، ثم قد كرر المعنى فى المصراعين ، ولم يزد على قول أبى العطاء : فعم مصابه وبقية البيت أفضل .

كما أنه أورد بيت أبى العطاء الذى يقول :

عشية قام النائحات وشققت جيوب بأيدى مأتم وخدود

ثم أورد التأثر به عند أبى تمام والمتنبي فى قول كل منهما :

شق جيبا من رجال لو اسطاعوا لشقوا ما وراء الجيوب

(و) علينا لك الإسعاد لو كان نافعا بشق قلوب لا يشق جيوب

كما استشهد ببيت له ابن أبى الإصبع على وجود قسم رابع - يستدرك بهذا على ابن المعتز - فى باب رد الأعجاز على الصدور .

« وهو يأتى فيما الكلام فيه منفى ، واعترض فيه اضراب عن أوله مثل :

فانك لم تبعد على متعهد بلى كل من تحت التراب بعيد

كما أخذ عليه الإقواء وهو اختلاف حركة الروى فى قوله مادحاً يزيد بن عمر بن هبيرة :

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ١ / ١٤٢ .

ثلاث حكتهن لغرم قيس   رجعن إلى صفرا خائبات
أقام على الفرات يزيد شهرا   فقال الناس أيهما الفرات
فيا عجبا لبحر فاض يسقى   جميع الناس لم يملل لهاتى (١)

وقد استشهد له النجدى فى باب ما قيل فى المطامع أنها تذل صاحبها :

رأيت مخيلة فطمعت فيها   وفى الطمع المذلة للرقاب (٢)

وأعجب المرتضى فى أماليه بقوله :

وأزهر من بنى عمرو بن عمرو   حمائله وإن طالت قصار (٣)

كما وقف المرزوقى عند رثائيته ليزيد بن عمر بن هبيرة الذى قتل بواسط عام ١٣٢هـ ، وهى التى أولها :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط   عليك بجارى دمعها لجمود
عشية قام النائحات وشققت   جيوب بأيدى مأتم وخدود (٤)

.. وعلى كل فنحن نجده شاعراً لم يعرف كيف يتواءم مع عصره ، ولم يعرف أن يرفضه أو يحتج عليه احتجاجاً حاسما ، ولكنه تصرف كالشعراء الذين يخطبون ود القصور ، والذين يجرون وراء المال مهما كانت الطريق الموصلة .

وهو فى الوقت نفسه لم يستطع أن يحلق فى مجال الشعر بجناح نسر ، ذلك لأنه كان ضعيف الهمة ، وله من الظروف السيئة التى لا تدفعه إلى التحدى بقدر ما تدفعه إلى الاحباط ، صحيح إن عبارته سهلة ، وتناوله للأشياء من قريب ، وصحيح إنه ربما كان يتظرف بالحديث عن سواده

---

(١) عيون الأخبار ٣ — ١٥٢ .
(٢) الحماسة ٢٠٢ .
(٣) ١ — ٥٧١ .
(٤) شرح ديوان الحماسة .

ودمامته .. ولكنه كان فى أغلب الحالات شاعراً متوسط النسج ، محدود الموهبة ... شاعراً لايتفجر بالغضب والاحتجاج كأغلب الشعراء السود وهكذا عاش حياته وهو أقرب ما يكون إلى البركان الذى لم يتفجر (١) ، وعلى نحو ما يجده القارئ فى هذه المجموعة التى جمعها أخيراً من شعره السيد « نبى بخش بلوج السندى » .

---

(١) توفى عام ١٨٤ هـ — ٨٠٠ (الأعلام للزركلى ١٢٣ (وقيل توفى حوالى عام٧٧٥م عن ٧٥ عاماً ، وفى الأغانى ١٦ / ٨٣ مات عام ١٦٨ هـ .

١٣ ـ العكوك

هو على بن جبلة بن مسلم بن عبد الرحمن أبو الحسن المعروف بالعكوك (١) والأصمعى هو الذى أطلق عليه هذا اللقب بين يدى الرشيد وذلك أن علياً دخل على الرشيد فأنشده شعراً حسناً فحسده الأصمعى لما رأى من إقبال الرشيد عليه فقال له : إيه ياعكوك ، فقال له على فى مجلس أمير المؤمنين : تلقب الناس يا بن راعى الضأن العشرين ألست من باهله ؟ وقد ظل على إذا ذكر الأصمعى بمحضره يسبه (٢) .

وهو من الموالى الخراسانيين ، وقيل إنه بَنَوى (نسبة إلى الشيعة الخراسانية وفى مهذب الأغانى انباوى) وقيل: إنه ولد أعمى ، وقيل: إنه كف بصره وهو ابن سبع سنين بسبب الجدرى (٣)

وكما كان أعمى فقد كان أسود أبرص (٤) ، ومع أنه فارسى

---

(١) وفيات الأعيان ١ / ٣٤٨ ، تاريخ بغداد ١١ / ٣٥٩ .

(٢) سمط اللآلى ٣٣٠ ، والعكوك : السمين القصير مع صلابة .

(٣) الورقة . محمد بن داود بن الجراح ١٠٦ ،شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، تاريخ بغداد ١١ / ٣٥٩ .

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٣٤٨ ـ نكت الهميان فى نكت العميان ٢٠٩ ، الكنى والألقاب ٤٤٠ .

الأصل إلا أنه يغلب على الظن أن أباه تزوج من سوداء على عادة الفقراء في هذا الزمان :

وأول ما يقابلنا العكوك نراه في ذلك الصراع الذى قام بين الأمين والمأمون ، وبخاصة في تلك الفترة التي عفا فيها الأمين عن « الحسين بن على » بعد مشاقته له ، ثم عودته إلى الخلاف ، وظفر رجال الأمين به ومن هنا قال العكوك :

ألا قاتل الله الأولى كفروا به ... وفازوا برأس الهرثمي حسين

لقد أوردوا منه قناة صليبة ... بشطب يماني ، ورمح رُدَيْنِي

رجا في خلاف الحقّ عزاً وإمرةً ... فألبسه التأميلُ خُفَّ حُنَيْنٍ(١)

ومع أنه مدح عدداً من وجوه عصره إلا أنه لم يوضع في دائرة الضوء إلا بعد اتصاله بأبي دلف العجلي الذى « كان محله من الشجاعة وبعد الهمة وعلو المحل عند الخلفاء وعظم الغناء في المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر محلا كبيراً ليس لكثير من أمثاله (٢) ولقد كانت هذه الصلة بداية سعادة وشقاء في الوقت نفسه .

والعكوك نفسه يقص علينا جانباً صحيحاً من صلته بأبي دلف فيقول : زرت أبا دلف في الجبل : فكان يظهر من برى وإكرامي والتحفى بي أمراً عظيما مفرطاً حتى تأخرت عنه حياء ، فبعث إلى معقلا وقال : يقول لك الأمير : لقد انقطعت عني ، وأظنك قد استقللت برى ، فلا يغضبنك ذلك فاني سأزيد فيه حتى ترضى .

فقلت : والله ما قطعني إلا الإفراط في البر ، وكتبت إليه :

هجرتك لم أهجرك من كفر نعمة ... وهل يرتجى نيل الزيادة بالكفر

ولكنني لما أتيتك زائراً

فأفرطت في برى عجزت عن الشكر

(١) تاريخ الطبرى ٤٣١ ، وقيل ان الأبيات للخريمى .

(٢) نهاية الأرب ٤ / ٢٣١ .

فمن الآن لا آتيك إلا مسلما .

أزورك فى الشهرين يوما وفى الشهر

فان زدتنى برا ، تزايدت جفوة ولم تلقنى طول الحياة إلى الحشر

فلما قرأها معقل استحسنها وقال : أحسنت والله : أما إن الأمير يعجبه هذا من المعانى ، فلما أوصلها إلى أبى دلف قال : قاتله الله ، ما أشعره وأرق معانيه ؟! وأجابنى لوقته – وكان حسن البديهة حاضر الجواب :

ألا رب طيف طارق قد بسطته وآنسته قبل الضيافة بالبشر ..

أتانى يرجينى فما حال دونه

ودون القرى والعرف من نائلى سترى

وجدت له فضلا على بقصده إلىّ وبراً زاد فيه على برى

فزودته ما لا يدوم بقاؤه وزودنى مدحاً يدوم على الدهر

قال : وبعث بالأبيات وصيفاً وبعث إلى معه بألف دينار .

وأمام هذا قال العكوك قصيدته المشهورة التى جرت عليه كثيرا من المآسى ، ومن هذه المدحة الرائعة :

زادورد الغى عن صدره وارعوى واللهو من وطره

ندمى ان الشباب مضى لم أبلغه مدى أشره ..

حسرت عنى بشاشته وذوى المحمود من ثمره

ودم أهدرت من رشأ لم يرد عقلا على هدره

ودع جد قحطان أو مضر فى يمانيه وفى مضره

وامتدح من وائل رجلا عصر الآفاق من عصره[1]

. المنايا فى مقانبه والعطايا فى ذرا حجره

---

(١) العصر : الحمى والملجأ .

ملك تنـــدى أناملـــه ‌ ‌ كـانبلاج النوء عن مطره
مستهل عـن مواهـبه ‌ ‌ كابتسام الروض عن زهره
.. إنمـا الدنيا أبو دلف ‌ ‌ بين باديـه ومحتضره
فـإذا ولى أبو دلف ‌ ‌ ولت الدنيا عـلى أثـره
كل من فى الأرض من عرب ‌ ‌ بين باديـه إلى حضره
مستعير منـه مكـرمة ‌ ‌ يكتسيها يوم مفتخـره (١)

وقد أثارت هذه القصيدة المجتمع البغدادى وبخاصة الطبقة العليا منه فحين ذهب ليمدح حميد بن عبد الحميد الطوسى قال له حميد :

ماعسى أن تقول فينا ، وما أبقيت لنا بعد قولك فى أبى دلف : إنما الدنيا أبو دلف . . . الخ

فقال : أصلح الله الأمير ، قد قلت فيك ما هو أحسن من هذا .

قال : وما هو ، فأنشد :

إنمـا الدنيا حميـــد ‌ ‌ وأيـاديـــه الجسام
فـإذا ولى حميـــد ‌ ‌ فعـلى الدنيا السلام

ويقال إن حميداً ابتسم ولم يحر جواباً ، وأجمع من كان حاضراً فى مجلسه من أهل المعرفة والعلم والشعر : أن هذا أحسن مما قاله فى أبى دلف ، فأعطاه وأحسن جائزته (٢) .

وقيل إنه مدح المأمون بقصيدة أجاد فيها ، وتوسل بحميد الطوسى فى إيصالها إليه ، فقال له المأمون : خيره بين أن نجمع

(١) نهاية الأرب ٤ / ٢٣٢ – ٢٣٤ ، وفيات الأعيان ١ / ٣٤٨ .

(٢) وفيات الأعيان ١ / ٣٤٨ ، ٣٤٩ وقد تنبه لهذا الصفدى فى نكت الهميان ص ٢٠٩ فقال : وأما قوله ، فى أبى دلف فإنه أحسن من قوله فى حميد الطوسى عند من له ذوق ولاسيما قوله : ولت الدنيا على إثره .

بين قوله هذا ، وبين قوله فيك وفى أبى دلف ، فان وجدنا قوله فينا خيراً منه أجزناه عشرة آلاف ، وإلا ضربناه مائة سوط فخيره حميد ، فاختار الإعفاء .

ويقال إن حميداً قال له : إلى أى شئ ذهبت فى مدحاك أبا دلف وفى مدحك لى ؟ قال : إلى قولى فى أبى دلف :

إنما الدنيا أبو دُلف ... بين مَغْزاه ومحتضره
فإذا ولَّى أبو دُلف ... ولَّت الدنيا على أثره

وإلى قولى فيك :

لولا حميدٌ لم يكن ... حَسَبٌ يُعَدُّ ولا نَسَبُ
ياواحد العرب الذى ... عزَّتْ بعزَّته العربُ

فأطرق حميد ساعة ثم قال : ياأبا الحسن : لقد انتقد عليك أمير المؤمنين (١)

وقد قيل إن المأمون حين بلغه خبر هذه القصيدة « الدلفية » غضب غضباً شديداً ، وقال : اطلبوه حيثما كان وائتونى به ، فطلبوه فلم يقدروا عليه لأنه كان مقيما بالجبل ، فلما اتصل به الخبر هرب إلى الجزيرة الفراتية وقد كانوا كتبوا إلى الآفاق أن يؤخذ حيث كان ، فهرب من الجزيرة حتى توسط الشامات ، فظفروا به ، فأخذوه وحملوه مقيداً إلى المأمون فلما صار بين يديه قال له : يا بن اللخناء ، أنت القائل فى قصيدتك لأبى دلف :

كل من فى الأرض من عرب ... بين باديه ومحتضره
مستعير منه مكرمة ... يكتسيها يوم مفتخره

---

(١) تاريخ الطبرى ٨ / ٦٦٩ .

ثم قال : جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ، والافتخار به ؟

قال : يا أمير المؤمنين : أنتم أهل بيت لا يقاس بكم لأن الله اختصكم لنفسه عن عباده ، وآتاكم الكتاب والحكم وآتاكم ملكا عظيما . وإنما ذهبت فى قولى إلى أقران وأشكال أبى دلف من هذا الناس .

فقال : والله ما أبقيت أحداً ، ولقد أدخلتنا فى الكل ، وما استحل دمك بكلمتك هذه ، ولكنى أستحله بكفرك فى شعرك حيث قلت فى عبد ذليل مهين فأشركت بالله العظيم ، وجعلت معه مالكاً قادراً وهو قولك :

أنت الذى تنزل الأيـــام منزلهـــا ... وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحـــد ... إلا قضيت بأرزاق وآجـــال

ذاك الله عز وجل يفعله ، أخرجوا لسانه من قفاه .. فأخرجوا لسانه من قفاه[1] وقيل إنه عفا عنه ومات حتف أنفه . (٢)

من هنا نرى أن الشاعر جنى عليه صدقه الفنى ، وجنى عليه إبداعه فى ممدوح معين ، ذلك لأنه كان مطلوباً منه أن يراقب تجربته الشعرية ، وأن يضع عليها قوانين خارجية تأباها طبيعة التجربة الشعرية .. مادام هناك قصر الخلافة ، وبعبارة عصرية مادامت هناك « رقابة » على كل ما يقوله الشعراء والذى نراه أن القصيدة لو كانت محدودة الانتشار وغير ناضجة فنياً لما اهتم لها المأمون ولكن يبدو أن تناقلها على الأفواه ، بالإضافة إلى أن هناك جفوة قد حدثت بالفعل بين المأمون وبين أبى دلف بدليل أن العكوك يتوسل إلى ايصال مدحه للمأمون بحميد الطوسى ، ثم إنه فى هذه الفترة يخفت من رقعة التاريخ ضوء أبى دلف ، ويظهر على المسرح رجال مثل حميد الطوسى هذا .

---

(١) وفيات الأعيان ١ / ٣٤٩ ما بعدها ، نهاية الأرب ٣٤ / ١٨٦ ، ٣٣٣١٤ .
(٢) شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ٢ / ٣٠ ، ٣١ .

وقد جاء فى مرآة الجنان أن المأمون قال لأبى دلف أنت الذى قيل فيك : إنما الدنيا أبو دلف ... الخ ، فقال أبو دلف : لا يا أمير المؤمنين بل أنا الذى قال فى على بن جبله (أو قال الشاعر) :

أبا دلف يا أكـــذب الناس كلهم سواى فانى فى مديحك أكذب

« فأعجب المأمون ذلك منه ، ورضى عنه ، لله دره فى ظرافته وسرعة فهمه المنجى له من الردى بما اتى به من الهجا فلم يمسه البلا »[1]

وقد تعرض لهذه القضية الدكتور شوقى ضيف فقال : « إن المأمون استشار لمدحه ابن حميد وأبى دلف فطلبه فهرب إلى الجزيرة ، وحين حمله إليه أمر باخراج لسانه من قفاه ، وابن المعتز يكذب هذه الرواية وقيل انه مات حتف أنفه [2] » ومع انفراد ابن المعتز بهذه الرواية إلا أننا نرجح موته بالطريقة التى ذكرت آنفاً لغضب المأمون من انصراف الشاعر عنه ، ولأنه ربما قر فى نفسه أنه عرض به فى القصيدة الدلفية ولأنا نرجح أنه كان قد عزم على أن يضم جناحى أبى دلف إلى صدره بعد أن كان يحلق بمهارة فى سماء الخلافة ثم إنا لا ننسى قول المأمون فيه إنه « عبد ذليل مهين » .

وهكذا يكون لموت العكوك جانب سياسى ، ويكون قد ذهب ضحية لأنه لم يفهم عصره حق الفهم . أو بعبارة أدق لم يقبل مواصفات عصره ، ثم ان ما قيل من أنه كان من أبناء الشيعة الخراسانية [3] يمكن أن يكون مفتاحاً لقضية مقتله .

.. ويبدو أن الشاعر كان واثقاً من نفسه كل الثقة ، فحين قيل له :

---

(١) مرآة الجنان ٥٣ و ٥٤ .

(٢) سمط اللآلى ١ / ٢٣٠ .

(٣) العصر العباسى الأول ٢٥٣ .

هل عارضت أبا نواس فى القصيدة الدلفية قال : من أبو نواس ؟ إنما عارضت امرأ القيس فى قوله :

رب رام من بنى ثُعَــــلٍ   مخرج كفيه من ستره (١)

وشموخه الشعرى لايقف عند المدح . وإنما نراه كذلك فى تلك القصيدة التى رثى فيها محمد بن حميد ، والتى يقال إن البحترى وأبا تمام سلخا فى مراثيهما أكثر معانيها ، وفيها يقول :

أللدهــر تبكى أم على الدهر تجزع   وما صاحب الأيام إلا مفجّع
أصبنا بيوم فى حميد لــو أنــــه
أصابت عروش الدهر ظلت تضعضــع
وكنت أراه كــالرزايا رزئتها   ولم أدر أن الخلق تبكيه أجمع
نعــاء حميد للسرايا إذا غــــدت   تذاد بأطراف الرماح وتوزع
كأن حميداً لم يقــد جيش عسكر   إلى عسكر شياعــه لا تروع
ولم يبعث الخيل المغيرة بالضحى   مراحا ولم يرجع بها وهى ظلع
رواجــع يحملن النهاب ولم تكــن   كتائبه إلا على النهب ترجع
هــوى جبل الدنيا المنيع وعيشها   المريــع وحاميها الكمــى المشيع
وقــد كانت الدنيا بــه مطمئنــة   فقد جعلت أوتادهــا تتقاسع
بكى فقــده روح الحياة كما بكى   نداه الندى وابن السبيل المدقّع (٢)

وإذا كان العصر العباسى الأول قد رسم صورا مشرقة للأبطال المظفرين الذين كانوا ينتزعون النصر انتزاعاً من الأتراك والبيزنطيين والخارجين على الدولة ، وإلى جانب هذا كانوا يقدمون تفاصيل للمعارك ويعطون وثائق للتاريخ .. فان العكوك كان شاعراً مبرزاً بين هؤلاء

---

(١) الورقة ١٠٨ .

(٢) العصر العباسى الأول ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ديوان الشعر العربى ٢ / ١٧١ .

الشعراء ، وبخاصة ماقاله فى القصيدة الدلفية (١) ومع أنه قيل إنه كان من أحسن خلق الله إنشاداً « مارأيت مثله بدوياً ولا حضرياً » (٢) إلا أن جلجلة الخطابة بعيدة عن شعره ثم إنه قد مد جذوره بنفس الرسوخ إلى أكثر من اتجاه فهو يقول فى الخمر قولا معجزاً :

وصافية لهـا فى الكـأس لينٌ ولكن فى النفوس لهـا شماسُ
كـأن يـد النديم تديرُ منها شعاعـا لاتحيط عليه كاس

وقد تعرض ابن ناقيا لهذين البيتين فقال : إنهما « من مستحسن ما وصفت الكأس به فى شفيفها ولطافتها » (٣) .

وهو يتعرض لزورة يستوعب كل جزئياتها — على عادة الإنسان الأعمى . . فيقول :

بأبى مـن زارنى مكتتما خائفا من كل شئ جزعـا
زائـر نم عليـه حسنه كيف يخفى الليل بدراً طلعا
رصـد الغفلـة حتى أمكنت ورأى السامر حتى هجعـا
ركب الأهـوال فى زورته ثم ماسلم حتى ودعـا !

بل إنه ليقدم صورة لصاحبته دعد يعجب الإنسان كيف راتت جزئياتها الحسية الدقيقة لهذا الشاعر الأعمى ، فهو فى نظرنا أحق من بشار حين يضرب به المثل — وكذلك أبو العلاء — فى التقط الصورة فى حالة الحركة ، وفى هذا الاستيعاب المدقيق للجزئيات حتى تستحيل إلى حياة تتوثب .. يقول العكوك (٤) :

---

(١) العصر العباسى الأول ١٦٢ .
(٢) تاريخ بغداد ١١ / ٣٥٩ .
(٣) الجمان فى تشبيهات القرآن ٣٦٩ .
(٤) من الدرة "يتيمة"، ويقال إن أربعين شاعراً حلفوا على انتحالها غلب عليها أبو الشيص العكوك (البينات ١ / ٢٠٤ — ٢٠٧ عبد النادر المغربى وعندنا انها للعكوك ، فهى أشبه به والبيت الأول يروى هكذا :

لمن على دعد وما حفلت بالا بحر تلهقى دعـد

لهفي على دعــد وما خُلِقَتْ   إلا لطول تلهفي . . دعد
بيضــاء قــد لبس الأديم أديمُ الحسن . . فهــو بجلدهــا جلد
ويزين فــوديها إذا حسرت   ضافي الغدائر فاحمٌ جعْد
فالوجــه مثل الصبح مبيضٌ   والشعر مثل الليل مسودّ
ضدان لمــا استجمعــا حَسُنا   والضدّ يظهــر حسنه الضد
وتخالها وسْنَى إذا نظــرت   أو مُدْنَفاً لمّا يُفِقْ بَعْد
بفتور عينٍ ما بها رَمَدٌ   وبها تُداوى الأعين الرُّمْد
وكــأنما سُقِيتْ ترائبها   والنحر ماء الورد والند
والصدرُ منها قــد يُزَيِّنُهُ   نَهدٌ كحقّ العاج إذ يبدو
والمعصمان فما يــرى لهــما   من نعمةٍ وبَضاضة زَنْد
ولهــا بنانٌ لو أردتَ لــه   عقداً بكفك أمكنَ العقْــد
وبخصرهــا هَيَفٌ يزيّنــه   فاذا تنوءُ يكــاد ينقــد
ولهــا هَــنٌ رابٍ مَجَسَّتُه   وعرُ المسالك حَشْوه وقد
فاذا طعنتَ طعنتَ في لبدٍ   وإذا نزعتَ يكــاد ينسد
والتف فخذاهــــا وفوقهما   كفلٌ يجاذب خصره النَّهْد
فقعودها مَشْي إذا قعــدت   من ثقله ، وقيامُها قــرد
ومشت على قــدمين خُصِّرتا   والتفتا فتكــامل القــدّ
ما شانها طولٌ ولا قِصَرٌ   فقيامهــا وقعودها قَصْد
قد قلت لما أن كلفت بها   واقتادني من حبّها الجهــد
إن لم يكــن وصل لديك لنا   يشفي الصبابة ، فليكن وَعْد
قد كان أورق وصلكم يوما   فذوى الوصالُ وأورق الصد
لله أشواقي وان نزحتْ   دارٌ بنا ، وطواكم البعــد

ان تُتْهِمِي فتهامةٌ وطني ... أو تُنْجِدي يكن الهوى نجد!
وزعمتُ انك تضمرين لنا ... ودا فهلا ينفع الود
وإذا المحبُّ شكى الصدود ولم ... يعطف عليه فقتله عمد (١)

والشاعر هنا يبنى القصيدة بالصور ، ويتوسل لهذا بلغة نقية موحية ، ثم يصل إلى مايريد خطوة خطوة باستخدام الألوان ، وباستعمال الأضداد وبهذا الترتيب الشعرى فى تناول الأجزاء كحديثه عن الشعر ، والوجه — ثم يقف وقفة ذكية عند الحديث عن الوجه عند العينين — ثم يجمع بين مايشترك فى اللون كالأجزاء التى شربت من « ماء الورد » ثم يتحدث عن الصدر ولايتركه إلا بعد أن يتحدث عن النهد ، ثم يتحدث عن المعصمين والبنان والخصر . . ويواصل المسيرة بعد أن يسلم للقارئ جسداً حاراً ، وبعد أن نحس أن دعداً هذه كانت « تجربة » من تجارب الشاعر المثيرة ، وأنها كانت بحق « تهامته ونجده » :

ونحن نعتقد أن مزاجه الفارسى المعروف بالنمنمة الحسية ، وأن دماءه التى يرفدها دم أسود كان وراء انفعاله الحار ، ووراء هذه المادية المسرفة فى التعبير ، بالإضافة إلى محاولة الشاعر تقرى الأشياء باعتباره — أعمى .

ولنستمع إلى أبياته السائرة :

يأسو الذى يجرحُ أعداءه ... وما لما يجرحه آسى
(و) كأنهم والرماح شابكة ... أسدٌ عليها أظلّت الأجسم
(و) له هم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر
(و) صورك الله من حب ومن كرم ... وصور الناس من ماء ومن طين
(و) دجلة تسقى وأبو غانم ... يطعم من تسقى من الناس
والناس جسم وإمام الهدى ... رأسٌ وأنت العين فى الراسى

---

(١) وفيات الأعيان ١ / ٣٤٨ ، ديوان الشعر العربى ٢ / ١٧٢ ، ١٧٣ زهر الآداب ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، من عيون الشعر ، محمد ناجى القشطينى ٣٤٦ .

(و) ملك عـــزمه الـــزمان وأفعــــالـــه الــــدول
ليتـــه حين جـــــاد لى بالغنى جـــاد بالقفـــل

وقد تنبه النقاد إلى عدد من فنونه كدوره فيما يسمى التخلص [1] وكدوره فى « المرقص » من الشعر [2] ، وكالاستشهاد بشعره فيما يسمى بالشعر المخلد ، [3] وفيما يسمى الشعر المولد [4] ، وبالتجاوز بالممدوح من كان قبله على نحو تلك الرواية التى تقول : إنه حين بلغ أبو تمام فى إنشاده إلى قوله :

فى حلم أحنف فى شجاعـــة عامر فى جـــود حاتم فى ذكاء إياس

قال له الكندى – وكان حاضراً . . ما صنعت شيئاً . قال : وكيف ؟ قال : لأن شعراء دهرنا قد تجاوزوا بالممدوح من كان قبله ألا ترى إلى قول العكوك فى أبى دلف :

رجـــل أبر عـــلى شجاعة عـــامر بأسا ، وغبّر فى محيا حـــــاتم

فأطرق أبو تمام ثم أنشد :

لاتنكروا ضربى له من دونـــه مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قـــد ضرب الأقـــــل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس [5]

كما أنهم قالوا : أمدح بيت قاله محدث قوله فى أبى دلف :

إنمـــا الدنيا أبـــو دلـــف بين بـــــاديه ومحتضره
فـــإذا ولى أبـــو دلـــف ولت الدنيا عـــلى إثره [6]

---

(١) عيار الشعر ١١٧ .
(٢) عنوان المرقصات والمطربات ٣٨ .
(٣) مخطوط فضل العرب على العجم ورقة ٤٧٨ .
(٤) العمدة ١ / ١٧٨ ط ١ .
(٥) أمالى المرتضى ١ / ٢٩٠ .
(٦) نهاية الأرب ٣ / ١٨٨ .

واحتجوا على قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة بقوله :

عجبت لحـراقة ابن الحسين   كيف تعـوم ولا تغـرق
وبحـران من تحتها واحـد   وآخـر من فوقها مطبق
وأعجب مـن ذاك عيدانها   وقد مسها كيف لاتورق[1]

وقالوا من أوجز ماقالوا فى الرعب وأصله قول النبى عليه السلام « نصرت بالرعب » . . قوله :

غـدا بمجتمع العـزم   له جند من الرعب [2]

كما استشهدوا على الإيجاز والاختصار فى التشبيه وما يسمى بالتمثيل بقوله :

وما لامرىء حـاولته منك مهرب   ولو رفعته فى السماء المطـالـع
بلى هـارب لايهـتدى لمكـانه   ظلام ولا ضوء من الصبح طالع
. إذا ماتردى لامة الحرب أرعدت   حشا الأرض واستدمى الرماح الشوارع
وأسفـر تحت النقـع حتى كأنه   صباحٌ مشى فى ظلمة الليل طالع[3]

ولكن الشىء الذى يجب الوقوف عنده - كما وقفنا من قبل على ظاهرة انتحال شعر نصيب - هو ظاهرة التأثر بهذا الشاعر بطريقة لافتة ، ووراء هذه الظاهرة قد يكون الإعجاب . وقد يكون عدم الاكتراث التام بشعر هذا الشاعر الأسود الذى يبدو أن شعره لم يصنع دوامات كثيرة - ككثير من الشعراء السود - لقلة اختلاطهم بمجتمعهم ، ولعدم

---

(١) نسبت لبعض الشعراء، وفى الابانة نسبت له ونحن نميل لما جاء فى الابانة لأن فيها صنعة الشاعر وقد أخذه عدد من الشعراء منهم المتنبى على حد ما جاء فى الإبانة للعميدى ص ٧٦. فقد قال المتنبى :

وعجبت من أرض سحاب أكفهم   من فوقها ... وصخورها لاتورق !

(٢) الصبح النبى ٢٣١ ، ٢٩٨ .
(٣) فن التشبيه ١ / ٦٠ ، ٢ / ٣٠ .

إحسانهم فى الغالب حرفة السمير فى القصور . . ومن هنا يكون نهبهم شيئاً ميسورا .

ولننظر مثلا إلى الضرب الخامس من السرقات الشعرية وهو أن يأخذ السارق المعنى ويسيرا من اللفظ..وذلك من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق [1] » وقد عد منه قول البحترى :

كل عيد له انقضاء وكـلّ ... يوم من جوده فى عيد

فهو مأخوذ من قول العكوك :

للعيد يوم من الأيام منتظر ... والناس فى كل يوم منك فى عيد[2]

وعد منه كذلك قول البحترى :

جاد حتى أفنى السؤال فلما ... باد منا السؤال جاد ابتداء

فهو مأخوذ من قول العكوك :

أعطيت حتى لم تدع لك سائلا ... وبدأت إذ قطع العفاة سؤالها[3]

. . وعد من الضرب السابع فى السرقات - وهو أن يأخذ الشاعر بعض المعنى ، وهذا الضرب محمود - قول المتنبى

ترفع عن عون المكارم قدره ... فما يفعل الفعلات إلا عذاريا

فهو مأخوذ من قول العكوك :

وأثل مالم يحوه متقدم ... وإن نال منه آخر فهو تابع [4]

كما قيل إن المتنبى أخذ قوله :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء ... إذ حيث كنت من الظلام ضياء

---

١) الصبح المنبى ١٩٢ .

(٢) المصدر نفسه وبيت العكوك أجود لعموم المفهوم من قوله «والناس» .

(٣) المصدر نفسة ١٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ١٩٥ .

من قول العكوك :

بأبي من زارني مكتتما حذرا .... الخ (١)

وذكر أن قوله فى حميد الطوسى :

وما لامرىء حاولته منك مهرب ولو رفعته فى السماء المطالع (٢)

بلى هارب لايهتدى لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

أخذه البحترى فقال :

سلبوا وأشرقت الدماء عليهم محمرة فكأنهم لم يسلبوا

فلو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ليجيرهم من حد بأسك مهرب (٣)

ونحن نجد له تأثيراً لاينكر على الشريف الرضى ، وعلى ابن المعتز فهو حين يقول فى فرس يلحق به ابن المعتز فيقول :

مطّرد يرتجّ من أقطاره كالماء جالت فيه ريح فاضطرب

فكأنه موج يذوب إذا أطلقتَهُ . فإذا مسكت جمد

هذا بالإضافة إلى ماسبق أن ذكرنا من تناهب قصيدته الرثائية التى تبدأ بقوله :

أللدهر تبكى أم على الدهر تجزع وما صاحب الأيام إلا مفجع

وقد قيل إن أبا تمام حين أنشد قصيدة العكوك ووصل المنشد إلى قوله :

وردّ البيض . والبيض إلى الأغماد والحجب

---

(١) المصدر نفسه ٣٤١ .

(٢) الصولى يفضله على بيت النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

لأن ابن جبلة زاد فى المعنى اشبعه وجعله فى بيتين، وقد عاب الدكتور محمد مندور عليه هذا ووصفه بانه سطحى الذوق — النقد المنهجى ص ٨٢

(٣) زاهر الآداب ١٠٣٢، وقد أكد هذا صاحب المصون ص١٠٠ واورد البيت هكذا

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن لمجدهم من أخذ بأسك مهرب

اهتز من فرقه إلى قرنه ثم قال : أحسن والله لوددت أن لى هذا البيت بثلاث قصائد من شعرى يتخيّرها وينتحها مكانه — حسب رواية الأغانى ٢٠ / ٢٣ .

. . وليس معنى هذا أنا لا ننقر التأثير والتأثر بالطريقة التى يسمح بها الضمير الفنى ، ولكنا نعتقد أنه فى فترة الصمت المضروبة على هذا الشاعر — فهو لم يأخذ حقه فى عصره ولا فى غير عصره - تسلل عدد من الشعراء وبخاصة الشعراء الكبار إليه كالمتنبى والبحترى وأبى تمام .. وان كنا لاننسى فى الوقت نفسه أن نذكر ماجاء عن ابن رشيق فى « قراضة الذهب » إن أهل التحصيل مجمعون من ذلك على أن السرقة إنما تكون فى البديع النادر (١) .

وعلى كل فهو نفسه تأثر بالآخرين فهو فى وصفه الرائع للفرس :

تحسبه أقعـــد فى استقبالـــه ... وهو إذا استدبرته قلت : أكب

قد أخذ هذا المعنى من سلم الخاسر :

تخـــاله مستقبـــلا مقعيـــا ... حتى إذا استدبرته قلت أكب (٢)

ويمكن القول بأن قوله :

دجلـــة تسقى وأبــــو غـــانم ... يطعم من تسقى من النـــاس

والخلق جسم ، وإمام الهـــدى ... رأس : وأنت العين فى الراس

منظور فيه إلى قول أبى العتاهية :

كـــأن الخلق ركب فيـــه روح ... له جسد وأنت عليه رامى (٣)

---

(١) تاريخ النقد العربى . د. محمد زغلول سلام ٥٣ .

(٢) الورقة ١٠٨ .

(٣) زهر الآداب ٣٣٠ .

وما أروع قول ابن الأثير حين تعرض لبيتيه فى المثل السائر ٢/٢٢

تكفّل ساكنَ الدنيا حميدٌ ... فقد أضحت له الدنيا عيالا

كأن أباه آدمَ كان أوصى ... إليه أن يعولهم فعالا

هذا معنى دندن حوله الشعراء ، وفاز على بن جبلة بالافصاح عنه ، وهو من المعانى التى تستخرج من غير شاهد حال[1] .

. . ومما يلاحظ على الشاعر اهتمامه « بالغلو » فالدنيا عنده أبو دلف أو حميد ؛ فاذا قضى واحد منهما تهدم كل شئ ، ومع هذا فعنده هذا الغلو المحبب والذى تنبه إليه القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى قوله يصف دجلة :

إذا اتسعت لم يلحق الذر شأوها ... وخامرها دون الذراع ابتهارها (١)

وإن كان ثعلب فى « قواعد الشعر » يأخذ عليه الافراط فى الغلو كقوله يمدح حميدا :

لولا ماكان سَدَى ولاندى ... ولاقريش عرفت ولا العرب

كما يشاركه فى هذا المرتضى حين يتأمل وصفه للثور [3]

ومع هذا فظاهرة الاستحواذ على العالم وإعادة اكتشافه وإعطائه الملامح الإنسانية ، مع البساطة فى رسم الصورة الكلية ورقة الفطنة على حد تعبير صاحب تاريخ بغداد[4] - تعتبر من الملامح التى أسهم فى توضيحها المكوك فى إطار الشعر العربى .

ومع أنه عاش حياة بائسة وقلقة ومات فى الغالب بطريقة لم يمت

---

(١) المثل السائر ٢ / ٢٣ ط ٢

(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه ٣١١ - ٣١٥

(٣) قواعد الشعر تحقيق د . رمضان عبد التواب ص ٥٣ ، وأمالى المرتضى ٢ / ٣٢٣

(٤) ١١ - ٣٥٩ .

بمثلها أحد من الشعراء [1] إلا أنه ترك تأثيره على الشعر العربي .. وهو في مجموعه تأثير أصيل ومبتكر ، ولنتأمل قوله :

ما للكواعب ياعيْساءُ قد جعلتْ ... تزورُ عنّي وتُطوى دوني الحُجر

قد كنت فتّاح أبواب مغلّقة ... ذب الرّياء إذا ما خواس النّظر

فقد جعلتْ أرى الشّخصين أربعةً ... والواحد اثنين مما بورك البصر

وكنت أمشي على رجليْن معتدلا

فصرتُ أمشي على أخرى من الشّجر !

والعجيب هو تعليق القالى في الأمالى على هذه الأبيات فقد كان كل ماقاله على هذا الإعجاز : هو لعبد من بجيلة أسود [2] !

---

(1) ولد عام ١٦٠ هـ ٧٧٦ م وتوفى عام ٢١٣ هـ وقيل ٢١٤ وقيل ١٩٦ هـ ٨٢٨ م وفيات الأعيان ١ / ٣٤٩ ، مرآة الجنان ٥٣ ، العصر العباسى الأول ٢٥٣ ، وقد استشهد له الثعالبى فى كتابه التمثيل والمحاضرة ص ٥٧ بما يدل على انكسار الإنسان ، وسطوة الموت عليه !

(2) ط ٢ جـ ٢ ص ١٦٣

١٤ ــ ابن شكلة

هو إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن على بن العباس بن عبد المطلب ، وقد عرف « بابن شكلة » (١) نسبة إلى أمه التى كانت أم ولد ، أما أبوه فهو الخليفة المهدى بن المنصور ، ومن ثم فقد كان أخاً للرشيد .. ويبدو أن إبراهيم كان على جفاء فى أول الأمر معه ، فقد كان إبراهيم يذكر أنه ظلمه حقه فى ميراثه ، وقطع رحمه ، واستنزله عن بنت عم له ، ولكن الرشيد رضى عنه بعد ذلك فولاه « دمشق » وكان يناديه « ياحبيبى ويابقية أبى ! » وقد لقب فى أول أمره بالتنين لعظم جثته كما لقب بالمرضى ، والمبارك (٢) وقد جاء فى ثمار القلوب « كان عجيب الشأن ، بديع الوصف والحال ، وكان أسود شديد السواد براق اللون (٣) ، كما قيل : إنه رجل أسود مشفراتى (٤)

وقد عاش كما يعيش الأمراء ، ولكن يبدو أنه كان أقل منهم حظوة وأنه عمل على التفوق فى أمور عديدة حتى يكون فى مستوى إخوته ،

---

(١) بفتح الشين أو كسرها وسكون القاف وفتح اللام . ابن خلكان ١ / ١٠ .

(٢) لسان الميزان العسقلانى ٩٨ و ٩٩ ، تاريخ بغداد ١٤٢ .

(٣) ص ١٥٤ .

(٤) الديارات الشابشتى تحقيق كوركيس عواد ط٣ ص ١٦ والمشفراق : عظيم الشفين .

وقد ذكر أن إبراهيم قد تأثر بأمه تأثراً كبيراً لشدة اتصاله بها (١) ولعل هذا بالإضافة إلى سواده كان وراء العديد من خطواته المتعثرة في الحياة ؛ ونحن لاننسى أن الأمر وصل بالمغنى إسحق الموصلى إلى أن يرد عليه فيقول « ولكن قولى فى ذمك ينصرف جميعه إلى خالك الأعلم » (٢) :

وقد عاش حياته هادئة إلى حد ما فى حياة أخيه الرشيد والأمين وفى هذه الفترة أسندت إليه ولاية دمشق ثم ولاية البصرة ، وقد مضت هذه الفترة هادئة إلى حد ما ، ولم يلمع فيها شيء سوى مايذكر من أنه عمل على انتشار الغناء والاهتمام به فى دمشق بصفة خاصة ... بعد أن كان الركود يسيطر عليها بعد أن خطفت منها الأنوار بغداد .

ثم كانت محنته الحقيقية مع المأمون ، فمع أنه فيما يبدو لم يتطلع إلى الخلافة طيلة حياته ، إلا أنه وجد نفسه مدفوعاً إلى التطلع إليها بعد أن دفع إلى هذا دفعاً من العصبية المحافظة والمستفيدة من بقاء الأمر داخل الدائرة العباسية ، وقد عرفت عنه سرعة الغضب ، وهو نفسه يقول : لايزال الغضب يستفزنى بعواده . (٣)

والسبب فى هذا الموقف الحاد الذى نشأ فى الدولة أن المأمون فكر فى أمر الخلافة من حوله وقد تلفت فلم يجد من يستطيع القيام بها -- من البيتين العباسى والعلوى -- إلا على بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وقد ترتب على هذا أن بايع الناس لعلى بن موسى من بعد المأمون ، وسمى « الرضا من آل محمد » وقد سار المأمون شوطاً فى هذا فأمر باستبدال السواد الذى كان شعار العباسيين ، وأمر بأن تكون الخضرة هى الشعار الجديد ، وحين زوجه المأمون من ابنته « أم الفضل » أمر له بألفى درهم وقال : إنى أحببت

---

(١) الخليفة المغنى بدر محمد فهد ٢٤١٨ المصدر نفسه ٤٥ وما بعدها .

(٢) الأغانى ٥ -- ٢٩٧ والأعلم اللى بشفته العليان أو فى جانبها شق .

(٣). زهر الآداب الحصرى ١ / ٢٥٢ ط ٢

أن أكون جدا لامرىء ولده رسول الله وعلى بن أبى طالب .. وقد كان هذا يتم فى خراسان ولكن العباسيين ببغداد أنكروه « ودب الهاشميون بعضهم إلى بعض وخلعوا المأمون ، وعقدوا لإبراهيم بن المهدى فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذى الحجة سنة إحدى ومائتين » (١) ذلك لأن العباسيين والموالين لهم رأوا أن المأمون قد خان قضيتهم (٢) ، وهناك أكثر من نص يثبت أن ابن شكلة كان على حد تعبير صاحب الأغانى « شديد الانحراف عن على بن أبى طالب » (٣) وقد ظل على هذا فحين أوصى قبل موته ، أوصى لطائفة من بنى العباس ، ثم لولد أبى بكر وعمر وعثمان وطلحة وبالجميع ولد العشيرة والأولاد الأنصار ، ماعدا أولاد على ، ومن هنا قال الواثق : قبح الله فعله ! (٤)

وقد تمكن ابن شكلة من السيطرة على عدد من الثورات التى قامت فى عهده كثورة الرويبضة ، وثورة أسد الحرابى ، وثورة مهدى بن علوان الشارى ، وثورة أهل الكوفة ، كما أنه كاتب وجوه الجند فى مصر مطالباً بخلع المأمون وولى عهده ، فقام بدعوته الحارث بن لامه بالفسطاط وسلمة بن عبد الملك بالصعيد ، وعبد العزيز بن الوزير بالوجه البحرى (٥) .

ومع هذا فانه كان يبدو أن مناطق كثيرة لم تأخذ دعوة ابن شكلة مأخذ الجد ، فمع أنه وصف « بفصاحة اللسان وحسن البيان وجـودة الشعر ورواية العلم والمعرفة بالجدل وجزالة الرأى والتصرف فى الفقه واللغة وسائر الآداب الشريفة والعلوم النفيسة والأدوات الرفيعة إلا أن

---

(١) الوزراء والكتاب ٣١٢ ، ضحى الاسلام ٢٩٤/٣ ، وفى تاريخ الموصل الأزدى عام ٢٠٢ .

(٢) أمبراطورية العرب ٥٧٩

(٣) الأغانى ١٠ / ١٢٦

(٤) الأوراق ٤٩ .

(٥) الخليفة المغنى ٦٢ ، مصر العربية د . حسن نصار ٤٣ .

هذا فى عصره لم يكن كافياً ، وقد كان اسحق الموصلى يقول : ماولد العباس بن عبد المطلب بن عبد الله بن العباس رجلا أفضل من إبراهيم ابن المهدى فقيل له : مع ماتبذل له من الغناء ؟ فقال : وهل تم فضله إلا بذلك (١) ومعنى هذا فيما يبدو أنه كانت هناك طائفة صغيرة تتحمس له وهى تلك الطائفة التى يمكن أن تسمى « أبناء الدوات » ومن كانت مصالحهم تتفق مع بقاء الحكم بين أيدى العباسيين فى فترة الضيق من المأمون ولكن الجماهير لم تكن تتصور أن يتولى خلافتها مغن أسود ينسب إلى أمه شكلة .

ويمكن التعرف من التيار المعارض لابن شكلة من قول الحافظ بن أبى بكر البغدادى حين احتبس العطاء على إعرابه من السواد ، فقال قوم من غوغاء أهل بغداد : فان لم يكن المال فأخرجوا لنا خليفتنا فليغن لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، ولأهل ذلك الجانب ثلاثة أصوات ، فيكون عطاء لهم . وقد أنشد دعبل فى ذلك :

يا معشر الأعراب لاتغلطوا ... خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسوف يعطيكم « حنينية » ... لاتدخل الكيس ولا تربط
والمعبديات لقوادكم ... وما بهذا أحد يغبط (٢)
فهكذا يرزق أصحابه ... خليفة مصحفه البربط

كما قال فيه :

نفر ابن شكلة بالعراق وأهلها ... فهفا إليه كل أطلس مائق
إن كان إبراهيم مضطلعا بها ... فلتصلحن من بعدها لمخارق (٣)

---

(١) الأغانى ١١ / ٩٦ ، ٩٧

(٢) تاريخ بغداد ١٤٤ « والحنينية » نسبة إلى حنين .

(٣) المصدر نفسه ١٤٢ ، ومخارق فى أهل الغناء .

ولمحمد بن عبد الملك الزيات قصيدة رفعها للمأمون معرضا بإبراهيم ، ومحرضا عليه (١)

وهناك من كان يصيح به « يا عنقود : يا مغنى ! » . (٢)

ويبدو أن كثيرين ممن أيدوه من قبل قد انصرفوا عنه خاصة بعد أن مات الرضا على بن موسى مسموماً وهناك من يتهم المأمون بذلك وعودته إلى سيرته الأولى ، وقد اضطره هذا إلى الهرب ، وإلى احتجابه عن الناس فترة تقرب من سبع سنوات وثمانية أشهر (٣) ، وقد قال فى هذا معاتبا العباسيين فى قصيدة أولها :

فلا جزيت بنو العباس خيرا   على رغمى ولا اغتبطت برىّ
أتونى مهطعين وقد أتاهم   بوارُ الدهر بالخبر الجلى
وقد ذهل الحواضن عن بنيها   وصد الثّدْى عن فمٍ الصبى
وحل عصائب الأملاك منها   فشدت فى رقاب بنى على
فضجت أن تشد على رءوس   تطالبها بميراث النبى

وقد كانت أيامه منذ بويع إلى أن استتر سنة وأحد عشر شهرا وأياماً ثم عاد المأمون ، ودخل مدينة السلام ، وأمر بإعادة لبس السواد وتخريق الخضرة (٤) .

وقد حقد فى هذه الفترة على المأمون أشد الحقد ، كما حقد على وزير المأمون الفضل بن سهل وقد رمى فى شعره المأمون بأمه وإخوته وإخوانه ومن أيسر ذلك قوله :

صد عن توبة وعن إخبات   ولها بالمجون وبالقينات
ما يبالى إذا خلا بأبى عيسى   ويسرب من بلدن أخوات ..

---

(١) العمدة : ص ٣٦٧ ط ١
(٢) تاريخ اليعقوبى ٢ — ٤٨ ٥ .
(٣) الخليفة المغنى ٨١ .
(٤) التنبيه والأشراف لأبى الحسن المسعودى ٣٠٢ ، تاريخ الموصل ٣٥٢ .

إن يغص المظلوم فى حـــومة   الجور بداء بين الحشى واللهاة[1]

ثم كان أخذه حين خرج متنكرا فى زى امرأة – مع امرأتين – وحين شك حارس أسود فيهن سلمه إبراهيم خاتم ياقوت ، فزاد شكه ، ثم كان انكشاف أمره ، وارساله إلى المأمون ، وحين دخل على المأمون قال له [2] :

« ولى الثأر » محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرجاء أمن عادية الدهر على نفسه ، وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذى ذنب دونه ، فإن عفا فبفضله ، وإذا عاقب فبحقه » .

ويقال إن المأمون وقع فى قصة أمانه « القدرة تذهب الحفيظة ، وكفى بالندم إنابة ، وعفو الله أوسع من كل شىء »

لما دخل ابن شكلة على المأمون قال :

إن أكــن مذنبا فحظى أخطــأتُ   فــدع عنك كثرة التأنيــب
قل كما قال يوسف لبنى يعقــوب   – لما أتوه – لا تثريــب

فقال المأمون : لاتثريب [3] . وقيل ان المأمون استشار فيه خاصته فكل أشار بقتله قائلا : من ذاق حلاوة الخلافة لاتصح منه توبة إلا يحيى بن أكثم فقد قال فيما قال : اجعل عفوك عنه خيرا ومكرمة تذكر إلى آخر الدهر ، فقبل رأى يحيى وأطلقه مكرّما ، ولقد كان تعليق إبراهيم على العفو قوله : والله ما عفا عنى المأمون تقرّبا إلى الله ، وصلة الرحم ، ولكن له سوق فى العفو فكره أن تكسد

---

(١) الورقة ١٧ ، ١٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ٨ / ٦٠٢ وقيل إنه كتب للمأمون هذا وهو مختف .

(٣) تاريخ بغداد ٤٥ .

بقتلى ، وكان تعليق المأمون : لو علم أهل الجرائر لذتى فى العفو ما ارتكبوها (١)

ويبدو أن نفس المأمون لم تشرق تماماً لعمه ابن شكلة ذلك لأنه لما دخل عليه بعد العفو قال له: أنت الخليفة الأسود ؟ فقال ياأمير المؤمنين أنا الذى مننت عليه بالعفو وقد قال عبد بنى الحسحاس :

أشعـــار عبد بنى الحسحاس قمن له عند الفخار مقام الأصل والورق
إن كنت عبداً فنفسى حــرة كرما أو أسود الخلق إنى أبيض الخلق

فقال له : ياعم أخرجك الهزل إلى الجد وأنشد :

ليس يزرى السواد بالرجل الشهم ولا بالفتى الأديب الأريب (٢)
إن يكــن السواد فيك نصيـــب فبياض الأخـــلاق منك نصيبى

ويبدو أنه طرح السياسة جانباً فقد استمر يخدم المأمون ومن جاء بعده « واستمر بزى المغنين » (٣) ومن أقوال المأمون فيه : نزع عمى ثياب الكبر عن منكبيه .

وهكذا يكون– رغم فترة خلافته – قد غنى لأخيه الرشيد ثم لثلاثة من بنى أخيه الخلفاء وهم : الأمين ، والمأمون ، والمعتصم ، ويقال إن المعتصم طرب يوماً لغنائه فقال له:أحسنت ياأمير المؤمنين ، فقال إبراهيم عربدت ياأمير المؤمنين (٤) .

وقد غلبت صفته الغنائية على كل صفاته الاخرى ، فقد جود فيه وأعان أهله ، وتاجر بهم إلى حد أن أحمد بن يوسف قال فيه « القلوب

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبل ٥١٢ ، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشرى ص ٧٣٢

(٢) وفيات الأعيان ١ / ٨ .

(٣) لسان الميزان ٩٩ .

(٤) ثمار القلوب ١٥٤ .

من غنائه على خطر فكيف الجيوب .. ! » (١) وقد اهتم بدر محمد فهد بتوضيح دوره الغنائى فى عصره ، وذهب إلى أن صاحب الأغانى انحاز إلى الموصلى أكثر منه ، كما ذهب إلى أن أصل النهضة الموسيقية فى هذه الفترة كان عربياً لافارسياً (٢) . وقد أطلق عليه الدكتور محمود أحمد الحفنى لقب زعيم المدرسة الحديثة فى الغناء ، وقال فيه : « يعد فى الطليعة الأولى من أعلام الغناء فى العصر العباسى الذهبى ، يجيد العزف بالآلات الوترية ، والمزامير والدفوف ، فكان من أحذق الناس بفنون الموسيقى علما وأداء ، وأطبعهم فى الغناء ، وأحسنهم صوتاً ، ولم يستكن إبراهيم للفن القديم بل كان من رأيه -- وقد وجد العصر العباسى جديداً فى كل شئ يتعلق بحضارته ودراساته من علوم وفنون . . ألا يقف دولاب الغناء فى هذه الدول التقدمية المتطورة عند الخطوط الأولى التى كان يترسمها المغنون فى الجاهلية وصدر الإسلام وبنى أمية وبداية عصر العباسيين فتزعم فى الموسيقى والغناء مذهب التجديد .. » .

وكان يقول : أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وأعمل على ماألتذ .

وكان يقول إنه يجيد صنعة الألحان ، أى يصقلها ويحسنها ، وأنه يغنى تطرياً لاتكسباً ، وأنه يغنى لنفسه لاللناس (٣) » وهو يعتبر زعيم الحركة الموسيقية الابداعية (الرومانتيكية) الفارسية التى زاحمت المدرسة التقليدية العربية القديمة التى كان يتزعمها اسحاق الموصلى . (٤)

فإذا وصلنا إلى الشعر -- بالإضافة إلى ماسبق -- وجدنا أنه كان له فيه إسهام ملحوظ فأكثره كان شعراً ذاتياً يكشف عن الكثير من جوانب شخصيته فهو يتكلم عن طموحه وعن اللذة والموت فيقول :

---

(١) ثمار القلوب ١٥٤ .

(٢) الخليفة المغنى ١١٩ وما بعدها .

(٣) زرياب (٥٤ أعلام العرب) ٣٧ ، ٥٠ .

(٤) تاريخ الموسيقى العربية .هـ ج. فارمر ترجمة .د. حسين نصار ص ١٤٢ .

قد شاب رأسي ورأس الحرص لم يشب
إن الحريصَ على الدنيا لفي تعب

مالي أراني إذا طالبت مرتبة   فنلتها طمحت عيني إلى رتب
قد ينبغي لي مع ما حزت من أدب   ألاّ أخوّض في أمر ينقّص بي
لو كان يصدقني ذهني بفكرته   ما اشتد غمي على الدنيا ولا نصبي
أسعى وأجهد فيما لست أدركه
والموت يكدح في زندي وفي عصبي

بالله ربك كم بيتا مررت به   قد كان يعمر باللذات والطرب
طارت عقاب المنايا في جوانبه   فصار من بعدها للويل والحرب
فامسك عنانك لا تجمح به ظلع   فلا وعيشك ما الأرزاق بالطلب
قد يرزق العبد لم تتعب رواحله   ويحرم الرزق من لم يوت من طلب
مع أنني واجد في الناس واحدة   الرزق والنّوك مقرونان في سبب
وخصلة ليس فيها من ينازعني
الرزق أروغ شيء عن ذوي الأدب ..

يا ثاقب الفكر .. كم أبصرت ذا حمق
الرزق أغرى به من لازم الجرب [1]

وهو يرى جارية كانت أخته بعثتها إليه في فترة استتاره دون أن يعلم فيقول :

بأبي من أنا مأسور بلا أسر لديه
والذي أجللت خديه فقبلت يديه
والذي يقتلني ظلما ولا يعدى عليه
أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليه[2]

---

(١) تاريخ بغداد ١٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ١٤٢ .

وهناك قصة مثل هذه جرت في بيت عمته ، ويبدو أنهما قصة واحدة .

ويمكن القول بأن الخطين البارزين فى شعره هما : اللذة والموت ، فيقول مثلا فى الخمر :

كـــاس كـــأنّ شعاعهـــا قبس على شرف مطـــلّ
ولقـــد ذعـــرت بها الغلـــا م فبتّ فى شمس وَظلّ (١)

ويقول :

ما زلت فى سكرات الموت مطّرحاً
ضاقت علىّ وجوه الأرض من حيلى
فلم تزل دائبا تسعـــى لتنقـــذنى
حتى اختلست حياتى من يدى أجـــلى

ويقول :

وما المرء فى دنياه إلا كهاجع
رأى فى غرار النوم أضغاث أحلام (٢)

ويقول :

بالله ربك كم بيت مررت بـــه قد كان يعمر باللذات والطرب
طارت عقـــاب المنايا فى سقائفه فصار من بعدهم للويل والحرب (٣)

ومن أجود شعره ما قاله فى رثاء ابنه الأكبر أحمد ، فى إحدى قصائده يقول :

يثوب إلى أوطانه كلُّ غائبٍ وأحمد فى الغيّاب ليس يثوبُ ..
تبدّل داراً غير دارى ، وجيرةً سواى ، وأحداث الزمان تنوب

---

(١) الورقة ص ٢٢ ، ذم الهوى لابن الجوزى ص ٦٢٧ .
(٢) ثمار القلوب ٠ ٦ ، ٦٧١ .
(٣) المنازل والديار ٣٨١ .

أقام بها مستوطنا غير أنــــه على طول أيام المقــام غــريب
وكان نصيب العين من كل لذة فأمسى وما للعين فيــه نصيب
كأن لم يكن كالغصن فى ميعة الضحى
سقــاه الندى فاهتز وهــو رطيب
وريحان قلبى كان حين أشمه ومؤنس قصرى كان حين أغيب
كأنى منه كنت فى نوم حالم نفى لذّة الأحــلام عنه هبــوب
وكانت يدى ملأى به ، ثم أصبحت بحمد إلهــى وهــى منه سليب
جمعت أطباء العــراق فلم يصبْ دواءك منهم فى البــلاد طبيب
ولم يملك الآسون نفعاً لمهْجة عليها لأشراك المنون رقيــب
سأبكيك وما أبقت دموعى والبكا بعينىَّ ماء - يا بنىَّ - يجيب..
وإنى وإن قدمت قبلى لعــالم بأنى وان أبطأت عنك قريب

كما أن رثاءه للمأمون يجسد الحزن تجسيداً، إلى حد القول بأن المأمون حين سمع هذا الرثاء « اشتد عليه (١) »

فهو يخترع معانى جديدة وهو يعالجها برفق حتى يجلوها فى كلمات بسيطة ومترفة فى الوقت نفسه ، وهو كما رأينا ، يكتفى من الحبيب بالقليل ، ونحس دائماً أن تجاربه ليست ريانة ولاتسير إلى غايتها ، وإنما هناك دائماً شئ يمتزج بها كالدموع - أو شئ يعوق مسيرتها ، بل إن عيون النرجس - وكأنها عيون الآخرين عند سارتر - تمنعه « لذة المجلس » .

ثــلاث عيون من النرجس عــلى قــائم أخضر أملس . .
يذكــرنى طيب ريا الحبيب فيمنعنى لــذة المجلس (٢)

---

(١) الأغانى ١٠ / ١١٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ٨ / ٤٨٩ .

ويقول :

يا من لقلب صيغ من صخرة ... في جسد كما لؤلؤ الرّطب
جرحت خديه بلحظي .. فما ... برحت حتى اقتص من قلبي[1]

ويقول :

إذا كلمتني بالعيون الفواتر ... رددت عليها بالدموع البوادر
فلا يعلم الواشون ما دار بيننا ... وقد قضيت حاجاتنا بالضمائر[2]

ولقد كان يطرب بعنف للجديد كما روى عنه حين سمع خالد الكاتب يشبه الورد بالخدود – على عكس المتداول – في قوله :

عشيّة حيّاني بورد كأنه ... خدودٌ أضيفت بعضهن لبعض[3]

وهو قد يكرر بعض الكلمات كأنه يتوسل ويستعطف ، وكأنه يقدم حديثاً بطريقة «الحكي» التي تدور بين الناس ، وقد تنبه لهذا ابن رشيق فقال : أكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه ؛ ولا يجب للشاعر أن يكرر اسما إلا على جهتي التشويق والاستعذاب ، إذا كان في تغزل أونسيب .. ومن هذا الباب نوع آخر هو أولى بهذه التسمية نحو قول إبراهيم بن المهدي يعتذر للمأمون :

البر منك وطاء العذر عندك لي ... فيما فعلت ، فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متهم

وقد استشهد له ابن المعتز في كتاب « البديع » في باب المذهب الكلامي بقوله :

وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي ... مقام شاهد عدْل غير متّهم[4]

---

(١) عد هد من الطرف في عنوان المرقصات والمطربات ٣٥ .
(٢) العمدة ٧٣ / ٧٩ .
(٣) انثار زهر الآداب ٤ / ١٣٩ .
(٤) ص ٤٢ .

ومن عجيب تشبيهاته قوله فى صلب بابك :

كـأنه شلو كبش والهـواء له تنور شاوية والجزع سفود [1]

وما نريد أن نصل إليه أن ابن شكلة قد أضاف إلى الشعر فى عصره إضافة ثرية وأن غلبة الغناء عليه يجب ألا تحجب هذا الجانب الحميم عنده، فهو لم يغرق نفسه فى المدائح والهجائيات وإنما حاول فى كثير من الأحيان أن يقدم « الشعر النقى » وأن يضع دائماً على كل مايقول أو بين مايقول زهرة ابتكار خاصة به . وحتى وهو يمدح يعطى جديدا فى المدح ، فهو أول من قال هذا التعبير المبتكر « عترة الله » وهو لم يقله بقصد المدح للمعتصم وإنما يقصد استثارته على الروم الذين أغاروا على جانب من البلاد وأسروا « خلقاً كثيراً » فقد دخل عليه يحضه على الجهاد ويقول فيما يقول :

يا عترة الله قد عاينت فانتقمى تلك النساء وما منهن يرتكـب

هب الرجال على أجرامها قتلت ما بال أطفالها بالذبح تستلـب

(و) إذا الليل أسبل سرباله على الأرض واسود وجه البلد [2]

. . وهكذا نرى إبراهيم حين يرى أمه أم ولد، ويرى نفسه حالك السواد يحاول التفوق على نفسه ، والتخلص من أعبائه النفسيه بالفن ، ولكنه يدفع دفعاً إلى عالم السياسة ومع أنه يتوه بين أمواجه إلا أنه يعود ثانية إلى رحاب الفن ويقضى بقية حياته « وعليه ثياب المغنين » وكأنه أراد أن ينفصل تماما عن تلك الفترة التى مرت به ، والتى جعلت من نصبوه يتخلون عنه ، وجعلت الناس يتهكمون به على نحو موجع ..

وقد انصرف فى آخر حياته إلى تجويد فنه إلى الحد الذى قال فيه ابن أبى طيبة : كنت أسمع إبراهيم بن المهدى يتنحنح فأطرب وقد

---

(١) خاص الخاص الثعالبى ١١٦ .

(٢) ثمار القلوب ١٥ ، المصون فى الأدب لأحمد العسكرى تحقيق عبد السلام هارون ٣٩ ط الكويت .

سئل ، مخارق عن تقييم عام لحركة الغناء فى عصره فقال : كان إبراهيم الموصلى أحسن غناء من ابن جامع بعشر طبقات وإبراهيم بن المهدى أحسن غناء منى بعشر طبقات ، ثم قال : أحسن الناس غناء أحسنهم صوتاً وإبراهيم بن المهدى أحسن الإنس والجن والوحش والطير صوتا (١) وعلمياً يقال : إن صوته كان يمتد على مدى « ثلاث طبقات » (٢) وإن كان من الملاحظ أن صاحب الأغانى يتحامل عليه لصالح إسحق الموصلى ، ومن أقواله إنه كان يأكل المغنين ولكن إسحق « كان آفته » كما كان لكل شيء آفة ، ومما يحفظ له احترامه للشعر ، وإدراكه لخطره ؛ فقد طلب من خالد الكاتب أن ينشده من شعره ، وحين قال خالد : ليس شعرى من الشعر الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من الشعر لحكما وانما أمزح وأهزل ، قال له إبراهيم : لاتقل هذا فإن جد الأدب وهزله جد (٣)

فإذا أضفنا إلى هذا ابتكاراته الشعرية وحياته الصاخبة وحديثه عن اللذة والموت بل مزجه بينهما بطريقة جديدة بالإضافة إلى مؤلفاته التى جاء منها فى الفهرست : كتاب أدب إبراهيم ، وكتاب الطبيخ ، وكتاب الطب وكتاب الغناء . ، أدركنا أن الرجل كان ملء عصره ، وحين ينتقل إلى الحياة الأخرى فى ٢٢٤ هـ ـ ٨٣٩ م (٤) ، تكون أروع كلمة تأبين قيلت فيه هى تلك الكلمة التى قالتها جارية للمعتصم وهى تعلن موته : أظن أن فى الجنة عرسا (٥) ومن الذى لايلبى الغناء فى عرس فى الجنة !.

---

(١) الحضارة العربية جاك . س. ريسلر ترجمة غنيم عبدون ١٠٨ .
(٢) نهاية الأرب ٤/٢٠٨ و ٢١١
(٣) الأغانى ٢٠ / ٣٢٥ وما بعدها .
(٤) تاريخ الموصل للأزدى .ت د. على حبيبة ٣٠ ؛
(٥) الأغانى فى ٨ / ٣٠٦ و ٣٠٧ .

١٥ ـ ابن أبى فنن

هو أحمد بن صالح بن أبى معشر ولى المنصور [١] ، وكنيته ـ أبو عبد الله ـ كان شاعراً مفلقاً مطبوعاً [٢] وقد قال الحافظ أبو بكر البغدادى « اسم أبى فنن صالح ويكنى أحمد أبا عبد الله ولى بنى هاشم وهو شاعر مجود نقى اللفظ أكثر المدح للفتح بن خاقان ، وكان أسود اللون [٣] وقال عنه أبو عبيدة البكرى : إنه كان شاعراً مجيداً من شعراء بغداد أيام المتوكل [٤] ، وقيل إنه لما دخل على المعتز قال له : هذا الشاعر الأسود ، فقال ابن أبى فنن : لايضر سواده أعزكم الله تعالى فإن بيض أياديكم عنده [٥] .

وما يعرف عن هذا الشاعر قليل ، ذلك لأن هناك إهمالا إلى حد ما بالمقلين من الشعراء ، ولأنه لم يربط نفسه ربطاً محكما بوجه من وجوه عصره ، ولأنه لم يكن يحب أن يمدح أحداً إلا بدافع نفسى شديد ، ثم إنه كان عزيز النفس إلى الحد الذى رأيناه يقول فى ابنه :

---

(١) نهاية الأرب ٣ / ٩٣ .

(٢) طبقات الشعراء ٣٩٦ .

(٣) تاريخ بغداد المجلد ٤ ص ٢٠٢

(٤) شرح الأمالى ٢٤٥ ط لجنة التأليف .

(٥) ذيل زهر الآداب ٨٠ ، ٨١ .

عاش بنىّ فصـــار مثلى
يلبس ما قـد خلعت عنى
فسرّنى ما رأيت منه
وساءنى ما رآه منى (١)

ولقد تعدلت أحواله بعد ذلك ، فقد قيل : إنه كانت له ضيعة فى قطيعة لمحمد بن عبد الله بن طاهر ، فكان الحاشر (٢) يصير له كثيراً فيؤذيه ، وربما أشخصه (٣) فما كان من الشاعر إلا أن كتب إلى محمد بن عبد الله ابن طاهر يقول فى قصيدة جاء فيها :

فكـأننى فى نعـمتى رب الخـورنق والسدير
لولا تـــردد حــاشر كالكلب فى اليوم المطير
غــاد عـلى ورائـحٌ يصل الرواحَ إلى البكور
فإذا بدا لى وجهـه أخرجت صغرا (٤) من سرورى
فهل الأمير بفضله من قبح طلعته مجيرى

فلما قرأ الأمير الأبيات وقع تحتها : قد أجرناك يا أبا عبد الله . وأمرنا لك باحتمال خراجك . - وكان فى كل سنة ستة آلاف درهم - وحمل إليه صلته ، وحلف ليقضين الخراج عنه، « إنما حلف لأنه رجل لا يمدح أحداً ولا يستميح ، ولا يضع نفسه موضعاً يقبل فيه براً من أحـــد »

وقال ابن أبى فنن : « فلما أتانى التوقيع مع الصلة ، وقد حلف عليها بالغموس لأقبلنها ، لم أجد بداً من ذلك ، فأنا أشكر له بالشعر ما صنع ، واحتججت

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٨٣ ط النهضة .
(٢) عامل العشور او الجزية .
(٣) أزعجه .
(٤) الصغر والصغار : الذل .

إلى أن أمدحه في كل عام بقصيدة فصرت بذلك شاعراً [1] «وهجاؤه لهذا الحاشر يذكرنا بهجاء له لبعض الكتاب [2] .

فدواعي المدح عند ابن أبي فنن تختلف عن دواعيه المعروفة عند الشعراء المتكسبين وحتى وهو يمدح تحس أنه لا يفقد ذاته ، على نحو قوله في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، وهو ما يستشهد به على أن الشاعر يريك أنه يصف شيئاً ثم يعن له معنى فيأتي به ، وكأنه ليس من قصده ولم يقصد غيره :

مالي ومالك قد كلفتني شططا
حمل السلاح وقول الدار عين قف

أمن رجال المنايا خلتني رجلا أمسى وأصبح مشتاقاً إلى التلف
أرى المنايا على غيري فأكرهها فكيف أمشي إليها بارز الكتف
أخلت أن سواد الليل غيرني أو أن قلبي في جنبي أبي دلف

وقيل إنه قال البيت الأخير لأنه كان شديد السواد [3] كما قيل :
إنه أخذ قوله : أرى المنايا على غيري فأكرهها .من أعرابي قيل له ألا تغزو ؟

فقال : أنا والله أكره الموت على الفراش فكيف أمشي إليه ركضا [4]

ويبدو أنه كان يحب أن يعيش حياته دون أن تكون على هذه الحياة ظلال حقيقية لأحد .

أعددت للحرب شرب كأس وميل سمع إلى قيان
تظل أو تارهن تحكى فصاحة . منطق اللسان

(1) طبقات الشعراء ٣٩٧ .
(2) الحيوان ٥ — ٤٤٩ .
(3) ذيل زهر الآداب ٨٠ ، ٨١ .
(4) زهر الآداب وثمر الألباب ٢ — ١٠١٣

ما بين يمنى وبين يسرى ... وَمحْسى بنان إلى بنان ..
ضمير قلب بقرع كف ... ابداه بمّسان ناطقان (1)

وابن رشيق يحتج له فى باب آداب الشام بقوله :

وإنّ أحقّ الناس باللوم شاعرٌ ... يلومُ على البخل الرجال ويبخل (2)

وهو لا يبتذل فى شعره حين يحب ، وإنما نجده ، يتماسك على غير عادة شعراء عصره فيقول :

لما أبت عيناى أن تملك البكا ... وأن تحبسا سحّ الدموع الدواكب
تثاءبت كى لا ينكر الدمع منكر ... ولكن قليلا مابقاء (3) التثاؤب
أعرضتمانى للهوى ونممتما ... على لبئس الصاحبان لصاحب
(و) صب بحب متيم صب ... حُبُّه فوق نهاية الحب
أدميت باللحظات وجنته ... فاقتص ناظره من القلب

قال على بن هارون : وهذا البيت الأخير من هذه الأبيات هو عينها وأخذه ابن أبى فنن مما أنشد فيه أبى إبراهيم بن المهدى :

يامن لقلب صيغ من صخرة ... فى جسد من لؤلؤ رطب
جرحت خديه بلحظى فما ... برحت حتى اقتص من قلبى (4)

وقد عقب عبد القاهر على هذا بقوله : ولكنه - أى ابن أبى فنن بنقاء عبارته ، وحسن مأخذه قد صار أولى به (5)

---

(1) عيون الأخبار ١٠ - ٨٩ بمان : مثنى بم وهو أحد أوتار العود الذى يضرب به .

(2) العمدة ١٣١ ط ١ .

(3) ما يفيد .

(4) تاريخ بغداد مجلد ٤ - ٢٠٢ ، ٢٠٣

(5) دلائل الاعجاز ٣٦١ ط ٣ دار المنار .

(و) وحياة هجرك غير معتمد ... إلا لقصد الحنث في الحلف
ما أنت أملح من رأيت ولا ... كلفي بحبك منتهى كلفي

قال الصولي : كنا بحضرة أبي العباس المبرد فأنشد هذين البيتين فاستظرفهما(١)

وهو يصل بكلمات قليلة إلى معان مبتكرة ، وكثيراً ما يجسمها بحيث تحدث التأثير على عدد من الحواس كقوله :

بكف مقرطق خنث ... تطيب بطيبه الريب
تراها وهي في كفيه ... من خديه تلتهب (٢)

وللشاعر أبيات سائرة تدل على عمق فهمه للحياة ، وعلى رؤية خاصة به تقول :

أرى الدهر يخلقني كلما ... لبست من الدهر ثوباً جديدا
(و) سرّ من عاش مالُه فإذا ... حاسبه الله سره الاعدام
رب أمر سر آخره ... بعد ما ساءت أوائله (٣)
(و) هما موتان موت ضنى وهجر ... وموت الهجر شرهما سبيلا (٤)
(و) من عاش أخلقت الأيام جدته ... وخانه ثقتاه : السمع والبصر
(و) رب أمر سرّ آخره ... بعد ما ساءت أوائله
(و) خلوت فنادمتها ساعةً ... على مثلها يحسد الحاسد
كأنا وثوب الدّجى مسبل ... علينا لمبصرنا واحد ! !
قالت عهدتك مجنونا فقلت لها ... ان الشباب جنون برؤه الكبر (٥)

---

(١) زهر الآداب ٢ / ١٠١٢ ، ١٠١٣
(٢) نهاية الأرب ٤ / ١٣٠ .
(٣) المصدر نفسه ٣ / ٩٣ ، ٩٤
(٤) تاريخ بغداد م / ٢٠٢٤
(٥) العقد الفريد ٣ / ٢٠٠ مكتبة صادر ، التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص ٤٧ ، سمط اللآلي ١ — ٢٤٥ .

وهو يبدو في تناوله قريب الشبه من العباس بن الأحنف . بل إن هناك مايدل على أنه كان « مشغوفاً به » وله خبر مع البحتري حين دخلا معاً على المتوكل [1] .

من هذا نرى أن الشاعر في غنى من نفسه ، واستطاع أن يعبر عن جانب من تجربة عصره من خلال نظرته الخاصة ، وهو في الوقت نفسه قد حاصر نفسه لأنه لم يلفت إليه . . تحت دائرة الضوء . النقاد وألسنة الناس ، ولم يدخل نفسه في منافسات مع شعراء عصره . ولهذا روى عنه القليل ، وعرف عنه القليل ولكن من خلال مانعرف عنه ندرك أننا أمام شاعر أصيل لم يأنف المتنبي من أن يلتفت إليه . فقد جاء في كتاب الابانة عن سرقات المتنبي للعميدي (٢) أن قوله :

كلٌ يريد رجاله لحياته يامن يريد حياته لرجاله

قد أخذ من ابن أبي فنن القائل :

أضحى يكلّف نَفْسَهُ حاجات قوم من ورائه
كيما ينعَّمَ عيشهم وليستريحوا في عنائه !

كما أنه حين قال :

أدميتُ باللحظات وجنته فاقتصّ ناظره من القلب

أخذه كثير من الشعراء وحسنوه ومنهم المتنبي حين قال :

ما باله لا حظته فتضرَّجت وجناته وفؤادي المجروح

وقد تنبّه إلى حسن أدبه الفتح بن خاقان . فقد سأله الشاعر أن يوصله إلى المتوكل ، وأنشده :

إذا كنتُ أرجو نوال الأمام وفتح بن خاقان لي شافع
فقل للغريم أتاك الغياث وللضيفِ منزلنا واسع

---

(١) الأغاني ١٧ / ٧٣ ، أخبار البحتري للصولي ط٢ ص ٩٣ .
(٢) ص ٢١٧ .

ولما كان الفتح يشرب أمره بالجلوس ، وقدم له النبيذ ، فقال : ما أكلت شيئاً أيها الأمير ، فجاءه الخدم ، وقدموا له طعاما فأكل ، وعاد إلى مجلس الفتح الذى قال له :

خذ ماتحت مصلاّك ، وحين نظر الشاعر ووقع بصره على صرتين قال الفتح : فأما احداهما ففيها مائة دينار وهى لجائزتك، وأما الأخرى ففيها مائة دينار لحسن أدبك وقولك : إنى ما أكلت شيئاً (١)

وقد وصله بالمعل إلى المتوكل،وحسن عنده ، وكان مما قاله المتوكل فيه « ابن أبى فنن فأرة مسك » (٢) ، وإذا كان البكرى قد قال فيه : شاعر مجيد من شعراء بغداد له أغراض مستطرفة ، ومعان مستحكمة ، فإن البغدادى لم ينس أن يقول : هو شاعر مجوّد ، وكان أسود اللون ، أما ابن المعتز فقال : شاعر مغلق مطبوع .

---

(١) البصائر والذخائر م ٢ ص ٦٨٨ ، ٦٨٩

(٢) نفسه ٢ / ٧٦٠ .

١٦ ـ أبو المسك كافور

أبو المسك كافور بن عبد الله الليثي ، وهو خصي حبشي الأصل ، ويعرف بالصوري نسبة إلى بلدة صور ، وقد نشأ بمصر ، وسكن مدينة صور ، وطاف بكثير من البلاد الإسلامية حتى وصل إلى ماوراء النهر (١) ويقال إنه دخل فيما دخل من البلدان بلاد خراسان ، وأقام « ببست » مدة من الدهر (٢) .

وقيل : إنه كان من الشعراء الذين يحسنون المسامرة فقد كان يحفظ الكثير من الملح والنوادر ، وكان عارفاً باللغة معرفة صحيحة ، بالإضافة إلى علوم الدين ، التي يقال إنه تلقاها ـ وبخاصة الحديث ـ من الفقيهين : نصر المقدسي : وملك البانياس (٣)

ويظهر أن طاقته الحقيقية كانت في هذا النوع من المسامرة الذي ينقل فيه ماحفظ من السابقين ، ورغم هذا فقد كان له اجتهاد في عالم الشعر في إطار عصره وهو لم يخرج في شعره عن دوائر المدح والهجاء والغزل ، وهو في مدحه يصل إلى مايريد مباشرة ، ويمد من خلال

---

(١) مخطوط رفع شأن الحبشان ورقة ١٣٧ ، تجريد الوافي لابن سحر ٢٢٧ .

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر ٢ / ٢١٦ وبست مدينة من سجستان وهراة من أعمال كابل .

(٣) رفع شان الحبشان ورقة ١٣٧ ، جريدة القصر ٢ ـ ٢١٦ .

شعره راحة كبيرة تتلمظ إلى العطاء . فهو يقول فى الرئيس محمد بن منصور البيهقى :

هل من قرى ياأبا سعد بن منصور ... لخـادم قادم وافاك من صور
شعاره ان دنت دار وان بعدت ... الدبيقى أبا سعد بن منصور

وهو قد يهجو فيفحش فى الهجاء، مما يدل على أنه كان بذىء النفس ساقط الهمة ، مفتعلا فى شعره ، فهو يقول فى مدينة بخارى :

بـاء بخـارى أبدا زائـده ... والألف الأخـرى بلا فائدة
فهـى خـرابتحت وسكانها ... آبـدة ما مثلهـا آبـده ،

وهو قد يتحدث عن الفراق والشوق بفتور وتكلف وحذلقة مفتعلة فى كثير من الأحيان فيقول :

هل من لواعج هذا البين من جار ... لمستهام عميد دمعـه جـار
أم هل على فتكات الشوق من عضد ... يجيرنى من يد الضرغامة الضارى
فيض الدموع ونيران الضلوع معا ... ياقوم كيف اجتماع المـاء والنار

ويقول :

راح الفـراق بمالا أرتضى وغدا ... وجار حكم الهوى فيما مضى وعدا
فـارقتكم فرقة لاعدت أذكرها ... فإن رجعت فلا فارقتكم أبدا (١)

ومع أن فى هذا الشعر جانباً من الهبوط إلا أنه يبدو أنه كان شيئاً مقبولا بل معشوقا من عصره، ولنستمع إلى ماجاء فى خريدة القصر عنه : « هذا كافور أبو المسك ، كلامه أطيب من رائحة المسك خصى خص بما لم يخص به الفحول خادم خدمته لفضله الألباب والعقول ، نظمه تبر المحك وابريز السبك ، أوتى المعرفة حتى نسج البرود المفوفة، وأنشد الحدائق المزخرفة ، ونظم اللآلىء المفوقة (٢) » .

---

(١) رفع شان الحبشان ورقة ١٣٨ ، خريدة القصر ٢١٧ .
(٢) الخريدة ٢ / ٢١٧ .

ومشكلة هذا الشاعر البائس أنه كان أحد الأحباش الخصيان الذين حكمت عليهم الأرستقراطية العربية بهذا النوع من البوار الآدمى ، فمع أن عملية الخصاء كانت منتشرة فى العالم القديم ، إلا أن الإسلام حرمها فقد روى عن النبى عليه السلام « من قتل عبداً قتلناه ، ومن جدع عبداً جدعناه ، ومن أخصى عبداً أخصيناه (١) » . ولكن هذه العدوى تسربت إلى المجتمع العباسى بصفة خاصة « ومن المؤكد أن المسلمين - لم يكونوا هم الذين يقومون بهذا العمل البغيض من الحضارة ، إنما كان يقوم بذلك اليهود والنصارى متحملين وزره وإثمه (٢) .

وقد ترتب على كثرة الخصيان ظهور التعلق بالغلمان ، وعشقهم ، وخاصة أن بعضهم كان يرتدى ماترتديه النساء (٣) .

وقد تعرض الجاحظ لخصاء السود فقال : « فأما الخصيان من الحبشان والنوبة وأصناف السودان ، فان الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم ، وينقصهم ولا يزيدهم ويحط عن مقادير إخوانهم ، كما يزيد الصقالبة عن مقادير إخوتهم . لأن الحبشى متى خصى سقطت نفسه ، وثقلت حركته ، وذهب نشاطه . ولابد أن يتعرض له فساد . . . . . الخ (٤) »

ومع أن إبراهيم بن محمد البيهقى أورد لهم فصلا فى كتابه المحاسن والمساوىء (٥) إلا أنك تحس أنهم طائفة بائسة حقاً ، ولهذا نرى الشاعر أبا المسك كافوراً مهما قيل عن تعلمه ، وعن حفظه للنوادر ، ومهما قال شعراً فإن أثره فى كل هذا ضئيل ، ولن يخدعنا هذا السجع المنمق الذى قاله عنه صاحب الخريدة ، ذلك لأن هذه الطائفة من السود قد وقع عليها بلا شك الكثير من الظلم ، ولاسيما على الشعراء منهم ؛ ولكن

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى .
(٢) العصر العباسى الأول ٥٧ .
(٣) المصدر نفسه ٧٣ .
(٤) الحيوان ١ / ١١٩ .
(٥) ص ٣٩١ - ٣٩٣ ، ٣٩٧ .

الكثيرين لم يكونوا يلتفتون إلى دوامات العذاب التى كانت تملأ هذه الطائفة من الشعراء السود .

صحيح إن الشاعر فى مثل هذا الحال كان يجب أن يصرخ ، ويحتج ويدين ولكن هؤلاء السود . كما تحدث الجاحظ عنهم كانت قد سقطت أنفسهم وثقلت حركتهم .

ونحن لن نخدع بما أورده القلقشندى تحت عنوان « ألقاب أرباب السيوف » وهم صنفان ، ثم ذكر الصنف الثانى تحت عنوان « ألقاب الخدام الخصيان » المعبر عنهم الآن بالطواشية ، وفى زمن الفاطميين بالأستاذين ، ولهم ألقاب تخصهم [1] .. الخ ولن ننخدع بما وصل إليه اسم الشاعر كافور الذى حكم مصر .. نعم لن ننخدع بهذا ؛ لأنه بلا شك قد وقعت على طائفة السود بصفة خاصة أنواع من العذاب ، ومع هذا فقد أبدعوا فى حياتهم ولكن هذا النوع من العذاب . . قد أسكت الكثيرين من الذين كان يمكن أن يقولوا الشعر ، فقد كان يمكن أن نجد فى « أبى المسك كافور » شاعراً لا نكتفى منه بما قاله حتى فى عصره المتأخر .. وإن كان جهده أنه قال :

فيض الدموع ونيران الضلوع معا ياقوم كيف اجتماع الماء والنار

وعلى كل فمن يدرى فربما كان طوافه الدائم وراءه هذا العذاب الذى دمر استقلاله ، ورفع جذوره عن الأرض ، حتى كانت راحته الأبدية فى عام ٥٢١ هـ [2] .

(١) صبح الأعشى ٥ — ٤٨٩ .
(٢) تجريد الوافى ٥٢١ ، رفع شان الحبشان ١٣٨

١٧ ـ أبو الحسين أحمد الرشيد

هو أبو الحسين أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير الغسانى الأسود ، وينعت بالرشيد (١) . وهو من أسرة أسوانية اشتهرت بالعلم والشعر(٢) وقد عاش فى أسوان فى مطالع عمره وتلقى الكثير من العلوم هناك ، ثم طمحت نفسه فحضر إلى مصر بعد مقتل « الظافر » وجلوس الفائز ، ويبدو أنه عاش حياة قاسية فى أسوان ، ذلك لأنه قيل انه حضر إلى مصر وعليه أطمار رثةوطيلسان صوف ، فلما أنشد الشعراء مراثيهم فى « الظافر » قام وقال قصيدته التى أولها :

ما للرياض تميل سكـــرا   هـــل سقيت بالمزن خمرا
جـــارى الملوك إلى العـــلا   لكنهم ناموا واسرى . .
سائل بـــه عصب النفـــا   ق غـــداة كان الأمر أمرا
أيام أضحى النكـــر معـــروفا   وأمسى العـــرف نكـــرا
. . قسما بمن طاف الحجيج ببيتـــه شعثاً وغـــبرا . :
لـــولا طلائـــع لم نكـــن   نرجـــو لميت الدين نشرا

---

(١) الطالع السعيد ٩٨ ، الأدب العربى فى مصر .محمود مصطفى ٢٣٠ . وهناك اختلافات أخرى .

(٢) خريدة القصر ٢٠٠ .

وحين وصل إلى قوله :

أفكربلاء بالعراق وكربلاء بمصر أخرى

ذرفت العيون ، وعج القصر بالبكاء والعويل ، وانهالت عليه العطايا من كل جانب ، ويقال : إنه عاد إلى منزله بمال وافر حصل عليه من الأمراء والخدم وحظايا القصر ، كما حملت إليه من قبل الوزير « جملة من المال » وقيل له ، لولا العزاء والمأتم لجاءتك الخلع [1] .

وقد بز جميع من حواه فقد قيل عنه : « وكان أسود الجلدة وسيد البلدة أوحد عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعية والآداب الشعريات » [2] كما قيل عنه : « كان ذا علم غزير وفضل كبير ، شاعر ، وله رسالة أودعها من كل علم مشكله ومن كل فن أفضله ، وكان عالماً بالهندسة والمنطق وعلوم الأوائل » [3] .

ولقد كان طموحاً على نحو مانرى من قوله :

جلت لدى الرزايا بل جلت هممى وهل يغير جلاء الصارم الذكر
غيرى يغيره عن حسن شيمته .. صرف الزمان وما يأتى من الغير
لو كانت الناس للياقوت محرقة لكان يشتبه الياقوت بالحجر
لا تغررن بأطمارى وقيمتها فانما هى أصداف على درر ..
ولا تظن خفاء النجم من صغر
فالذنب فى ذاك محمول على البصر [4]

---

(١) ابن خلكان ١ — ١٤٦ وما بعدها ، معجم الأدباء ٤ — ٥٧ ، ٥٨ ، خريدة القصر ٢٠٢ .

(٢) وفيات الأعيان ١ — ٥١ .

(٣) الطالع السعيد ٩٨ والرسالة التى يشير إليها هى«امنية الألمعى ومنية المدعى» وهناك عدة تحريفات فى هذا الإسم .

(٤) ابن خلكان ١ — ١٤٤ والبيت الأخير منظور فيه إلى قول أبى العلاء : والنجم تستصغر الأبصار رؤيته ... إلخ .

ويبدو أن الذى مهد له الطرق أمام المسئولين فى مصر خاله الموفق بن الخلال كبير كتاب ديوان الإنشاء الفاطمى (١) .

ثم إنه بعد فترة أنفذه الخليفة الحافظ إلى اليمن داعياً له عام ٥٣٩ هـ وقد وجد هناك فراغاً سياسياً وعقلياً فتقلد القضاء والأحكام « قاضى قضاة اليمن وداعى دعاة الزمن » ويبدو أنه وجد هناك ترحيباً كبيراً، فقد مدح جماعة « من الملوك » هناك وكان ممن مدحه منهم على بن حاتم الهمدانى ، فقال فيه :

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطت

فلست أنال القحط فى أرض القحطان

ومذ كفلت لى مآرب بمـــآربى فلست على أسوان يوما بأسوان

وإن جهلت حقى زعـــانف خندق

فقد عرفت فضلى غضارف همدان (٢)

وبعد أن استوثق من الذين حوله « سمت نفسه إلى رتبة الخلافة ، فسعى فيها وأجابه قوم وسلم عليه بها ، وضربت له السكة (٣) وكان نقش السكة على الوجه الأول « قل هو الله أحد الله الصمد » ، وعلى الوجه الآخر . « الإمام الأمجد أبو الحسين أحمد (٤) »

... وهكذا يكون هو وابن شكلة الشاعرين الأسودين اللذين وصلا إلى مرتبة الخلافة والامامة ، واللذين لم يسمح لهما بالبقاء على هاتين القمتين كثيراً .

ذلك لأن الأخبار سرعان ما تواترت إلى صاحب مصر وكان فى

---

(١) خريدة القصر ٢٠٠ .

(٢) وفيات الأعيان ١ — ٥٢ .

(٣) حديده منقوشة تضرب عليها الدراهم .

(٤) معجم الأدباء ٤ — ٥٥ ، ٥٦ ، وفيات الأعيان ١ — ٥٢ .

مقدمة الذين حسدوه الداعي في عدن[1] ومن ثم تصدر الأوامر في مصر بالقبض عليه وبعد القبض عليه يرسل « مكبلا » إلى مدينة قوص بمصر وحكى من حضر دخوله إليها أنه رأى رجلا ينادي بين يديه : هذا عدو السلطان، أحمد بن الزبير وهو مغطى الوجه حتى وصل إلى دار الإمارة والأمير بها يومئذ « طرخان سليط » وكان بينهما ذحول قديمة ، فقال : احبسوه في المطبخ الذي كان يتولاه قديماً وكان ابن الزبير قد تولى المطبخ فقال بعض الحاضرين لطرخان :

ينبغي أن تحسن إلى الرجل فان أخاه ، يعنى المهذب بن الزبير ، قريب من قلب الصالح ، ولا أستبعد أن يستعطفه عليه ، فتقع في خجل قال : فلم يمض على ذلك غير ليلة أو ليلتين حتى ورد ساع من الصالح بن رزيك إلى طرخان بكتاب يأمر فيه بإطلاقه والإحسان إليه ، فأحضره طرخان من سجنه مكرماً قال الحاكي :

فلقد رأيته وهو يزاحمه في [illegible] ومجلسه [2] .

وقد عاش آمناً فترة ، ولكنه ولى نظر الدواوين بالاسكندرية ، ويقال : إن هذا كان « بغير اختياره » .

ومع هذا فقد أرضى الناس وخاصة الفقهاء [3] .

ثم كان اشتغاله بالسياسة مرة ثانية ذلك أن « شيركوه حين حاول اقتحام مصر كاتبه فانضم إليه ، وقد أسرع الوزير شاور بضرب هذا الاتجاه المناوئ له وكان أن تعقب « أبو الحسين أحمد » فاختفى منه في الاسكندرية » واتفق التجاء الملك صلاح الدين يوسف بن يعقوب إلى الإسكندرية ومحاصرتها ، فخرج ابن الزبير راكباً متقلداً سيفاً وقاتل بين يديه ولم يزل معه مدة مقامه بالإسكندرية ، إلى أن خرج منها وتزايد وجد « شاور » عليه واشتد طلبه له واتفق أن ظفر به على صفة لم تتحقق لنا

---

(١) وفيات الأعيان ١ — ٢ .
(٢) معجم الأدباء ٤ — ٥٦ .
(٣) الطالع السعيد ١٠٠ .

فأمر بإشهاره على جمل ، وعلى رأسه طرطور ، ووراءه جلواز [1] ينال منه وقيل إنه سمع وهو على هذا الحال ينشد :

إن كان عندك يازمان بقيـــة مما تهين بها الكـرام فهاتها

ثم جعل يهمهم بآيات من القرآن وأمر به بعد إشهاره بمصر - يريد مدينة الفسطاط وهو يصلب شنقاً فلما وصل إلى الشناقة ، جعل يقول للمتولى ذلك منه :

عجل عجل فلا رغبة للكريم فى الحياة بعد هذه الحياة ...ثم صلب [2]

وقيل إنه دفن فى مكان صلبه ، ثم قتل « شاور » وسحب ليدفن فى حفرة وجد بها الرشيد مدفوناً فدفنا معاً . فى موضع واحد ثم نقل كل منهما بعد ذلك إلى تربة بقرافة مصر القاهرة [3] .

وكل الذين كتبوا عنه ذكروا علمه وفضله وتفوقه فى عصره وقد قال المنذرى عنه : كانت فى نفسه عظمة والذى يبدو أنه كان طامحاً فى الملك وراغباً فى أن يكون قمة عصره سياسياً كما كان قمته علما وأدباً ، فقد روى أنه قال حين أمر شاور بتعذيبه : « الهوان والعذاب من الملوك فى طلب الملك ليس بعار » .

وهكذا نعتقد أن انضمامه إلى شيركوه وإلى الملك صلاح الدين بن يوسف وقتاله بين يديه لم يكن أمراً عشوائياً وإنما كان رغبة فى أن يتولى على الأقل مكان « شاور » .

ومما يدل على هذا قول أبى عبد الله محمد بن شاكر الحموى فى مشيخته : كان الرشيد عالى الهمة ، سامى القدر عزيز النفس ، يترفع على الملوك ، ويرقى بنفسه عنهم [4] .

---

(١) شرطى .
(٢) كان هذا فى شهر المحرم عام ٥٦٣ ﻫ .
(٣) معجم الأدباء ٤ — ٦٠ — ٦٢ .
(٤) الطالع السعيد ١٠١ .

ويبدو أن محنته الحقيقية كانت فى إدراكه قيمته الحقيقية فى عصره ومعرفته خواء الحاكمين وأصحاب السلطان الحقيقى فى مصر واليمن ثم إنه فى الوقت نفسه هان على بعض الناس لسواده ودمامته .

فقد جاء فى « بغية الوعاة » أنه كان قبيح المنظر أسود ، وقد مر بشابة صبيحة الوجه ، فنظرت إليه نظر مطمع ، وأومأت إليه بطرفها ، فتبعها ، فدخلت دارا ، وأشارت إليه ، فدخل فنادت طفلة كأنها « فلقة قمر » وقالت لها : إن رجعت تبولين فى الفراش تركت سيدنا القاضى يأكلك ، ثم التفتت إليه وقالت : لاأعدمنى الله فضل سيدنا القاضى ، أدام الله عزه ، فخرج خجلا (١) .

وقال فيه الشريف الأخفش — والأبيات موجهة أصلا إلى الصالح ابن رزيك وقد كان أبو الحسين أحمد تولى المطبخ :

يولى على الشىء أشكاله فيصبح هذا لهذا أخا
أقام على المطبخ ابن الزبير فولى على المطبخ المطبخا (٢)

. . وقال فيه أبو الفتح محمود بن قادوس :

يا شبه لقمان بلا حكمة وخاسرا فى العلم لا راسخا
سلخت أشعار الورى كلها فصرت تدعى الأسود السالخا (٣)

. . وقال ابن أبى المنصور فى كتاب « البداية » : كان قد اجتمعت فيه صفات وخلائق تعين على هجائه منها أنه كان أسود ، ويدعى الذكاء ، وأن خاطره نار ، فقال فيه ابن قادوس :

إن قلت من نار خلقت ، وفقت كل الناس فهما . .
قلنا صدقت فى الذى أطفاك حتى صرت فحما

---

(١) بغية الدعاة ١ — ٣٢٧ ، ابن خلكان ١ — ٥٩ .
(٢) معجم الأدباء ١ — ٥٦ .
(٣) ابن خلكان ١ — ١٤٦ .

والسبب فى هذا كما ذكر ياقوت : أنه اجتمع عند الصالح رزيك مع بعض النابهين ، فألقى الصالح مسألة فى اللغة ، فما أجاب بالصواب إلا الرشيد ، فحين أعجب به الصالح قال : ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتنى أتوق فيها . فقال ابن قادوس — وكان ممن حضروا هـذا المجلس — هذين البيتين (١)

. . وقيل إنه لما توجه إلى اليمن ، داعياً للخليفة الحافظ ، فى شهر ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وخمسمائة تلقب بعلم المهتدين ، فقال فيه بعض شعراء اليمن من قصيدة بعث بها إلى صاحب مصر .

بعثت لنا علم المهتدين ولكنـه علم أسود (٢)

. . ونحن نرى هنا أن السواد لم يشغل هذا الشاعر ، فقد أعد نفسه ليكون جوهرة عصره ، ولكن منافسيه هم الذين كانوا يشاغلونه بالسواد وهو بدوره لم يدافع عن نفسه — من واقع سواده — فهو معترف به ، وإن كانت المرارة والضيق بالناس وبالحياة تنضح على شـعره فهو يقول :

إذا ما نبت بالحر دار يودهـا ولم يرتحل عنها فليس بذى حزم
وهب به صبا ، ألم يـدر أنه سيزعجه منها الحمام على الرغم
(و) ولمـا تناءت أرضنا وديارنا وخان زمان ناقض العهد غدار
كفـانا معـالى كل أمر أهمنا وحكمنا فيما نحب ونختار
(و) لئن خاب ظنى فى رجائك بعد ما
ظننت بأنى قـد ظفـرت بمنصـف
فـانك قـد قلدتنى كل منة
ملكت بها شكرى لدى كـل موقف

---

(١) المعجم ٤ — ٦٠ ، الطالع ٢السعيد ١٠٢ .
(٢) وفيات الأعيان ١ — ٥٢ ، الطالع السعيد ٩٩ ، خريد القصر ٢٠٢

لأنك قد حذرتنى كل صاحب

وأعلمتنى أن ليس فى الأرض من يفى

(و) لكل امرئ شيطان جن يكيده

بسوء ولى دون الورى ألف شيطان

وهو فى إطار عصره يعتبر من المتقدمين فى الشعر ، فهو نقى العبارة متمكن من الأداة ، يتناول الأشياء من قريب ، وقد تختلط بما يقول علوم عصره واهتماماته فيقول :

ونرى المجرة والنجوم كأنما تسقى الرياض بجدول ملآن

لو لم تكن نهرا لما عامت بها أبدا نجوم الحوت والسرطان

وقد تتخلخل منه الجملة الشعرية، ولكنه يصل إلى معنى جيد كقوله :

ومالى إلى ماء سوى النيل غلة ولو أنه استغفر الله زمزم

(و) سحقاً لدنيانا بما بخلت به علينا، ولم تحفل بجل أمورها

فيا ليلة لما حرمنا سرورها وقينا أذى آفاتها وشرورها

(و) فإن التدانى ربما أحدث القلا وان التنائى ربما زاد فى الود

فإنى رأيت السهم ما زاد بعده

عن القوس إلا زيد فى الشكر والحمد

ولن يستفيد البدر أكمل نوره

من الشمس إلا وهو فى غاية البعد (١)

وهكذا نرى علم الرجل وفضله وأدبه، وكونه لا يسأل فى مسألة إلا ويتوقد فيها لا يقف معه فى كثير من الأحيان، بسبب لونه ، ولنتأمل تركيب هذه العبارة التى كتبت عنه فى وفيات الأعيان ليتأكد ما نقول، فهذه العبارة تقول « وكان على جلالته وفضله ومنزلته فى العلم والنسب

---

(١) ١ — ١٤٦ وما بعدها .

قبيح المنظر أسود الجلدة جهم الوجه ، سمج الخلقة ذا شفة غليظة ، وأنف مبسوط كخلقة الزنوج ، قصيراً » ألا ترى هنا أن المؤلف يهتم بأن يمسك الرجل من عاهته بل إنه لم يهتم بالوقوف عند وسامة الرجل العقلية قدر اهتمامه بدمامته الجسمية ، بل إنه تحدث عنه كأنه يرفع سوطاً فوقه !

ولقد صاحبت الشاعر العالم المحنة بعد موته ، فقد ألف أربعة كتب ثلاثة منها معدومة وهى (١) :

١ – جنان الجنان وروضة الأذهان فى أربعة مجلدات :

٢ – المقامات وهى خمسون ورقة على نسق مقامات الحريرى .

٣ – ديوان شعر نحو مائة ورقة .

أما الكتاب الرابع فهو « أمنية الألمعى ومنية المدعى » وقد جاء عنه فى كشف الظنون « وهى المقامة الحصيبية ، رمى بها غرض الفكاهة وأملاها بلسان الدعابة على من استوجب الانبساط إليه ، وذكر فيها علوماً جمة ، ثم شرح مافيها من ألفاظ لغوية ، ومسائل علمية ، فصار نزهة للناظرين (٢) » .

. . وهكذا تم عقاب هذا الرجل حياً وميتاً !

---

(١) الأدب العربى فى مصر ٢٣١ ، الأعلام للزركلى .

(٢) ١ – ١٦٩ .

١٨ ـ أبو محمد بن الياسمين

هو أبو محمد بن الياسمين عبد الله بن حجاج الأشبيلى ، نسب إلى أمه السوداء « وكان هو أيضاً أسود » (١) .

وقد تعلم فى أشبيلية ، وكان أول شئ تعلق به من فنون العلم هو الفقه وتهيئة الوثائق وإعدادها ، وقد ظل متعلقاً بهذا الفن الأخير حتى صار واحداً من أعلام العارفين « بالتوثيق » فى عصره

ثم اشتغل بفنون الأدب ، وبرع فى الشعر ، حتى أصبح واحدا من أعلام الأدباء والكتاب فى عصره .

وقد أقام فترة فى مراكش ، وتوثقت الصلة بينه وبين المنصور ، فقد كان يتحدث فيحسن الحديث ، وكان يحب المرح والمطايبة ، وكان يمزح فلا يقف عند حد ، وقد مدح المنصور حين منع الاشتغال بكتب الفروع ورأى الثبات على ماتأكد من الأحاديث النبوية ، فقال فيه :

أسيدنا قد وردتم بنا موارد كنا عليها نحوم
نبذتم مقالة هذا وذا فزال المراء ، وقل الخصوم
وأثبتم قول من لفظه . . هو الشرع والحق فيه يقوم
فلا زلتم لكمال الهدى واحياء دارس در العلوم

(١) الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ٤٢

وكما اتصل بالخليفة المنصور اتصل بالناصر وقال فيه :

عجبت لمن يراه وبعد هذا … يحاول أن يرى ملكا سواكا
وقد جمع الإله لديك ما قد … تفرق فى البرية من حلاكا
وما أحد يوم ذراك يوما … فيختار الترحل عن ذراكا
فسبحان الذى أعطاك ملكا … على مقدار ما أعلى علاكا

.. وقيل إنه حين كان فى مراكش كان يخرج إلى بعض الرياض وفى إحدى المرات استحث على أن يقول شيئاً فى إحدى هذه الرياض . مع من كان معه من أهل الشعر والأدب . وقد قال كل منهم « على ما أعطاه فكره ووقته [1] » فلم يحفظ من كل ذلك إلا قول ابن الياسمين :

جاء الربيع وهذى … أولى البشائر منه
كأنما هو ثغر … قد جاء يضحك عنه
زهر لنارنج دوح … انظر إليه ، وصفه
أليس حياك عرف … الذى جفا من لدنه

وقد كان هناك من يستقبح صورته مثل عالم فاس أبى الحجاج ابن النمرى فقد قال فيه شعراً استقبح فيه صورته ، واستحسن كلامه :

أيها اللابس لون الليل ثوبا … حين أظلم
والذى يضمر داء ، منه يوماً ما تألم
أنت من أقبح خلق الله .. : مالم تتكلم
بشذور باهرات : ساحرات لو تجسم
أصبحت فى كل جيد حسن .. عقدا منظم

---

(١) المصدر نفسه ٤٨ .

وحين بلغ ابن الياسمين هذا الشعر رد قائلا :

أيها الفاسى أتى ريحك قبل النجو يفعم
فى قريض حسن الصورة . . بالهجو مجذم
فقبلناه وقد جاء لنا بالمدح معلم
ثم قلنا .. بمزاح منك قولا ليس يعدم ..
انما الشأن فقيه عالم ليس يعلم
لاتراه الدهر إلا بغريم الكأس مغرم
يرفض النفل مع الفرض أو أن الزير والبم[1]
وإذا صلى رياء كان فيها مثل أبكم
فى ثياب كربيع قد سرى فيها المحرم
ذا جوابى .. وهو ظلم لك .. والبادىء أظلم

وقد قال فى هذا أبو السيد الشقندى « هذان الشعران بمنزلة الشعريين وكلاهما عين فى مقابلة عين، وقد أوردتها فى كتاب كنوز المعانى لأنها مما ظفرت من الأمانى »[2] .

ويبدو أنه كان يحيا حياة طليقة عابثة ، وأنه كان لايفارق مجالس المغنين ، وكان فى الوقت نفسه « مأبوناً » فهناك حكايته مع أحد الأطباء الذى ذكر له ثلاثة أمراض به عد منها اثنين ثم لما سأله عن الثالث قال :

« بلغنى عن ألسن الناس ، ولو كانت علة لشكوت بها »

فما كان من ابن الياسمين إلا أن ضحك .

---

(١) الزير من الأوتار الدقيقة ، والبم : الوتر الغايظ .
(٢) النصون ٥٠ .

ولما كان يقرب منه إنساناً أسود ، قيل له : هلا اخترت لخادمتك ، والقرب من مناولتك ومشافهتك أبيض اللون فقال .

يعيبون حبي للسواد جهالة — وما علموا مافيه لي من مآرب
أهين لقصدى ربه وهو خادم — إذا ما علا فوق بمجداف قارب
ويلقى ضحوك السن — لله دره — حمولا لما حملته غير لاغب
وفيه خصال جمة غير هذه — أحق الورى طرا بخدمة كاتب
فيا معشر الكتاب أوصيكم به — وصية من يعنى بحاجة صاحب

وقال أبو عمران « وربما كان يصرح فى بعض خلواته لمن يأخذ معه فى ذلك الشأن إذا دارت كأس المدام . وارتفع حجاب الحياء عن الكلام فيقول :

ينبغي لأرباب هذه الصناعة ألا يعدلوا عن الأمرد . . . الخ (١)

ومن أشعاره التى تروى فى هذا الباب قوله فى « صبيح مليح » حضر للقراءة عليه ، بعد أن حام على قربه زماناً ولم يستطع :

لله ذاك المليح لما — أتى بأسفاره إلينا
كم قد غدا حائما إلى أن — أوقعه البخت فى يدينا
فظن جهلا أنا عليه — وما درى أنه علينا

وروى أنه كان فى جامع أشبيلية فمر به صبي فى نهاية الحسن فأنشده بحيث يسمع :

ما ضر من سار وما سلما — لو أنه من لحظه سلما

فلما أظهر الصبي الوسيم النفار من ذلك قال له : لاتخف ، إنك أنت

---

(١) ثم يذكر كلاما بذيئاً (النصوص ٥٤)

الأعلى . ففطن لمراده وقال : لست ممن يركب بأجرة ولاسخرة ، فلم يحر جوابا . .

وقد كان هناك من عيره بذلك مثل أحمد بن عبد السلام الكوارثى فقد قال فيه :

أست الحبارى وراس النسر بينهما .. لون الغراب ، وأنفاس من الجعل
خذهـــا إليك بحكم الوزن أربعة كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

وكان أن رد عليه ابن الياسمين بقوله :

يا أعرق الناس فى نسل اليهود ومن تأبى شمائله التفصيل للجمل ،
خذهـــا بحكم اجتماع الذم واحدة تغنى عن النعت والتوكيد والبدل

. . والظاهر أنه استمر فى عبثه ، وفى مصادمته لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان الكريم على نفسه ، وقد كان من نتيجة هذا أن وضعت له نهاية تتفق مع عبثه الشاذ ، فقد وجد مذبوحاً فى غرفة ، وقيل « انه وجد فى تلك الغرفة على وجهه ووتد فى دبره » . .

وقد ألقيت رقعة بموته لدى الكاتب أبو الحسن بن عباس وقد وجد فى هذه الرقعة - بعد أن ترك لعبة الشطرنج [١] مع أبى عمران الطريانى ..

هـــذا ابن حجـــاج تفـــاقم أمره وجرى وجر لحد غايته الرسن
حتى غـــدا ملقى ذبيحـــا حـــاكيا للناس رقدته إذا هجر الوسن ..
فليجـــز لنا الكتاب ما قـــد غـــاله وأخص بينهم الفقيد أبا الحسن

وحين انتهى من قراءتها قال : من ترى قائل هذه الأبيات لعنه الله ؟ فقال أبو عمران الطريانى : ياسبحان الله ، وهل صاحبها غير الكورائى الذى طبعه الله على ألا يضيع فرصة من فرص الأذاة » .

ثم قال أبو عمران الطرياني : ثم اشتهر بعد ذلك قول الكوراني في تلك القضية معرضاً بالكاتب أبي الحسن بن عباس والذي كان مقدماً في عصره —

فليحــزن الكتاب ماقــد غاله   وأخص من بين الجميع فــلانا

« فحصل التحقيق بأنه قائل ماتقــدم [1] » وكان موته في عام ٦٠١ هـ .

(١) النصوص ٤٤ ، ٤٥ .

١٩ ـ ابراهيم الكانمى

هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد الذكوانى الكانمى ، وقد ولد فى قرية تسمى « بلمة » من قرى دولة كانم التى تقع فى منطقة المراعى بين النيل والنيجر ، وتقع تماماً فى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد وأطلق عليها بحق « دولة مفترق الطرق العظيم لأفريقية الاستوائية » (١)

وقد تلقى تعليمه الأول فى كانم ، ثم قدم على المغرب قبل الستمائة ـ وسكن مراكش « واقربها الآداب.. وكان لونه غربيبا وأمره غريباً »(٢)

ومع أنه دخل الأندلس وتوفى سنة ثمان ـ أو تسع وستمائة إلا أن حياته واتصالاته يخيم عليها الظلام سوى مايعرف عن صلته بأبى زيد الفازارى الذى روى عنه هذين البيتين بعد أن زاره الشاعر فى بيته . والبيتان هما :

أفى الموت شك ياأخى وهو برهان   وفيم هجوع الخلق والموت يقظان

اتسلو سلو الطير تلقط حبهـا .

وفى الأرض أشراك وفى الجو عقبان

ويبدو أنه كان لايقبل على الهجاء . . .

---

(١) دولة إسلاميه فى أفريقيه د . عبده بدوى ٤٠

(٢) المقتضب لابن الآبار تحقيق الابيارى ١٠٩

ومن هذا قوله :

كم سائل لم لا تهجو فقلت له لأنني لا أرى من خاف من هاجي
لا يكسره الذم إلا كل ذي أنف وليس لؤم لئام الخلق منهاجي

وله وجهة نظر فى الألوان يقول فيها :

لا تشهدن لغربيب [1] ولا يقق حتى تشاهد فضلا غير مردود ..
بكل لون ينال الحر سؤدده مهما تجرد من أخلاقه السود
والناس لفظ كلفظ العود مشترك لكن يرجح بين العود والعود
أما ترى المسك حق العاج يخبؤه والجص مطروح فوق القراميد
ولم يبال ابن عمران بأدمته حين اصطفاها كلها غير معبود [2]

والشاعر مع قلة مانعرف عنه يحس أن أزمة اللون كانت تؤرقه ونحس أنه يجتهد فى تسويغها شعرياً حين يقول : إن المسك مخبوء فى حق العاج والجص مطروح فوق القراميد .

ونحن نلاحظ أن عبارة الشاعر غير محكمة ، وأنه مفتعل فى بعض الأبيات التى أوردناها . وإن كان موفقاً كل التوفيق فى البيتين اللذين ساقهما عن الموت . . .

. . ومن هذه الأبيات القليلة التى وردت له نحس أنه عاش « بمعاني » من الحياة ويقدم أكثر من مسوغ ليتمكن من مواصلة الرحلة كالطير المسكين والمحاصر بين الشرك فى الأرض وبين الطير الجارح فى الجو .

---

(١) الغربيب : الشديد السواد .

(٢) المقتضب ١١٠ ويريد بابن عمران موسى عليه السلام .

خصائصهم الشعرية

١ ـ موضوعاته

من الطبيعى أن الموضوعات التى يتعرض لها الشاعر الأسود ، تختلف وجوداً وعدماً ، وقوة وضعفاً عن الموضوعات التى يتعرض لها الشاعر غير الأسود ، ذلك لأن ظروف الحياة من حوله ، وطبيعة وجوده فى عالم لاينتمى له تماماً ، بالإضافة إلى مواريثه الخاصة به ، وإلى طريقة تصوره للأشياء .. كل هذا وغيره يجعل لرحلته الشعرية فى إطار الشعر العربى مساراً خاصاً ، كما يجعل له نكهة خاصة به . . . وعذاباً خاصاً به .

وعلى كل فالموضوعات التى تقابلنا فى شعره ، والتى تدل عليه بصدق هى الموضوعات الآتيــة مع ملاحظة أننا نعتمد فى التقسيم على ابــادة الشعرية فقط لا على الدوائر التى حصر فيها الشعر من مدح وهجاء ورغبة ورهبة .

(أ) عقدة اللون :

فى ضوء ما ذكرنا ـ من قبل ـ عن مكانة السود بين العرب فى الجاهلية والإسلام بصفة خاصة ، وفى ضوء ما ذكرنا عن السود بصفة عامة ، نستطيع القول بأن الإحساس باللون كان حاداً عند الشعراء السود قبل الإسلام ، ذلك لأنهم كانوا طبقة مهانة ومطحونة ، ولأنهم كانوا يذادون بالعنف مرة ، وباللين مرة أخرى عن أن يكونوا داخل نسيج

المجتمع الحى ، وهكذا عاشوا على هامش هذا المجتمع طبقة فقيرة مهانة ، وملموغة فى الوقت نفسه بالسواد .

فهم لا يُعترف بهم إلا تحت ضغط ثقيل على نحو ما نعرف من حياة عنترة ، ومع أن هذا الشاعر كان حامى قبيلته ، وكان صوتها الشعرى الرائع ، إلا أن النظرة إليه - حتى من قبيلته - ظلت تعذبه ، وترهق نفسه ، فقد ظلت كلمة « ابن السوداء » تلاحقه حتى وهو عائد من الحرب بالانتصار ، وهو من جراء هذا نراه يتحدث بمرارة ، وبكثير من الضيق ، وبخاصة حين يذكر أنه ينادى فى السلم بابن زبيبة ؛ وينادى فى الحرب بابن الأطايب ؛ وهذا الإحساس بالمرارة نراه قد امتد عميقاً حتى وهو يتكلم عن أمه وحتى وهو يتكلم عن امرأة أبيه التى اتهم بها . . حتى وهو يتكلم عن عبلة .

ومع أن نبرة الضيق قد هدأت عند الشعراء المخضرمين ؛ نتيجة لأن الإسلام قد رفع من معنويات الإنسان الأسود ، إلا أن الإحساس باللون لم يختلف تماماً .. فالشعراء كانوا يرون أنفسهم ، وكانوا يرون أهلهم يهانون ، ومع أن الإهانة كانت تختلف من عصر إلى عصر ، ومن شاعر إلى شاعر ، إلا أن الشاعر الأسود كان لا يملك إلا أن يكون صوت احتجاج على الحياة من حوله . وعلى مأساته نفسها ، وقد مر بنا هذا الضيق الذى أحسه السليك ابن السلكة وهو يرى خالاته يقمن بعملية الحلب ، إلى حد القول بأن هذا « شيب رأسه » كما مر بنا ، كذلك هذا العذاب الذى عاناه سحيم وهو يرى انصراف النسوة عنه لسواده .

فلو كنت وردا لــونه لعشقننى   ولكن ربى شاننى بسواديــا
فما ضرنى أن كــانت أمى وليــدة   تصر وتبرى باللقاح التواديا

وقد رأينا حزن « نصيب الأكبر » وهو يرى بناته اللاتى نفض عليهن سواده من حوله ، يطمع فيهن الرجال السود فلا يرضى ، ويريد لهن غير السود فلا يستطيع .. وإلى جانب هذا رأينا عبث المجتمع بسواد الكثير

من الشعراء على حد ما عرفناه من أبي العطاء السندي ، وابن شكلة ، وأحمد الرشيد وآخرين . ولقد كان السواد من عوامل أخرى ، وراء إباق عدد منهم وتصعلكه إلى حد رفع السلاح فى وجه المجتمع الذى يعيشون فيه، وبعبارة أدق الذى يعيشون على حافته بالسليك بن السلكة .

وإذا كان إحساسهم بالسواد فى العصر الجاهلى قد أخذ طابع « الندب » على حظوظهم التعسة ، وإذا كان هذا الإحساس قد هـــدأت نبرته عند المخضرمين .. فانا نراهم بعد ذلك يتفجـــرون فى وجه الذين يتعرضون لسوادهم ، على نحو مامر بنا من شعر الشعراء الثلاثة الغاضبين ، وهم : الحيقطان ، وسنيح ، وعكيم . فهؤلاء لم يكتفوا بالدفاع عن أنفسهم ، ولكننا نراهم يفخرون بهذا السواد ويفخرون بتاريخ السود ، وبالبلاد التى قدموا منها ، ثم يطعنون العرب فى كثير مما يفخرون به ، وهكذا كانوا -- كما سبق أن قررنا -- من رواد الشعوبية والسابقين إليها .

وبمرور الزمن ، وبسماح المجتمع لكثير منهم بأن يكون وجهاً من وجوهه نراهم إلى حد ما يتخلصون من عقدة اللون هذه على نحو ماعرفنا من حياة أبي دلامة وشعره ، وقد يتفكه الشاعر بلونه على نحو ما عرفنا من محمد إمام العبد ، وفى العصر الأخير رأينا هذا الأمر شكلا آخر حين رأينا أن قضية الإنسان الأسود بعامة يلقى عذابها على كاهل الاستعمار على نحو مانرى عند الفيتورى ، وجيلى ، وتاج السر .

ونحن لايفوتنا هنا أن نذكر أن بعض الشعراء السود لم يتعرض لمشكلة اللون ، أو تعرض لنوع قليل من العذاب الذى يتعرض له الشاعر الأسود عادة ، ووراء هذا أن الشاعر الأسود لم يكن يحب أن يفتح على نفسه هذا الباب ، ووراءه كذلك نوع من الصلح مع مجتمعه ، بالإضافة إلى ماسبق أن ركزنا عليه وهو أن الكثير من شعرهم قد ضاع لعدم الاهتمام بهم ، ولعدم وجود « عصبية عربية » لهم ، ثم إن المجتمع من حولهم كان يؤمن بما يسمى « الأرومة الشعرية »

فإذا وصلنا إلى النقاد العرب وجدنا أنهم لم يهتموا بهؤلاء الشعراء لأنهم من جانب لم يركزوا على الشعراء المقلين ، ومن جانب آخر لأن مقاييسهم النقدية في عمومها كانت فنية خالصة ، فهم قد ركزوا على الشكل أكثر مما ركزوا على المضمون ... ومن الطبيعي أن الشعراء السود لم يهتموا في الغالب بالجماليات قدر اهتمامهم بقضاياهم الخاصة في مجتمع يبتعد أو يقرب منهم ، ولكنه في كلتا الحالتين لا يسويهم تماماً بغيرهم من الناس .

ومهما يكن من شئ فقد كانت عقدة اللون هذه إلى حد ما وراء التحول في القصيدة العربية من ضمير الجمع إلى ضمير المفرد ، وكانت وراء اقتراب الشاعر من ذاته بعد أن كانت القبيلة هي ذاته ، وكانت وراء توتر السائد في القصيدة العربية ، ووراء سقوط أو إضعاف الكثير من أشكالها التقليدية بالإضافة إلى أنهم كانوا قريبين من الروح الشعبية للأمة العربية ، إلى أنهم أوجاوا دائماً ثقلا مادياً في القصيدة العربية .

لقد أعطتهم عقدة اللون طابع النضال . وكانوا في الوقت نفسه يعكسون الأوضاع المفروضة عليهم من مجتمعهم . ثم تجاوزوا مرحلة الانعكاس هذه إلى مرحلة التأثير في المجتمع على نحو ما رأينا في عدد من الانفجارات التي قاموا بها ، وبخاصة مايعرف بثورة الزنج .

ونحن لا ننسى أنهم في كثير من الأحيان كانوا ضد « التعبير عن المجتمع » ، ذلك لأنهم كانوا يحسون أن النظام من حولهم ؛ وأن شكل الحضارة الذى يعيشون داخله كان يتناقض أو يقهر الكثير من دوافعهم ؛ ورغبتهم في التأثير والتأثر في الحياة من حولهم .

ثم إنهم بعد ذلك ربطوا بين قضيتهم ، وبين الواقع الكبير الذى لا يربطهم بمجتمعهم فقط ، ولكن بالصراع الدائم في العالم كله .

ونحن لا ننسى أن هناك من ذهب إلى أن الشعراء الأغربة لم يعبروا عن هذه الظاهرة ، لأنهم كانوا يجدون غضاضة في الحديث عنها ،

ولكن أثبتنا من خلال شعرهم، ومن خلال حياتهم أنهم عبروا عن هذه الظاهرة ، صحيح إن ماعثرنا عليه ليس غزيراً ولكن السبب وراء ذلك يرجع ، كما ذكرنا ، إلى عدم الاهتمام بشعر المقلين ، وبشعر السود بصفة خاصة، وإلى أنه لم تكن لهم فى الغالب عصبيات تدافع عنهم وعن شعرهم ، وبخاصة فى الفترات التى كان يقال فيها « بالأرومة » .

ومن خلال هذا كله رأيناهم فى مسيرتهم يبدون كأنهم كتيبة من «العصاة» ورأيناهم فى الوقت نفسه يحاولون خلق انسجام بين زفراتهم وبين إيقاع الحياة حولهم، ولكنهم فى جملتهم لم يجدوا هذه الطمأنينة التى بحثوا عنها فى ضراوة ذلك لأن كل ماحصلوا عليه كان لايخلو فى الواقع من رائحة الخطر ومن خلال حياة كل شاعر مر بنا نستطيع أن نحس أن لونه فى الغالب كان يطارده عن أشياء كثيرة كانت من حق إنسانيته . فعقدة اللون كانت وراء عنترة وهو يتعذب ، ووراء السليك وهو يصادم مجتمعه ووراء سقوط رجلين وصلا إلى قمة الخلافة والإمامة وهما ابن شكلة وأحمد الرشيد بل وراء كل احباط وقع فيه الشاعر الأسود ... وكلهم عانى من هذا ، وان كانت هذه المعاناة قد اختلفت من شاعر إلى آخر ، ومن عصر إلى عصر (١)

(ب) الفقر :

لقد اشتكى كثير من الشراء السود الفقر ، فقد عاش كثير منهم فقيراً طوال حياته ، أو فى صدر حياته فقط ، ومن هنا نجد أن الدنيا حين تقبل عليهم فى آخر حياتهم لا تختفى من حياتهم تلك المرارة التى ذاقوها من قبل ، فشبح الفقر يظل مسيطراً دائماً حتى على حياتهم التى تزدهر أخيراً « فالفاكة يلزمها القهر والإكراه ، ومتى استولى القهر والغلبة على شخص حدثت فيه أخلاق رديئة من الكذب والتخبيب وفساد

---

(١) لم يصل الحال: إلى مثل مانرى فى الشعر الافريقى الآن من الحديث عن إله أسود وعن ملائكة سود كالمداد الهندى ، وعن قديسين سود لا يكفون عن الترنيم .

الطوية والخبث والخديعة ولذلك كان اليهود موصوفين بالخبث والذل والخديعة لاستحكام القهر عليهم وغلبة الإكراه على عامة أحوالهم . ولذلك أيضاً ينهى عن إرهاف الحد على الولدان والعبيد ويؤمر بتر ويحهم[1] » .

فقد اشتكوا من الجوع إلى الحد الذى كان يغمى عليهم لعدم حصولهم على الطعام على حد قول السليك .

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى إذا قمت تغشانى ظلال فأسدف

وسحيم يقدم صورة لفقره فيقول :

رأت قتباً رثا وسحبق عباءة وأسود مما يملك النـــاس عاريا

ومن قبلهما رأينا عبلة تضحك من هذه الخشونة التى تكسو حياة عنترة وكيف يبدو « عاريا خلق القميص » .

فنحن نجد عندهم ما يشبه تساؤل الطفل الذى نجده عند « بارى » حين يتألم ويشكو ثم يقول : ليس فى العالم من الخير مايكفى لأن أستطيع أن أعيش فيه أنا المسكين [2] ونحن نجد هذه النبرة عند محمد إمام العبد

بل إن الفقر والهزال لايقفان عندهم. بل يتعدى كلاهما إلى ما يملكون من الحياة كالأفراس . بالإضافة إلى قراباتهم . ونحن نعرف العذاب الذى كانوا يلاقونه من أجل جمع المال لعتق أنفسهم وأهليهم على نحو ما عرفنا من حياة نصيب الأكبر . ولاشك فى أن هذا الفقر كان وراء العديد من تعاسة كثير من الشعراء السود . ومن هنا رأينا بعضهم يختلس أموالا ليست له فيسجن مثل « نصيب الأصغر » « وأبو دلامة » قد اختلس كذلك من موسى بن داود . وقد رأينا بعضهم يحترف التسول

---

(١) الفلاكة والمفلكون (الفقر والفقراء) .

(٢) الحياة والشاعر : ٧٠ .

كمحمد إمام العبد ، وهناك نوع من التسول قد حذقه أبو دلامة بعد سنوات الضنك التى حلت به ، ولكنه حتى بعد أن صلح حاله لم يكف عن الاستجداء بكافة الطرق ، فلقد كان بحق « متسول الشعراء وظريف المتسولين » (١) .

ونحن نجد نموذجا متعففاً كالعكوك الذى يقول :

فــإن زدتنى برا تزايدت جفوة ، ولم تلقنى طول الحياة إلى الحشر

ونجد نموذجاً صابرا كقول ابن أبى فنن فى ابنه :

عــاش بنى فصــار مثلى
يلبس ما قـــد خلعت عنى
فسرنى ما رأيت منـــه
وساءنى ما رآه منى . .

ورغم هذا فقد كانت تعاسة الفقر تتجول فى كثير من شعرهم ، ولقد كان شعرهم بحق هو المتنفس الحقيقى لهم ، وما أعمق قول أحمد بن على الدلجى فى هذا المجال : « اعلم أن الفلاكة إذا استولت على شخص ، وسلبته القدرة على الأفعال انتقل إلى الاسترواح والتنفس بالأقوال ، وذلك لما أن فى الكلام راحة وفرجاً ، وتنفيساً من ألم الباطن ، ولذلك قلما يطيق كتمان الأسرار إلا الواحد الفذ ، وكذلك أيضاً قلما يطيق الإنسان استدامة أقوال تخالف مافى باطنه ، بل لابد له من فلتات مطابقة لما فى باطنه .. وإذا اتضح أن فى الأقوال تنفساً وراحة ولذة وتنفيساً من آلام الباطن ، وضحت الحكمة فى انتصاب المفلوكين خطباء وشعراء وحكماء (٢) .

---

(١) ابو دلامة : ٥٠ .

(٢) الفلاكة والمفلكون : ٢٢٧

وفقرهم هذا كان بلاشك وراء نوع من « التصعلك الذليل [1] » كما نرى عند أبي دلامة ، ووراء عدم جريهم خلف المتع التي تتطلب المال . فهم مثلا ليس لهم مجال كبير في الخمريات . فإذا وجدنا هذا عند ابن شكلة وعبدة بن الطبيب والعكوك . وهم من هم ثراء ونعمة ، فإن هذا لا ينسحب عليهم جميعاً ثم إنهم لم يحسنوا حرفة « الشاعر السمير » وحين طلب من بعضهم هذا كنصيب الأكثر قال : « كان حديثة هذا لعبد الملك بن مروان » : « ياأمير المؤمنين جلدي أسود ، وخلقي مشوه . ووجهي قبيح ، ولست في منصب . وإنما بلغ بي مجالستك ومواكلتك عقلي وأنا أكره أن أدخل عليه ماينقصه [2] »

ومهما يكن من شيء فقد كانوا إلى حد ما ملتصقين بطبقتهم ، وكانوا من رواد الأدب الواقعي حين التفتوا للحياة من حولهم بما فيها من خير وشر ، وابتعدوا بقدر الإمكان عن الحذلقة والإغراب والغموض . وكشفوا في الوقت نفسه تلك الشاعرية التي تكمن في الأشياء البسيطة » « في الأشياء التي يعرفونها جيداً » كل عمل فني أصيل يعبر عن شكل للوجود الإنساني في العالم . فلا يوجد أبداً أي فن غير واقعي ، أي لا يوجد فن لا يستند إلى واقع متميز ومستقل عنه » [3] .

ومهما يكن من شيء فقربهم الحميم من الحياة جعلهم يمثلون تياراً مادياً صلباً وسط روحانيات الحياة . ولقد كان عنترة بحق . أول من تنبه إلى المرئيات التافهة من حوله . ثم تبعه عدد كبير . ولقد كانت السمة الخاصة بهم هي التصاقهم بالحياة . وقد أعطى هذا لكثير من شعرهم الدفء والحيوية حقيقة قد يكون الفن جميلا ، إلا أننا يجب أن نتنبه إلى أن الجمال مجرد وصف لتأثير خاص يحدثه النتاج الفني الكامل .

---

(١) حياة الشعر في الكوفة ٤٧٩ .

(٢) نهاية الأرب ٤ — ١٠٨ .

(٣) واقعية بلا ضفاف : ٢٢٥ .

وليس هو كل شيء فى الشعر ، فالقصائد لا تتغذى بالزنابق – كما يتغذى ظبي الشاعر مارفيل – ولكنها تستمد قوتها من الحياة ، الحياة التى قد يرمز لها الغروب فى منطقة البحيرات . كما قد ترمز لها القمامة الملقاة فى شوارع المدينة (١) .

(جـ) الحب :

مع أن أنواع الحب متعددة ومتباينة ، وكذلك الأحاسيس التى يعبر عنها الشعراء ، بالإضافة إلى أساليبهم الفنية (٢) ، فالذى لاشك فيه أن حب الشعراء السود له طابعه الخاص ، ذلك لأنهم لا يتفرغون لمباهج الحب ، ولا تتاح لهم سعاداته الصغيرة والكبيرة ، ولأن الدائرة ضيقة عليهم فى هذا المجال .. ثم إنهم حين يمدون أعينهم وقلوبهم خارج دائرة الأنثى السوداء يصابون بالإحباط .. بل بالقتل !

ولهذا كثيرا مايتحول الحب عندهم إلى نوع من السقم والذل كما رأينا عند عنترة وسحيم ، وقد نجد تلك النبرة الآسية التى تقول : « إن العشاق مساكين » و « إن الحب فرقة » و « الحب داء » كما مر بنا عند الحديث عن نصيب الأكبر ، وكما رأيناه يهرب إلى عشق الفتيات الصغيرات .

وقد نجد أحدهم شاذا كابن الياسمين ، أو خصيا كأبي المسك كافور فإذا أضفنا لهذا فقرهم ، ورأينا أن الدمامة كانت تغلب عليهم ، أدركنا أن رقعة الحب التى تحركوا عليها كانت ضئيلة ، وأن أكثر تجاربهم فى هذا المجال كانت محبطة إلى حد أن إحدى النساء قد استدرجت واحدا منهم إلى بيتها هو أبو الحسين أحمد الرشيد ، ثم يظهر إنها لا تقصد غير العبث به حين نعرف أنها استقدمته لتخوف بوجهه ابنها التى تبول على نفسها ، ومرت بنا سخرية عبلة من عنترة فى أكثر من موضع !

---

(١) الشعر والحياة : ١١٣ .

(٢) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه: إليزابيث درو. ترجمة د. محمد إبراهيم الشوش: ٢٥٠

ولهذا لانحس فى شعرهم مباهج الحب ونضارته، ولكن نحس أحزانه والمخاوف التى تحيط به ، بل نجد النفور من هذا الحب الذى يعتمل فى نفوسهم ، على نحو مايقول نصيب الأصغر :

وتقول مية ما لمثلك والصبـــا   واللون أسود حـــالك غربيب

وعلى نحو مايقول أبو العطاء السندى :

وازدرتنى العيون إذ كـــان لونى   حـــالكا مجتـــوى من الألوان

ولعل هذا وراء ظاهرة عدم اهتمامهم بالنسيب الذى يكون فى أول القصائد الخاصة بالمدح، بل إن شعر الحب عندهم كثيرا مايكون كالزهور اليابسة .

فقدراتهم الحقيقية توجد فيما يمكن أن يسمى بالغزل الحسى بصفة عامة ، وفيما يمكن أن يسمى « الأدب المكشوف » بصفة خاصة ، فهم يعمدون إلى التركيز على الجانب الحسى ، وهم لا يشغلون أنفسهم إلا بالجانب المحسوس من الأنثى وقد يخرجون فى هذا عن المألوف كقول أبى عطاء السندى لممدوحه فى قصيدة طويلة :

وهبْ فـــدتك النفس لى طفلة   يقمع حرها رأس شيطـــانى
فـــان أيرى قـــد بغى واعتدى   وصار يبغـــى بغية الـــزانى
فالله ثم الله فى قمعـــــــه   من قبل أن أنمـــى بسلطـــان
يبركنى أضحكوكـــة بعدما   أضرب فى سر وإعـــلان (١)

وقد يتحول إلى صورة فنية محكمة كقول سحيم :

وبتنا وسادانا إلى علجـــانة   وحقفٌ تهاداه الـــرياح تهاديـــا
فما زال بردُى طيبـــا من ردائها   إلى الحول حتى أنهج البردُ باليا

(١) الأغانى ٧ — ٣٣٨ .

ولهذا استحسنه الآمدي في باب « ماقيل في ائتلاف المحبين [1] » .. ثم إنه كان مضيقاً عليهم في الحياة الاجتماعية ، ولعل هذا يوضح لنا أنهم حتى في جاهليتهم لم يكونوا يثقون فيمن يهوون ، ولايستطيعون مواجهة من يحبونهم ، ففي معلقة عنترة نجد الشاعر يرسل إمرأة للتجسس على صاحبته [2] ، وبهذا يكون من رواد هذا النوع من العشق الذي عرف به بعد ذلك عمر ابن أبي ربيعة كما نجد عند خفاف بن ندبة قناعة تصل إلى حد الاكتفاء بالطيف ، وإلى تذكر الماضي ، ونجد عند السليك انتهازاً الفرصة حين وجد نفسه وجهاً لوجه مع المرأة التي مات بسببها ، ومثل هذا نجده عند سحيم .

وعلى كل فقد كانوا في توتر دائم . ولم يكن لهم الحق في دخول شيء لإعلاء مايسمى بالدوافع ، ثم إنه كان لهم ميراثهم الضخم في هذا الجانب ، ففي الحبشة مثلا نوع من الأناشيد الدينية يسمى « ماكيء » وهو يتعرض لوصف أعضاء القديس أو الشهيد بطريقة مباشرة وحادة ، ولعل مما يؤكد هذا أننا إذا تتبعنا كل الذين ساروا على هذا الطريق بجسم وجدناهم إما أحباشاً ، أو عرباً تأثروا بهم ، على نحو مانعرف من سحيم ، ومن امرىء القيس الذي كانت قبيلته كندة مقصد الغزاة الأحباش ، وعلى نحو مانعرف من عمر بن أبي ربيعة الذي يقال إن أمه كانت أم ولد من حضرموت أو حمير أو الحبشة ، ثم إنه يقال غزل يمان ، ودل حجازي [3] . وهم في هذا ليسوا بدعاً ، فالاحتشاد الجنسي بلا خوف يعتبر « عنصراً هاماً من العناصر المكونة لعقيدة الشعراء الجاهليين » [4] .

---

(1) الموازنة تحقيق السيد صقر ٢ – ١٤٥١

(2) يلاحظ انه يرسل من يتجسس له ، بعكس من كانت تتردد بين امرئ القيس وصاحبته ، وكذلك بين الأعشى وصاحبته .

(3) بين الحبشة والعرب ١٢٣ – ١٢٥ ، الأغاني ١ – ٦٦ .

(4) شعراء المدرسة الحديثة م. ل. روزنتال . ترجمة جميل الحسني ٤٠ .

ثم إن هناك من يحاولون بأعمالهم ذات الروح الانحلالية والسرية السقيمة أن يصدموا مشاعر الناس ، إلى حد الوصول إلى ماسموه بالبراءة الحسية السرية التى لايمكن الوصول إليها إلا بعد الوصول إلى الوضوح الشديد فيما يتعلق بالجنس ، وقد أشار إلى هذا ولتر باتر فى قوله : « إن الشعراء يرغبون أكثر ما يرغبون فى تزويد الحياة بجمال ينبثق من عناصر بعيدة الاحتمال بفعل قوة محولة فائقة أو عملية ابتكار صعبة أو بفعل سحر يعتصر الجمال حتى من الأشياء القبيحة (١) » .

ولعل مما يقرب هذا إلى الذهن دعوة د . هـ . لورانس إلى مايسمى الوعى الجنسى ، بالإضافة إلى قوله : « إن دينى العظيم هو إيمان بالدم واللحم باعتبارهما أشد حكمة من العقل (٢) » ، ذلك لأن الحياة الجنسية فى رأيه يجب ألا تكبت ، وإنما يتاح لها الازدهار ، ولعله يكون وراء تركيز الشعراء السود على هذا الجانب الرغبة فى الانتقام من المجتمع ، فقد رأينا عنترة — رغم القول بأن امرأة أبيه هى التى كانت تعشقه ، إلا أن أبياته تدل على أن شيئاً طيباً منها يقع فى نفسه ، فهو يقول :

كأنها يوم صدت ما تكلمنى
ظبى بعسفان ساجى الطرف مطروف
تجللتنى إذا هوى العصا قبلى كأنها صنم يعتاد معكوف (٣)

ورأينا نصيباً الأكبر يميل بصفة خاصة إلى الفتيات الصغيرات ، بل إن الشاعر قد ينتقم من معشوقته ، على نحو مارأيناه من شعر سحيم ، فحياته فى هذا الجانب تذكرنا بقول سارتر : « اللذة تستفيد من الخلطة ، إنها تبدو كأنها مختارة من بين جميع اللذائذ الأخرى ، فما دامت محرمة فهى غير مجدية ، إنها ترف ، ولما كان السعى إليها ضد النظام القائم قد

(١) المصدر نفسه ٣٨٠ — ٤١ .
(٢) المصدر نفسه ١٣٧ .
(٣) الأغانى ٨ — ٢٣٣٨ .

ثم من قبل حرية تحكم على نفسها باللعنة لتولدها فإنها تبدو شبيهة بالخلق ، إن اللذائذ الفظة التي هي مجرد إشباع للشهوات تقيدنا بالطبيعة في الوقت الذي تجعلنا فيه مبتذلين [1] » .

فإذا كان سحيم على رأس مدرسة « الأدب المكشوف » في الأدب العربي ، فإن تقاليد هذه المدرسة قد ظل جزء كبير منها عند عدد كبير من الشعراء السود على نحو ما نرى من تلك النماذج الصارخة التي مرت بنا لابن شكلة والعكوك وغيرهما .

فالعاطفة الجنسية « غذاء نفسي كامل في العهود البدائية للإنسان أو عند الأفراد الذين ظلوا قريبين في نموهم العقلي من البدائيين [2] » . ومن الخطأ أن نحسب الحب الجنسي عند الإنسان شبيها به عند الحيوان ، فهو قد يطابق من حيث الضرورة البيولوجية ما عند الحيوان ، ولكنه في الإنسان وسيلة لبلوغ شيء خاص بأرقى مظاهر الإنسانية . . . وهو الحب .

وعلى كل فالشاعر الأسود قد ركز بصفة خاصة على الجنس ، وقد يربط بينه وبين الموت كعنترة ، وقد يكون أول شيء يتذكره وهو على حافة الموت على نحو ما نعرف من أمر السليك حين حوصر حصار الموت :

(د) المـوت :

إذا كان الشاعر الجاهلي قد أحس بالموت إحساساً حاداً ، ذلك لأن الطبيعة من حوله قاسية ، ولأن الحياة الاجتماعية غير مستقرة ، ولأن السيف هو سيد الحياة ، ولأنه لا أمل في حياة أخرى ... إذا كان الشاعر الجاهلي قد أحس بهذا فإن الشاعر الأسود لم يخرج عن دائرة الإحساس

---

(١) بودلير . ترجمة جورج طرابشي ٨٠ ، ٨١ .

(٢) متنوعات . د. محمد كامل حسين ٦٧ .

هذه ، فهو يتكلم عن العلم حين يتكلم عن الطلل على نحو مانعرف من معلقة عنترة ، وهو يلقى بنفسه على الحياة إلقاء كالسليك ، ثم إنه كان يحس أنه لاشىء بعد الموت على نحو مامر بنا من رثاء خفاف بن ندبة لصديقه حضير الكتائب ، وقد يكتفى حين يرى أنه ليس من الموت بد بتذكر ما أصابه من ملذات الحياة على نحو مانعرف من الشعر الذى قاله السليك فى حالة الحصار حين كان على حافة الموت ، وقد يحس الإنسان أن الموت مبثوث فى الحياة على نحو مامر بنا من رثاء أم سليك له ، فهى ترى أن المنايا رصد للفتى حيث سلك .

ثم إن الشاعر قد يلقى بنفسه إلى الموت إلقاء وكأنه عاشق له على نحو مارأينا من الشعراء الفرسان ، وبخاصة عنترة .

وقـد ذكـرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى

فـوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغـرك المتبسم

ولنتأمل دلالة قوله :

إن المنية لو تمثل مثلـت مثلى . . إذا نزلوا بضنك المنزل

وقد مر بنا أن الموت كان ينتصب فجأة أمام الشاعر سحيم بعد أن يسبح طويلا فى اللذة ، وفى الوقت نفسه كان ابن شكنة يرى : أن الموت يكدح فى زنده وفى عصبه وأن الحياة نوم تطرز فى الحين بعد الحين بأضغاث الأحلام . وما أعمق قوله :

ومازلت فى سكرات الموت مطرحاً

ضاقت علىّ وجوه الأرض من حيلى

فلم تـزل دائبـا تسعى لتنقـذنى

حتى اختلست حياتى من يدى أجـلى

وقد يربط الحديث عن الموت بالأطلال ربطا محكما ، على حد مانعرف من رثائه للأمين ، فبعد أن تحدث عن قصره الذى أصبح ركاماً ، تحدث عن الموت — ممثلا فى قاتله — فقال

لم يكفه أن حز أَوْداجَهُ ذبح الهدايا بِمُدْى الجازر
قد بُرِّد الموت على جنبه وطرفه منكسر الناظر .. الخ (١)

ومثل هذه النظرة تجدها عند إبراهيم الكانمى .

وعلى كل فقد تغيرت النظرة للموت بعد الإسلام إلى حد ما ، ذلك لأنه شتان بين رثاء خفاف بن ندبة لصديقه حضير الكتائب فى الجاهلية ، وبين رثائه لأبى بكر ومع هذا فان الشاعر الأسود كان مفتوح العين دائماً على الموت ، على نحو قول نصيب الأصغر :

أحجناء صبرا كل نفس رهينة بموت ومكتوب عليها بلاؤها
أحجناء أسباب المنايا بمرصد فألا يعجل غدوها فمساؤها
أحجناء ان أفلت من السجن تلقنى حتوف المنايا لايرد قضاؤها

ولعل هذا راجع إلى أن الحياة من حوله كانت هشة ، وأنه كان يحس دائماً بالخطر ، ومن هنا عاش فى حذر أو خوف منه ، فهولم يتحول عنده إلى حقيقة « قد تصبح سامية رائعة أحياناً » كما لم ينظر إليه على أنه انتقالة من غرفة إلى أخرى (٢) .

بل إن الحياة عنده قد تتحول إلى ضرب من الحلم ، على حد قول ابن شكلة :

وما المرء من دنياه إلا كهاجع
رأى فى غرار النوم أضغاث أحلام .

وكقوله مغنيا للمأمون :

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت منى
هوى الدَّهرُ بى عنها وولىَّ بها عنىِّ .

---

(١) تاريخ الطبرى ٨ — ٤٨٩ .
(٢) الشعر كيف نتلوقه : ٤٩ .

فإن أبك نفسي أبك نفساً نفيسة

وان أحتسبْها أحتسبْها على ضَنّ [1]

كما قد تتحول إلى نوع من خيبة المسعى كقول عبدة بن الطبيب :

والمرء ساع لأمر ليس يدركــه والعيش شح وإشفاق وتأميل

والشاعر قد يرثى — على نحو ما فعل عبدة بن الطبيب — فيرى أن من مات لم يقف الموت عنده ، ولكن تعداه إلى قومه :

فما كان قيس هلكه هلك واحـد ولكنه بنيان قــوم تهدّما..

وقد تضيع الحياة كلها إذا ضاع رجل واحد على حد رثاء العكوك لحمد بن حميد ، وكقوله فى أبى دلف :

إنمــا الدنيا أبو دلف بين باديــه ومحتضره

فإذا ولى أبو دلــف ولت الدنيا عــلى إثره

.. وعلى قلة شعرهم نراهم قد أكثروا من الرثاء إلى حد أن شاعراً مرحاً كأبى دلامة قد سبب ضيقاً للمنصور لكثرة رثائياته فى السفاح ، وإلى حد أن شاعراً كنصيب الأصغر حين حضر تقسيم خيل شيبة بن الوليد بعد موته أبى أن يأخذ ماعرضه عليه شقيق شيبة ، ثم قال شعراً :

أضحت جياد ابن قعقاع مقسمة فى الأقربين بلا منٍّ وثمن

ورثتهم فتسلوا عنك إذا ورثوا وماورثتك غير الهم والحزن

ولعلهم كانوا يجدون فى هذا تنفيساً عن أحزانهم المتراكمة ، وعن إحساسهم الحقيقى بأن الحياة لاقيمة لها ، وأن خلاصهم الحقيقى ربما يكون خارجها .. وما نريد أن ننتهى إليه هو أن إحساسهم بالموت كان حاداً ، وأن هذا الموت يتجول بكثرة فى شعرهم ، وأنهم استجابة لهذه الظاهرة العدمية قد أكثروا الرثاء فى شعرهم .

---

(١) تاريخ الموصل ٣٦٩ .

فهم فى الغالب لم يجربوا الحياة داخل « دائرة الأب » فقد كانوا يعيشون بحق من صغرهم فى عالم خانق وغـير إنسانى ، ومن هنا فكأنهم كانوا مطالبين — لكثرة مابهم من جروح — بالحصول دائماً على ترخيص إقامة داخـل الوجود ، ذلك لأن الحاجز بين الحياة والموت عندهم كان رقيقاً إلى حـد الاختلاط فى بعض الأوقات البائسة ، ولقد تفردوا بأنواع غريبة من الموت ، فهذا مثلا سحيم قبل مقتله يقرب من النار ، ويضرب بالعيدان المحمية على إسته ، وهذا العكوك يخرج لسانه من قفاه ، وأبو نخيلة بعـد قتله يسلخ وجهه ، وأبو محمد بن الياسمين يوجد فى حجرته مقتولا بطريقة شاذة ، وهذا أبو الحسين أحمد الرشيد يصلب شنقاً ، ومثل هذا الموت نراه فى نهاية سديف . . ومن قبل كل هؤلاء قتل السليك بما يشبه هذا النوع من الموت ، بالإضافة إلى تقطيع أطراف صاحب الزنج .

ولعل هذا النوع من الاقتراب الحميم من الموت يذكرنا بما نجده عند الشعراء الافريقيين من أنهم لايفرقون بين الموتى والأحياء، فالشاعر بيراجو ديوب يسمى الأجداد : الأرواح المرحة، وسنغور يقول لحبيبته: أشم رائحة موتانا ورأسك فوق صدرى ، كما يقول :

أيها الموتى الذين رفضوا الموت
الذين عارضوا الموت
أواه أيها الموتى
لتحموا سقف باريس

وهاهو ذا الشاعر سيزار يقول عن افريقية :

هناك حيث يكون الموت محبوبا فى بلدى
مثل طائر فى موسم اللعب

كما أن لانجستون هيوز يقول :

تذكر دائما

أن الموت هو الطبلة

تدق أبد الدهر (١)

ثم إننا نجد عندهم إلتفاتاً إلى كل مايذكر بالزوال والموت والقتل ، وقد يجعلون من الحمامة ، رمزاً لهذا كله ، ولانعرف شاعرا فى العربية أكثر من هذا إكثار « نصيب الأكبر » وقد استشهد له الآمدى فى باب نوح الحمائم بالعديد من النماذج (٢) .

فالإحساس بالموت لايمكن فصله عن الحياة البائسة للإنسان ، وبخاصة حين يكون الإنسان مضيماً وفاقدا لحلوره ومدموغاً بالسواد ، وفاقدا للأمل فى العدل الاجتماعى ، وحين تكون فى الوقت نفسه ثوراته من أجل العدل الاجتماعى قد قوضت ، وصفيت ، وأصبحت عارا يعلق على جباههم ، على نحو ماحدث فى تلك الثورة المعروفة بثورة الزنج .

فالإحساس بالزوال لم يفارق الكثير منهم وبخاصة هؤلاء الذين أحدثوا ضجة فى الحياة كالسليك وابن شكلة وأحمد الرشيد ، وقد جاء فى الأغانى شعر مؤثر لسوداء هجرها زوجها فأحست أن كل شيء قد زال عنها فى العالم (٣) ولكنهم حين يتكلمون عن الموت لايتكلمون عنه بسعادة كبعض الشعراء العدميين ، ولكنهم فى الكثير من شعرهم يتحدثون عنه كعدو ، وكقوة مفروضة على الإنسان ، وإذا كان عنترة فى الجاهلية يقول : « نسبتى سيفى ورمحى .. الخ » فإن النبرة تختلف بعد ذلك على نحو قول ابن أبى فنن :

أرى المنايا على غيرى فأكرهها فكيف أمشى إليها بارز الكتف

---

(١) الإنسان : ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) الموازنة ٢ – ١٤٢ – ١٥٧ .

(٣) جـ ٥ ص ٢٢٣ .

ولكننا نجد بصفة عامة أن الموت يتجول فى الكثير من شعرهم ، فهو دائم الكدح - على حد قول ابن شكلة - فى الزند وفى العصب .

(هـ) الهجاء :

إذا كنا لا نرتاح للهجاء بصفة عامة ، وإذا كان هناك من يأخذ على الشعر العربى أنه غاص بالهجاء ، فإن الذى لاشك فيه أن هذا الهجاء يكون مقبولا حين يعبر بذكاء وقوة وعاطفة عميقة « عن سخط الجنس البشرى عامة وعن شرور معينة وأفراد معينين » فالشاعر حين يكون - كما يقول لويس ماكنيس - أقرب إلى أن يكون صوت المجتمع الهادئ الخافت وليس مكبر صوت له . . يستطيع أن يكون ضمير هذا المجتمع . يستطيع أن يكون ملكته النقدية [1] .

وقد تنبه ابن رشيق لهذا الفن فوضع له تقنينا يقول : إن التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظن فى التعريض ، وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، كما رأى أن أجود مافى الهجاء أن يسلب الإنسان فضائله النفسية ، وما تركب من بعضها مع بعض [2]

ومن هذه النقطة ننطلق إلى ماذكره العقاد من أن الشعراء العبيد فى - الجاهلية والإسلام لم يشتهر منهم شاعر بالهجاء .. « ولكن من شاء أن يرجع إلى علة واحدة تصدهم جميعاً عن التعرض للهجاء لم يعسر عليه أن يرد تلك العلة إلى اشتراكهم فى الرق، واشفاقهم من التعبير به ، وهو أسبق شىء إلى لسان من يقصدونه بالهجاء والمذمة، فقد كانت الصفات المحمودة عند العرب تلتقى جميعها فى صفة واحدة هى الكرم ، ويعنون به النسب الحر حين يصفون الرجل بأنه كريم الأحساب، وكانت الصفات المذمومة

---

(١) الشعر كيف نتذوقه : ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) العمدة : ٢ - ١٤٠ ، ١٤١ . ط١ مكتبة أمين هندية .

عندهم تلتقى جميعها فى صفة واحدة هى اللؤم، ويعنون به النسب المدخول أو النسب الوضيع » [1] .

وقريب من هذا مايقوله أحمد الشايب حين تعرض للحديث عن النوبيين ، وكيف أنهم لم ينزعوا نزعة أعجمية : « ولعل ذلك إن صح لقلتهم وضعفهم ولعدم وجود ماض لهم بخلاف الفرس الذين شغلوا هذا الجانب » [2] .

ونحن ابتداء نذكر أن الشعراء السود لم يكونوا جميعاً من العبيد ؛ وأن الهجاء يشكل — كما مر بنا — جانباً من شعر عنترة الذى قدم حتى أمه فى صورة كريهة ، كما أن هجاء خفاف بن ندبة لعباس بن مرداس يمثل الملمح الحقيقى لشعره ؛ وقد مر بنا هجاء السليك لخثعم ، فإذا سرنا مع الزمن وجدنا ، سحيما يهجو القبيلة التى عاش بها هجاء مرا ، بل يصل به الأمر إلى هجاء نفسه .

فشبهنى كلبا ولست بفوقه ولا دونه إن كان غير قليل

بل وجدنا « أبا المسك : كافورا » يهجو مدينــة بخارى بطريقة فاحشة .

ونحن نعرف أن قوة الشاعر النجاشى الحقيقية كانت فى الهجاء ؛ وبخاصة إذا عرفنا أنه أذل بهجائه بنى العجلان ، وأن الخليفة عمر بن الخطاب قد هدده بقطع لسانه ، ثم إنه كان قاسياً فى هجائه لقريش ؛ وما أكثر ما أرّق هجاؤه معاوية وقد تنبه ابن بسام لهذا فحين قسم الهجاء قسمين ، استشهد بالنجاشى على القسم الخاص بالاشراف « وهو مالم يبلغ أن يكون سباباً ولا هجراً مستبشعاً ، وهو طأطأ قديماً من الأوائل ، وثل عرش القبائل ، إنما هو توبيخ وتعبير وتقديم وتأخير [3] » ، أما ضعف

---

(1) بين الكتب والناس ٨٣ .
(2) تاريخ الشعر السياسى : ٢٧٧ .
(3) الذخيرة قسم ١١ مجلد ٢ ص ٦٣ وما بعدها .

قصيدته فى الرد على كعب بن جعيل شاعر معاوية على نحو ما رأى ابن أبي الحديد ، وعلى نحو ماذكر الدكتور يوسف خليف من أنها قليلة الحظ من الأصالة الفنية [1] ، فان هذا يرجع كما سبق أن ذكرنا إلى أن النجاشى لم يكن مخلصا لحزب الإمام على، وأنه كان مشغولا بنفسه — كعادة الشعراء السود — عن عواصف السياسة التى كانت تسود عصره ، ثم إنه من الرواد الذين هجوا المدن وأهلها على نحو مانعرف من قصيدتيه الصاخبتين فى الكوفة [2] .

ثم هناك انتقام الشاعر لنفسه بالهجاء على نحو مانعرف من هجاء أبي عطاء السندى لمولاه عنتر حين ادعى عليه الرق بعد العتق .

فإذا تركنا هذا الجانب من الهجاء ، وهذا الجانب الذى يمكن أن نطلق عليه اسم « الهجاء المرح » على نحو ماعرفنا من الفضل اللهبى ، وأبي دلامة ، وجدنا أن هناك جانباً من الهجاء يمكن تسميته بالهجاء السياسى على نحو مانعرف من موقف سديف من بنى أمية ، وموقف ابن شكلة من المأمون ، وموقف أبي عطاء السندى من بنى هاشم ، ودور الفضل اللهبى فى المنافرة ، والمفاخرة .. ومن كل هذا ندرك أنه كان لهم دور هام فى تعميق فن الهجاء .

ثم إن هناك شعراء ثلاثة، اقتصرت شهرتهم على الهجاء وهم الحيقطان، وبخاصة فى تلك القصيدة الصاخبة التى فضل فيها الأحباش على العرب ، وسخر فيها من مكة والبيت الحرام ، وعرض بغزو الأحباش لمكة ، وبهؤلاء الملوك والرؤساء الذين تأبوا على الإسلام ، وإذا كان قد احتاط بالنسبة للإسلام فقال :

فأما الذى قلتم فتلكم نبـــوة　　　وليس بكم صون الحرام المستر

---

(1) شرح نهج البلاغة — ٢٥٢ ، حياة الشعر فى الكوفة ٣٥١ .

(2) مختصر البلدان ١٨٥ .

أما الثانى فهو سنيح بن رباح حين راح يدافع عن الزنج ، ويفضلهم على العرب ، ويذكر بالرجال العظام من السود ، وبتلك المعركة التى قتل فيها الزنج ابن جيفر :

والزنج لو لاقيتهم فى صفهم ... لاقيت ثَمّ جحاجحا أبطالا
فسل ابن عمرو حين رام رماحهم ... أرأى رماح الزنج ثم طوالا
ومربطين خيولهم بفنائهم ... وربت حولك شيما وسخالا
كان « ابن ندبة » فيكم من نجلنا ... و « خفاف » المتحمل الأثقالا
سل « ابن جيفر » حين رام بلادنا ... فرأى بغزوتهم عليه خبالا

وأما الثالث فهو عكيم الحبشى فى قصيدته التى يقول فيها :

وليلة الفيل إذ طارت قلوبهم ... وكلهم هارب موف على قتب
منا النجاشى وذو العقصين صهركم ... وجد أبرهة الحامى أبى طالب

وقريب من هذه النبرة تلك النبرة التى سمعناها فيما روى من شعر فى « ثورة الزنج » لعلى بن محمد بن أحمد حين أخذ ينقد الترف الذى يعيش فيه المجتمع البغدادى المترهل .

فهم قد قالوا كلمتهم صريحة وحاسمة حين استثيروا ، وحين أحسوا فى بعض الفترات بالضغط الواقع عليهم ، فهم لم يكنوا عن العرب فى شعرهم بأسماء مثل هند ، وجمل ، وأمامة ، على نحو مافعل غيرهم من شعراء الموالى ، وهم لم يظهروا الولاء ويبطنوا العداء كما فعل مثلا إسماعيل بن يسار ، كما أنهم لم يلجئوا مثلا لبعض الأساليب الجبانة ، كهؤلاء الذين صنعوا الشعر لتنطق به جارية فى ذم العرب (1) ، فهم قد قالوا كلمتهم بخشونة حين دفعوا إلى هذا دفعاً ، قالوها بالتصريح لا بالتعريض مخالفين فى هذا وجهة نظر ابن رشيق فى الهجاء .

(1) مروج الذهب ٣ — ٢٠٠ — ٢٠٨ .

والهجاء بهذه الصورة كان نوعاً من الأسلحة التى يشهرها الشاعر الأسود فى وجه مجتمعه ، وفى الوقت نفسه كان يعكس هذا الواقع الحزين الذى يعيش داخله ، وكان يشير من قريب أو بعيد إلى أن هناك اختلالا فى هذا المجتمع الذى يحاصره ويضغط عليه ، وبالإضافة إلى هذا كان يكشف عن المرارة التى تملأ نفس الشاعر الأسود .

ومن كل هذا أعتقد أنهم كانوا فى الكثير من شعرهم ، احتجاجا على المجتمع ، كما كانوا ملكته النقدية .

غير أن هناك ظاهرة واضحة فى شعرهم أشد الوضوح وهى هجاؤهم لأهلهم على نحو مانعرف من حديث عنترة وسحيم عن أميّهما ، وحديث نصيب الأكبر عن ابن خالة له ، بل عن بناته ، ثم إنا نحس أن عنترة كان يقسو على نفسه وعلى أمه ، وأن سحيما يرى نفسه كلباً حين يقول :

فشبهنى كلبـاً واست بفوقـه ولا دونه إذ كان غير قليل

أما أبو دلامة فقد هجا أمه وزوجته وابنته، وابنه .. ولم ينس نفسه وأبو نخيلة رأيناه يقول حين دخل اليمن :

لم أر غيرى حسنا منـذ دخلت اليمنـا
كيف تكـون بلـدة أحسن مافيها أنـا ؟

ومثل هذا نجده عند نصيب الأصغر ، وأبى العطاء السندى ، هـذا معناه أن كل شىء هين عليهم ، ومعناه هذا الضيق الذى يتفجر من داخلهم وكأنهم يحاولون الانتقام من مجتمعاتهم وأنفسهم فى الوقت نفسه ».

وفى الوقت نفسه نجد النبالة عند شاعر كعنترة حين يشتم فيجد لمن يشتمه العذر ، وإن كان العذر الذى التمسه موجعاً ومميتاً كذلك ، فقد قال فى معلقته حين بلغه أن حصيناً وهرما ابنى ضمضم يشتمانه ، أ ويتوعدانه .

ولقــد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمــى عــرضى ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لم ألقهما دمى
إن يفعــلا فلقــد تركت أباهما .. ... جزر السباع وكل نسر قشعم

فالشاعر هنا يترفع عن السباب ، ولكنه مع ذلك يصيب فى مقتل :

وقد ذكر الدكتور محمد كامل حسين (١) أن كبار الشعراء فى صدر الإسلام قد أبوا أن يتناول بعضهم بعضاً بما فيهم بالفعل حرصاً على كرامتهم وأن الغرض من الإقذاع لم يكن الحط من قدْر المهجو ، ذلك لأن الغرض الأساسى كان التسلية والتسابق والإبداع فى القول . . ونحن نرى هذا صحيحاً إلى حد أن الفضل اللهبى تفاخر بلونه ، ويمكن أن نرى صحته كذلك فى عهد الأمويين ، ولكن السود كانوا يواجهون صراحة بسوادهم ومن ثم كان هذا التفجر الذى ظهر من شعراء الغضب الثلاثة : الحيقطان ، وسنيح ، وعكيم .

(و) المدح :

الذى لاشك فيه أن الشعراء السود بصفة عامة لمْ يشغلوا بالناس فيصفوهم ذلك لأنهم اشتغلوا بأنفسهم ، ولأنهم فى الغالب كانوا بعيدين قصور الخلافة ، ثم إنهم كانوا لايتقنون حرفة « الشاعر السمير » وقد مر بنا أنهم يهربون من هذه الحرفة على نحو مامر بنا عند الحديث عن نصيب الأكبر ، وعند الحديث عن أبى دلامة .

ونحن لاننسى أن بعضهم كان خارجاً على مجتمعه ، ومضاداً للثبات الذى يسوده ، وأن بعضهم كان ينسحب من المجتمع ويمارس العزلة بلهفة ، وأنهم فى أكثر الحالات لمْ تكن لهم « نمــاذج خارجية » يحبون الوقوف عنــدها ، ذلك لأن نموذجهم الحقيقى هو أنفسهم

---

(١) منوعات : ٩٨ .

من الداخل ، ومن هنا لم يهتموا بالبطل قدر اهتمامهم بحركة الوجود وتدافعها من حولهم .

فالذى لاشك فيه أن الشعراء السود كانوا على نقيض الشعراء غير السود فى عدم الإقبال على هذا الفن الذى زحم الكلمة العربية ، وكان عاملا من عوامل شحوبها « حقاً إن فكرة التمجيد غزت عقول الشعراء قديماً وحديثاً حتى رأينا من يتعرض للطبيعة «يمدحها » كما يمدح البشر »(١)

وليس معنى هذا أنهم لم يشاركوا فى فن المدح ، وإنما معناه أنهم كانوا أشبه بالغرباء فى هذا العالم ، فمدح عنترة ليس كالمدح الذى نجده عند الشعراء من طبقته ، ومدح نصيب الأكبر أقرب إلى النفسية الشعبية منه إلى مدح المحترفين ، ومدح ابن شكلة سريع وغير قاطع ، ومدح نصيب الأصغر وأبى دلامة كان دافعه الحصول على أكبر قدر من المال ، ومثل هذا الدافع نجده عند نصيب الأصغر وبخاصة حين يقول :

قفوا خبرّونى عن سليمان : إننى ... لمعرُوفهِ من أهل ودّان طالبُ
فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

بل نجد بعضهم يمدح كأنه يعتذر — كمحمد إمام العبد .

ثم إنهم كانوا يعتبرون بمقاييس عصرهم من الفاقدين لأحد الشروط فى هذا المجال وهو البدء بالنسيب ، ولو فعل هذا الشاعر الأسود لكان مثاراً للضحك فى كل هذا الجزء الذى كان يسلم الشاعر إلى الممدوح .

وفى ضوء هذا نستطيع القول بأنهم قد عملوا على إسقاط هذا التقليد الذى يحتم أن يبدأ الشاعر شعره بالنسيب ثم ينحدر منه بتوفيق أو بغير توفيق إلى الممدوح ، وفى الوقت نفسه نراهم لم يشتركوا اشتراكاً تاماً فى إفساد الشعر العربى بهذا اللون الذى احتل رقعة كبيرة منه .

---

(١) دراسة الأدب العربى د. مصطفى ناصف : ١٢٢ .

(ز) الطبيعة :

إذا كانت الرابطة العميقة المعقدة بين العالم الخارجى وعقل الإنسان هى التى توحى بأروع شعر الطبيعة (١) ، فإنا نجد أن الشعراء السود الأوّل قد اهتموا بالطبيعة اهتماماً ملموساً . ويمكن أن نرى هذا عند من اشتغل منهم بحرفة الرعى كعنترة وسحيم ، أو من كانت الطبيعة له هى كل شئ بعد الخروج على المجتمع كالسليك ... فهؤلاء كانت الطبيعة تتنفس من خلالهم ، بحيث نحس أنهم يمتزجون بها امتزاجا حميا ، ونحن لاننسى فى هذا المجال قول الجاحظ حين تعرض لوصف عنترة الذباب « ولم أسمع فى هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة » (٢) .

ورغم هذا فقد نجد الطبيعة مجرد خلفية لحياة المتعة على نحو ما رأينا فى قصيدة عبدة بن الطبيب التى يقول فيها :

وقد غدوت وقرن الشمس منفتق ... ودونه من سواد الليل تجايـل
إذا أشرف الديك يدعو بعض أسرته ... لدى الصباح وهم قوم معازيل

وقد نجدها متحذلقة وموصوفة من الخارج فقط على نحو مامر بنا من حديث ابن الياسمين عن الربيع ، وما أقل مايتحدث الشعراء السود عن الربيع .

وقد نجدها ميتة أو صامتة عند عدد من الشعراء المتأخرين . وقـد نجدهم لايلتفتون إلى الأطلال وما ينبت حولها أو فى داخلها وما ينسكب عليها من الحزن — باستثناء عنترة — ولكننا نجد أن وقفتهم الحقيقية كانت مع الحيوان .

فإذا أخذنا الفرس مثلا وجدنا أن الشاعر يخاصم من أجله امرأته . فها هو عنترة يقول :

لاتذكـرى مهرى وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

---

(١) الشعر كيف نتذوقه : ٢٢٨ .
(٢) الحيوان ٣ — ٣١٢ .

وفى قصيدته التى أولها :

طـال الثّواء عـلى رسوم المنزل   بين اللكيك وبين ذات الحرمل

« وصف الفرس وصفاً جميلا ، يشرق فيه الحب ، ويتجلى صدق الشعور ، أضفى عليه كل خصال الفرس من حب للقتال وتبختر وإقدام ، ودَلَّه فشبهه بالسكران وأكرمه فلم يذكر أسماء الأعضاء الذائعة ، بل عنقه هاد ، وأنفه مخرج الروح ، وذيله عسيب ، وشعره مسبب » (١) .

ونحن نجد مثل هذا عند السليك حين يتحدث عن فرسه المسمى « النحام » ولكنا بعد ذلك لا نجد هذا اللون من عشق الحيوان ، وإنما نجد الوصف البارع كقول العكوك :

تحسبه أقعـد فى استقباله   وهو إذا استدبرته قلت أكب

.. ونجد كذلك اهتماماً بالناقة كما فى معلقة عنترة ، ولكن بمرور الزمن يتحول هذا الاهتمام إلى نوع من الوصف ، كقول نصيب الأصغر :

هى الريح إما خلتها .. غير أنها   تبيت غوادى الريح حيث تقيل

وإذا كانت الصورة القريبة للناقة أو الفرس « هى صورة الفرد الذى يريد أن يواجه سائر الأشياء ، وهما معاً شغل الشاعر العربى فى العصر الجاهلى خاصة ، وكلاهما فى الحقيقة رمز معقد متنوع الجوانب ، وقد يتداخل معناهما أحياناً (٢) » .

إذا كان الأمر كذلك فإنا نعتقد أن وقفة الشاعر الأسود الحقيقية كانت عند الحيوان غير المستأنس ، على نحو ما نعرف من هذا الثور الذى مازال يتحرك إلى الآن فى قصيدة سحيم التى يقول فيها :

---

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ١٠٢ .

(٢) دراسة الأدب العربى ٣٤٦ .

يثير ويبلى من عروق كأنها | أعنة خـراز جديدا وباليا (١)
ينحى ترابا عن مبيت ومكنس | ركاما كبيت الصيدنانى دانيا (٢)
فصبّحه الرامى من الغوث غدوة | بأكلبه يغرى الكلاب الضواريا (٣)
فجال على وحشية وتخاله | على متنه سبا جديدا يمانيا (٤)

وسواء أكان الثور رمزاً للشاعر كما مر بنا ، أم كن والكلاب تنوشه يمثل الحياة فى مواجهة للعلم ، فإن الذى لاشك فيه أنا نجد تعاطفاً بين الشاعر الأسود وبين الحيوانات غير المستأنسة على نحو قصة الثور هذه ، وعلى نحو قصة النجاشى مع الذئب التى مرت بنا ، والتى تشبه « دراما صغيرة » نكتشف منها أنه لم يجر على منوال العرب الذين كانوا لا يألفون الذئب ، صحيح إن النابغة مثلا وصف ناقته بثور وحشى « ثم تناسى الناقة وأمعن فى تصوير هذا الثور الوحشى.. ثم أرجع الوصف إلى الناقة (٥) » وصحيح إن ثور النابغة يخرج منتصراً ولكن الصورة تختلف عند الشاعر الأسود .

وصحيح إن قصة الذئب هذه نجدها عند الفرزدق ، والبحترى . والشريف الرضى ، ولكنا نرى أن النجاشى كان أقرب إلى الذئب من كل الشعراء الذين تقابلوا معه ...وبالإضافة إلى هذا فنحن لاننسى ماقيل من أن طرديات أبى نخيلة سابقة لكثير من فن الطرديات .

وفى ضوء هذا نجد أنه يندر أن نرى فى شعرهم تلك الحيوانات الأليفة واللطيفة التى ترى فى شعر غيرهم كحمار الوحش ، والغزلان ، والنعام ، وبقر الوحش .

---

(١) يصف الثور بانه يحفر ليكتن من البرد والمطر ، فهو يحفر عن عروق الشجرة التى منها الطرى الرطب ، ومنها اليابس .
(٢) المكنس : بيته الذى يكنس فيه ، وهو الكناس ، والصيدنانى : الثعلب .
(٣) الغوث : قبيلة من طىء ، وهم رماة .
(٤) وحشية : يسارة ، السب: ضرب من الثياب البيض . (ديوان سحيم ٢٩ ، ٣٠)
(٥) النابغة الذبيانى ١٧٧ .

ولقد كانت الطبيعة هى البيت الصغير الذى يباشر فيه الشاعر وجوده أو ذاته كالسليك ، وسحيم . ونحن نرى أن لهم وقفات ذكية فى الطبيعة ، وأنهم قد أتوا فيها بالمعجز على نحو ما نعرف من وصف عنترة للروضة ، فمن خلال الشعراء الأول — بحق — نحس بإيقاع الطبيعة ، وبألوانها ، وبتموجاتها الحسية ، ونحس أنهم حين كانوا يكشفون عنها كانوا يكشفون الكثير من أنفسهم ، فبعض هذه القصائد كان غاية فى ذاته ، وبعضها كان جزءا من فكرة كبيرة تشغل الشاعر ، صحيح إنهم لم يستخلصوا من عالمهم المحسوس عالماً آخر غير محسوس ، وإن الطبيعة من حولهم كانت فقيرة وعاجزة، ولكنهم استطاعوا أن يعبروا عنها ، أو يطرحوا عليها أفراحهم وآمالهم ، أو ينتزعوا منها أدواتهم وهم يقولون كلمتهم الشعرية .

ولكن الإحساس بالطبيعة بعد ذلك قد فقد رنينه فى شعرهم ، ذلك لأن الحياة قد تغيرت ، ولأن عالم الرعى لم يصبح هو المسيطر على الحياة ، ولأنهم عرفوا طريقهم إلى الحياة الجديدة بعد أن نشر الإسلام لواءه فوقهم .

صحيح إننا نجد عندهم صوراً متأثرة بعالم الزراعة كما فى رثاء خفاف لأبى بكر ، ونجد دائماً اهتماماً بالمكان عند هؤلاء الشعراء ، ولكنهم بمرور الزمن لم يستطيعوا الاحتفاظ بالحياة الرعوية البسيطة من حولهم ، وفى الوقت نفسه لم يكونوا طبقة مترفة بحيث تعرف هذا العالم الخملى من أدب الطبيعة الذى رأيناه بعد ذلك عند الشعراء العرب حين امتدت خطواتهم حتى وصلت — فى ثقة — إلى الأندلس .

وفى ضوء هذا كانت الطبيعة فى شعرهم مما يستعان به فى الغالب على تكوين القصيدة دون أن تكون هدفاً يسعى إليه الشاعر ، أو واقعاً يسيطر على القصيدة ، وإن كنا نستثنى من هذا النصيب الأكبر ، ذلك لأن الطبيعة فى شعره رفافة ونضيرة وفارشة خضرتها وحيويتها على الكثير من شعره .

أما الشاعر فى السودان « فهو مأخوذ بالطبيعة من حوله، حنّان عليها، متخذ منها أدواته للتعبير ... وقد يلقى عليها الشاعر ذكرياته وأفكاره فيلمس الإنسان تعاطفه معها [1] » وبصفة عامة نرى أن تناولهم للطبيعة تناول حسى داخل دوائر كونية صغيرة ، وإن كان الاهتمام بالطبيعة هنا ليس معناه الوقوف الحاسم عند الطبيعة الصامتة فى الأشياء ، ذلك لأنا نراهم يحدثون ضجة فى كل شىء حسى ، بحيث لانراهم فى حالة سكون ، وإنما فى حالة حركة » ... ومهما يكن من إيماننا بأن الشعر الأرقى يتجاوز عالم الحس، ويستشف العالم اللامنظور، ويصل إلى وحدة الوجود ، فلنتذكر أن الشعر لاينجح فى شىء من هذا . بل هو لا يتحقق أصلا إلا إذا نجح فى تقييد هذا العالم اللامادى فى أشكال محسوسة [2] ولقد استطاع الشعراء السود بحق أن يجعلونا نمسك بالكثير من أشكال الطبيعة فى بساطة وبلون تعقيد .

ونحن لا ننسى اهتمامهم الخاص « بالمكان » وتحديده فى شعرهم إلى حد الاستدلال به على ضبط بعض المواقع وتحديد أماكنها على نحو مانعرف من شعر خفاف بن ندبة بصفة خاصة .

(ح) الحماسة :

المقصود بكلمة الحماسة هنا معناها الحربى Bravoure أى الشجاعة والبأس والضرب والطعان ، وقد اهتم المؤلفون القدامى بهذا اللون من الشعر ، إلى حد أنهم سحبوا كلمة الحماسة « على كل شعر وجدوا فيه قوة وروعة وجزالة وأسراً [3] » ، وإذا كان هذا اللون من الشعر لايذكر إلا حين يصور الشاعر عواطفه إزاء ممدوحه ، أو بصدد الفخر

---

(١) الشعر الحديث فى السودان ٥٧٥ ، ٥٧٦ .

(٢) الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه ١ - ٢٩٩ .

(٣) شعر الحرب ٨ .

بنفسه أو الفخر بآبائه وأجداده (١) ، فإننا نجد أن الشاعر الأسود يتخذ من هذا الشعر ذريعة ليعلن عن نفسه وسط المحيط القاسى الذى يعيش داخله ، فهو يحول « نحن » إلى « أنا » وهو يتقرب إلى حبيبته بدمه المسفوح على حد قول عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مى وبيض الهند تقطر من دمى

وهو لايطلب الغنائم الصغيرة ، وإنما يفعل كما فعل خفاف :

تيممت كبش القوم حتى عرفته وجانبت شبان الرجال الصعالكا

وهو يدخل الحرب غير هياب ، بل إن فى ذهنه أن يميت الموت كما نرى عند الشعراء الأغربة وهو يقتحم على الموت باباً بعد باب .

فالحرب لم تكن شغل السادة فقط ، ولكنها كذلك « كانت شغل الصعاليك ومرام الأغربة السود من العائدين ، ودأب اللصوص السارين ، وشرار الليل ، فصعاليك العرب كانوا يساوون بفروسيتهم وخوارق بطولاتهم شجاعة السراة المغاوير (٢) » ولقد أسهم أكثر من شاعر فى هذا اللون من الحماسة الذى كان يراه وسيلة للإعلاء النفسى ومحاولة لجذب الأنظار إليه ، وتأكيداً لشخصيته الفردية فى مواجهة الذين يعملون على طمس هذه الشخصية ، وكذلك يمكن أن نرى فيها نوعاً من الانتقام من المجتمع ، وبخاصة عند هؤلاء الشعراء الخارجين عليه ، بل قد نجد فيها عند الشاعر شفاء للنفس وإبراء للسقم على حد قول عنترة :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

والخيل تقتحم الغبار عوابسا مابين شيظمة وأجرد شيظم

ذلل ركابى حيث شئت : مشايعى لبىّ ، واحفزه بأمر مبرم

---

(١) الشعر فى ظل سيف الدولة ١٧٤ – ١٧٥

(٢) شعر الحرب ٣٥

ولكن بمرور الزمن لانجد الشعراء الفرسان من السود ، بل نرى أبا دلامة — على نحو مامر بنا — يجعل من نفسه مضحكاً فى ميدان القتال . ثم تهدأ روح الفروسية وتتغير نبرة الصدق فى التعبير عنها، فبعد أن كانت نسبة الشاعر سيفه كما يقول عنترة ، وبعد أن كان خفاف يتكلم والرمح يأطر متنه ، وبعد أن كان السليك يذعر الإبل بصوت قتيله ، أخذ الشاعر يتكلم عن شجاعة غيره كالهكرك وابن شكلة والنجاشى أو يجعل من الحرب وسيلة للضحك والعبث كأبى دلامة . أو يؤثر الابتعاد عن المنايا ، لأنه يكرهها على غيره ، فكيف يحبها لنفسه كابن أبى فنن ، وقد يتكلم عن شجاعة زائفة كمحمد إمام العبد ، ثم يذكر أنه وهو يكتب هذا اللون الحماسى من الشعر قفزت قطة من كوة الدار فكاد لبه يطير شعاعاً .

.. وعلى كل فهذا العنفوان الذى كان فى الماضى يملأ نفس الشاعر الأسود قد استحال بمرور الأيام إلى نوع من الوداعة ، وخاصة بعد أن روض أحياناً بعنف فى المجتمع .

(ط) الخمريات :

لقد كان الشاعر الأسود يقبل على متع الحياة الحسية بنهم ، وإذا كنا قد ذهبنا إلى أن سحيماً هو الرائد الحقيقى « للأدب المكشوف » على الرغم من أن امرأ القيس له باع فى هذا . فإنا نستطيع أن نقول إن عبدة بن الطبيب كان رائدا فى الخمريات بحق وأن من جاءوا بعده — كأبى نواس — كانوا عيالا عليه .

لقد كانوا من قبل طبقة فقيرة لا تستطيع أن تستمتع تمام الاستمتاع بالشراب وما يستتبعه هذا الشراب ، ولكن حين أقبلت على بعضهم الدنيا رأيناهم يغرقون فيها فالشعراء الذين سبقوا ابن الطبيب لم تكن لهم وقفة على الخمر كوقفته. ذلك لأنه رأى نفسه فى أرض العراق، ورأى أن الخمر هناك لايضيق على صاحبها ، ومع أن ذهابه إلى هناك كان من

أجل الجهاد فى سبيل الله ، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من حضور مجلس مشهود لها ، وكيف أنه حشد الملذات من حوله حشداً من أجل الشراب على نحو ما فصلناه من قصيدته التى يقول فيها :

والكوب أزهر معصوب بقلته   فوق السباع من الريحان اكليل
مبرد بمزاج الماء بينهما   حب كجوز حمار الوحش مبزول
والكوب ملآن طاف فوقه زَبَدٌ   وطابق الكبش فى السفود مخلول

ولقد كانت الخمر محنة للشاعر النجاشى الذى شربها فى رمضان ، وكان أن ضربه الإمام على ثمانين سوطاً ، ثم لما زاده عشرين ، فقال له النجاشى : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ قال : هذه لجرأتك على الله ، وقد كان هذا سبباً فى هجائه أهل الكوفة ، ونحن نجد من قول سحيم فى حبيبته معرفة بها خاصة حينما يقول :

كأن على أنيابها بعد هجعة   من الليل نامتها سلافا مبردا .. الخ

وقد مر بنا أن الخمرة كانت المحنة الحقيقية لأبى دلامة ، وأن سبب حبس نصيب الأصغر أنه كان قد بدد بعض أموال الدولة على الشراب ، وقد وصل بعضهم إلى حد الإعجاز فى وصفها كقول العكوك :

وصافية لها فى الكأس لين   ولكن فى النفوس لها شماس
كأن يد النديم تدير منها   شعاعاً لاتحيط عليه كاس

ونجد مثل هذا عند ابن شكلة، وعند ابن أبى فنن ، ومانريد أن ننتهى إليه أن الريادة الحقيقية فى فن الخمريات كانت لشاعر أسود هو عبدة بن الطبيب ، وأن الخمر قد ظلت بعد ذلك محنة للشاعر الأسود ، ومصدر سعادة له ، فقد كانت تنسيهم واقعهم البائس ، وتساعدهم على الهرب من تعقيد الحياة من حولهم .. ولكنها فى الكثير من الأحيان كانت غير متاحة لعدد منهم ، خاصة وأنها كانت تحاط بعدد من المتع ماكانت تتاح لأمثالهم :

(ى) اغراض اخرى :

كثير تلك هى الأغراض الرئيسية للشعراء السود فى نظرنا . ومع هذا فنحن لانعدم أغراضاً وفنوناً أخرى ، سواءاً أخذنا بالرأى الشائع من أن قواعد الشعر هى : الرغبة والرهبة والطرب والغضب ، أم أنها كما قال على بن عيسى الرمانى : النسيب والمدح والهجاء والفخر والوصف ويدخل التشبيه والاستعارة فى باب الوصف - أم أنها كما قال عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى : المديح والهجاء والحكمة واللهو . .

وإذا كان قوم قالوا : إن الشعر كله نوعان : مدح وهجاء . وقال أرطأة ابن سهية : والله ما أطرب ولا أغضب ولا أشرب ولا أرغب . وإنما يجيء الشعر عند إحداهن ، فإننا لانعدم وضع شعر السود داخل هذه الدوائر ، بل حتى فى الأبواب العشرة التى وضعها أبو تمام فى ديوان الحماسة [1] .

ولكن الذى رأيناه حقاً ملائماً للخطوط الرئيسية لشعرهم هو ماسبق أن وضعناه تحت الأغراض الآتية :

١ - عقدة اللون . ٢ - الفقر .
٣ - الحب . ٤ - الموت
٥ - الهجاء . ٦ - المدح
٧ - الطبيعة . ٨ - الحماسة
٩ - الخمريات .

١٠ ، ١١ - بالإضافة إلى ظاهرتى الغضب والسخط عند الحيقطان ، وسنيح ، وعكيم ، وصاحب الزنج ، واللتين نرى الاكتفاء بما قيل عن الذين يمثلونهما حتى لايكون تكرار ، ولقلة المروى عنهم جميعاً بصفة خاصة .

---

(١) العمدة ١ - ٧٨ ، معلقات العرب ٣٠٢ ، ٣٠٣ ؛ الحماسة .

٢ ـ شعر الشخصية

هناك من يرى أن الشعر هروب من الوجدان كما انه هروب من الشخصية فالعمل الفنى لايعبر عن شخصية الفنان ، لأنه مجموعة من التفاعلات التى تنتج عن الخبرات والمؤثرات الخارجية التى تفاعلت مع عقل الفنان ، ثم إن هذه التفاعلات قد لايكون لها أثر فى حياة الكاتب والفنان ، كما أنها لاتتصل بشخصيته من قريب أو بعيد ذلك لأن تقدم الفنان لن يكون إلا بالدأب على التضحية الذاتية أى الدأب على محو شخصيته ، ومن هنا يكون المطلوب من الناقد أن يكون اهتمامه بالنص بعيداً عن شخصية الفنان وميوله ونزواته الخاصة « فالعمل الفنى متكامل فى حد ذاته ، له كيانه بقدر ماله موضوعيته (١) »

وعلى كل فشعر الشخصية لم يظهر ظهوراً واضحاً فى الشعر العربى ، ذلك لأن الشاعر فى كثير من شعره كان يعطى شعره للقبيلة ، أو للنظام ممثلا فى شخصية الخليفة والطبقة العليا من حوله ، ولما كانت هذه الطبقة بيدها الأمر ، وكان الشاعر كثيراً مايطرق أبواب هذه الطبقة ويده مفتوحة ومتوسلة ، فان شخصية هذا الشاعر فى الغالب كانت ضائعة ، ومهتزة . صحيح إن شعر الغزل والهجاء الشخصى ، والرثاء ، والوصف .... الخ

---

(١) اليوت . د. فائق ص ٢٣ — ٣٥ .

قد يعبر عن الذات ، ولكنه صار تقليداً مملا بحيث يصعب من خلاله الحكم على « شخصية الشاعر » وعلى كل فلقد كانت « شخصية » الشعر الأسود أكثر ظهوراً من شخصية أمثاله من الشعراء .

لقد كان من المقاييس التى أطلقها العقاد على الشاعر مقياس يقول : « إن الشاعر لابد أن يعرف من شعره ، والعقاد يسمى هذا اللون من الشعر « شعر الشخصية » وهذا المقياس فى حقيقة أمره يعد فرعاً عن الصدق ، لأن الشاعر حين يبعد عن التقليد تظهر شخصيته فى شعره على أية حال ، سواء تحدث عن نفسه صراحة ، أو اختفت نفسه وراء خواطر صادقة تعلن عن صاحبها ، وتبين عن خصائصه وآرائه مشاعره وذات نفسه » فمزية الشخصية .. على حد تعبير العقاد إذا كانت تعتبر فى المقام الأول من الشعر المطبوع ، فإنها بلا شك توجد بارزة وواضحة عند « الشعراء العبيد (١) » .

ونحن ان نجد عندهم « الشخصية الممسوخة » ، لأننا نعثر على الشخصيات المتميزة عند عنترة ، والسليك ، وسحيم ، ونصيب ، وأبى دلامة ، ولايكون التمييز لمجرد اختلاف الموضوع مع بقاء الطبيعة فى القصائد المختلفة ، بل وتميز بالروح والدلالة والأسلوب (٢) فالسود بخروجهم على المجتمع ، وبرفضهم له فى الظاهر أو الباطن يركزون على « الفرد » لاعلى « النوع » فالفرد عندهم كما هو الحال عند الوجوديين . هو الوجود الحقيقى ، أما النوع الإنسانى فصوره ليست لها حقيقة خارجة عن الوجود ، ومتى كان الفرد المحسوس هو الموجود الحقيقى فإنه لاينبغى التضحية به من أجل صورة لاوجود لها فى عالم الحقيقة .

فالشاعر الأسود فى أكثر الأحيان كان يحمل أزمته الخاصة أكثر مما يحمل أزمة الآخرين ، ولهذا نرى عنترة يحول بحسم « نحن » إلى

---

(١) عباس العقاد ناقداً . د. عبد الحى دياب ٣٧٨ ، بين الكتب والناس ٧٣ .

(٢) بين الكتب والناس ٧٥ .

« أنا » ثم إن الشاعر الأسود لم يكن يعيش فى معازل على طول امتداد التاريخ – إذا استثنينا ثورة الزنج المعروفة – ومن هنا رأيناه يعبر عن أزمته الخاصة ، أو يتصالح معها ، ولقد كان غاية جهده أن يقول – كالسليك :

أشاب الرأس أنى كل يوم   أرى لى خالة وسط الرجال
يعز على أن يلقين ضيما . .   ويعجز عن تخلصهن مالى

أو يتحدث عن أسرته كما فعل نصيب الأكبر ، أو يتحدث عن أمه كما فعل عنترة ، أما التعبير عن قضية الإنسان الأسود بصفة عامة فإننا لانجدها عند الشعراء السود ، قد نجد لها ظلالا فقط – تحت دافع – كما رأينا عند الحيقطان وسنيح ، وعكيم .

ولعل هذا راجع إلى حالة التصالح التى كانت تعقد بين الشاعر ومجتمعه متى نبغ ، بالإضافة إلى أن المجتمع العربى والإسلامى لم يكن يسخر من السود كمجاميع من الناس ، وإنما كأفراد ، سواء أكانت هذه السخرية عن غضب أم عن تفكه .

ثم أننا لانجد عندهم محاولة للعودة إلى مسقط الرأس ، أو الانسلاخ من المجتمع – كما كان الحال عند الشعراء « الزنوج » فى فرنسا – وإن كنا نجد عندهم محاولة للتنقيب عن النفس ، ومحاولة الهبوط إلى الداخل ، فموقفهم فى الغالب موقف إنسان منحن على ذاته فكأنه إلى حد ما – « نرجسى » ينظر ، إلى نفسه حين يرى . . ينظر كى يرى نفسه وهو ينظر ذلك أن الشاعر الأسود كثيراً ما كان يجد أمنه فى الداخل أكثر مما كان يجده فى خارج نفسه وفى ضوء هذا كانت تتحدد الكثير من قسماته .

وعلى كل فهم حين يتكلمون عن أنفسهم يتكلمون عن السود من أمثالهم ، وقد تعرض سارتر للشعراء السود المعاصرين فقال : « ولسوف أسمى هذا الشعر بـ « الأورفى » لأن هبوط الزنجى الذى لا يكل

إلى أعماق ذاته : يذكرنا بأورفيوس ، وقد ذهب يطالب باوتون بأوريدس [1] » .

وعلى كل فإذا أدركنا أن « الفردية » غير « الشخصية » وأن شعر الشخصية كما يظهر في التجارب الذاتية يظهر في التجارب الموضوعية ، أدركنا أن « شعر الشخصية » يتحقق أكثر مما يتحقق عند الشاعر الذى يدرك مزايا الحس ، ولاشك في أن مزايا الحس سمة من سمات الشاعر الأسود .

فما يؤثر حتماً في مجال الشعر هو هذا الشعر الذى يصدر من أعماق الإنسان الفردية وأكثرها « شخصية » فالمطلوب من الشاعر أن يكون ذاته ، وفي ضوء هذا تكون القصيدة إظهاراً فريداً للشخصية .

وإذا كان هناك من لاحظ أن شخصية الشاعر لا يمكن العثور عليها في الشعر الجاهلي بصفة عامة . ذلك لأنها اندمجت تماماً في القبيلة على نحو مانعرف من معلقة عمرو بن كلثوم [2] . فإن الذى لاشك فيه أن هناك فرقاً بين هذه المعلقة ومعلقة عنترة . وهناك دائماً . فرق فيما يتصل بالتعبير عن الشخصية بين شعر الشعراء السود وشعر غيرهم .

ولعل مما ساعدهم على هذا أن العمل الفنى هو بمعنى من المعانى تحرير الشخصية ، إذ تكون مشاعرنا .. بصورة طبيعية . مكبوتة مضغوطة . أننا نتأمل عملا فنياً فنشعر بشئ من التنفيس عن مشاعرنا . بل إننا لانشعر بهذا التنفيس فحسب .. والتعاطف نوع من التنفيس عن المشاعر . ولكننا نشعر أيضاً بنوع من الإعلاء والعظمة والتسامى [3] » وفى كل هذه آثار للوظيفة التنفسية كالعبارات والجملة التى تستعمل دون هدف معين [4] .

---

(١) مواقف ٢ – ص ٨٩ .

(٢) ضحى الإسلام ٥٩ .

(٣) معنى الفن : ٥٤ ، ٥٥ .

(٤) طرق تنمية الألفاظ د. إبراهيم انيس ص ٥ ، ٦

والذى لاشك فيه أن مشاعر الشعراء السود كانت مكبوتة ومضغوطة ، وأنهم كانوا ينفسون عن أنفسهم بما يقولون من شعر ، ومن هنا يمكن القول بأن الشاعر « يستشفى » حين يقول الشعر ، ثم إنه فى فترة توهجه يفجر أشياء كثيرة تقيم فى نفسه دون إدراك لكنهها ، ومن ثم يمكن أن تتحول القصائد إلى « عدد من الشفرات » يمكن تقديم ترجمة لها . . . ومن هذا وغيره يمكن أن نعثر على ما يسمى « شعر الشخصية » حتى حينما يتعرض الشاعر النموذج من الناس فى الجماعات العامة يجب أن ينفذ منه إلى أفراد الناس — على حد تعبير العقاد — شخصية لها استقلالها عن سائر الشخصيات ، فالشاعر يجب ألا يكون كالشركة تقدم ملابس جاهزة ، وإنما كالترزى يقدم بدلة لكل واحد « فإذا امتدح شعراء العصر جميعاً وزراء العصر جميعاً فليس أمامنا غير وزير واحد تتكرر شمائله وأعماله فى كل قصيدة بمختلف العبارات والأساليب ، وإذا تغزل مائة شاعر فى معشوقاتهم فالمحاسن المحبوبة واحدة فى جميع هؤلاء المعشوقات . . فلابد من علاقة حاصلة ، أو واقعة محددة »(١) .

ثم إنه يجب أن نذكر هنا أنهم — لظروفهم الخاصة — قصروا فى « الرواية » عن الآخرين ، والتى يراها مثلا القاضى الجرجانى ضرورية ؛ وما أكثر الشعراء الذين كانوا رواة لشعراء (٢) . ولعل هذا كان وراء ظهور شخصيتهم . .

ونحن لاننسى أن « الأنا » عند بعضهم قد انسحقت وتحولت إلى ما يمكن تسميته « اللاأنا » وبخاصة عند الشعراء المقلدين والمستأنسين كأبى المسك كافور ، وابن الياسمين وإبراهيم الكنانمى ، ولكن الصورة العامة لشعر السود توضح أن كثيراً من شعرهم يمكن أن يوضع تحت عنوان « شعر الشخصية » .

---

(١) دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية ٤٢ .

(٢) الوساطة ١٥ .

٣ ـ المواقف

أطلق ا . ا . رتشاردز اسم المواقف على تلك الضروب من النشاط الصورى ، والشروع فى الفعل أو تلك النزعات إلى الفعل ، ثم ذكر أن النقد قد أهمل هذه الناحية من التجارب ، وهى هذه الناحية التى تحفل بالشروع فى الفعل ، والإثارة الطفيفة للنزعات ، والتهيؤ للقيام بفعل معين دون غيره « ومع ذلك فمعظم ما فى آثار الشعر من قيمة لا يمكن وصفه إلا فى حدود الموقف والتوفيق والتوازن بين الموافع وإزالة التوتر والاضطراب فيما بينها بحيث يضفى كل دافع على الآخر حياة وغنى (١) » .

وعلى كل فكلمة « الموقف » من الاصطلاحات الفلسفية الحديثة ، والمعنى الذى تدل عليه هو علاقة الكائن بالبيئة التى يعيش فيها ، وعلاقته كذلك بالآخرين فى وقت ومكان محددين .

فالموقف كشف للإنسان عما يحيط به من أشياء ومخلوقات ، سواء أكانت وسائل لحريته ، أم عوائق فى سبيلها ، وموقف الإنسان لا يمكن أن يتحدد إلا بمشروع يقوم به ، غايته أن يغير من حالته الحاضرة وسط العديد من العوامل التى يجب أن يتجاوزها « فالموقف يتألف من

(١) مبادىء النقد الأدبى ١٦٤ ، ١٦٥ .

عوائق ، ومن مقاومة لها فى وقت معاً . وبه يكون الإنسان فى تغير تبعاً لمشروعه ، وما يبذله من جهد فيه . وفيه يتحقق وجود المرء عن طريق العمل والصراع ، بوجوده فى حالة ما ، وتجاوزه هذه الحالة فى آن . . فما الوجود الإنسانى فى المشروع سوى وجود فى موقف (١) » .

من هنا نعرف أن الموقف غير الموضوع ، باعتبار أن الموضوع هو المادة التى تتنوع أشكالها بوساطة الكتاب والشعراء . أما الموقف العام فيكتسب طابعاً محدداً . ولكى يتحدد الموقف العام يستلزم وجود إنسانية تتحرك بطموحها نحو غاية خاصة ، وفى الوقت نفسه تحرص على الحصول على خير . أو تعمل على تجنب شر .

وفى هذا الإطار يمكن أن نضع عنترة وهو يسعى إلى الحرية وسحيما وهو يهرول إلى اللذة ، ونصيباً الأكبر وهو يعمل على تحرير أهله . وسديفا وهو يدب إلى الثأر . وابن شكلة وهو يندفع للاحتفاظ بالخلافة وكذلك أبا الحسن أحمد الرشيد ، بالإضافة إلى هذا السعى الحثيث إلى المال كما نرى عند كثيرين . فى طليعتهم أبو دلامة ويمكن كذلك أن نضع فى هذا الإطار السليك وهو يذود الموت عنه . وكذلك العكوك فى الفترة الأخيرة من حياته .

لقد كانت هناك قوة إنسانية تتحرك ، وقوة أخرى منافسة لها تعوقها عن الحركة ومن هنا كان يحتدم الصراع ، ولقد تمثلت القوة التى تناوئهم فى المجتمع من حولهم . فكل منهما قد قطب فى وجه الآخر ... أو رفع السلاح !

وإلى جانب هاتين القوتين توجد تلك القوة الثالثة التى تمثل الخير المطلوب أو الخطر المرهوب ، وهى حينئذ تكون بمثابة « قطب الصراع (٢) وقد تتمثل هذه القوة فى حبيبة كعبلة ، وقد تكون مثالا مجرداً كالحرية .

---

(١) الأدب المقارن ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
(٢) المصدر نفسه ٢٩١ .

وعلى كل فكلما ارتفعت درجة التحدى ارتفعت قامة الرجال الذين يردون على هذا التحدى ، ولقد كانت هناك -- بحق -- مأساة شريرة فرضت نفسها على هؤلاء الشعراء ، ومن هنا توفرت أوضاع الصراع ، وكان لابد من الحركة ومن الاصطدام، ومن كلمة جديدة يقولها هؤلاء الشعراء سواء أكانت صارخة أم هادئة . إنهم فى هذا الضوء يختلفون عن الشعراء الخوارج الذين طرحوا وراءهم العصبية القبلية والجنسية وأصبحوا مذهبيين على نحو مانعرف من الشاعر عمرو بن الحصين الذى نسى فارسيته -- وشعوبيته من أجل وجهة النظر التى اعتنقها .

وهم يختلفون عن شعراء الشيعة الذين لم يفرغوا لمذهبهم « فاشتغلوا بغيره من المدائح والأهاجى والتكسب بالشعر حتى تحول الكميت أموياً يدعى الأخذ بالتقية ، وابن الرقيات شاعر الزبير يبن ترضى عبد الملك بحجة أنه قرشى ، وكانت كثرة الأمويين مرتزقة تجرى وراء المال » (١)

ومع أن الاختلاف مع الشعراء السود ليس حاسما ، إلا أن الذى لاشك فيه أن موقف الشاعر الأسود يختلف عن موقف غيره ، ذلك لأن قضية سواده لا يمكن الاختلاف عليها ، ولأن المجتمع سواء أكان مغاضباً أم مشفقاً ، أم راضياً فإن الشاعر الأسود كان يحس -- وفقاً للظروف -- أن نظرة المجتمع إليه ليست سوية ، أو حانية ، أو متوددة ، وخاصة أنه كان يحس أنه ضيف على بعض المجتمعات وليس جزءاً من نسيجها .

ولقد تنبه « فرانز فانون » إلى أن شعر السود هو شعر مواقف ، وكان فيما قاله عن هذا الشعر : « إننى لم أجد فى هذا الشعر موقفى فقط ، ولكنى وجدت فيه نفسى أيضاً ، إننى أحس أن فى نفسى روحاً فى ضخامة هذا العالم واتساع آفاقه ، روحاً فى عمق أعمق الأنهار ، إن صدرى يكبر ويتسع حتى يصل إلى النهاية » (٢)

---

(١) تاريخ الشعر السياسى ١٧٠ .

(٢) الإنسان : ٢٥ .

وفى ضوء هذا نجد الكثير من شعرهم يبدو « رد فعل » للحياة المغضبة لهم ، ومن أهم من نجد فى شعرهم هذه الظاهرة الشعراء الثلاثة المغضوبين : الحيقطان ، وسنيح ، وعكيم . كما نجد المرارة والألم عند الكثير من الذين يعون واقعهم ، ولكنهم لايستطيعون تغييره . على حد قول الشاعر فلحس الأسود :

ولولا عُسَريقٌ فىَّ من حبشيّةٍ   يردّ إباقى بعد حَوْلٍ مُجَرَّم
وبعدَ السُّرى فى كل طخياء حِنْدِس   وبعد طُلوعى مَخْرِماً بعد مَخْرِم
علمتَ بأنّى خيرُ عبدٍ لنفسه . .   وأنّك عندى مغنمٌ أىّ مغنم . .
أيضربنى فرداً ولو كان مُفْرَدا   تبيَّنَ أنّ الليثَ غير مقلَّم ؟ ! (١)

---

(١) الحماسة البصرية ١ — ٥٦ .

٤ ـ الانفعال

ذكر أحمد الشايب أن كلمة Emotion تقابلها فى العربية كلمة انفعال ، وأن المعاجم الانجليزية تفسر كلتا الكلمتين بالأخرى ، فتضع أمام Emotion حين تفسرها كلمة Sentment ثم ذكر أنه يؤثر كلمة العاطفة على الانفعال لشيوعها فى الدراسات الأدبية ولقربها من معنى الانفعال ، ثم إن كلتيهما ظاهرة وجدانية كما هو معروف فى علم النفس(١) .

وابتداء ، نحن نجد النقاد العرب قد ذهبوا فى تقسيم العواطف الأدبية إلى قسمين : أحدهما ذكر الانفعالات وما تنتجه من فنون كقولهم قواعد الشعر أربع : الرغبة وتنتج المدح والشكر ، والرهبة وتنتج الاعتذار والاستعطاف ، والطرب وينتج الشوق ورقة النسيب ، والغضب وينتج الهجاء والتوعد والعتاب .. والثانى أن يذكروا الفنون الأدبية مع ملاحظة مابعثت من عواطف أو نشأ عنها من انفعالات كقولهم الشعر نسيب ومد وهجاء وفخر (٢) .

وعلى كل فنحن نؤثر كلمة الانفعال على العاطفة ، لأنها تصدق على شعر السود أكثر مما تصدق كلمة العاطفة ، ولأن كلمة

---

(١) أصول النقد الأدبى : ١٨٠ .

(٢) الأسلوب ٦٠ ، العمدة ١ — ٧٨ .

العاطفة تقترب من الرقة والنعومة وهذا يبعدها إلى حد ما عن تجربة الشاعر الأسود .

والانفعال في المجال الذي نقصد إليه لا يمكن أن يكون مجرد خلط . أو مجرد اضطراب . ذلك لأنه فعل واع . ومن هنا يكون الانفعال له معنى . وفي الوقت نفسه يدل على شيء . فهو نوع من العلاقة بين كياننا النفسي والعالم « وهذه العلاقة . . أو بالأحرى الوعي الذي ندركه عنها .. ليس بمثابة صلة مختلطة بين الأنا والكون . بل هي هيكل منتظم قابل للوصف » (١) فالوعي الانفعالي هو في مبدأ الأمر شيء يعي العالم ، ووراء هذا الوعي إدراك حسي . ثم إن هذا الانفعال يعود في كل لحظة إلى موضوعه ، يعود ليستمد بقاءه منه « والآن نستطيع أن نفهم ماهو الانفعال ، إنه تحويل للعالم . فحين تصبح الطرق المخططة شديدة الصعوبة أو حين لانرى أي طريق . لانستطيع عند ذلك أن نبقى في عالم ملح وصعب إلى هذا الحد . وإذا كانت جميع الطرق مسدودة . فمن الواجب أن نفعل شيئاً رغم ذلك . عندئذ نحاول بأن نغير العالم . أن نعيش كما لو كانت علاقات الأشياء بممكناتها غير منظمة بواسطة مناهج حتمية ، بل هي منظمة عن طريق السحر » (٢) .

ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن كل تجربة انفعالية تتميز بصفتين أساسيتين : أولاهما استجابة تسري في أعضاء الجسد تنشأ عن طريق الأجهزة التعاطفية . والثانية نزوع نحو فعل من نوع محدد . أو من مجموعة من أنواع محددة (٣) . فإذا أدركنا أن الانفعال - كما يقال - شيء زنجي (٤) أدركنا أن شعر السود شعر انفعال في أكثره . فهو ارتعاشة القلب .

---

(١) نظرية الانفعال . سارتر . ترجمة هاشم الحسيني ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) نظرية الانفعال : ٤٨ ، ٥٤ .

(٣) مبادئ النقد : ١٥٢ .

(٤) الأدب الأفريقي الآسيوي العدد ١ مارس ١٩٦٨ .

وهو الاستجابة السريعة ، وما يعنى الشاعر الأسود فى المقام الأول هو أن يعبر عن ردود الفعل التى تقابله فى الحياة ، وفى الوقت نفسه التعبير عن كرامته على نحو مارأينا من تلك الانفجارات السريعة عند الحيقطان وعكيم وسنيح ، وعلى نحو مانرى عند عنترة والسليك والنجاشى .

وإذا كانت هذه الانفعالات يمكن وضعها تحت عنوان الانفعالات الشخصية . فإنه يمكن وضع بعض شعرهم تحت عنوان الانفعالات الأليمة أو المدمرة ، على نحو ماعرفنا من دخول سديف على السفاح ثم قوله :

لايغـــرنك ما ترى من أنـــاس إن تحت الضلوع داء دويـــا
فضع السيف وارفـــع السوط حتى لاترى فـــوق ظهرهـــا أمويا

فهذا الشعر قد بعث فى نفس الخليفة حقداً قديما ، ربما كان قد ضعف أو مات ، ومثل هذا نجده بصفة خاصة عند الفضل اللهبى ، والنجاشى .

ثم إن هناك الانفعالات ذات الطابع الإنسانى التى تكسب الشعـــر صفة الخلود كبكائية أم السليك فى رثاء السليك ، وككثير من شعر نصيب الأكبر ، وبخاصة تلك القصيدة التى أولها :

كـــأن القلب ليلة قيل يغـــدى بليـــلى العـــامرية أو يـــراح

ومثل حديث نصيب الأصغر إلى ابنته فى السجن . ومثل حديث ابن أبى فنن لابنه حين سره مارأى منه ، وساءه مايرى الابن منه .

ونحن نجد المقاييس العاطفية أو الانفعالية يمكن أن تحقق فى شعرهم ، فصدق الانفعال أو صحته يمكن أن نجده فى شعر عنترة ، وقوة الانفعال أو روعته يمكن العثور عليها فى شعر السليك ، وثبات العاطفة أو استمرارها لانخطئها عند سحيم ، وتنوع الانفعال أو شموله من اليسير الاستدلال عليه فى شعر العكوك ، وسمو الانفعال أو درجته يوجد فى شعر نصيب الأكبر .

ومن الملاحظ أن حدة الانفعال عند الشعراء السود . وعدم التحكم الكامل لروح التوازن فى بعض الأعمال . يمكن القول بأنه لم يعطهم تماماً خاصية المتأمل فى الشعر . وذلك أنهم كانوا يدركون الحياة من حولهم إدراكا مفاجئا ومباشراً . ومن هذه « الصدمة » التى تشمل انفعاله ينتج شعره . وتأخذ كلماته شكلا وإيقاعا .

ولعل من المفيد هنا أن نذكر ما قاله إليوت من أن مهمة الشاعر تقتصر فى عدم الإتيان بالانفعالات الجديدة . وإنما فى الاستعمال العادى لهذه الانفعالات « وهو فى صياغتها شعراً إنما يعبر عن الأحاسيس التى لاتقتصر على الانفعالات الواقعية على الإطلاق . وستؤدى الانفعالات التى لم يختبرها من قبل نفس الغرض المنشود كتلك المألوفة . وعلى ذلك فإننا نعتقد أن القول بأن الشعر هو الوجدان الذى نسترجعه فى هدوء . هو منطوق غير صحيح « فالشعر ليس انطلاقا الوجدان بل هروبا منه [1] »

وعلى كل يمكن القول بأنهم لم يتعاملوا كثيراً مع الحقائق الجمالية . ولم يقفوا عند التطاريز التى أثقلت كاهل الشعر العربى . وفى الوقت نفسه نراهم قد عبروا بصدق عن « الروح الشعبية » فى الحياة العربية . ذلك لأنهم كانوا بعيدين عن الحذلقة . وكان أكثرهم فقيراً ومشدوداً إلى ضروريات الحياة . ومن هنا لم نر فى كثير من شعرهم المقدمات الطللية . أو الحوليات . كما لم نجد فى شعرهم الغموض أو الثرثرة المترفة . أو القصائد الطويلة كطوابير الجيش . ذلك لأنهم احتفظوا دائما بهذا الانفعال الحى الذى يفجر الكلمات ويحولها إلى فعل . .

---

(١) اليوت ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

٥ ـ الخيال

لقد كان نقاد المدرسة الكلاسيكية يهاجمون الخيال بعنف ، ويرون أنه « ملكة فوضوية » لاتراعي قانوناً من القوانين ، كما أنه يدفع إلى الهذيان والجنون باعتباره لايخضع لسلطان العقل ... أما نقاد المدرسة الرومانتيكية فقد اهتموا به ، وأكدوا أهميته في الشعر ، فهم لايجدونه مجرد ملكة من المفيد استخدامها في الشعر ولكنهم يجدون فيها طريقاً للوصول إلى الحقيقة ، ومعنى هذا أنهم أحلوا ملكة الخيال هذه محل العقل الذي يحتكم إليه الكلاسيكيون . (١)

أما الخيال عند الدارسين العرب فيستعمل كثيراً للإشارة إلى التهويم والترجيم حيث نفتقر إلى قدر معقول من التحدد كما يستعمل للتعبير عن شطح المبالغة ، ومجافاة الحقيقة ، وتنكب التجربة ، واقتناص شوارد الأوهام (٢) .

ويذهب ا . ا . رتشاردز إلى أن للخيال على الأقل ستة معان تستخدم في المناقشات النقدية على النحو الآتي :

١ - أكثر هذه المعاني شيوعاً - وإن كان أقلها أهمية - هو توليد صور واضحة .

---

(١) كولردج . د. محمد مصطفى بدوي ٧٩ ، ٨٠ .
(٢) دراسة الأدب العربي د. مصطفى ناصف ٨٤ .

٢ — غالباً لا يقصد بالخيال أكثر من استخدام لغة المجاز .

٣ — هناك معنى ضيق للخيال يوجد حينما يقصد به تصور الحالات الذهنية للغير عن طريق المشاركة الوجدانية .

٤ — هناك معنى آخر هو الاختراع أو الجمع بين عناصر لا رابطة بينها عادة .

٥ — يقصد ، كذلك الجمع الملائم بين أشياء يظن الناس عادة أنه لا رابطة بينها .

٦ — أما المعنى الأخير فهو هذا المعنى الذى اهتدى إليه كولردج[1]

وقد تنبه كولردج إلى وجود ماسماه ملكة الخيال حين كان يصغى إلى الشاعر وردث وورث وهو يلقى إحدى قصائده . فقد وجد فى هذه القصيدة ما لم يجده فى كثير من الشعر من قبل ، ومن هنا ظهرت له موهبة الشاعر « فى القدرة على تكييف مايلاحظه من الموضوعات ، وفى الجمع بين الملاحظة الدقيقة والخيال الأصيل ، وبين الإحساس العميق ، والفكر الثاقب ، كما تظهر فى قدرته على خلق جو أو نغم خاص . نشره حول الأحداث والمواقف والأشخاص التى تتكون منها القصيدة ؛ وفى قدرته على خلع غلالة من المثالية عليها جميعاً ، بحيث إن الشاعر تمكن من إزالة ماوضعته العادة من حجب بين الناظر وبين هذه الأحداث والمواقف والأشخاص فبرزت حقيقتها أمام عينيه جديدة كل الجدة[2] » .

ومن ثم انتهى إلى التعريف الشهير للخيال فقط : « إننى أعتبر الخيال إذن إما أولياً أو ثانوياً فالخيال الأولى هو فى رأيي القوة الحيوية أو الأولية التى تجعل الإدراك الإنسانى ممكناً ، وهو تكرار فى العقل المتناهى لعملية الخلق الخالدة فى الأنا المطلق ، أما الخيال الثانوى فهو فى عرض صدى

---

(١) مبادىء النقد ٣٠٩ — ٣١٠ .

(٢) كولردج : ٨١ .

للخيال الأولى ، غير أنه يوجد مع الإرادة الواعية وهو يشبه الخيال الأولى فى نوع الوظيفة التى يؤديها ، ولكنه يختلف عنه فى الدرجة ، وفى طريقة نشاطه ، إنه يذيب ويلاشى ويحطم لكى يخلق من جديد ، وحينما لاتتسنى له هذه العملية فإنه على أية حال يسعى إلى إيجاد الوحدة ، وإلى تحويل الواقع إلى المثالى ، إنه فى جوهره حيوى ، بينما الموضوعات التى يعمل بها - باعتبارها موضوعات .. فى جوهرها ثابتة لاحياة فيها ، أما المتوهم فهو على نقيض ذلك ، لأن ميادانه المحدود والثابت ، وهو ليس إلا ضرباً من الذاكرة تحرر من قيود الزمان والمكان ، وامتزج وتشكل بالظاهرة التجريدية للإرادة التى نعبر عنها بلفظة « الاختيار » ويشبه المتوهم الذاكرة فى أنه يتعين عليه أن يحصل على مادته كلها جاهزة وفق قانون تداعى المعانى » (١) .

ونحن لاننسى هنا رأى عبد الرحمن شكرى فى التفرقة بين الخيال Imagination والوهم Faniy فقد ذكر أن التخيل هو أن يظهر الشاعر الصلات التى بين الأشياء والحقائق ، ويشترط فى هذا النوع تعبيره عن حق ، أما التوهم فهو أن يتوهم الشاعر صلة ليس لها وجود ، وهذا النوع يغرى به الشعراء الصغار (٢) .

من كل هذا نرى أن الخيال الأول يشترك فيه كل الناس فى عمليات المعرفة ، أما الخيال الثانوى وهو خيال الشعراء فيوجد مع الإرادة ، وإذا كان الأول خلاقاً بمعنى أن الناس عن طريقه يقابلون بين ذواتهم وبين العالم الخارجى ويجعلون من العالم الخارجى موضوعاً لذواتهم .. فان الثانى خلاق كذلك بمعنى أنه يخلق إنتاجا فنياً حياً ، والفرق بين هذا الخيال والتوهم هو أن الأخير لايوجد ولاينتج إنتاجا حياً ، بل تبقى المادة التى

---

(١) فى الأدب الحديث ٢ — ٢٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ٨٧ ، ٨٨ .

يعمل بها جزئيات باردة من غير حياة ولقد كان من أهم نتائج هذه النظرية النظر إلى الشعر لا على أنه وسيلة للتسلية واللذة ، ولكن على أنه وسيلة من وسائل تفهم الحقائق وتقييمها [1] .

وهكذا نرى أن نظرية الشعر فى جوهرها تعنى بالتجربة الخيالية [2] ونرى أن وظيفة الشعر الكبرى - كما يقول سنتيانا - هى اللجوء إلى مادة التجربة ، والإمساك بحقيقة الحواس والخيال الكامنة تحت سطح الأفكار التقليدية [3] .

وقد ذكر النقاد من أنواع الخيال . الخيال الابتكارى . والخيال التأليفى ، ثم هذا الخيال البيانى أو التفسيرى . وهو هذا النوع الذى يغلب على الأدب العربى . فهو يصور الأشياء على أساس الإضافة إلى أشياء أخرى تقويها وتظهرها ، مستعينا على ذلك بالفنون البلاغية المتوارثة [4] . ذلك لأن الخيال هنا يقوم على الأفكار الجزئية . ويستمد بقاءه منها ، أما استخدامه .. أى الخيال - طريقاً من طرق الإقناع النفسية والكونية بتصويرها فى صور متكاملة فشىء لم يعرف كثيراً فى الشعر العربى .

وقد علل العقاد لهذا بقوله : « إن الساميين قد نشئوا فى بلاد صاحية ضاحية ليس فيها مايخيفهم ويذعرهم ، فقويت حواسهم . وضعف خيالهم . ومن ثم كان الآريون أقدر فى شعرهم على وصف سرائر النفوس . وكان الساميُّون أقدر على تشبيه ظواهر الأشياء . وذلك أن مرجع الأول الإحساس الباطن . ومرجع هذا إلى الإحساس الظاهر . فالأدب العربى أدب سام يجيد فيما يتصل بوصف المسائل الحسية الظاهرة . ويضعف

(١) كولردج ٨٨ .

(٢) الشعر والتأمل . روستر يفور هاملتون ترجمة د. محمد مصطفى بدوى ١٩ .

(٣) فى الشعر الأوربى المعاصر . د. عبد الرحمن بدوى ١٢٤ .

(٤) أصول النقد الأدبى ٢١٠ وما بعدها ، فى الأدب الحديث ٢ - ٢٤٨ .

فى تخيل الأشياء ، وفى الناحية التركيبية للخيال » (١) وهذا الكلام ليس على إطلاقه (٢) .

صحيح إن الشاعر الأسود يحلل العناصر ، ويعيد تشكيلها باعتبار العالم المنظور لايخرج عن كونه « مخزن صور ورموز » وباعتبار الخيال هو الذى يعطيها قيمة ... ولكنه كان يتحرك دائماً فى دائرة العالم الحسى ، أما تجاوز هذا العالم إلى عالم جديد كل الجدة ، وأما كونه يستطيع أن يضاعف من روحانية هذا العالم فشىء كان من الصعب تحقيقه .

ومع هذا فقد أجاد بعضهم فى تقديم لوحات عن الطبيعة ، وربط بين المشاهد وما توحى به من انفعالات ، وكان قادراً على إبراز المعانى ، وإحداث نوع من الجدة فى الصور البيانية ، على نحو مانعرف من وصف عنترة للروضة ... هذا الوصف الذى يقول فيه :

جادت عليه كل بكر حرة   فتركن كل قرارة كالدرهم
سحاً وتسكاباً فكل عشية   يجرى عليها الماء لم تتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح   غردا كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه   قدح المكب على الزناد الأجذم

فالخيال هنا لايقوم على الكذب ، وإنما يكثف الواقع ويقطره ، وقد عد بعض القدماء البيتين الأخيرين من تلك الاختراعات التى لم يسبق إليها ، ولم يستطع أحد استعارتها منه (٣) . ولنتأمل قول عنترة أيضا :

أراعى نجوم الليل وهى كأنها   قوارير فيها زئبق يترقرق

ومثل هذا يمكن أن نجده فى تلك الحيوية التى تملأ قصيدة عبدة بن الطبيب وبخاصة فى حديثه عن مجلس الشراب ، كما يمكن أن نجده عند

(١) مطالعات بين الكتب والحياة ٣٠٤ .
(٢) فى الأدب الحديث ١ / ٣٢٤ وما بعدها ، النابغة الذبيانى : ٥٤٥ ، وما بعدها .
(٣) العمدة ١ / ٢١٢ .

نصيب الأكبر ، والعكوك ، أما إبداع شخصية من الشخصيات كعطيل مثلا فشيء لم يعرفه الشعر العربي .

فالشاعر الأسود يبدأ من الشئ الموجود ثم يتحرك داخله ، إنه يبدأ من عبلة كما رأينا عند عنترة ، ويبدأ من دعد التي رسم لها العكوك صورة فريدة في إطار الحس ، وبخاصة تلك القصيدة التي أولها :

لَهفَ نفسى على دَعْدٍ وما حفلت   بالأ بخـسر تلهفى دعـــد

فالشاعر الأسود كان مرتبطاً بحواسه الخمس ارتباطاً وثيقاً ومحكماً ، ومن هنا جاء خياله قريباً وواضحاً ومسطحاً في الوقت نفسه فهو أشبه في الكثير منه بهذا النوع الذى سماه كولردج « التوهم » والذى ضرب له عبد الرحمن شكرى مثلا من قول أبي العلاء :

ضرجته دما سيوف الأعـادى   وبكت رحمة له الشمريان (١)

إن مجرد أن يرى الإنسان صورة منظر طبيعي في المرآة . أو يقف على رأس هذا المنظر . . لايكفى . ولايعطى المتعة الخلاقة المطلوبة من الخيال . « إن ماهو أكثر لزوماً من ذلك هو زيادة التنظيم ، وزيادة القدرة على الجمع بين جميع الآثار المتباينة للعناصر الشكلية في هيئة استجابة موحدة ، وهذه الزيادة هي التى يحدثها الشاعر . ولاشك في أن من أروع ماقاد كولردج هو أن « الإحساس بالمتعة الموسيقية هبة الخيال وحده » . إذ أن الخيال لايظهر في شئ في جميع الفنون بقدر مايظهر في إحالة فوضى الدوافع المنفصلة إلى استجابة موحدة منظمة (٢) » .

ثم إنه قد يبدو أن خيال الشاعر عالم من الفوضى التي لاتتماسك ، ولكن خيال الشاعر في الواقع منظم . . على حد تعبير سنتيانا . . بنفس القدر الذى به خيال العالم بالفلك . فالشاعر لديه العبير الذى عند عالم

---

(١) في الأدب الحديث ٢/ج ٢٣٦ .

(٢) مبادىء النقد : ٣٠٥ .

النبات ، وعنده حبه للتفاصيل « وعقل الشاعر أكثر عينية من عقل العالم ، لأن عالمه محسوس حي حافل بالألوان والحياة والانفعال [1] : » ويمكن أن نستدل على هذا بما نلقاه عند عدد من الشعراء السود كعنترة ، والسليك وعبدة بن الطبيب ، ونصيب الأكبر ، ويمكن أن نلمسه تماماً عند العكوك حين يقول :

بأبي من زارني مكتتمـــا خائفاً من كل شئ جزعـــا
زائـــرا نم عليـــه حسنـــه . . كيف يخفى الليل بدرا طلعـــا
رصـــد الغفلـــة حتى أمكنت ورأى السامر حتى هجعـــا
ركب الأهـــوال فى زورتـــه ثم ما سلّم حتى ودعـــا

وإذا كنا نؤكد مابين الانفعال والخيال من علاقة وثيقة ، فإن الذى لاشك فيه أن انفعال الشعراء السود كان أكثر حدة من خيالهم ، فقد كان حب الشاعر — داخل إطار الشعر العربى — أن يأتى أحيانا بصور مبتكرة كما رأينا مثلا عند عنترة ، وأن يستخدم صوراً حسية لبعث مشاعر تستدعى صوراً تشبهها كما نرى عند نصيب الأكبر ، ولكن الذى لاشك فيه أن مسيرته الحقيقية كانت فى درب الخيال البيانى أو التفسيرى كما نجد عندهم جميعاً .

(١) فى الشعر الأوربى المعاصر ١٢٤ .

٦ ـ الأسلوب

إذا كان الجاحظ يرى أن المعانى ملقاة فى الطريق يستطيع أن يأخذ منها من يشاء ، فإنه بهذا يكون ملتقياً مع « ستيفن مالارميه » الذى يرى : أن الشعر لاينسج من الأفكار ولكن من الكلمات ، فهو يفترض أن القصيدة توجد كقصيدة فى العلاقات بين الكلمات كأصوات ليس إلا « وأن معنى القصيدة إنما يثيره بناء الكلمات كأصوات أكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعان ، وذلك التكشيف للمعنى الذى نشعر به فى أية قصيدة أصيلة إنما هو حصيلة لبناء الأصوات » (١)

ثم إن هناك من يرى أن على الكلمات أن تتعرى من كل قرائنها وتأثيراتها خلا « معانيها » وبهذا تتحول إلى رموز فكرية مثل رموز الرياضة فى الدقة وفى النقاء .

وهناك من يذهب إلى أن الشعر لاينسج من الكلمات ككلمات ، ولكن من الكلمات كدلائل لأشياء ، وقد سمى هذا النوع من الشعر « بالشعر الصافى » .

وعلى كل فالقصائد ليست مصنوعة من الكلمات كأصوات فقط ، ذلك لأن الذى لاشك فيه أن المعنى يصاحبها بعناد وإصرار ، فكما أن هناك

---

(١) الشعر والتجربة . أرشيبالد مكاليش . ترجمة سامى الخضراء الجيوشى ٢٣ .

بناء للكلمات وهناك بناء للمعنى وهناك بناء للكلمات كمعان يوضحه تعريف كولردج للشعر . فهو الذى « يطلق روح الإنسان جميعاً إلى النشاط الحى ، وهو يشيع نغماً وروحاً يمزج ويصهر الكلمات إحداها بالأخرى بتلك القوة السحرية المؤلفة التى لا أسميها إلا الخيال وحده . إن هذه القوة تكشف نفسها فى توازن الدفعات المتنافرة وإشاعة الانسجام بينها حالة عاطفية غير عادية ، وتنسيق فائق للعادة (١) »

فالقصيدة لا تكون جميلة بالطريقة التى نراها فى الرسم الهندسى أو الخطب . ذلك لأن جمالها الحقيقى لا ينبع من كمال ما تمثل أو تشرح فهى تؤثر نفس التأثير الذى تؤثره الكائنات الحية كالبحر والشمس . فهى جميلة لا فيما تقرر ولكن جميلة كالشجرة . فلغة الشعر لا تحاكى الطبيعة . وفى الوقت نفسه لا تقدم شروحاً كالقصة والخطبة . ذلك لأنها تبرز « حقيقة جديدة » . بحيث لا نرى الكلمات مصطلحات . ولكن جزءاً لا يتجزأ من الشئ المتناول (٢) .

ولقد شغلت قضية اللفظ والمعنى النقاد العرب . ومن أشهر الذين وقفوا إلى جانب اللفظ ابن خلدون . أما أبو هلال العسكرى الذى رأى أن البلاغة « إيضاح المعنى وتحسين اللفظ » وكان فيما قاله « وليس الشأن فى إبراز المعانى . لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى . وإنما الشأن فى جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف » وليس يطلب من المعنى ما وصفناه من نعوته التى تقدمت .(٣) وما أكثر ما نجده عند أبى هلال كلمات « اللفظ الجزل » و « اللفظ السمح » و « اللفظ الكريم » . كما أن قولة الجاحظ فى المعانى المطروحة فى الطريق معروفة . وقد ذهب ابن سنان الخفاجى إلى أن الفصاحة مقصورة على اللفظ . والبلاغة

---

(١) المصدر نفسه : ٣٩ ، ٣٧٢ ، ٥٢ .

(٢) واقعة بلا ضفاف : ١١٨ .

(٣) كتاب الصناعتين ٩ ، ٤٢ .

مقصورة على اللفظ والمعنى ، ومما جاء في الصناعتين « فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي. وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ» ومعنى هذا أن السمة الغالبة للنقادالعرب القدامى أنهم اهتموا اهتماماً خاصاً باللفظ ، إلا أن عبد القاهر الجرجاني تصدى لكثير من هؤلاء بحيث جعل اللفظ تابعاً للمعنى ، ولم يعتبر للجرس دلالة خاصة من حيث هو صوت « بل قد يكون للكلمة الواحدة من الفضل والمزية في موقع من مواقع الكلام ، ماليس للكلمة نفسها في موقع آخر والكلمة هي الكلمة والجرس هو الجرس ، والحروف هي الحروف (١) »

ولعل جماع هذه النظرة يلخصها ماجاء في المصون لأبي أحمد الحسن العسكري ، فهذه النظرة تقول :

أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، كأنه قد سبك سبكاً واحداً ، وأفرغ إفراغاً واحداً ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى فرس الرهان ، وحتى تراها متفقة ملساً ، ولينة المعاطف سهلة ، فإذا رأيتها متخالفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتستكده ، ورأيت غيرها سهلة لينة رطبة متواتية سلسلة في النظام ، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد لم يخف على ماكان من أهله (٢) . ولأمر ما كان شعراء الحرف شعراء بالألفاظ لابالمعاني ، أما شعراء المعاني فلابد أن يكونوا مثقفين « ألاترى أن شوقيا لما كان مثقفاً أكثر من حافظ كان أشعر (٣) ».

والاهتمام باللفظ هنا يذكرنا بالإفريقيين الذين يرون أن الكلمة وحدها تغير العالم ، وتخلص من الأرواح الشريرة ، وأنها تكون مع الكائن الإنساني أبداً فهي لاتقع فوق أو خلف العالم الأرضي ، ولهذا يقولون إنه لايوجد شئ ليس له وجود مادام هناك اسم له ، وفي ضوء هذا يكون

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) ص ٦ ، ٧ .

(٣) النقد الأدبي لأحمد أمين ط٣ ص ٧٥

الشاعر الإفريقي ليس فنانا يستعمل السحر ، ولكنه ساحر بالمعنى الإفريقي فكلمة الشاعر لاتنادى الأشياء فقط ، ولكن تنتجها أنها النومو Nommo أى بلدرة الكلمة (١) .

وعلى كل فنحن حين نتأمل مفردات الشعراء السود وجمالهم : نجد أن طابع الجدة يسيطر عليها ، كما نكاد نقول : إن لهم لغتهم الخاصة ، فهم لم يقفوا كثيراً عند المفردات والتراكيب التى انحدرت إليهم من الشعر القديم — وبخاصة عند المبرزين منهم — فنحن لانجد كثيراً كلمات البان والرمل والنقا والبدر ، ولانجد صيغة خطاب الاثنين . والالتفات فى استعمال الضمائر ، وقد نجد التراكيب السريعة ولا نجد التراكيب الممتدة وقد نجد السهل أكثر مما نجد الجزل . وقد نجد هذا اللون من التراكيب المبتكرة كقول ابن شكلة للمأمون « ياعترة الله » وعلى كل فهم لايجرون وراء الكلمة « المجردة » وإنما يجرون وراء الكلمة المحسوسة .. الكلمة « العينية » فهم قد حافظوا على وجود « تيار مادى » فى شعرهم ، وبعبارة أخرى حافظوا على « عنصر الصلابة » فى الشعر بحيث يذكرنا هذا الشعر بالنحت ، أكثر مما يذكرنا بالرسم .

ولعل هذا ينقلنا إلى السؤال الذى يقول : هل للشعر قاموس خاص به ؟ وابتداء نجد نقاد العرب قد قالوا بهذا . ولعل خير تعبير عن وجهة النظر هذه ماجاء فى صبح الأعشى « فالألفاظ ظواهر المعانى تحسن بحسنها وتقبح بقبحها ، وما رآه كذلك من أن المطلوب من الألفاظ « الرائق البهج » (٢)

ونحن نجد أن الشعراء السود فى الغالب لم يهتموا بهذا القاموس الشعرى الذى أراده النقاد ، ذلك لأنهم انحازوا إلى مايمكن تسميته بالاتجاه الشعبى فى الشعر لارتباطهم القوى بالحياة المحسوسة من حولهم ، ولانغماسهم فى

(١) الإنسان : ١٤٦ — ١٤٩ .
(٢) صبح الأعشى ٢ / ٢١٠ ، ٢١٢ .

هذه الحياة ، وقد مر بنا جانب من اقتباسهم مايجول فى عصرهم كالأمثال ، على نحو مانعرف فى شعر خفاف ، وعلى كل فنحن نشاهد دائما أن الكلمات العادية تتحول فى فم الشاعر العظيم إلى قطع من السحر ، إن الكلمة قد تكون بذيئة أو مرهقة أو تعيش على استحياء لأنها ليست من صميم اللغة ، ولكن الشاعر قد يعطيها قوة دفع جديدة ، فإذا بها تدور من جديد حول مداره .

ونحن إذا سلمنا بأن الحجاز هو الذى هلهل الشعر العربى ، وقربه إلى الناس ، وأعطاه طابع « الشعبية » حين استجاب استجابة حقيقية لمطالب الحياة الجديدة ، ولنمو الشخصية الفردية فى الناس (٢) : فإننا لن ننسى دور الإنسان الأسود ، بصفة عامة حين نعرف أنه كان له دور فى الغناء والرقص ، وكلاهما كان له دور فى تقريب الشعر إلى الناس . ومع أن المشهور أن الذى شق الطريق إلى شعبية الشعر هو الخليفة الوليد بن يزيد الذى التفت إلى المشكلات الحياتية التى تدور حوله ، وعبر عن نفسه ببساطة وبدون زيف ، ويعتبر فى الوقت نفسه من مبتكرى ما يسمى « بالمزاوج » فى الشعر . على أن المشهور هو هذا ، والمشهور كذلك أن من عبد هذا الطريق تماماً فى الشعر العربى هو أبو العتاهية ، إلا أن الذى لا شك فيه أن الذى خلق هذا الاتجاه وعمقه هم الشعراء السود ، وقد مر بنا التفات عنترة إلى الأشياء البسيطة التى لم يلتفت إليها أحد من قبل ، وإذا عرفنا أن الشعبية قد لاتكون فى الشىء المتناول نفسه وإنما فى طريقة العرض وفى طريقة التصور الخاصة . . أدركنا أن السود هم القادة فى هذا المجال ، وبخاصة إذا عرفنا أن المقصود بالشعبية ليس هذا التبسيط الشديد لبعض مظاهر الحياة ، وليس الالتقاط السريع للصور من أجل تسلية الخاصة ، ثم إن هذا نفسه يتفق مع هذه الطبقة الكادحة التى كانت منغمسة فى الحياة كأشد مايكون الانغماس ،

---

(١) تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى ص: ٣٨٤ ، ٣٨٥

والتى كانت مضطرة إلى أن تبذل الكثير من المجهود لتناول لقمة العيش ، ولقمة الحرية !

بل إنا نذهب إلى أنه كان وراء هذا الاتجاه الشعبى عند أبى العتاهية، وإن كان اتجه به إلى التبسيط الشديد .. السود أنفسهم . ذلك لأن العبيد الذين كانوا يعملون فى المصنع الذى يملكه مع أخيه كانوا من السودان (١) ولاشك أنه استمع منهم إلى الكثير مما يمكن تسميته « أغانى العمل » كما وقف على الكثير من حياتهم ثم استمر هذا الاتجاه أصيلا فيهم حتى رأيناه يتحول عند محمد إمام العبد إلى نوع من « الزجل » .

والآن نجد أنه من الضرورى أن نقف وقفة عند طبيعة النطق عند الشاعر الأسود ، إذ أنه من المعروف أن كل تطور يحدث فى أعضاء النطق ، أو فى استعداد هذه الأعضاء لابد أن يتبعه تطور فى أصوات الكلمات « فتنحرف هذه الأصوات عن الصورة التى كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق » (٢)

ونحن نعرف أن الجوارى كن يستعصى عليهن بعض الكلمات « وأسأن التعبير كما أسأن اللفظ » (٣) ولكن المشكلة الحقيقية كانت عند هؤلاء السود الذين كانوا ينزعون ثناياهم . وقد تحدث فى هذا سهل بن هارون فقال : « لو عرف الزنجى فرط حاجته إلى ثناياه فى إقامة الحروف وتكميل البيان لما نزع ثناياه » .

وقال أبو الحسن المدائنى : وسألت مباركاً الزنجى الفاشكار (٤) . ولا أعلم زنجياً بلغ فى الفشكرة مبلغه - فقلت له : لم تنزع الزنج ثناياها؟

---

(١) الأغانى : ٤ / ٨ وقد قيل عن خادمه إنه أسود طويل كأنه محراك أتون » .

(٢) علم اللغة . د. على عبد الواحد وافى ٢٦٥ .

(٣) الجوارى ٦١ .

(٤) لفظة فارسية معربة مأخوذة من بشكارى بمعنى الزراعة والفلاحة .

ولم يحدد ناس منهم أسنانهم ؟ فقال : أما أصحاب التحديد فللقتال والنهش ولأنهم يأكلون لحوم الناس ، ومتى حارب ملك ملكاً فأخذه أسيراً أو قتيلاً أكله ، وكذلك إذا قاتل بعضهم بعضاً أكل الغالب منهم المغلوب ، وأما أصحاب القلم فإنهم قالوا : نظرنا إلى مقادم أفواه الغنم فكرهنا أن تشبه مقادم أفواهنا مقادم أفواه الغنم فكم تظنهم - أكرمك الله - فقدوا من المنافع النظام بفقد تلك الثنايا .

وهنالك حديث عن لكنتهم يقول : « وبخلاف مايعتري أصحاب اللكن من العجم ومن ينشأ من العرب مع العجم ، فمن اللكن ممن كان خطيباً أو شاعراً أو كاتباً ذاهبا : زياد بن سلمى.. ومنهم سحيم عبد بنى الحسحاس ، الذى أنشد عمر بن الخطاب رحمه الله قصيدته التى يقول فيها :

عميرة ودع إن تجهزت غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال له عمر : لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك ، فقال له ، سعرت ، يريد ماشعرت ، جعل الشين المعجمة سيناً غير معجمة .

وهنالك أحاديث كثيرة عن عيوب النطق تعرض لها الجاحظ (١) « ومن التفاتاته الدقيقة ماكتبه خاصاً بالنطق أو بالأصوات أو بما يسمى الآن علم الأصوات (٢) » وقد كان العرب يهتمون بسلامة النطق ، ويمتحنون الجوارى ببعض الكلمات (٣) وغاية ما كانوا يتجاوزون عنه أنهم كانوا يستحبون اللحن « من الجوارى الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدود

(١) البيان والتبيين ١ / ٥٨ - ٦٠ ، ٧١ - ٧٤ ، ومن أقواله فى هذا « وقد يتكلم المغلاق الذى نشأ فى سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه متخيراً ، ومعناه شريفاً كريماً ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطى ... الخ » .

(٢) بلاغة أرسطو ٨٢ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٧١ .

الغرائز أيسر وربما استملحه الرجل ذلك منهن مالم تكن الجارية صاحبة تكلف (١) .

ومن هنا نصل إلى جانب من الزراية على السود في المجتمع العربي . وقد كان لهذا بلا شك تأثيره على الشعر ، فقد كان بعضهم كأبي العطاء السندي لا يكاد يبين وأحاديث السخرية به قد مرت بنا . كما أن الشعر كان في أكثره يقوم على إلقائه في المجالس ولكن الشاعر الأسود كان محروماً من عملية الإلقاء هذه ، ومن ثم الالتقاء بالذين يحبون الاستماع إلى الشعر فعنصر الإنشاد في الشعر ، وبخاصة في العصور المتقدمة . كان من عناصر الجمال التي لا يقل عنه دور الألفاظ والمعاني . ثم إنه كان يسمو بالشعر الضعيف والمتوسط إلى درجات رفيعة « وقد عرف الجاهليون للانشاد قدره فتنافسوا في إجادته . وتخيروا من أشعارهم أرقاها وأجودها لتنشد على الملأ في المجامع والأسواق . وظل للإنشاد بعض قدره ومكانته حتى أيام العباسيين ، فقد روى أن الرشيد كان يطرب لإنشاد الشعر أكثر من طربه بالغناء (٢) » .

فإذا عرفنا أن الشاعر الأسود كان محروماً هذا في الغالب لسواده ، ولعيوبه في النطق ، ولأن الطرق لم تكن معبدة أمامه في الغالب تحت الأضواء ... أدركنا أن هناك نوعاً من الظلم كان واقعاً على الشاعر الأسود وعلى كل فإذا كان وراء ذلك أنه كان لا يبالغ في التحسين والإبهار ، فإن وراءه كذلك تقديم هذا النوع من الشعر البسيط البعيد عن المهارة وعن الحذلقة ، والقريب إلى ما يمكن أن يسمى ببكارة اللغة .

وإلى جانب هذا وغيره نجد أنه كانت لهم أخطاء في محيط اللغة ، وكذلك في محيط الحياة فقد أخذ على عبدة بن الطبيب قوله :

فبكـــى بناتي شجوهـــن وزوجتي والطامعون إلى ثم تصدعـــوا

---

(١) المصدر نفسه ١ / ١٤٦ .

(٢) موسيقى الشعر . د. إبراهيم أنيس ١٦٠ .

فلو قال فبكت لكان جيداً ، وأصح من كلمة زوجتي زوجي ، وأخذ على النجاشي قوله :

فلست بآتيـــه ولا أستطيعـــه
ولاك اسقني ان كان ماؤك ذا فضـــل

فقد حذف النون من ولكن . وأخذ على أبي نخيلة قوله :

جـاوية لم تأكل المرفقـا ولم تذق من البقول الفستقـا

فقد جعل الفستق من البقول ، ولم ينس أنه انتحل شعراً لرؤبة في حضرة عبد الله بن سالم . وقريب من هذا هجرهم لبعض الحروف التي تصعب عليهم ، كما أخذ على خفاف الحذف في قوله :

كنواح ريش حمامة نجدية ومسحت باللثتين عصف الأثمد (٣)

وقد عيب على نصيب الأصغر أنه مدح الفضل ببيت فرد ، أما أبو العطاء السندي الذي كان يجمع بين لثغة ولكنة . فقد مر بنا أن أخطاءه كان مما يتفكه بها في عصره ، وأن الإقواء وقع في شعره وما نريد أن نصل إليه أن أخطاءهم لم تكن فاحشة أو ظاهرة عامة في كل شعرهم ، ولكنها كانت من واقع ظروفهم التي يمكن تسويغها ، فهم لم يعملوا على تدمير اللغة بقصد ، وإنما كانوا يكافحون من أجل إتقانها ليبهروا المجتمع من حولهم ، ومن هنا فهم من واقع الحياة في مجتمعهم ، وهم في تلك الدوائر التي كان إتقان اللغة فيها هو « جواز المرور » إلى كثير من شئون الحياة ، يختلفون عن هؤلاء الشعراء الذين قال عنهم سارتر : إنهم يردّون على مكر المستعمر بمكر مضاد ، وذلك بمحاولة تدمير اللغة المفروضة عليهم ، فإذا كان الشاعر الأوربي المعاصر يعمل على تجريد الكلمة من إنسانيتها ليردها إلى الطبيعة ، فإن الشاعر الأسود يعمل على تجريدها من فرنسيتها وذلك لأنه يضرب كلماتها ببعض ، ويحطم تداعياتها

---

(١) يريد كنواحي فهو يشبه شفتي المرأة بنواحي ريش الحمامة في رقتها ولطافتها وأراد أن لثاتها تضرب إلى السمرة (البيان العربي د. بدوي طبانة ط ٤ ص ٢٠٢) .

المألوفة ، ويراوح بينها بالعنف إنه لا يتبنى الكلمات إلا بعد أن تكون قد « تفيأت بياضها » إنهم يستخدمون « كلمات تلميحية غير مباشرة بالمرة . ترتد بأمورها إلى صمت مماثل . إنها أشبه بقواطع تيار اللغة . فوراء سقوط الكلمات المتهيبة نلمح صنماً أسود كبيراً صامتاً [1] .

صحيح إنهم لم يقصدوا قصداً إلى هذا التدمير ، ولكنهم بلا شك تخففوا من الصيغ التقليدية ، ولم يقفوا عند الإحكام اللغوى المبالغ فيه . ولم يسيروا فى دروب المحسنات الملتوية . وهكذا ساروا فى قافلة الشعر خفافاً ، وبين يديهم قصائد تنادى بشعبية الشعر ، وأنه لا يجب أن ترتفع العينان عن الحياة .. وكل مايحدث فى هذه الحياة :

مهم فى هذا يلتقون مع المدرسة الواقعية . بل نجد فى شعرهم شيئاً من « الطبيعة » حين يقدمون شرائح من الحياة كما هى . وحين نجد عندهم اهتماماً بالتفاصيل والجزئيات ، ولعل مما يدل على هذا اهتمامهم بظاهرة اللون .

بل إنهم يلتقون كذلك مع أدب الوجوديين الذى يرى أنه لا قيمة للشكل من حيث هو شكل « إذ أن الأسلوب وسيلة لا غاية . فلا قيمة للجمال ليس له مضمون اجتماعى ملتزم [2] » .

وما دمنا نتحدث فى دائرة الأسلوب فإنه قد مر بنا الاهتمام الواضح بهذا الطباق الذى بين كلمتى (أبيض وأسود) سواء أكانا مجرد لونين أم رمزين لعاملين مختلفين ، أو تحولا إلى مايدل على الضوء كالليل والنهار فالذى لا شك فيه أن هاتين الكلمتين بدلالتيهما قد لعبتا دوراً رئيسياً فى شعر الأسود ، إن هذا يذكرنا بقول سارتر : « ليس تطلع الشاعر الأسود

---

(١) مواقف ٢ ص ٩٣ ، ٩٤ ، وقد كان هذا رد فعل للضغط الذى وقع عليهم فى فرنسا فقد قيل عنهم — فى هذه الفترة — إنهم بلا تاريخ ، والعدم المطلق تحت الجلد الأسود ، إنه يمكن وضعهم — كما تمكن محاطيهم — خارج التاريخ .

(٢) الأدب المقارن : ٤٨ .

إلى التعبير عن نفسه هو وجده الذى يبدو لى شعرياً . بل شعرية أيضاً هى طريقته الخاصة فى استخدام وسائل التعبير التى يتناوله ، إن وضعه يحثه على ذلك ، فحتى قبل أن يفكر بالغناء، ينكسر فيه ضوء الكلمات البيضاء ويستقطب حول نفسه ويتبدل ، وهذا لايتجلى فى مكان كما يتجلى فى طريقته فى استخدام الطباق (أسود - أبيض) الذى يرمز إلى انقسام الكون الكبير بين ليل ونهار، وإلى الصراع الإنسانى بين الوطنى المستعمر والمستعمر فى آن واحد معاً ، لكن هذا الطباق متسلسل المراتب (١) ؛ وهكذا تكون كلمة الأسود تحتوى على الشر كله وعلى الخير كله فى آن واحد ، وتكون كلمة حافلة بالتوتر ودالة على شعر فريد من نوعه ، « ذلك أن للبياض سواداً سرياً ، وللسواد بياضاً سرياً ، ولكليهما التماع متحجر من الكينونة واللاكينونة (٢) » .

ومن الطبيعى أن استخدام هاتين الكلمتين عند الشاعر الأسود ، يختلف عن رمزية الألوان التى استخدمها الشعراء الرمزيون وبعض - السيرياليين فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، فقد أسرف هؤلاء فى استخدام الألوان فى وصف الأشياء والأحداث اعتماداً على رمزية خاصة اصطنعوها لهذه الألوان ، من أمثلة قولهم : حقد أزرق ، وموسيقى سمراء وكذب أبيض ، وألغاز زرقاء ، وصرخة حمراء ، وابتسامة صفراء ، وضحك أسود (٣) ولهذا مشابه فى الشعر العربى الحديث ، إن السواد قد يكون لونا كقول عنترة :

فيها اثنتان وأربعـــون حلوبة ... سودا كخافية الغراب الأسحم

وقد يكون الاعتراف بالواقع على مضض كقوله

وأنا الأسود والعبد الذى ... يقصد الخيل إذا النقــع ارتفع
نسبتى سيفى ورمحى وهمـــا ... يؤنسانى كلما اشتد الجـــزع

(١) مواقف ٢ / ٩٤ .
(٢) المصدر نفسه ٩٦ .
(٣) فى الشعر الأوربى المعاصر ٧٤ .

وقد يكون صرخة فى وجه اللون الأبيض - إن صح التعبير - كما فى شعر سحيم ، ومثل هذا قول ابن الرومى فى زنجية :

سوداء لم تنتسب إلى برص الشقر ولا كلفة ولا بهق

وقد يكون زهوا ليس بعده زهو كقول الفضل اللهبى :

وأنا الأخضر من يعـرفنى أخضر الجلدة من بيت العـرب

وقد مر بنا أن العرب تعنى بالأخضر الأسود « إن السواد ليس بلون بل هو تدمير ذلك الضوء المستعار الذى يسقط من الشمس البيضاء [1] » .

وفى الوقت نفسه نجد أنهم ركزوا على الكلمة المقابلة لأسود وهى أبيض ، وهى كلمة غير مكروهة عندهم ، وأكثر استعمالهم لها فى المرأة المشتهاة على نحو ماتعرف من شعر سحيم .

... وبصفة عامة إذا كان الشعر العربى لم يهمل الألوان ، فإن الشعراء السود قد اهتموا بها اهتماماً شديداً ، وبخاصة اللونين أو الرمزين الأبيض والأسود ، ونحن لاننسى هنا أن نذكر أن الاهتمام باللون يعتبر جزءاً من اهتمامهم بالتفاصيل حيث يشد هذا شعرهم إلى الواقعية أو الطبيعية فى الشعر .

وأخيراً فإذا كانت مقاييس الأسلوب هى الوضوح ، والقوة ، والجمال [2] ، فإنا نجد أن ما يتميز به شعر الشاعر الأسود الوضوح ، ذلك لأن عنده دائماً قضية تشغله ، ولأنه يتعامل أكثر مايتعامل مع أدوات حسية ، ولأنه واقعى فى تصرفاته إلى حد الخطر على نحو ماتعرف من شعر سحيم وكيف يعرى علاقته مع عشيقته .... إن الغموض قد يكون نوعاً من الترف أو التعالى على الحياة أو الانفصال عنها وهذا مالا يتفق ونفسية الشاعر الأسود .

---

(١) مواقف ٢ / ٩٨٧ .

(٢) أصول النقد الأدبى ٢٥٩ .

أما القوة فى أسلوب هذا الشاعر فنحن لانقصد بها الصخب، ولانقصد بها التعالى عن مفردات الحياة البسيطة ولكننا نقصد بها أن يكون ما يقدمه هذا الأسلوب - بما فيه الأسلوب نفسه - كلا متماسكاً بعيدا عن الخطأ أو الضعف أو الذبول فى بعض أبيات القصيدة، بحيث يتحقق لنا ماذكره القدماء حين تكلموا عن الشعر الذى كالسبيكة المفرغة. ومن الطبيعى أنا لانقصد بالجمال هنا هذا الجمال البارد كالرخام، أو هذا الجمال الذى يمكن حسابه بالقيمة، أو هذا النوع من الجمال الذى يكون « جذلا » للعين أو الأذن فقط، ذلك لأن المطلوب شحذ وجدان المتلقى وإطلاق خياله ... وقد مر بنا شئ ذكرناه عن هذه القضية قبل ذلك، وكان فيما ذكرناه أن القصائد لاتتغذى بالزنابق. فإذا أدركنا أن الجمال قد يكون فى وجه تترقرق النضارة من خلاله، وقد يكون كذلك فى وجه شاحب. ، أو ممتلىء بعرق الحياة ... كان من الممكن أن نتعرف على الأسلوب اللافح الذى نجده عند سحيم. والأسلوب الذى يحمل إلينا كل الأشياء التى تتكون منها الحياة كعنترة، والأسلوب الذى يبدو كالأنفاس المبهورة والمتقطعة كما هو الحال عند السليك. صحيح إنا لن نعثر على مفردات لامعة، وجمل مصقولة، وعبارات شادية، ولكننا سنعثر على جمال الصدق، وروعة الالتحام بالحياة، كما سنعثر - على حد تعبير الآمدى - على تلك الطريقة التى نجد فيها الشئ على ماهو فيعفى على كل بديع واستعارة [1].

---

(١) الموازنة ٢ / ١٤٢.

٧ ـ الشعراء السود
والغناء والموسيقى والرقص

١ - فى نظرنا أن الشعر العربى يضم أكثر من أداة من أدوات التعبير ، رغم أنه يقال إن هناك صورة حاسمة ووحيدة قد شكلت الشعر العربى ، وهى تلك الصورة التقليدية التى احتفظت بالصرامة فى البناء ، وفى الانتقال بين الأغراض ، إلى جانب مقومات أخرى كالتجريد والتطويل والاعتماد على المقاييس والأقسام الخاصة به كالبحور والسطور والشطور والتفاعيل والأوتاد والأسباب والقوافى « ومرجع ذلك إلى أسباب خاصة لم تتكرر فى البيئة العربية الأولى أهمها سببان ، هما الغناء المنفرد ، وبناء اللغة نفسها على الأوزان . . فالمصادر فيها أوزان ، والمشتقات أوزان ، وأبواب الفعل أوزان ، وقوام الاختلاف بين المعنى حركة على حرف الكلمة تتبدل بها دلالة الفعل ، بل يتبدل بها الفعل فيحسب من الأسماء ، أو يحتفظ بدلالته على الحديث حسب الوزن الذى ينتقل إليه »[1]

وإذا كان العقاد يحسم القضية فى الشعر العربى بذهابه إلى أن القوالب تطورت فى اللغة العربية بحيث أصبحت فنا له استقلاله عن فن الغناء ، وفن الحركة المقطعة .. فإنا نرى أن هناك صورة أخرى للشعر

---

(١) اللغة الشاعرة . العقاد ١٣٧ - ١٤٢ .

العربى ، وأن هذه الصورة ولدت من حاجات الناس إلى الترنم الجماعى كما فيما يمكن تسميته أغانى الأفراح ، وفى البكائيات ، وكذلك فى أغانى العمل ، وفى هذا الشعر الذى كان يقال مثلا فى الطواف حول الكعبة ... فمثلا نرى أن قبيلة « عك » كانت إذا خرجت حاجة قدمت أمامها غلامين أسودين من غلمانهم ، وكان الغلامان يقولان : نحن غرابا عك .
فتقول عك من بعدهما :

عك إليك عانيه عبادك اليمانيه

كيما نحج ثانية (١)

ويمكن أن يعتبر هذا بالإضافة إلى التلبية الجماعية التى جاءتنا فى المحبر واحد وعشرون نوعاً (٢) . . يمكن اعتبار هذا جانباً من « الشعائر التمثيلية » التى اعتمد عليها فى الأصل المسرح القديم عند المصريين والأشوريين والبابليين والهنود . ولكنها جمدت عند هذا الحد . وبخاصة بعد ظهور الإسلام ، بحيث لم تتحول إلى مسرح عربى كما هو الحال عند العديد من الحضارات القديمة . والقرآن الكريم يؤكد ما كان فى هذه الشعائر من الصفير والتصفيق فى قوله تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » ، والرسول حين قدم المدينة استقبل بأغنية جماعية هى « طلع البدر علينا ... الخ » والغالب أن هذه الأبيات كانت هى اللحن الأساسى . بحيث كان يتردد عن طريق الجماعات بالدف والألحان (٣) » ، وما أكثر ما تغنى الصحابة وعلى رأسهم النبى صلى الله عليه وسلم .. فى عمليات البناء وفى الحروب . وبخاصة فى موقعة الخندق .

وفى الوقت نفسه روى أن نساء المشركين كن يغنين شعراً بمصاحبة توقيع الدفوف ، كما أن النساء كن يلعبن بالمزاهر حين كان ينبغ فى القبيلة

(١) كتاب الأصنام لأبى المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى . تحقيق أحمد زكى ٧ .
(٢) المحبر ٣١١ — ٣١٥
(٣) إحياء العلوم للغزالى (بولاق) ٢ / ٢٥٤ ، طبقات ابن سعد ٢ ق ١ ص ٥٥ .

شاعر [1] ، بالإضافة إلى أغانى ترقيص الأطفال ، وإن كان جانب الغناء الجماعى يبدو غير واضح الملامح تماماً ، فإن الجانب الواضح بلاشك هو مصاحبة « الشعر المغنى » للآلة الموسيقية ، ولتوقيعات الرقص ، والحاجة إلى الانشراح لا إلى الانضباط ، وللحركة لا إلى الثبات ، حتى ولو كان هذا على حساب المتوارث والمتعارف عليه فى الوقت نفسه .

ومن الطبيعى أن هذا الجانب لا يقدم المطولات ، أو القصائد المغرقة فى الغريب أو الجزالة ، أو ذات البحور الطويلة .

ثم إنهم كانوا فى هذا الجانب يستبيحون مالا يستباح ، حتى اللحن مادام من الجوارى الظراف ، والكواعب النواهد ، والشواب الملاح ، وذوات الخدود والغدائر « ربما استملح الرجل ذلك منهن » [2]

وقد قال إسحاق الموصلى : كان مالك الطائى إذا غنى ألحان معبد الطوال خفضها وحذف بعض نغمها وقال : أطاله معبد ومططه ، وحذفته أنا وحسنته [3] .

ثم إن هذا « الشعر المغنى » كان يكثر فيه الزحاف كما تكثر العلل ، وكان يوضح بحيث يتلاءم مع طبقة الغناء على هيئته الطبيعية أو مجزوءاً أو يأخذ صورة جديدة كما فى الموشح والزجل ، أو يستحدث بعض البحور كالمتدارك ، أو يغطى بعض الألحان الأجنبية ، كما اهتدى العباسيون فى الوقت نفسه إلى مراوحة القافية فى المزدوج والمسمط ، فإذا أضفنا إلى ذلك عمليات التغيير التى تدخل الجزء الأخير من الشطر الأول وتسمى « عروضاً » وتدخل على آخر الشطر الثانى وتسمى « ضرباً » وأن صاحب ميزان الشعر يصل بهذه الأعاريض والأضرب إلى ما يقرب من مائة شكل . . إذا أضفنا ذلك وجدنا أن « الشعر المغنى » استدعى من

---

(١) الأغانى (ساس) ١٤ / ١٦ .
(٢) البيان والتبيين ١ / ١٤٦ ، مقدمة الشعر الغنائى فى الأمصار الاسلامية ١ — المدينة
(٣) الأغانى ٥ / ١١٢ .

التغييرات مالم يتطلبه الشعر المكتوب أو المروى أو الذى ينشد ... وفى الوقت نفسه لاننسى أنه كان بواسطة الغناء يكشف عن بعض عيوب الشعر كالاقواء الذى وقع فيه النابغة [1] .

وعلى كل فكلما كان يرتفع الغناء فى عصر كانت تزداد مدلية تشقق الشعر « ولست فى حاجة إلى أن أثبت لك أن الغناء نشأ فى الحجاز ، وأنه ازدهر فى مكة والمدينة ، وأنه لم يكن فى دمشق إلا غريباً » [2] .

وفى الواقع لقد ألف شعر كثير ليغنى ، ولما كان الشعراء يعرفون قيمة الشعر عندما يغنى سواء أكان مؤلفاً أصلا للغناء ، أم لم يؤلف ، فإننا نراهم يرحلون إلى مواطن الغناء لسماع شعرهم على نحو مانعرف من ارتحال جرير إلى مكة لسماع ابن سريج [3] . وعلى نحو مانعرف من لزوم أعشى همدان للمغنى أحمد النصيبى ، ومن طلب بعض المغنين شعراً من بحور بعينها . ومن محاولات لتعلم الشعر من المغنين وتعلم الغناء من الشعراء [4] ، ولعل هذا كان وراء ظهور « المقطوعة » ظهوراً واضحاً إلى جانب القصيدة .

وفى ضوء هذا كانت تزداد الرواية للشاعر بعد أن يغنى شعره ، بل إن الشعراء أنفسهم كانوا يجودون فى شعرهم ليغنون فى منازل المغنين ، وكانوا يختارون البحور التى يسهل تلحينها والتى تحتوى على المفردات السهلة . كما يختارون فى الوقت نفسه الموضوعات التى تصلح للغناء ، والتى يغلب عليها إشاعة البهجة فى الحياة . ونحن لا ننسى أن الغناء نفسه من دوافع التحريك للشعراء « ويأتى الوزن بعد اللغة وهو الآخر قد طرأ عليه كثير من التعديل إذ كان المغنون والمغنيات يضطرون مع ألحانهم

(١) الأغانى ١١ / ٩ .
(٢) حديث الأربعاء ١ / ٨٨ .
(٣) العقد الفريد ٢ / ٥٠ .
(٤) الأغانى ٦ / ٦٥ ، ٢٦ / ٢٢٧ ، ٤٤ / ٢٣٠ .

أن يطيلوا ويمدوا فى بعض حروف تفعيلات البيت ، وأن يقصروا أو يهمسوا فى حروف أخرى من هذه التفعيلات ، وأن ذلك يجعلنا نؤمن بأن موسيقى الشعر القديم نفسها تطورت تحت تأثير هذا المد والهمس ، فطالت المسافات الزمنية فى بعض الحروف وقصرت فى أخرى ،وقد أتاحت هذه الصور من الغناء للشعراء المعاصرين — أو قل نبهتهم — أن يحاشوا زحافات وعللا كثيرة فى شعرهم . فالرمل مثلا وزنه فاعلاتن ثلاث مرات حين يلم به الزحاف فى جزئه الأول ، ويصبح فعلاتن يتغير عن صورته القديمة ، ويصير سريعاً لسرعة حركاته ، ومن المعروف أن الحركات القصيرة تجعل البحر سريعاً ، بخلاف البطيئة فتجعله بطيئاً ، وتلائم الأولى . الموضوعات العنيفة » . [1] وعلى حد قول بعضهم « هذا شعر حسن فكيف إذا قطع ومد تمديد الأطربة [2] ، ثم إنه لا يجب أن ننسى أنه بسبب ازدهار الغناء وصلت البحور إلى ماصارت إليه بعد أن كانت محدودة قبل الإسلام .

وعلى كل فالشعر المغنى ليس جديداً على الشعر العربى قبل أن يصاحب الآلات الموسيقية وبعدها ، ثم إن كلمة الإنشاد والتغنى والغناء معروفة على أنها تعنى النظم ، فالغناء والشعر كانا مرتبطين عند العرب من أقدم العصور .

ثم إنه بعد هذا كله يجب أن نذكر دائماً أن « القرآن الكريم » بنظمه، وتجويده ،وترتيله يعتبر موسيقى الإسلام العميقة ، وكذلك الأذان المتكرر ، والإنشاد الدينى ، ثم إن كتاب الأغانى بصفة خاصة يفتح لنا عالم الغناء على مصراعيه .

وقد أكثر الصوفية فى كتبهم من الحديث عن السماع وآدابه ؛ وقد أفرد النويرى لهذا جزءا من كتابه [3] ، وقد قيل : إن شعر بغداد

---

(١) الشعر الغنائى فى الأمصار الاسلامية ١ — المدينة ص ١٦٦ ، ١١٧ .
(٢) الأغانى ٨ / ٢٢١ .
(٣) نهاية الأرب ٤ / ١٣٣ — ٣٤١ .

انتقل إلى الأندلس بوساطة أنغام الجوارى (١) . ثم إنه يجب أن نقف طويلا عند القول بأن « ذو النون المصرى » وهو نوبى الأصل كان من أول الذين نشروا السماع . وما نريد أن نصل إليه هو أن هذه الحضارة . مثل كثير من الحضارات القديمة التى نشأت قبل الطباعة - كانت تتمتع بموهبة سمعية رائعة .

وما نريد أن نصل إليه كذلك هو أن الشعر العربى ملىء بروح التغنى ، وأن الغناء كان وراء تطور القصيدة العربية . خاصة أن العرب كانوا يهتمون بالصوت أكثر من اهتمامهم بالآلة الموسيقية . ذلك لأن الصوت يجمع بين الغناء وبين فهم الأثر .. الشعر . ثم أخيراً إن أوزان الشعر كانت ثمرة لتطور الغناء . وأن البحر كان يلزمه ... الحذف فى ... التنفس عند الغناء . ثم إن هناك بعض الشعر الذى لا يستقيم إلا ... كما فى قول الشنفرى إن بالشعب الذى دون سلع .. الخ .

نقول هذا ونحن نتذكر ما قاله عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى ... فى كتابه الممتع فى علم الشعر وعمله من أن العرب « ... الأوزان والأعاريض فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فجاءوا مستوية (٢) ونقول هذا ونحن نعتقد أن السود كانوا من أهم العناصر التى نفذت داخل الحياة العربية . والعربية الإسلامية . نقول هذا ونحن نعتمد على مخطوط الملاهى وأسمائها (٣) الذى يصحح النظرة فى اهتمام العرب بالغناء والموسيقى . ويصحح ماذهب إليه أبو الفرج الأصفهانى وكثيرون من أن الموسيقى والغناء الأجنبى لم يعرفا إلا فى الإسلام » والحق أن العرب كانوا فى العصر الجاهلى على صلة بالغناء الفارسى والرومى والحبشى . وكانوا يعرفون آلات الموسيقى وذكروا كثيراً منها فى شعرهم (٤) . بل إن المستشرق

(١) الشعر الأندلسى ترجمة حسين مؤنس ٣٢ .

(٢) عن تاريخ النقد الأدبى ١١٢ .

(٣) مخطوط مصور بدار الكتب تحت رقم ٣٣٥ فنون .

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ ص ٥٥ وما بعدها (مقال بعنوان من أثر الشعرى د. أحمد الحوفى) .

ليال Layal يذهب فى المقدمة التى نشر بها شرح ابن الأنبارى للمفضليات إلى أن القيان كن يغنين شعراً عربياً بألحان أجنبية فى العصر الجاهلى .

ثم إنا نعرف أن عنترة والسليك [1] كانا من الشعراء الذين تغنوا بشعرهم ، والعرب قد عرفوا هذا عند السود ، وكان مما قالوه : الطرب عشرة أجزاء : « فتسعة منها فى السودان وواحد فى سائر الناس [2] » .

ونحن نجد فى لسان العرب والقاموس كلمة الدرقلة أو الدركلة وتدل على ضرب من رقص الأحباش ، والرقص يصاحب الغناء والموسيقى ، كما نجد ان كلمة الزفن تدل على هذا ، وقيل إن كلمة « قين » حبشية ومعناها آلة حبشية ، وفى الأثر : إن الله حرم عليكم الخمر والكوبة (الطبل) والقنين ، وقيل إن السطاعة تضرب بها آلات الطرب عند السودان [3] .

ثم إن أكثر المغنين المجودين كانوا سوداً مثل سعيد بن سجح ، وقد كان مما قيل عنه إنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام وكان أن «قلب» غناءهم فى الشعر العربى ، وهو الذى علم ابن سريج والغريض [4] ، ولقد كان من المغنين السود المقدمين خليدة المكية ، وعثعث ومنهم أبو محجن نصيب بن الزنجى ، ويبدو أن سلامة الزرقاء كانت من سلالة السود [5] ، وكان منهم زرياب الذى قيل عنه « واستقر به المقام فى أسبانيا ، فى عهد عبد الرحمن الأوسط - بإحدى الشخصيات التى تركت أثراً رائعاً فى الرقة الروحية وذلك هو الموسيقى والشاعر البغدادى زرياب

---

(١) الأغانى ١٨ / ١٣٤ (ساس) .
(٢) نهاية الأرب ١ / ٢٩٤ .
(٣) الموسيقى والغناء عند العرب . أحمد تيمور ٨٠ .
(٤) الأغانى ٣ / ٨١ – ٨٢ ، شخصيات إفريقية . عبده بدوى ١٢١ .
(٥) الأغانى ١٤ – ٢١١ داعى السماء ١٦٩ – ١٧٢ .

مبدع أساليب التأنق والرقة (١) ، وقد قيل : إن سبب خروجه من القيروان أنه غنى بحضرة زيادة الله أغنية تمدح فيها بالسودان فما غنى من شعر عنترة :

فإن تك أمي غرابية ... من أبناء حام بها عبتني ..
فإني لطيف ببيض الظبا ... وسمر العوالى إذا جئتني
ولولا فرارك يوم الوغى ... لقدتك في الحرب أو قدتني

بل إن أثره تعدى البلاد الإسلامية إلى أوروبا . وقد أكد هذا غارسيا غومش وأطلق عليه لقب « الطائر الأسود » (٢)

ونحن لن يغيب عنا أن من قيل فيه « رفقا أنجشة بالقوارير » كان غلاما حبشيا حسن الصوت . وقد ذكر ابن حجر العسقلاني « أنه كان حسن الصوت بالحداء فكره أن تسمع النساء الحداء . فإن حسن الصوت يحرك في النفوس ، فشبه ضعف عزائمهن وسرعة تأثير الصوت فيهن بالقوارير (٣) » .

وما أكثر ما يروى عنهم في مجالات الإبداع في الغناء . فمن هذا ان رجلا رأى عبداً أسود مقيداً ، وحين سأل سيده عن ذلك قال له : « إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالي . فقلت ماذا فعل ؟ فقال : إن له صوتاً طيباً ، وإني كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالا ثقالا ، وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاث ليال في ليلة من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد » ثم يذكر الرجل أنه طلب من هذا الأسود أن يحدو على جمل يستقي الماء

---

(١) الفن الاسلامي في أسبانيا . مانويل جوميث مورينو . ترجمة د. لطفي عبد البديع ، د. السيد محمود عبد العزيز .

(٢) زرياب ٩٢ ، ١٦٦ ، الشعر الأندلسي ٣٣ .

(٣) فتح البارى ١٠ / ٤٥٠ ، ٤٥١ ط .

من بئر هناك « فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهي ، فما أظن أني قط سمعت صوتاً أطيب منه [1] » .

وأبو الفرج الأصفهاني يقص علينا قصة الصوت الذي أخذه ابن جامع المغني عن سوداء ، وقصة الأسود المغني الذي قدم إلى الكوفة « يغني كذا وكذا » ، وهناك تلك السوداء التي تقدمت دحمان المغني عند الفضل ابن يحيى فقال : أخرجت السوداء ما كان في قلبك من شدة الحب [2]

وبلال على الأرجح كان مهتما بأغاني الحداء ، وبالأنغام البسيطة ، ولكنه ، - بسليقته الإفريقية - ربما وجد من وقته المتسع ليردد الأصوات المركبة ، وليصب في الآذان ألحانه المعروفة « وإذا صح لنا أن نستدل بما قيل في وصف طبقته الموسيقية فالأغلب الأقرب إلى الحقيقة أنه كان من طبقة الباريتون المعروفة لدينا بالامتداد والغزارة ، خلافاً للنغمة العربية التي تعرف بشيء من الحدة والنعومة [3] » والأدلة كثيرة على أن أصوات الجواري السوداوات وأساليبهن في الغناء كان لها سحر ملحوظ ، ثم « إن هؤلاء العبيد السود كانوا من ذوي الهبات الصوتية العجيبة ، وبلغوا الرفعة بمهارتهم في الصناعة الموسيقية (٤) » وقد ساعدهم على هذا أن العرب لم يقبلوا على هذه الصناعة ، لا لعجز في الأداة الصوتية ، ولكن لأنها من وجهة نظر بداوتهم « صناعة أنثوية » (٥)

وقد تنبه لهذا الشاعر أبو الشمقمق فقال في مدحه لعيسى بن إدريس :

طربتُ إلى معـــــروفه فطلبته
كما طربت زنج الحجاز إلى الطبل(٦)

---

(١) نهاية الأرب ٤ / ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٢) الأغاني ٣ / ١٣٤ ، ٦ - ٣١ ، ٦١ / ٣١٩ .
(٣) داعي السماء ١٦٧ عن الكاتب الانجليزي لفكاديو هيرن Lafadie Hearn
(٤) داعي السماء ١٦٩ - ١٧٢ .
(٥) المصدر نفسه ١٨٦ .
(٦) شعراء عباسيون غوستاف . فون جرنباوم ص ١٤٤ .

وقريب من هذا أنه قيل عن أبي الصلت أمية بن عبد العزيز أنه عاش فيما عاش عشرين سنة في إفريقية عند ملوك الصنهاجيين ، وأنه هو الذى لحن : « الأغانى الإفريقية » وإليه تنسب (١) .

ويبدو أن طبيعتهم في الغناء كانت قريبة مما يقال عن غناء الإفريقيين الذين يستعملون وسائل مختلفة لتدبيج الغناء « نذكر منها الأشكال المنوعة للانحراف والانحدار ، وكذلك سرعة التدرج في غناء نغمات متقاربة بطريقة خاصة مميزة ، ومن هذه الوسائل أيضاً المباشرة بالغناء بقوة والهبوط باسترخاء » (٢) وقد قيل فيما قيل عنهم : إن الزنجى لو وقع من السماء إلى الأرض ماوقع إلا بإيقاع ، ثم إن هناك نصاً عن إسحق الموصلي يقول « لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء ، وإنما كانوا يعلمون الصفر والسود . . الخ » (٣) كما قالوا : إن من تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء ، (٤) والجاحظ يثبت للخصيان القدرة على « التحريك للأوتار (٥) » .

وقد قيل : أربعة لاتعرف في أربعة ، السخاء في الروم ، والوفاء في الترك ، والغم في الزنج (٦) .

.. من كل هذا نعرف الدور الذى كان للسود في تطوير القصيدة العربية ، ونعرف أن النضج في وسائل الغناء ، يقرب لنا المفهوم عن العربية بأنها لغة موسيقية ، وذلك لاعتمادهم ، لأميتهم ، على الأذن لاعلى العين ، كما أنه يقرب المفهوم الذى يؤكد أن الشعر والخطابة كانا من أهم مايميز النفس العربية ، وأن هذا الاهتمام بالموسيقى قد شغل الشعراء

---

(١) نفح الطيب ١ / ٥٣٠ .
(٢) الثقافة الافريقية ترجمة عبد الملك الناشف ١٥٤ .
(٣) زرياب ١٣ ، الأغانى ١٥ — ١٧٠ .
(٤) البيان والتبيين ٩٣ .
(٥) الحيوان ١ / ١١٧ .
(٦) نهاية الأرب ١ / ٢٩٤ .

عن التعمق فى المعانى ، ولقد كان هذا وراء وحدة القصيدة فى الوزن والقافية ، ومايعرف فى القصيدة العربية بأسلوب التكرار ، والتقسيم ، والجناس « فاللغة العربية من اللغات التى عنيت بموسيقى ألفاظها وعباراتها فى كل العصور ، فلها مما يسمى بالمحسنات اللفظية فنون وفنون .. وبلغ تفنن الكتاب والشعراء والخطباء فى تلك العناية اللفظية أن وضع لها المتأخرون من دارسى البلاغة قواعد ونظما أوشكت أن تصبح علما مستقلا من علوم اللغة العربية هو ما يطلق عليه ... علم البديع » (١) .

٢ - لاشك أنه يوجد ترابط وتأثير بين الشعر والموسيقى ، بل إن الرمزيين نظروا إلى الشعر على أنه موسيقى ، ورأوا أن « العروض » يمتد عميقاً فى النفس البشرية من قبل عمليات « التنظير » . ثم إن الشعر الذى يسمى شعر الألغاز يبدو محيراً كالموسيقى ، وعلى كل فالذى لاشك فيه أن لكل من الشعر والموسيقى رقعة نفوذ ، أن الذى يرى واضحاً بينهما هو « التجانس » ثم إن عدد المقاطع فى الجملة الشعرية لايمكن أن يكون نفس الشيء الكائن فى « الميلوديا من حيث الوزن » ذلك لأن الشاعر وإن وصل إلى عدة مستويات متنوعة من الرنين إلا أنه لن يصل إلى المستويات اللانهائية التى تصل إليها الموسيقى من حيث الارتفاع والانخفاض ، والتقاطع والتباين ، والعمق والشطيح ، والحدة وعدمها ... ذلك لأن الشاعر يتحرك فى إطار اللغة الصلب إلى حد ما بعكس الموسيقى ، وعلى كل فالمشاهد أن الموسيقى فى الشعر العربى تكون وراء القسوة والضعف والقوة ، كما تغطى على كثير من فقر المعانى ، كما فى شعر أم السليك ، وشعر أحمد بن أبى فنن

ونحن لاينبغى أن ننسى أن مرحلة البداية للموشحات فى الأندلس قد عاصرها زرياب (٢) ، فهل نذهب بعيداً إذا قلنا بتأثير هذا المغنى الأسود فيها .

---

(١) دلالة الألفاظ . د. إبراهيم أنيس ١٦٨ ، ١٩١ ، ٢٥٥ .

(٢) زرياب ١٤٧ .

وعلى كل فالشاعر العربي وثيق الصلة بالموسيقى فهو يغني من ثم الآلات وبها . ومع الرقص كما أنه ينشد بطريقة خاصة مميزة . بل إننا قد نفهم موسيقى الأشياء قبل التعرف على معناها على نحو ما نسمع من القرآن الكريم ، والأغاني الشعبية ، والترانيم الخاصة بالأطفال. ومع أننا قد لاندرك مافيها من معان . إلا أننا نصل إلى حد الانزعاج . حين نقف وقوفاً مخلا . أو حين لاتنسجم عروضة الشعر . أو حين نحول مثلا حرفاً ساكناً إلى متحرك .

ومع أن القافية قد تعطى الرتابة كما في معلقة عنترة . إلا أن هناك بعض الشعراء الذين يصلون بالقافية إلى حد الهمس كتصويب الأكبر . فالقافية في شعره لاتبدو متحذلقة . ولكنها من بنية القصيدة . وبالإضافة إلى هذا فإنها تضيف رصيداً إلى اللغة . وتشيع في القصيدة روح الأغنية.. بل تدعونا معه إلى الغناء ! ونحن لاننسى وقوع « التصريع » في شعرهم إلى حد أن عنترة يصرع في بيتين متواليين (١) .

لقد ذكر الجاحظ عن السود أنهم أطبع الخلق على الرقص الموقع الموزون، والضرب بالطبل على الإيقاع الموزون من غير تأديب ولاتعليم(٢) ومع هذا فلم نجد أنهم نظروا للشعر على أنه موسيقى كالرمزيين . ذلك لأنه كانت عندهم دائماً قضية تهمهم .. قضية خاصة بهم . وكأنهم بهذا يذكرون بما جاء في سراج البلاغة لحازم القرطاجني . « وكأن منزلة الكلام الذي ليس فيه إلا الوزن خاصة من الشعر الحقيقي منزلة الحصير المنسوج من البردي . وما جرى مجراه من الحلة المنسوجة من الذهب والحرير ، لم يشتركا إلا في النسج ، كما لم يشترك الكلامان إلا في الوزن(٣)» . فالوزن بمفرده لايخرج عن كونه مثيراً للانتباه ، ثم إنه لاينبغي أن نقف

---

(١) شرح المعلقات السبع ١٣٨ .

(٢) رسائل الجاحظ ١٩٥ .

(٣) مقدمة ديوان حازم القرطاجني ، تحقيق عثمان الكعاك (دار الثقافة - بيروت) ، حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة .د. عبد الرحمن بدوي ٥٤٨ .

عند حد اللذة التى يحدثها الوزن ذاته ، ذلك لأن هذه اللذة التى يولدها الوزن « لذة شرطية » يعتمد حدوثها على ملاءمة الأفكار والتعبيرات التى تضاف إليها صورة الوزن . « إننى أستخدم الوزن لأننى على وشك أن أستخدم لغة مختلفة عن لغة النثر ، بل إنه حينما لاتكون اللغة غير لغة النثر يصبح النظم عينه ضعيفاً ، ذلك مهما كانت أهمية الأفكار التى يستطيع العقل الفلسفى أن يخرج بها من معانى القصيدة ومن الأحداث التى تدور حولها [1] » .

وإذا كنا قد سلمنا بأن انفعال الشاعر الأسود كان فى أكثره عنيفاً ، وأنه كان يعيش دائماً قضية خاصة ، فإن هذا يسلمنا إلى أنه مع اهتمامه بالغناء والموسيقى والرقص ، إلا أنه كان يسعى سريعاً بحيث يصل إلى هذا النوع من التوازن الذى يقوم فى العقل نتيجة الجهد التلقائى الذى يسعى إلى السيطرة على العاطفة الجامحة . . ومع هذا فهناك نماذج عديدة من شعرهم تبدو مترعة بالموسيقى ، حيث إنها أصيلة فى نفوسهم ، سواء أكان هذا عن طريق الإيقاع أم الوزن « يعتمد الإيقاع كلها يعتمد الوزن الذى هو صورته الخاصة على التكرار والتوقع ، فآثار الإيقاع والوزن تنبع من توقعنا سواء كان ماتوقع حدوثه يحدث بالفعل أو لايحدث ، وعادة يكون هذا التوقع لاشعورياً [2] » .

. . والإيقاع الإفريقى قد اهتم به كثير من الباحثين فهو يعتمد على آلات القرع الموسيقية والإيقاع المركب لاعلى التوافق والانسجام كما فى العالم الغربى ومن خصائصه إغفال ما يسمى بالوقت الثلاثى ، وأهمية الضربة التى تكون أساسية ومنتظمة فى الوقت نفسه ، واستغلال كل آلة مع استغراقها فى شكل زمنى خاص بالإضافة إلى الحرية فى تنويع الشكل مع مراعاة عدم تأثر الوقت بهذا [3] ، وقريب من هذا ماذكره

---

(١) كوليردج ١٧٨ .

(٢) مبادئ النقد ١٨٨ .

(٣) Ward. Musicm tleqoldioa..t P. 222

« بيتر جوبرينا » من أن الشعر الافريقى ولغته الأصلية لا يخرج عن أن يكون شعراً يغنى بمصاحبة الآلات الموسيقية وهو فى الوقت نفسه لا ينتظر الآلة ، وإنما يحول كل شىء تحت يده إلى آلة . فالإيقاع بحق عندهم « لغة حياة كاملة » .

وما دعانا إلى هذه الوقفة أننا نحس أحياناً فى شعرهم بما يشبه إيقاع الآلات الموسيقية فالإنسان لا يخطىء هذا الدوى الذى يشبه دوى الطبل فى شعر عنترة ، والفيتورى . بل إن دوى الطبل هذا يمكن أن يحس فى كثير من شعرهم . ولعل هذا يذكرنا بما قيل من أن الموسيقى الإفريقية تعتمد على الإيقاع . وعلى إيقاع الطبل بصفة خاصة . فما زال بعض سكان إفريقية يستعملون الطبل فقط فى موسيقاهم ، بحيث تتكون فرق كاملة لا تستعمل إلا الطبل فقط . ولكن على أشكال مختلفة . فمنها الكبير ، ومنها الصغير والطويل والقصير والأصم والعميق « وكل طبال يعرف إيقاعاً مختلفاً ، ولكنها كلها منسجمة . مع بعضها بطريقة يستساغ معها الغناء والرقص »(1) بل إن هذا الإيقاع ليظهر فى تلك البحور القصيرة التى نجدها فى شعر السليك ، وأبى دلامة ، والمكوك ، وابن شكلة ، وابن أبى فنن ، وابن الياسمين ، كما نجده كذلك فى هذا الرجز الذى كان صفة غالبة على شعر أبى نخيلة . والذى نجده كذلك عند السليك والفضل اللهبى ، وأبى عطاء السندى ، وعند كثير من الشعراء السودانيين . فهذه البحور تتفق مع حركتهم السريعة . ومع توترهم الملتهب ، ومع هذا النوع الذى يتفق وإيقاع الخطو السريع عند العدائين كالسليك . ثم إنه كان وراء هذا كله عدم ترسلهم فى الشعر كغيرهم من الشعراء . ومن هنا نرى فى شعرهم الكثير من المقطوعات ، ومن القصائد القصيرة إلى حد أن بعضهم كنصيب الأصغر يمدح ببيت واحد ، ومن الدخول مباشرة إلى الغرض دون التوسل إلى ذلك بشىء كالغزل قبل المدح .

---

(1) موسيقى الجاز . لانجستون هيوز ترجمة : نل عبد النور ١٠ .

٣ -- وقد انعكس هذا على شعرهم بحيث رأيناه فى بعض الأحيان شعراً راقصاً ، وبحيث نحس أن الإيقاع إلى جانب إعطائه القصيدة حيوية يعطيها كذلك نوعاً من الحساسية المرهفة ، حتى فى تلك الحالة البعيدة عن المرح كما فى رثاء أم السليك له - نجد نوعاً من الملاءمة بين الوزن والموضوع ، وبين الإيقاع والموضوع .

فالشاعر الأسود كان يرقص حياته ويغنيها ويبكى عليها فى الوقت نفسه.

والنقاد العرب حين أكثروا من عبارة « حسن الجرس » لم يكن يغيب عن ذهنهم أن الموسيقى مقوم أساسى فى الشعر ، وأن معناها التصميم لبناء القصيدة ، وهم بهذا يلتقون مع الناقد والشاعر جورج سنتيانا حين يحدد عناصر الشعر ووظائفه بأربعة هى : حسن الجرس ، وفخامة اللفظ ، والتجربة الحية المباشرة ، والخيال المنظم ، ثم يقول عن حسن الجرس : إنه « الجمال الحسى للألفاظ والتعبير عنها بالوزن » وأن الصورة العليا لحسن الجرس هى الأغنية [1] .

بل إن هناك نظرية عربية للنقد توجد فى كتاب عنوانه المرقصات والمطربات الذى لم يلتفت إليه أحد إلى الآن ، ومن خلاله نجد أنه يجعل للشعر خمس طبقات هى : المرقص ، والمطرب ، والمقبول ، والمسموع ، والمتروك ، ثم يترك الطبقات الثلاث الأخيرة ويدير كتابه على النوعين الأولين لأنهما فى نظره جوهر الشعر الذى يجب أن يقوم على الاختراع أو التوليد الذى يكاد يلحق به ، وعلى ما نقص فيه الغوص على درجة الاختراع إلا أن فيه مسحة من الابتداع ! .

وقد مر بنا رقصهم أمام النبى فى المدينة ، وكيف استعار منهم المسلمون نوعاً من الرقص يسمى « الحجل » .

.. وكل هذا يدل على أنهم أعطوا الشعر العربى حيوية ، كما كانوا وراء شيوع روح الأغنية داخله .

---

(١) فى الشعر الأوربى المعاصر ١٢٠ .

٨ - الشعراء السود والصورة الشعرية

١ .. يعتبر الإحساس أو الإدراك الحسي هو الأساس الأول للعملية الشعرية ، ومفهومه هنا هو الفهم أو التعقل بوساطة الإحساس ، كإدراك ألوان الأشياء وأشكالها وأحجامها وأبعادها وأوضاعها بوساطة البصر ، وإدراك الأصوات والنغمات بالسمع ، وإدراك الطعوم بالذوق ، والروائح بالشم ؛ وملمس الأشياء باللمس ، .. ومعنى هذا أن الإدراك الحسي بوساطة الحواس الخمس يترتب عليه إدراك المرئيات والمسموعات والمذوقات والمشمومات والملموسات ، وهناك من يضيف إدراك الثقل والضغط والاتجاه وغيرها ، وما يهمنا هنا هو أنه عن هذا الإدراك الحسي ينشأ التصور « وإلى اختلاف الناس في الإدراك الحسي يرجع اختلافهم في التصور والقدرة على التصوير ، فالبصري يقوى على تصور المبصرات وتصويرها تصويراً واضحاً دقيقاً ؛ والسمعي يقوى تصويره للأصوات والنغمات ، فيساعده ذلك على حسن تصورها وكذلك يقال في الذوقي والشمي واللمسي ؛ فالشاعر الأسود عبدة بن الطبيب حين يقول :

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية وفار باللحم للقوم المراجيل
وَرْد وأشقر ما يؤتيه طابخه ما غير الغلي منه فهو مأكول

إنما يصف ما رأى وأحس من قبل ، معتمداً في ذلك على عملية التصور ، فقد استحضر الأخبية وظلها ، والمراجيل وفورانها ، ولون

اللحم الوردي والأحمر ، وغليان الماء واللحم فيه . والتهام اللحوم بمجرد أن يغير لونها غليان الماء ، وهذا تصوير مطابق للواقع لا زيادة فيه ولا تغيير ولا تبديل [1] » .

وعن التصور قد تنشأ صور لم يسبق إدراكها في جملتها إدراكاً حسياً كقول العكوك في الخمر :

وصافيــة لهـــا في الكـــأس لين ولكن في النفوس لهـــا شماس
كـــأن يـــد النديم تدير منهـــا شعاعـــا لا تحيط عليه كـــاس

فهناك فرق بين التفكير الحسي وبين الرؤية البصرية للشيء المكاني ، فمع أن المرئي حسي إلا أن الصورة الحسية لا ينبغي أن تكون دائماً الصورة المرئية ، وفي ضوء هذا لا نستطيع دائماً أن نتمثل الصورة الشعرية شيئاً قائماً في المكان [2] المهم أن تصبح الصورة ملكاً لعالم الفكر بعد أن كانت شيئاً من الأشياء [3] ، وهذا يمكن أن يتحقق بمرحلتين أولاهما إدراك من الخارج إلى الداخل وهو الإدراك الحسي ، وثانيهما إصدار من الداخل إلى الخارج ، وحينئذ يكون التعبير ممتزجاً بالخواطر التي تموج بها النفس ، وبخاصة حين يتوفر لها عنصر « التشخيص » الشعوري . لا هذا التشخيص الذي يكون ثمرة للحيل اللفظية [4] .

فنحن لا نريد بالصورة في الشعر تلك الصورة التي حاكت الأعناب إلى حد القول بأن الطيور كانت تحوم لتلتقطها على نحو ما قيل في لوحة المصور « زوكيس » فنحن لا نريد بمهارة إعادة شبه للكائنات . وإنما نريد شيئاً آخر أكبر من هذا . لا نريد تقليد شكل الشيء وإنما تقليد روحه وبهذا يخرج الشعر عن دائرة ترجمة الجوانب الخارجية المرسومة للأشياء .

---

(١) دراسات في علم النفس الأدبي ٣١ ، ٣٢ ، (الكامل للمبرد ١ / ٦٥) .
(٢) التفسير النفسي للأدب ٦٨ .
(٣) مجلة المجلة العدد ٣١ (فلسفة الصورة الشعرية د. محمد غنيمي هلال)
(٤) عباس العقاد ناقداً ١٣٥ .

ويخرج من دائرة التشابه إلى دائرة الجمال ، ومن دائرة النقل إلى دائرة الإيحاء ، بالإضافة إلى إيجاد تناسق بين علاقات الصورة الواحدة ، — أو الصور المتعددة « إن بإمكاننا أن نستنتج بأن إحدى الطرق التى تؤدى إلى المعنى فى فن الشعر هى علاقة مبنة بين الصور ، أو مايمكننا تسميته بتزاوج الصور ، وإن كان هذا التزاوج قد يتضمن أكثر من صورتين إن الصورة الواحدة ترسم وتوطد بالكلمات التى تجعلها حسية وجلية للعين أو للأذن أو للمس لأى من الأحاسيس ثم توضع صورة أخرى قربها فينبلج معنى ليس هو معنى الصورة الواحدة منها ، ولا هو معنى الصورة الثانية ، ولا حتى مجموع المعنيين معاً ، بل هو نتيجة لها (١) » .

من هنا ندرك أن الصورة ينبغى أن تكون لحم الفكرة ودمها لامجرد ملابس خارجية لها ، وندرك أنه يمكن من خلالها أن يظهر تصورنا للعالم ، بشريطة ألا تقف قدرات الشاعر عند مجرد المهارة فى توليد الصور ، ذلك لأن الصورة الشعرية الحقيقية هى تلك الصورة التى تثير انفعالا وتحرك فكراً (٢) ، فليس المقصود أن يقدم الشاعر مهرجاناً من الصور ولكن المقصود حقاً أن « يرسم » لنا بطلاوة مايريد أن يقوله بواسطة العناصر التى تتمثل فى : عنصر المنظر كله ، وعنصر اللون ، وعنصر اللمس ، وعنصر الوقت الذى ترى فيه ، وعنصر الموقع الذى تقع فيه من المكان ، بالإضافة إلى عنصر الحركة ، فالمطلوب أن يتكون لنا من كل ذلك لون وشكل ومعنى وحركة (٣) أو يتكون لنا ماحددته المدرسه المعروفة فى الشعر باسم مدرسة التصويريين — من ضرورة التكثيف ، والحرص على الموضوع الذى يعالج حتى لايتشتت ، والتخلص الكمل من الحشو والتشويش ، بالإضافة إلى نوع من الصفاء لاينتهى (٤)

---

(١) الشعر والتجربة ٧٧ .
(٢) الشعر والتأمل ٧٥ .
(٣) عباس العقاد ناقدا ٤٤٤ .
(٤) الشعر والتجربة ٧٢ .

وعلى حد قول باسترناك ، إن الصورة هى النتاج الطبيعى لقصر عمر الإنسان وفداحة الأمانة التى حملها ، وهذا التباين هو الذى يرغمه على النظر فى كل شىء بعين النسر المحيطة « الإنسان صامت والصورة هى التى تتكلم ، إذ من الواضح أن الصورة وحدها هى التى تقوى على مجاراة نبضات الطبيعة ، فباسترناك يرى أن المجاز ليس أداة تعطى للشاعر لتصوير العالم ، بل هى نفسها العالم وهو يقدم نفسه فى صورة شعرية (١) » .

وهكذا نرى أن هناك إجماعاً على أن الشاعر يجب ألا يلجأ للصورة من أجل الصورة ، فنحن لا نريد منها أن تكون « حفلا » للعين ولكن لها حتيتها الشعرى « إن الصور وحدها مهما بلغ جمالها ، ومهما كانت مطابقتها للواقع . ومهما عبر عنها الشاعر بدقة ليست هى الشىء الذى يميز الشاعر الصادق ، وإنما تصبح الصور معياراً للعبقرية الأصيلة حين تشكلها عاطفة سائدة أو مجموعة من الأفكار والصور المترابطة أثارتها عاطفة سائدة ، أو حينما تتحول فيها الكثرة إلى الوحدة ، والتتالى إلى لحظة واحدة . وأخيراً حينما يضفى عليها الشاعر من روحه حياة إنسانية وفكرية (٢) » .

وفى ضوء هذا يمكن أن تصبح الصورة بعد تشكيلها شيئاً ما لا عن العالم ، ومحرراً إلى حد أنه يمكن لها أن ترتفع فى الجو . وفى الوقت نفسه تكون منفصلة عن القيود وعن الواقع من حولها (٣) . ولاشك فى أن هذا يمكن أن ينطبق على عديد من صور الشعراء السود ، كلوحة الروضة التى رسمها عنترة ، واللوحة الخاصة بالذئب عند النجاشى . والثور عند سحيم ، فهو أساساً كما يعبر عن الأشياء ... « ينتج » الأشياء .

٢ . . لما كان الإنسان العربى يعيش فى أحضان طبيعة قاسية ، أصبحت حواسه مرهفة بحيث تؤدى وظيفتها على خير وجه « لقد أفاد العرب

---

(١) الشعر الأوربى المعاصر ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) كولردج ١٦٨ .

(٣) عصر السريالية . والاس فاولى . ترجمة خالدة سعيد ٢٥٧ .

من رحابة الصحراء وبعد آفاقها حدة ظاهرة فى البصر تميزوا بها عن سواهم ، وقوة فى السمع كادت تبلغ درجة الكمال ، وأما حاسة الشم فكانت موضع فخارهم ، والفضل فى قوة هذه الحاسة عندهم يعود لتعرضهم المباشر للرياح فوق ظهور الإبل ، وعلى صهوات الخيل . وفى ظلال الخيام التى لاتمنع الريح والنسيم عنهم » . (١)

ويمكن أن نحس كل هذا ونحن نقرأ فيما نقرأ لعنترة :

وكأن فأرة تاجر بقسيمه ... سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها ... غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليه كل بكر حرة ... فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكابا فكل عشية ... يجرى عليها الماء لم تتصرم ..
وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الأجذم

وفى البيتين الأخيرين ندرك ماقيل من أنه عجيب التشبيه ، ولم يقل أحد فى معناه مثله ، وقد عده البعض من التشبيهات العقم ، وهى التى لم يسبق إليها ، ولا يقدر أحد عليها (٢) .

وإذا كانت الصورة عملا مركباً يبدأ بالتشبيه وينتهى بالقصة الرمزية عند الشعراء الجاهليين . وأنهم استعملوا كافة أنواع المجاز بسيطه ومعقده ،(٣) فإن الذى نحسه بعد ذلك بصفة عامة ضعف عناصر الصورة إلى أن استعادت نضارتها فى العصر العباسى ، ذلك لأن روح الحضارة بعد ذلك قامت على إنكار الذات ، وإفنائها فى القوة العليا ، ولقد كان من

---

(١) الفتوة عند العرب ٢٢ .

(٢) تاريخ الشعر العربى ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) خزانة الأدب ١ / ١٢٧ ، ١٢٨ ،وذكر ابن رشيق له تشبيها آخر من هذا النوع فى نعوت الغراب: العمدة ١ – ٢٠٢ .

أثر فقدان الذاتية انعدام أو ضعف الفنون التجسيمية من تصوير ونحت . واتجهوا إلى مايسمى « الأرابيك » وهذه الخاصية موجودة في كل الأديان (١) . ولاشك أنه كان لهذا تأثيره على الصورة في الشعر . بعد أن نمت ظاهرة الاحتقار للشيء الملموس ، وضغط اللامرئي على المرئي . وبعد أن تأكد الترفع عن الأعمال اليدوية . بحيث يمكن القول بأن الاهتمام بالعنصر الموسيقي غلب على عنصر الصورة في الشعر .

ومع هذا فلاينبغي أن ننفي عن الشعر العربي التصوير . ولكن التصوير فيه دون مانجده في الشعر الغربي قديمه وحديثه . لقد استخدموا التشبيهات والمجازات بكثرة . ولكنهم لم يبثوا في الطبيعة .. وفي الحياة من حولهم قوى كثيرة . كما أنهم وقفوا كثيراً عند حد زخرفة القصيدة بالصور . ولقد عد بعض النقاد أبا تمام وابن الرومي خارجين على الذوق العام في الشعر ، وكان فيما ذكره الآمدي عن أبي تمام أنه يتدخل في الأشياء بأكثر مما ينبغي له : وعلى كل فالتصوير غالب على مادة الشعر عند الغربيين ، بينما الموسيقى تغلب على مادته عندنا ، بل كثيراً ماتصبح أهم مافيه من محتويات ومكونات (٢) .

لقد كانت الصورة عندهم تعني ماسموه بحسن التأليف ، وعلى حد قول ابن طباطبا إن الشعر يجب أن يكون « كالسبيكة المفرغة ، والوشي المنمنم والعقد المنظم واللباس اللائق . فتسابق معانيه ألفاظه ... وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي تتميز به الأضداد . ولزوم العدل . وإيثار الحسن . واجتناب القبيح . ووضع الأشياء مواضعها (٣) » ولقد كان عبد القاهر الجرجاني هو الذي تنبه بحسم لعنصر الصورة حين ذكر أنه لايجب أن نقتصر على المعنى واللفظ فقط وإنما يجب مراعاة

(١) الالحاد في الإسلام . د. عبد الرحمن بدوي ١٦ .

(٢) دراسات في الشعر العربي المعاصر د. شوقي ضيف ٢٢٩ - ٢٣١ .

(٣) عيار الشعر ٤ ، ٥ .

الصورة التى تحدث من اجتماعهما . كما تنبه إلى أن الدقة والسحر « تجىء فى الهيئات التى تقع عليها الحركات » ، وعنده أن الجاحظ لم يفهم حين نقلوا عنه أن المعانى مطروحة وسط الطريق ، ثم نسوا قوله « وإنما الشعر صياغة وضرب من الصيغ وجنس من التصوير » فالأدباء الأول ، « جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا اللفظ وهم يريدون الصورة » وهل كانوا يريدون إلا الصورة عندما قالوا « رد الخرزة جوهرة وجعل من العباءة ديباجة . ورد العاطل حالياً » . وهل يقصد بقولهم « فكساه لفظاً من عنده » إلا الصورة التى تحدث للمعنى (١) .

ورغم هذا فإنا نجد الشاعر العربى بصفة عامة قد اهتم بالوصف ، واهتم بالصورة المحسوسة أكثر من اهتمامه بالصورة الباطنية ، فهو يرينا الهلال منجلياً ، والقمر درهما فضياً ، والبستان طنافس ونمارق دون أن يعنى بوقع هذه الأشياء فى النفس ، ولن تخلو هذه القصائد من رابطة بعكس القصيدة فى الشعر الإنجليزى فهى لا تخلو من رابطة تجمع أبياتها على موضوع واحد ، أو موضوعات متناسقة (٢)

وما نريد أن ننتهى إليه أن العصر الجاهلى قد اهتم بالصورة ، وأن الشعر فى هذه الفترة كان شعر « المحاكاة » . أما فى العصر الإسلامى فقد ظهر عنصر « التعبير » ومن ثم يمكن القول بأن عنصر الموسيقى قد تقدم عنصر التصوير » وإنى لأزعم بأن فكرة علاقة الشعر بالرسم كانت فكرة طريفة وأثيرة لدى النقاد العرب ، وكان يمكن لهم أن يطوروها لو أن فكرة الرسم والنحت لم يرتبطا بفكرة التحريم فى الدين الإسلامى » (٣) .

---

(١) أسرار البلاغة ١٤٥ ، دلائل الاعجاز ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، الحيوان ٣ - ١٣٢ .

(٢) عباس العقاد ناقداً ٤٤٩ .

(٣) الشعر والفنون الجميلة ٢٣ وما بعدها .

٣ . - إذا كنا قد انتهينا إلى أن عنصر الموسيقى قد تقدم على عنصر الصورة مع مجيء الإسلام . كما ظهر لنا من الحديث عن الصورة ، وكما ظهر لنا من الحديث من قبل تحت عنوان : الشعراء السود والغناء الموسيقى فإن الذى لا شك فيه أن الشاعر الأسود قد ظل إلى حد ما محافظاً على التقليد الذى يحافظ على الصورة . فهو إلى جانب اهتمامه بالموسيقى كان يحافظ ربما بنفس القدر على عنصر الصورة . ذلك لأنه إلى جانب تيقظ حواسه ، فإنه كان يحس فى كثير من الأحيان أنه يعيش فى خطر ، كان قريباً من الحياة وملامسا لها .

ومن هنا رأيناهم حتى والإسلام فى فترة اندفاعه يحافظون على الجانب المادى للذة . ويقدمونها فى صور حسية حادة على نحو ما مر بنا من أمر تلك القصيدة العظيمة التى قالها عبدة بن الطبيب . وهو يحارب مع المسلمين الأوائل فى فارس . وعلى نحو ما مر بنا من تقديم الجنس فى صور مادية على نحو ما فعل سحيم عبد بنى الحسحاس ، ويمكن أن نجد هذا الميراث المادى عند كل الشعراء السود وبخاصة نصيب الأكبر . وابن شكلة ، والعكوك ، والفيتورى .

والملاحظ أن صورهم ليست مترفة فهم يتناولون الأشياء القريبة منهم . فالصورة الرائعة عند عنترة حين صور الروضة . هى الصورة التى قدمها للذباب !

وهم قد يقدمون الصور المشوهة . أو هم الذين يقومون بتشويهها على حد ماتعرف من شعر عنترة فى أمه . ومن شعر أبى دلامة فى نفسه وفى الكثير من أهله . ومثل هذا نجده عند سحيم الذى رأى نفسه لا يفوق الكلب .

فهم يلتقون فى هذا مع المدرسة الحديثة فى التصوير حيث ترى أن قضية الجمال فى حد ذاته لم تعد مطروحة . ثم إن الصورة المشوهة تأتى

عندما يكون هناك انفصال بين العالم الواقعي والخيال (١) ، وقد مر بنا أنهم شوهوا أشياء جميلة كثيرة كالحب مثلا فقد نظروا إليه على أنه العذاب ، والسقم ، والداء ، كما أن الجسد الإنساني قد تحول عند بعضهم — كسحيم ، إلى مجرد وعاء للمتعة ، فمع أن حبيبته كانت رقيقة توسده كفاً ، وتثني بمعصم عليه ، إلا أنه لم ير إلا وضعاً معيناً ، وعشرين أصبعاً له من خلفها ، ومثل هذا نجده عند العكوك وهو يقول :

ولــــا هــن راب مجسته   وعــر المسالك حشوه وقــد
فــإذا طعنت طعنت في لبــد   وإذا نزعــت يكــاد ينسد .
والتف فخــذاهــا وفــوقهما   كفــل يجــاذب خصره النهد

وهم يهتمون بالتصوير الحركي ، فالصورة عندهم في حالة نمو ، وفي الوقت نفسه في حالة حركة على نحو ما نرى من تلك القصيدة التي يقول في أولها خفاف بن ندبة :

أقــول له والرمح يأطر متنه ..   تأمل خفافــا إنني أنا ذاكــا

وكذلك القصيدة التي يقول في أولها السليك :

وعــاشية راحت بطانا ذعــرتها   بسوط قتيل وسطها يتسيف

وكذلك القصيدة التي يقول في أولها نصيب الأكبر :

كــأن القلب ليلة قيل يغــدى   بليلى العــامرية أو يـــراح

وفي الواقع أن الصورة الحركية سمة عامة للشعراء السود :

.. ومن الملاحظ أن صورهم ذات ثقل ، ذلك لأنها تستخدم مجموعة من الكتل النابضة ، ومن ثم فالقصيدة عندهم أقرب إلى النحت منها إلى التصوير ، فهي تضم مجموعة من الكتل التي تتعاقب ، ثم تتعاقب لتقول شيئاً ، ومن الملاحظ أن صورهم الجزئية دائماً تبهر وتدهش لعفويتها

---

(١) واقعة بلا سقاف ٣٦ .

فى الغالب، ولبراءتها النقية . ثم لحوامها المرهفة التى تتأثر بالضوء والألوان .. وقد مر بنا اهتمامهم الحميم بالألوان وبخاصة اللونين الأبيض والأسود . « إن اللون يرتبط بالحياة فى الجسم الإنسانى ، وبالضوء فى السماء ، وبالنقاء والصلابة فى الأرض [1] » .

إن الشعراء السود فى الواقع لم يشغلوا أنفسهم بالمجردات ، ولم يكن عندهم وقت لتأمل ظواهر الوجود . فأغلب الذى كان يعنيهم وهو كل مايتصل بوجودهم البائس فى العالم الذى يعيشون فيه ، سواء أكانوا فى حالة خوف ، أم حذر ، أم مصالحة مؤقتة . وسواء أكتبوا بالكلمة أم بالمرشاة .

وفى ضوء هذا وجدنا الكثير من صورهم مشحونا بتجاربهم الخاصة، على نحو مانعرف من الصور التى فى شعر عنترة والسليك وخفاف . كما رأينا عندهم صوراً خيالية يأتى بها الشاعر لكى يكسب المعنى امتلاء وخصوبة « تلك التى يجسم فيها الشاعر مشاعره فى تركيبة حسية موحية [2] » كقول نصيب فى تلك القصيدة التى أولها :

كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح

وهم لم يكونوا فى الصور التى ينسجونها يقدمونها لذاتها ، ولعل هذا كان وراء مايسمى بالوحدة الموضوعية فى كثير من شعرهم، وبخاصة الشعراء المتقدمين منهم، بالإضافة إلى الاقتراب من العضوية . ذلك لأنهم كانوا يقدمون شعرهم حاراً، ومتوتراً من غير مبالغة فى تحسين ، أو إغراق فى حذاقة .

. . .

ومع أنهم استخدموا الاستعارة بذكاء على نحو مانجد عند كثيرين وبخاصة المتأخرين، إلا أنا نحس أن مقدرتهم الحقيقية كانت فى التشبيه .

---

(١) معنى الفن ٧٤ .

(٢) التفسير النفسى للأدب ٩١ .

فإذا أخذنا معلقة عنترة دليلا على هذا ، وجدنا أنه يشبه ناقته أو أطلال حبيبته بالقصر (البيت ٦) وشبه الإبل الحلوبة في سوادها وكثرتها بخوافى الغراب الأسود (١٥) وريح حبيبته بريح فارة المسك (١٨) وبريح الروضة الأنف (١٩) ، وتغريد الطيور فى الروضة بترنم الشارب المترنم (٢٢) والذباب إذا سن إحدى ذراعيه بالأخرى برجل أجذم أقعد يقدح ناراً بذراعيه (٢٣) وشبه نفسه على ظهر الناقة بمن يكسر الآكام بخف ظليم صلب (٢٨) والنعام تستجيب الملك الظليم بجماعات الإبل تجتمع إذا أهاب بها الراعى (٢٩) وهذا الظليم كأنه مركب جعل خيمة فالنعام يحاذينه ليتظللن به (٣٠) وشبهه فى صغر رأسه بالعبد الأسود (٣١) وشبه قوائم الناقة بدعائم الخيام (٣٥) وبالناقة من الحدة والنشاط . كأن هراً تحت إبطها ينهشها (٣٣) وشبه عرقها الذى يسيل من رأسها بالدبس والقطران جعل فى قمقم وأشعلت تحته النار (٣٧) وظلمه غير المستساغ بالعلقم فى مرارته (٤١) ورشاش الطعنة النافذة بالعندم فى الحمرة (٤٧) ورأس القتيل وبنانه وقد جللتها الدماء كأنما خضبا بالعظام (٦٤) ، وهو فى طول قامته كالسرحة العظيمة (٦٥) وشبه جيد حبيبته بجيد الجداية (٦٩) وشبه الرماح بالحبال التى ترسل فى البئر (٧٩) (١)

ونحن نجد التركيز على التشبيه من خواص الشعراء السود ، ذلك : لأنهم يأخذون الأشياء من قريب ولأنهم يركزون على كل ماهو محسوس ، بالإضافة إلى خلق نوع بسيط من التجسيم .

على أن الملاحظة العامة على التشبيه عندهم أنهم لايقصدون إليه لذاته وإنما لوظيفة تتخطى اليقظة الخارجية إلى اليقظة الباطنية : فهم حين ينقلون فى براعة الذهن من شىء إلى آخر يشبهه أو صورة بارعة تجسمه لايقصدون إلى نفاسة المشبه والمشبه به ، ولا إلى المضاهاة بينهما من غير اهتمام بالشعور والتخيل ، فما يعنينا من الشاعر ألا يكون صحيح العين خبيراً بالمناظر

---

(١) معلقات العرب ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

فى الغالب ، ولبراءتها النقية ... ثم لطواعيتها المرهفة التى تتأثر بالضوء والألوان .. وقد مر بنا اهتمامهم الجميم بالألوان وبخاصة اللونين الأبيض والأسود . « إن اللون يرتبط بالحياة فى الجسم الإنسانى ، وبالضوء فى السماء ، وبالنقاء والصلابة فى الأرض (١) » .

إن الشعراء السود فى الواقع لم يشغلوا أنفسهم بالمجردات ، ولم يكن عندهم وقت لتأمل ظواهر الوجود . فأغلب الذى كان يعنيهم ، هو كل مايتصل بوجودهم البائس فى العالم الذى يعيشون فيه ، سواء أكانوا فى حالة خوف ، أم حذر ، أم مصالحة مؤقتة ، وسواء أكتبوا « بالكاميرا » أم بالمرشاة .

وفى ضوء هذا وجدنا الكثير من صورهم مشحونا بتجاربهم الخاصة ، على نحو ما نعرف من الصور التى فى شعر عنترة والسليك وخفاف . كما رأينا عندهم صوراً خيالية يأتى بها الشاعر لكى يكسب المعنى امتلاء وخصوبة « تلك التى يجسم فيها الشاعر مشاعره فى تركيبة حسية موحية (٢) » كقول نصيب فى تلك القصيدة التى أولها :

كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح

وهم لم يكونوا فى الصور التى ينسجونها يتعمدونها لذاتها ، ولعل هذا كان وراء مايسمى بالوحدة الموضوعية فى كثير من شعرهم ، وبخاصة الشعراء المتقدمين منهم ، بالإضافة إلى الاقتراب من العضوية ، ذلك لأنهم كانوا يقدمون شعرهم حاراً ، ومتوتراً من غير مبالغة فى تحسين ، أو إغراق فى حذلقة .

. . .

ومع أنهم استخدموا الاستعارة بذكاء على نحو ماتجد عند كثير بن وبخاصة المتأخرين ، إلا أننا نحس أن مقدرتهم الحقيقية كانت فى التشبيه ،

---

(١) معنى الفن ٧٤ .
(٢) التفسير النفسى للأدب ٩١

فإذا أخذنا معلقة عنترة دليلا على هذا ، وجدنا أنه يشبه ناقته أو أطلال حبيبته بالقصر (البيت ٦) وشبه الإبل الحلوبة في سوادها وكثرتها بخوافي الغراب الأسود (١٥) وريح حبيبته بريح فارة المسك (١٨) وبريح الروضة الأنف (١٩) ، وتغريد الطيور في الروضة بترنم الشارب المترنم (٢٢) والذباب إذا سن إحدى ذراعيه بالأخرى برجل أجذم أقعد يقدح ناراً بذراعيه (٢٣) وشبه نفسه على ظهر الناقة بمن يكسر الآكام بخف ظليم صلب (٢٨) والنعام تستجيب للملك الظليم بجماعات الإبل تجتمع إذا أهاب بها الراعي (٢٩) وهذا الظليم كأنه مركب جعل خيمة فالنعام يحاذينه ليتظللن به (٣٠) وشبهه في صغر رأسه بالعبد الأسود (٣١) وشبه قوائم الناقة بدعائم الخيام (٣٥) وبالناقة من الحدة والنشاط . كأن هرا تحت إبطها ينهشها (٣٣) وشبه عرقها الذي يسيل من رأسها بالدبس والقطران جعل في قمقم وأشعلت تحته النار (٣٧) وظلمه غير المستساغ بالعلقم في مرارته (٤١) ورشاش الطعنة النافذة بالعندم في الحمرة (٤٧) ورأس القتيل وبنانه وقد جللتها الدماء كأنما خضبا بالعظلم (٦٤) ، وهو في طول قامته كالسرحة العظيمة (٦٥) وشبه جيد حبيبته بجيد الجداية (٦٩) وشبه الرماح بالحبال التي ترسل في البئر (٧٩) [1] .

ونحن نجد التركيز على التشبيه من خواص الشعراء السود ، ذلك : لأنهم يأخذون الأشياء من قريب ولأنهم يركزون على كل ماهو محسوس، بالإضافة إلى خلق نوع بسيط من التجسيم .

على أن الملاحظة العامة على التشبيه عندهم أنهم لايقصدون إليه لذاته وإنما لوظيفة تتخطى اليقظة الخارجية إلى اليقظة الباطنية : فهم حين ينقلون في براعة الذهن من شيء إلى آخر يشبهه أو صورة بارعة تجسمه لايقصدون إلى نفاسة المشبه والمشبه به ، ولا إلى المضاهاة بينهما من غير اهتمام بالشعور والتخيل ، فما يعنينا من الشاعر ألا يكون صحيح العين خبيراً بالمناظر

---

(١) معلقات العرب ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

المتشابهة، ذلك لأن الذي يعنينا منه تلك الحيوية التي تشعرنا بالدنيا، وتزيد حفظنا من الشعور بها [1] . فهم لفطروفهم بعيدون عن البهرج والتصنع ومن هنا كان التشبيه عندهم وسيلة وليس غاية . فإذا أكثروا منه فهذا لطبيعة حياتهم وحرصهم على التمرس وانعام النظر والقيقظة وإذا راكموا منه فذلك يرجع إلى ضيق دائرة الأشياء عندهم « ومن ثم كان أهل البدو والريف أقدر على التشبيه من الحضريين وسكان الأمصار [2] ». وإذا كانت العرب تشبه على أربعة أضرب : مفرط ، ومصيب ، ومقارب ، ويحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه [3] . فإنا نرى أن أغلب تشبيهاتهم ينتظمها المصيب والمقارب . وإذا كان العرب من أكثر خلق الله ابتكاراً للتشبيهات [4] فإن السود يجيئون في المقدمة . فهذا النوع من التجسيد — في إطار الحضارة الإسلامية — يعتبر إلى حد ما البديل عن اللوحة والتمثال .

من كل هذا ندرك ماذكره علماء الطباع من أن طغيان الصور على الفكر المجرد هو الخاصية التي تميز عقلية المنطوى على نفسه . وعقلية النازح بصفة خاصة [5] . ولا شك في أن هذا إلى حد كبير ينطبق على الشاعر الأسود . ونحن لاننسى أن نذكر أنهم لانفصالهم إلى حد ما عن الحركة العامة للمجتمع قد نما فيهم الاتجاه الحسى على نحو ماتعرف من الجماعات المنعزلة . ولعل هذا مثلا يفسر الاتجاهات الحسية عند الشيعة، وليس معنى هذا أنهم حولوا انفصالهم إلى نسيج من الصور فقط، أو أنهم اعتمدوا على الصورة المنمقة، ذلك لأنه إلى جانب التزامهم الحاد بقضيتهم الخاصة قد حافظوا على الإيقاع . ومن هنا كان هذا التوازن الذي يوجد

---

(١) ابن الرومى : العقاد ٣٠٨ .
(٢) خلاصة اليومية للعقاد ص ١٥ .
(٣) الصفوة ٥٧ .
(٤) الشعر الأندلسى ٩٣ .
(٥) الأدب الافريقى الأسيوى العدد ١ .

فى شعرهم ، ومن الطبيعى أن هذا الإيقاع كان إيقاع الحياة من حولهم ، وإيقاع أنفسهم ولغتهم والعصور التى عاشوا فيها ، وبعبارة موجزة لقد حافظوا بأصالة فى الشعر على تلك الحدة التى كانت فى العين والأذن معاً . وعلى حد تعبير العباس بن الأحنف حافظوا : على شهوات السمع والبصر .

ولعل هـــذا هو الذى جعلنا نقف بصفة خاصة عند صلتهم بالغناء والموسيقى والرقص . وكذلك كان لابد من وقفة عنـــد الصورة الشعرية عندهم . . فهاتان الخاصيتان هما من أهم الملامح عند الشعراء السود .

تم بحمد الله

فهـــــرس

الشـــعراء الذين تناولتهم الدراســة

الموضوع :	الصفحة

فهـــرس الموضـــوعات

الموضوع : الصفحة